



مِنَ الآيةِ ١٦١ مِنْ سورَةِ البَقرةِ ـ إلى نهايةِ سورَةِ البَقرةِ

تأليف

الأستاذ الدكتور فضل عبّاس

إشراف

الأستاذ عمر خليل يوسف

المراجعة العلمية

الأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر



هاتف: 5698308 - فاكس: 5639185 ص.ب: 926428 - عمان 11190 الأردن

http://www.dmanhal.com

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٦/٤/٩٢٦)

٢٢٢,٦
عباس، فضل حسن
التفسير المنهجي: الآية ١٦١ من سورة البقرة
إلى آخر السورة / فضل حسن عباس. عمان: دار المنهل، ٢٠٠٦

(٢٣٤) ص (سلسلة القرآن الكريم؛ ٢)
ر.إ: (٢٠٠٦/٤/٩٢٦).
الواصفات: / تفاسير القرآن// القرآن // سور القرآن // الآيات القرآنية /

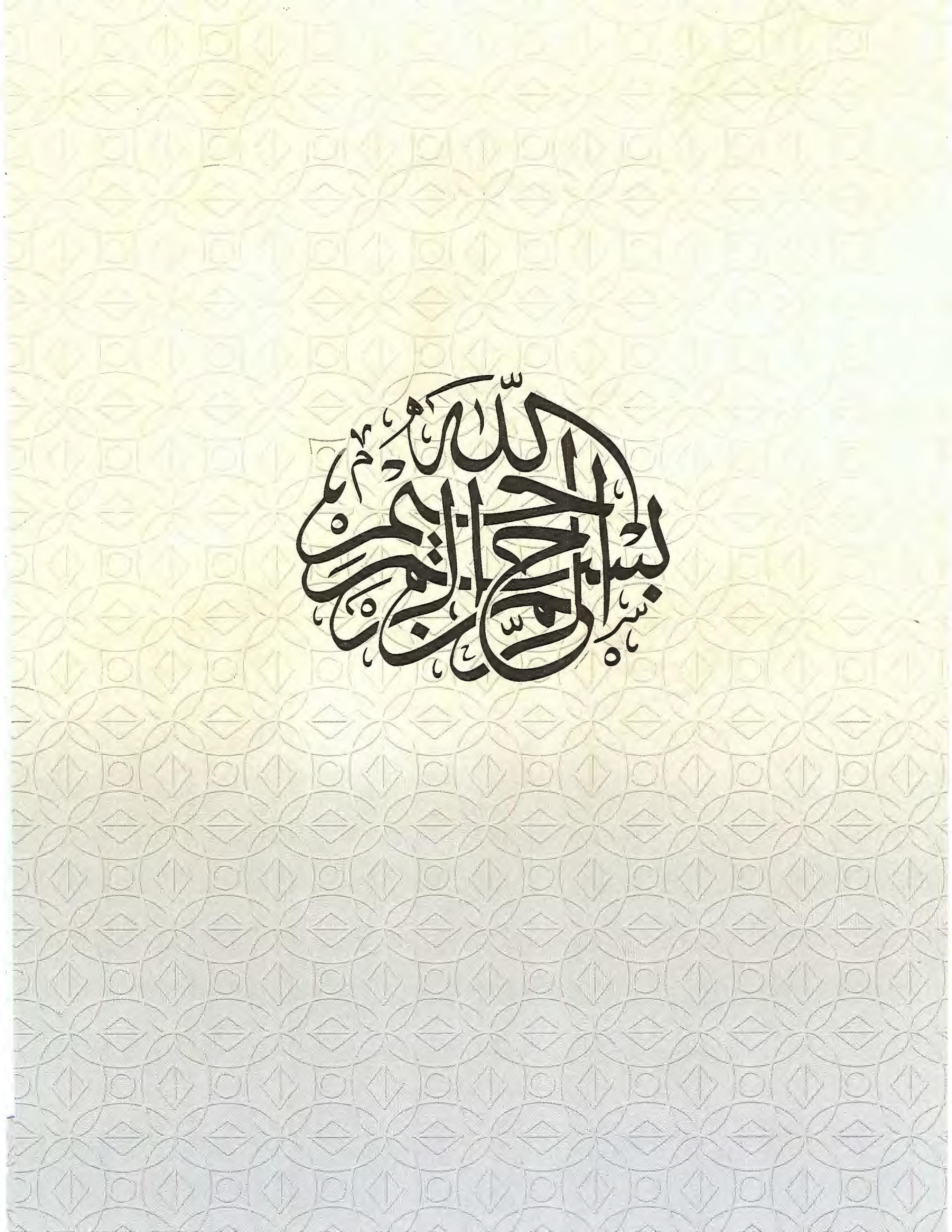
* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف

الطبعة الأولى
2006

رقم الإجازة: 2006 / 4 / 1030
رقم الإيداع: 2006 / 4 / 926
التصنيف الدولي: 9957-08-515-1

مؤلفو السلسلة

- الأستاذ الدكتور فضل عباس
- الدكتور أحمد نوفل
- الدكتور صلاح الخالدي
- الأستاذ الدكتور أحمد شكري
- الدكتور جمال أبو حسّان


بسم الله الرحمن الرحيم

قائمة المحتويات

رَقْمُ الدَّرْسِ	عُنوانُ الدَّرْسِ	رَقْمُ الصَّفْحَةِ
الدَّرْسُ الأَوَّلُ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السَّابِعُ والأَرْبَعونَ	٩
الدَّرْسُ الثّاني	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والأَرْبَعونَ	١٤
الدَّرْسُ الثّالِثُ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ التّاسِعُ والأَرْبَعونَ	١٩
الدَّرْسُ الرّابِعُ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الْخَمْسونَ	٢٤
الدَّرْسُ الخامِسُ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الحادي والخَمْسُونَ	٣٠
الدَّرْسُ السّادِسُ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّاني والخَمْسونَ	٣٦
الدَّرْسُ السّابِعُ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ والخَمْسونَ	٤١
الدَّرْسُ الثّامِنُ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الرّابِعُ والخَمْسونَ	٤٥
الدَّرْسُ التّاسِعُ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والخَمْسونَ	٥١
الدَّرْسُ العاشِرُ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السّادسُ والخَمْسونَ	٥٨
الدَّرْسُ الحادي عَشَرَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السّابِعُ والخَمْسونَ	٦٣
الدَّرْسُ الثّاني عَشَرَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والخَمْسونَ	٦٩
الدَّرْسُ الثّالِثَ عَشَرَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ التاسِعُ والخَمْسونَ	٧٥
الدَّرْسُ الرّابِعَ عَشَرَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السّتونَ	٨١
الدَّرْسُ الخامِسَ عَشَرَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الْحادي والسّتونَ	٨٦
الدَّرْسُ السّادِسَ عَشَرَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّاني والسّتونَ	٩١
الدَّرْسُ السّابِعَ عَشَرَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ والسّتونَ	٩٦
الدَّرْسُ الثّامِنَ عَشَرَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الرّابِعُ والسّتونَ	١٠١
الدَّرْسُ التّاسِعَ عَشَرَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والسّتونَ	١٠٥
الدَّرْسُ العِشْرونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السادِسُ والسّتونَ	١١١
الدَّرْسُ الحادي والعِشْرونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السّابِعُ والسّتونَ	١١٨
الدَّرْسُ الثّاني والعِشْرونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والسّتونَ	١٢٤
الدَّرْسُ الثّالِثُ والعِشْرونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ التّاسِعُ والسّتونَ	١٢٩

قائمة المحتويات

رَقْمُ الدَّرْسِ	عُنْوانُ الدَّرْسِ	رَقْمُ الصَّفْحَةِ
الدَّرْسُ الرَّابِعُ والعِشْرونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السَّبْعونَ	١٣٦
الدَّرْسُ الخامِسُ والعِشْرونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الحادي والسَّبْعونَ	١٤٠
الدَّرْسُ السَّادِسُ والعِشْرونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّاني وَالسَّبْعونَ	١٤٦
الدَّرْسُ السَّابِعُ والعِشْرونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّالِثُ والسَّبْعونَ	١٥٢
الدَّرْسُ الثَّامِنُ والعِشْرونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الرَّابِعُ والسَّبْعونَ	١٥٧
الدَّرْسُ التَّاسِعُ والعِشْرونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والسَّبْعونَ	١٦١
الدَّرْسُ الثَّلاثونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ والسَّبْعونَ	١٥
الدَّرْسُ الحادي والثَّلاثونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السّابِعُ والسَّبْعونَ	١٦٩
الدَّرْسُ الثّاني والثَّلاثونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّامِنُ والسَّبعونَ	١٧٣
الدَّرْسُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ التَّاسِعُ والسَّبْعونَ	١٧٧
الدَّرْسُ الرَّابِعُ والثَّلاثونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّمانونَ	١٨٣
الدَّرْسُ الخامِسُ والثَّلاثونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الحادي والثَّمانونَ	١٨٦
الدَّرْسُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثاني وَالثَّمانونَ	١٩٠
الدَّرْسُ السَّابِعُ والثَّلاثونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّالِثُ وَالثَّمانونَ	١٩٤
الدَّرْسُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الرَّابِعُ والثَّمانونَ	١٩٨
الدَّرْسُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الخَامِسُ والثَّمانونَ	٢٠٢
الدَّرْسُ الأَرْبَعونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السادسُ والثمانونَ	٢٠٧
الدَّرْسُ الحادي والأَرْبَعونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السابِعُ والثَّمانونَ	٢١٢
الدَّرْسُ الثّاني والأَرْبَعونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّامِنُ والثَّمانونَ	٢١٦
الدَّرْسُ الثَّالِثُ والأَرْبَعونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ التَّاسِعُ وَالثَّمانونَ	٢٢١
الدَّرْسُ الرَّابِعُ والأَرْبَعونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ التِّسْعونَ	٢٢٦
الدَّرْسُ الخامِسُ والأَرْبَعونَ	سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الحادي وَالتِّسْعونَ	٢٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقدِّمَةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصّلاةُ والسّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ خاتمِ الأنبياءِ والمُرْسَلينَ ، وعلى آلهِ وصَحْبهِ ومن سارَ على دربهِ إلى يومِ الدينِ ، وبعدُ ،

فإنَّ القرآنَ الكريمَ هُوَ كلامُ اللهِ المُعجزُ ، أنزلَهُ على نبيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ ؛ ليُخْرِجَ به الناسَ من الظُّلُماتِ إلى النّورِ ، ويَهدِيَهُم به إلى كلِّ خيرٍ ورشادٍ ، كما قالَ سبحانَهُ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم : ١) ، وقالَ تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة : ١٥-١٦) .

وقد وردَ في عَدَدٍ مِنَ الأحاديثِ الحثُّ على تعلُّمِ القرآنِ ومُدارَستِهِ ، ومِنْ ذلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : خيرُكُمْ مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ[1] ، وقولُهُ : « وما اجتمعَ قومٌ في بَيتٍ من بُيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وَيتدارَسُونَهُ بينَهم إلاَّ نَزلتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ ، وحفَّتْهُم الملائكةُ ، وذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »[2] .

وقد بَذلَ المُسلِمُونَ على مرِّ العُصورِ جُهوداً كثيرةً مُتَوالِيَةً في خِدْمةِ هذا الكِتابِ العزيزِ ، ومِنْ بينِ هذه الجهودِ ما يتعَلّقُ بتبيينِ مَعاني الآياتِ وتَفْسيرها ، وكانَ لكلِّ تفسيرٍ مِيزَتُهُ وخَصائِصُهُ .

ومِيزةُ هذا التفسيرِ أنَّه أُعِدَّ ليكونَ مِنْهاجاً للتَّدْريسِ في المَدارسِ التي تلتزمُ في مِنْهاجِها تدريسَ الطلبةِ تفسيرَ القرآنِ الكريمِ كاملاً ، والتزمَ مُؤَلِّفُوهُ السَّيْرَ على نَمَطٍ مُتقارَبٍ مُتدرِّجٍ ، وفيما يلي أَهمُّ النِّقاطِ التي تمَّ الالتزامُ بها :

* اختيارُ العبارةِ السَّهْلَةِ الواضِحَةِ بمايتناسبُ مَعَ أَعمارِ الطَّلَبَةِ ومستوياتِهم .
* بَدْءُ كلِّ درسٍ بتبيينِ مَعاني المفرداتِ والتراكيبِ التي يحتاجُ الطلبةُ إلى معرفَتِها .
* التَّعْريفُ بالسُّورَةِ بإيجازٍ قبلَ الشروعِ في تفسيرِها .

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، رقم الحديث (٤٦٣٩) .
(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار رقم الحديث (٤٨٦٧) .

* تفسيرُ الآياتِ بصورةٍ معتدلةٍ وبعبارةٍ قريبةٍ مباشرةٍ .

* الرَّبْطُ بينَ آياتِ الدَّرْسِ السَّابقِ والتَّالِي .

* اختيارُ القولِ الرَّاجحِ في معنى الآيةِ ، وعدمُ إشغالِ الطلبةِ بالأقوالِ المتعدِّدةِ أو الضعيفةِ .

* الالتزامُ بمنهَجِ السَّلَفِ في تَفسيرِ آياتِ الصِّفاتِ .

* إغْناءُ كُلِّ درسٍ بعدَدٍ مِنَ الأنشطةِ المناسبةِ ذاتِ الصِّلَةِ بالآياتِ لِحَفْزِ الطالبِ على البحثِ والتفكيرِ وترسيخِ المعلومةِ في ذهنهِ ، ولذا فالمأمولُ من السَّادَةِ المدرسينَ ، ومِنَ الطلبةِ ، الاعتناءُ بهذه الأنشطةِ وعدمُ إهمالِها ، ومُناقشةُ ما يتمُّ التوصُّلُ إليهِ في الفصلِ أَو طابورِ الصباحِ أو تعليقُهُ في مجلَّةِ المدرسةِ .

* إتْباعُ كلِّ دَرْسٍ بعدَدٍ من العِبَرِ والدروسِ المُستنْبَطَةِ من الآياتِ الكريمةِ ، والمأمولُ من المدرِّسِ والطالبِ قراءةُ هذه العِبَرِ والرَّبْطُ بينها وبينَ الآيةِ التي استُنْبِطَتْ منها ، والحرصُ على الإفادةِ منها في تقويمِ السُّلوكِ وتنميةِ التفكيرِ وترسيخِ القِيَمِ الإسلاميةِ التي تضمَّنَتْها .

* خَتْمُ كُلِّ دَرْسٍ بعددٍ من الأسئلةِ المتنوِّعةِ التي تهدِفُ إلى تقويمِ الطالبِ وتبيينِ مقدارِ استيعابِهِ للدَّرسِ وحَفزِهِ على البحثِ عن الإجابةِ لِلأَسئلَةِ في مظانِّها .

* تذييلُ بعضِ الدُّروسِ بفائدةٍ أو رِوَايةٍ أو حادثةٍ أو حديثٍ له صلةٌ بموضوعِ الدَّرْسِ بهدَفِ إِمْتاعِ القارىءِ وإفادتِهِ بهذه المَعْلومةِ .

* تَخْريجُ الأحاديثِ النَّبَوِيَّةِ ورواياتِ أَسْبابِ النُّزولِ ، والحرصُ على الاقتصارِ على الصَّحيحِ من رواياتِ الأحاديث .

واللهَ تعالى نَسأَلُ أن يَجْعلَ هذا العملَ خالصاً لِوَجْهِهِ الكريمِ ، وأَنْ يَنْفَعَ به ، وأَنْ يتقَّبلَهُ بقَبُولٍ حَسَنٍ ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

* * *

الدَّرْسُ الأَوَّلُ

سورةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ السَّابِعُ والأَرْبَعونَ

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يُنْظَرونَ : يُمْهَلونَ .

اخْتِلافِ اللّيلِ والنَّهارِ : تعاقُبُهُما .

الفُلْكِ : السُّفُنِ .

تَصْريفِ الرِّياحِ : تَوْجيهِها .

التَّفسيرُ :

بَيَّنَتِ الآياتُ السّابِقَةُ أَنَّ الكافِرينَ الّذينَ يَكْتُمونَ آياتِ اللهِ تَعالى اسْتَحَقّوا اللَّعْنَةَ مِنَ اللهِ تَعالى ، ومِنَ اللّاعِنينَ ، واسْتَثْنَتِ الّذينَ تابوا إلى اللهِ تَوْبَةً صادِقَةً وأَصْلَحوا بالعَمَلِ الصالِحِ ، وَبَيّنوا للنّاسِ ما كانوا يَكْتُمونَهُ . وَبَيَّنَتْ هذهِ الآياتُ أَنَّ اللَّعْنَ الأَبَدِيَّ الّذي يُخلِّدُ صاحِبَهُ في نارِ جَهنَّمَ ، لا يَكونُ إلاّ لِمَنْ ماتَ كافِراً ، قالَ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ أُولئكَ الّذينَ كَتَموا الحَقَّ وصَفَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بالكُفْرِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وَصَفَهُمْ بِأَشْنَعِ وصْفٍ وهو الكُفْرُ ، ولِيَدْخُلَ في الحُكْمِ كُلُّ كافرٍ ، هَؤلاءِ الَّذينَ كَفَروا ﴿ وماتوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ و هِيَ جُمْلَةٌ حاليةٌ ، أيْ : ظَلّوا على كُفْرِهِمْ حتّى المَوْتِ ، اسْتَحَقّوا بذلِكَ لَعْنَةَ اللهِ تَعالى والطَّرْدَ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعالى ، واسْتَحَقّوا كَذلكَ لَعْنَةَ الملائكَةِ ﴿ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ والمَقصودُ بالنّاسِ مُؤْمِنُهُمْ وكافِرُهُمْ ، إذْ إنَّ الكُفّارَ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً يَوْمَ القيامةِ .

والسِّرُّ في ذِكْرِ لَعْنَةِ المَلائِكَةِ والنّاسِ ، مَعَ أنَّ لَعْنَةَ اللهِ تعالى تَكْفي لِخِزْيِهِمْ وذُلِّهِمْ ، هو بيانُ أنَّ جَميعَ مَنْ يَعْلَمُ أحْوالَ هَؤلاءِ الكافِرينَ مِنَ العوالِمِ العُلْوِيَّةِ ـ وهُمُ المَلائِكَةُ ـ والعوالِمِ السُّفْلِيَّةِ ـ وهُمُ النّاسُ أجْمَعونَ ـ يَراهُمْ مَحلاًّ لِلَعْنَةِ اللهِ تَعالى ومَقْتِهِ ، فلا يَرْأَفُ لِحالِهِمْ ، ولا يَشْفَعُ لَهُمْ شافِعٌ ، فَهُمْ قَدِ اسْتَحقّوا اللَّعْنَ ، عِنْدَ جَميعِ مَنْ يَعْقِلُ ويَعْلَمُ . أُولَئِكَ اسْتَحقّوا اللّعنَ خالِدينَ وماكِثينَ في هَذهِ اللَّعْنَةِ ، ومَتى خَلَدوا ومَكَثوا في نارِ جَهَنَّمَ ، لا يَسْتَطيعونَ الخَلاصَ مِنْ نارِها وحَرِّها ولَهيبِها وعَذابِها ، ولا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ هَذا العذابِ أبَداً ، ولا هُمْ كَذلِكَ يُنْظَرونَ ، بِمَعْنى : يُمْهَلونَ لِيَتوبوا ويَعْمَلوا صالِحَ الأعْمالِ ، فإنَّ الكُفْرَ الّذي اسْتَحَقّوا بهِ هذا العَذابَ هُوَ نَتيجَةُ ما اكْتَسَبوا مِنْ جِنايةٍ على الحَقِّ ، وتَدْسيَةِ النَّفْسِ وعَدَمِ تَزْكِيَتِها .

وبذلكَ تَكونُ الآياتُ الكريمةُ قَدْ حَذَّرَتْ مِنْ كِتْمانِ الحَقِّ ، والكُفْرِ باللهِ تَعالى ، وفَتَحَتْ أبْوابَ التَّوْبَةِ أمامَ النّاسِ ، لِيُقْبِلوا على اللهِ تَعالى تائبينَ ، صادِقينَ في نِيّاتِهِمْ . وانْتَقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتُبَيِّنَ أنَّ الّذي شَرَعَ هذا الدّينَ ، الّذي كَفَرَ بهِ أولئِكَ هُوَ إلهٌ واحِدٌ لا مَعْبودَ سِواهُ ، ولا يَنْبغي أنْ تُكْتَمَ هِدايَتُهُ لِلْبَشَرِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي : إلهُكُمْ وَمَعبودُكُمُ الّذي يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ هو إلهٌ واحِدٌ ، لا إلهَ مُسْتَحِقٌّ لَها إلاّ هُوَ الرَّحمنُ الرَّحيمُ ، فَهُوَ المُنْعِمُ بِجلائِلِ النِّعَمِ ، وهُوَ مُديمُ هذِهِ النِّعَمِ ، بحيثُ لا تَنْتَهي ، فَعَلَيْكُمْ أنْ لا تُشْرِكوا مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ .

والشِّرْكُ نَوْعانِ :

١ـ شِرْكٌ في الأُلوهيَّةِ والعِبادَةِ ، وذَلِكَ بِأنْ يَعْتَقِدَ الإنسانُ أنَّ في الخَلْقِ مَنْ يُشارِكُ اللهَ ويُعينُهُ في أفْعالِهِ ، فَيتوجَّهُ إليهِ في الدُّعاءِ مَعَ اللهِ ، أو يَدْعوهُ مِنْ دونِ اللهِ .

٢ـ شِرْكٌ مِنْ تَحليلٍ وتَحريمٍ مِنْ غَيْرِ كِتابِ اللهِ ، كَما قالَ تَعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] .

وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ هَذيْنِ الوَصْفَيْنِ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بَعْدَ ذِكْرِ الوَحْدانِيَّةِ ، وذَلِكَ لأنَّ السّامِعَ يَحْضُرُ في ذِهنِهِ مَعنى الغَلَبَةِ والقَهْرِ وسَعَةِ المَقْدِرَةِ عِنْدَ سَماعِهِ ﴿إِلَهٌ واحِدٌ﴾ مِمّا يَجْعَلُ قَلْبَهُ في هَيْبَةٍ وخَشْيَةٍ . ذَكَرَ سُبحانَهُ ما يَدُلُّ على عَظَمَتِهِ وسُلْطانِهِ ثمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُ ما يَدُلُّ على إحسانِهِ بالخَلْقِ ورَأْفَتِهِ بِهِمْ فَهُوَ الرَّحْمنُ الرَّحيمُ .

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبيّنَ لَنا بَعْضَ الآياتِ الكَوْنِيَّةِ الدّالَّةِ على وَحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ لِتَكونَ بُرْهاناً لِمَنْ يَعْقِلُ ، وهذهِ الأَدِلَّةُ المُشاهَدَةُ هِيَ :

١ـ خَلْقُ السّماواتِ : هذهِ السّماوَاتُ رَفَعَها سُبْحانَهُ وتَعالى بِغَيْرِ عَمَدٍ ، وَزيَّنها بالمَصابيحِ الّتي جَعَلَها رُجوماً للشَّياطينِ ، وخَلَقَ فيها تِلْكَ الشَّمْسَ والقَمَرَ ، تِلْكَ الشَّمسَ الَّتي فاضَتْ أَنْوارُها على الأَرْضِ فَكانَتْ سَبَباً لِحياةِ الكائناتِ الحَيَّةِ .

٢ـ خَلْقُ الأَرْضِ : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٠] فَهِيَ في جِرْمِها ومادَّتها وشَكْلِها وعَوالِمِها المُختلِفَةِ مِنْ جَمادٍ ونَباتٍ وحَيوانٍ ، لِكُلٍّ مِنْها نِظامٌ عَجيبٌ .

٣ـ اخْتِلافُ اللّيلِ والنَّهارِ : بمعنى تَعاقُبُهُما ، حَيْثُ يَجيءُ كُلُّ واحِدٍ ويُذْهِبُ الآخَرَ ، ويَطولُ هَذا ، ويَقْصُرُ ذاكَ ، تَبَعاً لاخْتِلافِ المطالِعِ صَيْفاً وشِتاءً ، وكذلِكَ تَخْتَلِفُ الفُصولُ باخْتِلافِ هذهِ المَطالِعِ .

وَقَدْ ذُكِرَتْ هذهِ الآيَةُ بَعْدَ ذِكْرِ خَلْقِ السّماواتِ والأَرْضِ ، وذلِكَ لأَنَّ اخْتِلافَ اللّيْلِ والنّهارِ ناتِجٌ عَنْ مُقابَلَةِ الأَرْضِ للشَّمْسِ وحَرَكَتِها حَوْلَها .

٤ـ الفُلْكُ الّتي تَجْري في البَحْرِ بما يَنْفَعُ النّاسَ : وهِيَ السُّفُنُ ، وقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ هذهِ الآيَةَ هُنا بَعْدَ ذِكْرِ اخْتِلافِ اللّيلِ والنَّهارِ ، وذَلِكَ لأَنَّ المُسافِرينَ في البَحْرِ هُمْ أَشَدُّ النّاسِ حاجَةً إلى تَحديدِ تَعاقُبِ اللّيلِ والنَّهارِ ، وهُمْ أَحْوَجُ النّاسِ إلى مَعْرِفَةِ الأَوْقاتِ وتَحديدِ الجِهاتِ ، لأَنَّهُمْ إنْ جَهلوا هذا الأَمْرَ أَحاطَ بِهِمْ خَطَرٌ شَديدٌ ، ولِذلِكَ كانَ مِنَ الضَّروريِّ لِرُبّانِ السَّفينَةِ أَنْ يَكونَ على مَعْرِفَةٍ وإطّلاعٍ بما يُسَمّى (عِلْمَ النُّجوم) .

وهَذِهِ السُّفُنُ تَسيرُ في البَحْرِ ، لِيَنْتَفِعَ النّاسُ بها في تِجاراتِهِمْ وأَسْفارِهِمْ . إنَّ هَذِهِ السُّفُنَ هِيَ مِنْ صُنْعِ الإنْسانِ ، ولكنَّ اللهَ تَعالى هُوَ الّذي خَلَقَ تِلْكَ الأَجْزاءَ الّتي صُنِعَتْ مِنْها السُّفُنُ ، وهُوَ الّذي يُسَخِّرُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ فيهِ السُّفُنُ مُقْبِلَةً ومُدْبِرَةً ، مَعَ شِدَّةِ أَهْوالِهِ إذا هاجَ وماجَ ، وهُوَ الّذي جَعَلَ

السُفُنَ تَشُقُّ الأَمْواجَ وتَصِلُ بِأَهْلِها إلى بَرِّ السَّلامِ بإذنِ اللهِ تَعالى .

٥ـ ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ ﴾ : فَهُوَ سُبْحانَهُ الّذي يُنْزِلُ الماءَ مِنَ السَّماءِ ؛ هذا الماءَ الّذي يَتوالَدُ مِنْ تَصاعُدِ بُخارِ الماءِ بِوساطَةِ الماءِ مِنْ خِلالِها بإذنِ اللهِ ، ويكونُ هذا الماءُ سَبَباً في حَياةِ الأَرْضِ الّتي كانَتْ مَيْتَةً جَدْباءَ ، فَيَنْبُتُ فيها النَّباتُ ، وتَأْتيها الحيواناتُ لِتَأْكُلَ مِنْ نَباتِها . وهَذا كُلُّهُ مِنْ أَعْظَمِ الأَدِلَّةِ على وَحْدانِيَّةِ المُبْدِعِ سُبْحانَهُ وتَعالى . قالَ تَعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

٦ـ ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ﴾ أيْ : تَوْجيهِ الرّياحِ بِحَسَبِ الإرادَةِ الإلهيَّةِ وِفْقَ السُّنَنِ الكَوْنِيَّةِ ، فَمِنْ هذِهِ الرّياحِ ما يُصَرِّفُها اللهُ لِتَلْقيحِ النَّباتاتِ ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر : ٢٢] ، ومِنْها الرّيحُ العَقيمُ ، وَقَدْ تَهُبُّ الرّيحُ مِنْ جِهَةٍ واحِدةٍ ، وقَدْ تَهُبُّ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ جِهةٍ ، وقَدْ تَكونُ سَبَباً في الدَّمارِ فَتكونُ ريحَ شَرٍّ ، وقَدْ تَكونُ رِياحَ بُشْرى وخَيْرٍ .

٧ـ ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : الغَيْمِ الّذي ذُلِّلَ لإِنْزالِ المَطَرِ ، وقَدْ ذُكِرَتْ هَذِهِ الآيَةُ بَعْدَ ذِكْرِ تَصْريفِ الرّياحِ ، لأَنَّ الرِّياحَ هِيَ الّتي تُثيرُ السَّحابَ وتَجْمَعُهُ وتَسوقُهُ إلى المكانِ الّذي يُريدُ اللهُ إنْزالَ المَطَرِ عَلَيْهِ ، فَتكونُ هذِهِ السُّحُبُ بهذا الشَّكْلِ البَديعِ الّذي نَراهُ آيَةً عَظيمةً تَدُلُّ على وَحدانِيَّةِ اللهِ تَعالى .

هَذِهِ الآياتُ كُلُّها والظَّواهِرُ ، فيها العِبَرُ والمَواعِظُ لِمَنْ كانَ يَعْقِلُ ويَتدبَّرُ ، ويُدرِكُ أَسْرارَ هذا الكَوْنِ ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الضّارِ والنّافِعِ ، وَيَسْتَدِلُّ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى مِمّا يَراهُ في الكَوْنِ مِنْ إتْقانٍ وإحْكامٍ ، فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مَتى ماتَ الإنْسانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ ، وحُرِمَ مِنَ الرُّجوعِ إلى الحَقِّ ، ومِنْ تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ ، واسْتَحَقَّ الخُلودَ في النّارِ ، إنْ ماتَ كافِراً ، ولِذا على العاقِلِ أنْ يُبادِرَ إلى التَّوْبَةِ وعَمَلِ الخَيْرِ .

٢ـ الآياتُ المَبْثوثَةُ في هَذا الكَوْنِ الفَسيحِ كُلُّها ناطِقَةٌ بِوَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، لِما فيها مِنْ إحْكامٍ وإبْداعٍ وإتْقانٍ ، والعاقِلُ مَنْ تَدَبَّرَ وآمَنَ ، والجاهِلُ مَنْ أَدْبَرَ وغَفِلَ وكَفَرَ .



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لماذا وَصَفَتِ الآياتُ الّذينَ كَتَموا الحَقَّ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ؟

٢ـ ما نَتيجةُ كُفْرِ الكافِرينَ ؟

٣ـ لِمَ ذَكَرتِ الآياتُ لَعْنَةَ الملائِكَةِ والنّاسِ ، مَعَ أنَّ لَعْنَةَ اللهِ كافيةٌ لإذْلالِهِمْ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بالنّاسِ ؟ هَلْ هُمُ المُؤمِنونَ أمِ الكافِرونَ ؟

٥ـ بَيِّنْ أنْواعَ الشِّرْكِ باللهِ تَعالى .

٦ـ لِماذا ذُكِرَ وصْفُ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بَعْدَ وَصْفِ الوَحْدانِيَّةِ ؟

٧ـ ذَكرتِ الآياتُ بَعْضَ الدّلائِلِ الكَوْنيّةِ على وَحْدانِيّةِ اللهِ تَعالى . عدِّدْ هذهِ الآياتِ .

٨ـ بَيِّنْ سِرَّ تَرتيبِ هذهِ الآياتِ ، ولِماذا جاءَتْ بِهذا التّرتيبِ البَديعِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الّتي تُبيِّنُ أنَّ الكافِرينَ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً واسْمَ السّورَةِ ورَقمَ الآيةِ .

٢ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ ما يَدُلُّ على وَحدانِيَّةِ اللهِ ممّا تَراهُ على هَذهِ الأرْضِ .

٣ـ كَثُرَ الحَديثُ عَنِ اللّيلِ والنَّهارِ في كِتابِ اللهِ تَعالى . اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ثلاثَ آياتٍ مَعَ ذِكْرِ مَواضِعِها في القُرآنِ .

٤ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الدُّعاءَ الّذي عَلَّمَنا إيّاهُ رَسولُنا ﷺ عِنْدَ هُبوبِ الرّيحِ .

٥ـ اجْمَعْ بَعْضَ المَشاهِدِ الكَوْنيّةِ الدالَّةِ على قُدْرَةِ اللهِ وَوَحدانِيَّتِهِ ، وضَعْها في مَجلةِ الحائِطِ في مَدرَسَتِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والأَرْبَعونَ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ
وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ
ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟
لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا
هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَنْداداً	: أَمْثالاً مِنَ الأَوْثانِ يَعْبُدونَها مِنْ دونِ اللهِ .
تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ	: تَفَكَّكتِ الرَّوابِطُ الّتي كانَتْ بَيْنَهُمْ في الدُّنْيا .
كَرَّةً	: عَوْدَةً إلى الدُّنْيا .
حَسَراتٍ	: جَمْعُ حَسْرَةٍ ، وهي : النَّدَمُ الشَّديدُ .

التَّفْسيرُ :

ذَكَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ بَعْضَ الأَدِلَّةِ على وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، تِلْكَ الأَدِلَّةَ الّتي يَتَفَكَّرُ بِها العاقِلونَ وَيَتَدَبَّرونَها ، أَمّا غَيْرُهُمْ فَهُمْ يُعْرِضونَ عَنْها ويَغْفَلونَ ولا يَتَدبَّرونَ .

وهذِهِ الآياتُ جاءَتْ لِتُبَيِّنَ حالَ الّذينَ لا يَعْقِلونَ الآياتِ ، ولا يَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ اللهِ تَعالى ، فَكَفَروا بهِ وَعَبدوا غَيْرَهُ . قال تَعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ أيْ : مِنَ النّاسِ مَنْ لا يَعقِلُ تِلْكَ الآياتِ الّتي تَدُلُّ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى وقُدْرَتِهِ ، وَقَدْ بَلَغَتْ بِهِمُ الجَهالَةُ والسُّخْفُ ، أَنَّهُمْ يَتَّخِذونَ مِنْ دونِ اللهِ أَنْداداً ، أي : يَخْضَعونَ لِمَخْلوقاتٍ يَدَّعونَ أَنَّها مُماثِلَةٌ ومُشابِهَةٌ للهِ تَعالى ـ تَعالى اللهُ عمّا يَقولونَ عُلوّاً كَبيراً ـ في النَّفْعِ والضَّرِ ، فَهُمْ يُحبُّونَ ويُعَظِّمونَ تِلْكَ المَخلوقاتِ ويُسَوّونَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ تَعالى في الطّاعَةِ والتَّعظيمِ ، وَيَتقرَّبونَ إلَيْها ، وقَدْ كانَ المُشْرِكونَ كَما تُحَدِّثُنا الآياتُ القُرْآنيَّةُ يَعْتَقِدونَ بأَنَّ اللهَ تَعالى هُوَ المُنْفَرِدُ بالخَلْقِ والتَّدبيرِ ، ولَكِنَّهُمْ يَجْعَلونَ الأَنْدادَ وُسَطاءَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ اللهِ تعالى ، بِحَيْثُ يُقرِّبونَهُمْ إلى اللهِ تَعالى ، ويَشْفَعونَ لَهُمْ عِنْدَهُ ، وَيَقْضونَ حاجاتِهِمْ .

والأَنْدادُ لَيْسَتِ الأَصْنامَ والأَوثانَ وَحْدَها ، ولَكِنَّها تَشْمَلُ الرُّؤَساءَ الّذينَ يَخْضَعُ لَهُمْ بَعْضُ النّاسِ خُضوعاً دينيّاً . فالنِّدُّ هوَ المَثيلُ الّذي يُطْلَبُ منهُ ما لا يُطْلَبُ إلاّ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، أو يُؤْخَذُ عَنْهُ ما لا يُؤْخَذُ إلاّ مِنَ اللهِ تَعالى .

هَؤلاءِ المُشْرِكونَ يُحِبُّونَ الأَنْدادَ كَحُبِّهِمْ للهِ تَعالى ، ولَكِنَّ المُؤْمِنَ أَشَدُّ حُبّاً للهِ تَعالى ، إذْ إنَّ مِنْ أَسْبابِ الحُبِّ اعْتِقادُ المُحِبِّ أَنَّ في المَحبوبِ قُدْرَةً فَوْقَ قُدْرَتِهِ ، مَعَ ثِقَتِهِ بأَنّهُ يَهْتَمُّ لأَمْرِهِ ويَعْطِفُ عَلَيْهِ ، بحيْثُ يَلْجَأُ إليهِ عِنْدَ الحاجَةِ ويَستعينُ بهِ ، والمُؤمِنونَ يُؤْمِنونَ بِقُوَّةِ الخالِقِ وقُدْرَتِهِ ، ويَعْتَقِدونَ بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ الشامِلَةِ ، والصِّفاتِ الكامِلةِ ، والمَشيئَةِ النّافِذَةِ ، والتَّصَرُّفِ المُطْلَقِ في تَسْخيرِ الأَسْبابِ والمُسَبِّباتِ ، وهَذا كُلُّهُ يَجْعَلُ حُبَّهُمْ للهِ تَعالى أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ حُبٍّ ، فهو حُبٌّ خاصٌّ بهِ سُبْحانَهُ لا يُشْرِكونَ فيهِ غَيْرَهُ ، وهُوَ حُبٌّ ثابِتٌ ، أَمّا المُشْرِكونَ فَهُمْ يُشْرِكونَ معَ اللهِ أَنْداداً يُحِبّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، ثُمَّ إنَّ حُبَّهُمْ هَذا مُتَزَعْزِعٌ لا ثَباتَ فيهِ .

ثُمَّ انْتَقَلَتِ الآياتُ للتَّحَدُّثِ عَنْ وَعيدِ أُولئِكَ الّذينَ اتَّخذوا الأَنْدادَ :

﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ أيْ : لوْ يَرى أُولئِكَ المُشْرِكونَ حينَ يُشاهِدونَ العَذابَ الّذي أَعَدَّهُ اللهُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، أَنَّ القُدْرَةَ كُلَّها للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وأَنَّ الأَنْدادَ لَمْ تَفعَلْ لَهُمْ شَيْئاً ، وأَنَّ عَذابَهُ الّذي يُصيبُ بِهِ المُتَخبِّطينَ في ظُلُماتِ الشِّرْكِ شَديدٌ ، لَوْ يَعْلَمونَ ذلِكَ لَرَأَوْا ما لا يوصَفُ مِنَ الأَهْوالِ والشَّدائِدِ ، ولَتَحَسَّروا ولَندِموا أَشَّدَ النَّدَمِ ، فَجَوابُ (لَوْ) الشَّرْطِيَّةِ مَحذوفٌ في الكلامِ لِتَذْهَبَ النَّفْسُ في تَقديرِهِ كُلَّ مذْهَبٍ .

إنَّ هؤلاءِ المُشْرِكينَ سَوْفَ يَعْلمونَ أَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَ عَنْهُمْ أَحَدٌ مِنَ اللهِ شيْئاً يَوْمَ القِيامَةِ ، فالقُوَّةُ للهِ تَعالى ، وَلَنْ تَنْفَعَهُمُ الأَنْدادُ ولَنْ تُخَفِّفَ عَنْهُمُ العَذابَ ، ولَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ شَفيعٌ ، إنّهُمْ لَوْ رأَوْا العَذابَ لَعَلِموا أَنَّ هذِهِ القُوَّةَ الّتي تُدَبِّرُ عالَمَ الآخِرَةِ ، هِيَ عَيْنُ القُوَّةِ الّتي تُدَبِّرُ عالَمَ الدُّنيا ، وأَنَّهُمْ كانوا

ضالّينَ حينَ لَجأوا إلى قُوّةٍ أُخرى سِوى قُوّةِ اللهِ ، وأشْركوا مَعَهُ تعالى أنْداداً .

التّابِعونَ والمَتبوعونَ :

قُلْنا إنّ الأَنْدادَ قَدْ يَكونونَ أُولئكَ الرُّؤساءَ الّذينَ يَأمُرونَ ويَنْهَونَ ويُحَلّلونَ ويُحَرّمونَ لِغَيْرِهِمْ ، فَيكونُ هُناكَ أتباعٌ ومَتبوعونَ ، ولِذا انْتَقلَتِ الآياتُ لِتَتحدَّثَ عَنْ هذهِ القَضيّةِ . قالَ تَعالى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ .

أيْ : اذْكُرْ أَيُّها العاقِلُ لِتَتَّعِظَ وتَعْتَبِرَ ، حالَ أُولئِكَ الكافِرينَ يَوْمَ القيامةِ ، إذ يَتَبرّأُ الرُّؤساءُ الّذينَ يَأمُرونَ ويَنْهَونَ ، يَتَبرأونَ مِنْ مَرْؤوسيهِمْ ومِنْ أَتْباعِهِمْ ، عِنْدَما يَرَوْنَ جَميعاً العَذابَ الّذي أعَدّهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ ، وعِنْدَما تَتقطّعُ الصِّلاتُ والرَّوابِطُ بَيْنَهُمْ في الدُّنْيا ، حيْثُ كانَ الرّئيسُ يَأمُرُ ، والتّابعُ يُطيعُ ويَخْضَعُ لَهُ ، ويَتَمَسَّحُ بهِ مُقابِلَ مالٍ أوْ مَنْصِبٍ يَعِدُهُ بهِ .

وفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ اسْتِعارةٌ تَمْثيليّةٌ ، إذْ شبّهَتْ هَيْأَتَهُمْ عندَ خَيْبَةِ أَمَلِهِمْ حينَ لَمْ يَجِدوا النَّعيمَ الّذي تَعِبوا مِنْ أجْلِهِ مُدَّةَ حَياتِهِمْ ، ولَكِنَّهُمْ وَجَدوا العَذابَ ، شَبَّهَهُمْ بحالِ الّذي يَصعَدُ إلى نَخْلَةٍ لِيَجْنِيَ مِنْ ثِمارِها الّتي تَعِبَ لأَجْلِها طَوالَ السَّنةِ ، ولكنَّهُ عِنْدَ صُعودِهِ تَقَطَّعَ بهِ السَّبَبُ وهُوَ الحَبْلُ ، فَسَقَطَ هالِكاً ، فهؤلاءِ كَذَلِكَ قَدْ عَلِموا أنْ لا نَجاةَ لَهُمْ مِنْ عَذابِ اللهِ ، كَمَثَلِ السّاقِطِ الّذي لا تُرْجى لَهُ سَلامَةٌ .

ثُمَّ بَيّنَتِ الآياتُ ما قالَهُ الأَتْباعُ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ أيْ : قالَ التّابعونَ لَيْتَ لَنا رَجْعَةً إلى الدُّنيا ، فَنَتّبعُ سَبيلَ الحَقِّ ، ونَسيرُ في طريقِ التّوحيدِ للهِ تَعالى ، ونَهتدي بِكتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبيِّهِ ﷺ ، ثُمَّ نَعودُ إلى مَكانِ الحسابِ ، فَنتبرّأُ مِنْ هَؤلاءِ الضّالّينَ الّذينَ اتّبعناهُمْ مِنْ قَبْلُ ، كَما تَبرّأوا مِنّا ، ولِنُشْفي غَيْظَنا مِنْهُمْ ، لأنّهُم خَذَلونا وأوْردونا مَواردَ التَّهْلُكَةِ والعَذابِ الأَليمِ ، ولكنْ هَيْهاتَ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ كَما أراهُمُ اللهُ تَعالى العَذابَ الّذي عَرَفوا عَنْ طَريقِهِ أنَّ القُوَّةَ للهِ جميعاً ، سَيُريهِمْ أعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عليْهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، أي : سَيُريهِمْ أعْمالَهُمُ السَّيّئةَ الّتي كانَ لَها أَسْوَأُ الأَثَرِ في نُفوسِهِمْ ، حيثُ جُعِلَتِ النُّفوسُ مُسْتَعْبَدَةً لِغَيْرِ اللهِ تَعالى ، وهَذا لَنْ يُورِثَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ إلاّ حَسْرَةً وشَقاءً .

وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى عاقِبَتَهُمْ : ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أيْ : ما هُمْ بِخارِجينَ مِنْ تِلْكَ النّارِ

الّتي عوقِبوا بِها بِسَبَبِ شِرْكِهِمْ ، فَهُمْ مُسْتَقِرّونَ فيها ، فَلَنْ يَخْرُجوا مِنْها إلى الدُّنْيا ولا إلى الجَنَّةِ كَذَلِكَ .

لَقَدْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ الكَريمةُ عَنْ قَضيَّةٍ خَطيرةٍ هيَ قَضيَّةُ التَّبعيَّةِ ، وقَدْ ذُكِرَتْ كَثيراً في القُرآنِ الكَريمِ ، ورَكَّزَتْ عَلَيْها قِصَّةُ سَيِّدِنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . إنَّ هذه التَّبعيَّةَ يَنْشأُ عَلَيْها الأَبْناءُ وهُمْ يَرْتَضِعونَ لَبَنَها الآسِنَ ، كَما يَرْتَضِعونَ حَليبَ أُمَّهاتِهِمْ ، وهَكذا يُوَرِّثُها الآباءُ للأبْناءِ ، ولا يَسْلَمُ مِنْها إلاّ مَنْ عَصَمَ اللهُ ، وكانَ ذا شَخصيَّةٍ قَويَّةٍ وإيمانٍ صادقٍ ، إنَّ مِنْ أَخْطَرِ مُشْكِلاتِ هذه التَّبعيَّةِ وأبْرَزِ عُقَدِها أنَّها لَيْسَتْ صِراعاً بَيْنَ فِئتينِ اثْنَتَيْنِ : فِئةِ المُسْتَكْبرينَ ، وفِئةِ المُسْتَضْعَفينَ ، ولكِنَّ الأَخْطَرَ مِنْ ذَلكَ أنَّ هَذهِ التَّبَعيَّةَ تُصْبِحُ صِراعاً بَيْنَ أَبْناءِ الفِئةِ الواحِدَةِ ، لا أَعْني الفِئَةَ المُسْتَكْبِرَةَ ، وإنّما أعْني الفِئَةَ المُسْتَضعَفَةَ نَفسَها ، فإنَّ هذهِ الفِئَةَ المُسْتَضعَفَةَ سَيَكونُ مِنْها الشُّرَطُ ، والحَرَسُ ، والعيونُ ، وأكْثَرُ مِنْ ذلِكَ سَيكونُ أولئِكَ جَميعاً في خِدْمَةِ الفِئَةِ القويَّةِ ، حرْباً على قَوْمِهِمْ ، يتحسّسونَ أخْبارَهُمْ ويَتجسّسونَ عَلَيْهِمْ ، فيا وَيْلَ المُستضعَفينَ مِنَ الأَقْوياءِ ، ويا وَيْلَ المُسْتَضعَفينَ مِنَ المستضعَفينَ ، وقَبْلَ ذَلِكَ يا وَيْلَ المُستضعَفينَ مِنَ اللهِ!!

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤمنونَ حَقّاً هُمُ الّذينَ يُوَحِّدونَ اللهَ تَعالى بالعِبادَةِ ويَخُصّونَهُ بالحُبِّ ، فلا يَأْخُذونَ أحْكامَهُمْ ودِينَهُمْ إلاّ عَنْ طَريقِ الوَحْيِ الّذي جاءَهُمْ مِنْ عندِ اللهِ .

٢ـ إنَّ المَتْبوعينَ والتّابِعينَ بَعْضُهُمْ فِتْنَةٌ لِبَعْضٍ ، وَسَيتبرّأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَلْيَحْرِصِ المُسْلِمُ على أنْ تَكونَ لَهُ شَخْصيَّتُهُ القَويَّةُ المُميَّزَةُ المُعْتَزَّةُ باللهِ ورسولهِ ﷺ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

أَنْداداً ، حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ ، وَتقطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ ، لو أَنَّ لَنا كَرَّةً .

٢ـ ما المَقْصودُ بالأَنْدادِ الّتي يَتَّخِذُها النّاسُ مِنْ دونِ اللهِ ؟

٣ـ مَنْ هُمُ النّاسُ الّذينَ ذَكَرَتْهُمُ الآيةُ ؟

٤ـ فَرِّقْ بَيْنَ حُبِّ المُؤْمنينَ للهِ تَعالى ، وحُبِّ المُشْرِكينَ للأَنْدادِ .

٥ـ بِمَ تَوَعدَّتِ الآياتُ أُولئِكَ الّذينَ اتَّخذوا الأَنْدادَ ؟

٦ـ أَيْنَ جَوابُ الشَّرْطِ في قَوْلِهِ تَعالى : (وَلَوْ يَرى) ؟

٧ـ ما الأَمْرُ الّذي سَيَعْلَمُهُ أُولئِكَ المُجْرِمونَ حينَ يَرَوْنَ العذَابَ ؟

٨ـ كَيْفَ سَيَكونُ حالُ الأَتْباعِ والمَتْبوعينَ يَوْمَ القيامةِ ؟

٩ـ وَضِّح الصّورَةَ البَيانيَّةَ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ .

١٠ـ ما الّذي تَمَنّاهُ الأَتْباعُ حينَ رُؤْيَتِهِمْ لِلْعَذابِ ؟ ولِمَ يَتَمنَّوْنَ ذَلِكَ ؟

١١ـ بَيَّنَتِ الآياتُ نَتيجةَ الأَتْباعِ والمَتْبوعينَ يَوْمَ القيامةِ ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

١٢ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ حديثِ القُرْآنِ عَنْ قَضيَّةِ التَّبَعِيَّةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الدّالَّةَ على أَنَّ الكافِرينَ كانوا يَعْبُدونَ الأَصْنامَ لِتُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلْفى .

٢ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آيةً قُرْآنيةً تَدُلُّ على أَنَّ الكافِرينَ يَتَمَنَّوْنَ الرُّجوعَ إلى الدُّنْيا .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الّتي تَحَدَّثَتْ عَنْ قِصَّةِ التَّبَعِيَّةِ في سورَةِ الأَعْرافِ ، وسورةِ سَيِّدِنا إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ .

٤ـ ارْجِعْ إلى تَفْسيرِ ابنِ كَثيرٍ . واقْرَأْ تَفْسيرَ قَوْلِهِ تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٧] واكْتُبْ مُناسَبَةَ النُّزولِ وتَفْسيرَ الآياتِ في مَجلّةِ المَدْرَسَةِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ التَّاسِعُ والأَرْبَعونَ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حلالاً : ما أَباحَهُ الشَّرْعُ وأَذِنَ في تَناوُلِه وهُوَ ضِدُّ الحَرامِ .

طيّباً : مُسْتَلَذّاً مُسْتَطاباً تُقْبِلُ النُّفوسُ عَلَيْهِ .

خُطُواتِ : أَثَرَ الشَّيْطانِ وَوساوِسَهُ .

أَلْفَيْنا : وَجَدْنا .

مَثَلُ : المَثَلُ : الصِّفَةُ والشَّأْنُ .

يَنْعِقُ : مِنَ النّعيقِ وهُوَ الصِّياحُ .

التَّفسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ أُولئِكَ الّذينَ اتَّخذوا الأَنْدادَ ، وبَيَّنَتْ لنا أَنّ هَؤلاءِ الأَنْدادَ قَدْ يَكونونَ الرُّؤساءَ الّذينَ يُحِلّونَ للنّاسِ ، ويُحَرِّمونَ عَلَيْهِمْ كَما يَشاءونَ ، وقَدْ جاءَتْ هذهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ اللهَ تَعالى خالِقَهُمْ ومُرَبّيهِمْ هُوَ الّذي يُحَلِّلُ ويُحَرِّمُ ، ويُبيحُ لَهُمُ الأَكْلَ مِمّا في هَذهِ الأَرْضِ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ لا يَتَّبِعوا خُطُواتِ الشَّياطينِ ؛ شياطينِ الإِنْسِ وشَياطينِ الجِنِّ . قالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ أي : يا أَيُّها النّاسُ ، لَقَدْ أباحَ اللهُ تَعالى لَكُمْ أَنْ تَأْكُلوا مِمّا تَحْويهِ الأَرْضُ مِنَ المَطْعوماتِ الّتي أحلّها اللهُ لَكُمْ ، والّتي تَسْتَلِذُّها النُّفوسُ الطّاهِرَةُ الكَريمَةُ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَتَمتّعوا بهذِهِ الطَّيِّباتِ مِنْ غَيْرِ إسْرافٍ ، وأَنْ تَشْكُروا اللهَ تَعالى على ما رَزَقَكُمْ مِنْ نِعَمٍ .

والأَمْرُ في قولِهِ : ﴿كُلُوا﴾ للإباحَةِ ، أي : أباحَ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلوا مِمّا تَشاؤونَ مِمّا هُوَ حلالٌ لَكُمْ ، وقالَ تَعالى : ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا ﴾ وَمِنْ هُنا للتَّبْعيضِ ، لأنَّهُ لَيْسَ كُلُّ ما في الأَرْضِ يُؤْكَلُ ، ففي الأَرْضِ أَتْرِبَةٌ وحِجارَةٌ وغَيْرُها مِمّا لا يَأْكُلُهُ النّاسُ .

وَقَدْ بَيَّنَتِ آياتُ القُرآنِ الكَريمِ وسُنَّةُ الرَّسولِ ﷺ ما حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى على النّاسِ .

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعالى النّاسَ أَنْ لا يَتَّبِعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ ، فقالَ تَعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي : لا تَتَّبِعوا آثارَ الشَّيْطانِ وزَلّاتِهِ ووساوِسَهُ وطُرُقَهُ الّتي يُحَرِّمُ بِها الحَلالَ ، ويُحِلُّ بِها الحَرامَ ، والّتي يَقْذِفُها في صُدورِ بَعْضِ النّاسِ ، فَتَجْعَلُهُمْ يَنْتَقِلونَ مِنَ الطّاعاتِ إلى المعاصي ، فإِنَّ هذا الشَّيْطانَ عَدوٌّ لَكُمْ بَيِّنُ العَداوةِ ، وَوساوِسُ الشَّيْطانِ كَثيرةٌ ، وقَدْ يُوَسْوِسُ للنّاسِ أَنْ يُحِلُّوا ما حَرّمَ اللهُ أوْ يُحَرِّموا ما حَلَّلَ اللهُ ، وَلَيسَ المَقْصودُ بالشَّيطانِ شَيطانَ الجِنِّ وَحْدَهُ ، ولكِنْ يُقْصَدُ بِهِ شياطينُ الإنْسِ وهُمُ الرُّؤساءُ ، الّذينَ يُغْوونَ النّاسَ عَنِ الحَقِّ ، ويُزَيِّنونَ لَهُمُ البَاطِلَ ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] .

وَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ لأَنّ الشَّيْطانَ لا يَأْمُرُ بالشَّيْءِ مَرَّةً واحِدَةً ، ولكنَّهُ يُخْرِجُ الإنْسانَ مِنْ دينهِ خُطْوَةً خُطْوَةً ، فَهُوَ يَبْدَأُ بِأَمْرٍ بَسيطٍ ، فإذا اتَّبَعَهُ الإنسانُ أَمَرَهُ بما هُوَ أَعْظَمُ ، وهَكَذا حتَّى يُخْرِجَهُ عَنْ دينِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَتِ الآياتُ كَيْفِيّةَ عَداوةِ هَذا الشَّيطانِ ، فَقَالَ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ .

فالشَّيْطانُ :

١ـ يَأْمُرُ بالسّوءِ والفَحْشاءِ : فَهُوَ يَتسَلّطُ عَلَيْكُمْ ، ويَأْمُرُكُمْ أَنْ تَفْعَلوا ما يَسوؤكُمْ في دُنياكُمْ وآخِرَتِكُمْ ، فَقَدْ يُقْدِمُ الإنْسانُ على شَرٍّ يَأْمُرُهُ بِهِ الشَّيْطانُ ، فإذا فَعَلَهُ فاجَأَهُ السُّوءُ وعَاجَلَهُ الضَّرَرُ ، فَقَدْ يُوَسْوِسُ لَكَ الشَّيْطانُ أَنْ تَتْرُكَ دِراسَتَكَ وأَنْ لا تَتعلَّمَ ، فَكَمْ مِنْ مُتَعلِّمٍ أضاعَ وَقْتَهُ ومالَهُ ولَمْ

يَسْتَفِدْ شَيْئاً ، حتّى إذا اتّبَعْتَهُ فيما يُوسْوِسُ لَكَ وَقَعَتْ في سوءٍ عَظيمٍ ، وَضيَّعتَ حياتَكَ بلا طائلٍ .

وهذا الشَّيطانُ كَذلِكَ يَأمُرُكُمْ بالفَحشاءِ ، والفَحْشاءُ أقْبَحُ وأشَدُّ مِنَ السّوءِ ، فَهُوَ يُزيِّنُ للنّاسِ شُرْبَ الخَمْرِ ، والزِّنا ، والغيبَةَ والنَّميمَةَ ، وَغَيرَ ذَلِكَ مِنَ الفواحِشِ الّتي يَقَعُ فيها الإنْسانُ فَيُضَيِّعُ دُنياهُ وآخِرَتَهُ .

٢ـ ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فَهذا الشَّيطانُ يَأْمُرُكُمْ أنْ تَقولوا على اللهِ تَعالى في دينِهِ ما لا تَعْلَمونَ عِلْمَ اليَقينِ أنَّ اللهَ شَرَعَهُ لَكُمْ ، مِنْ عَقائِدَ أو شَعائِرَ دينيّةٍ ، أو يُحَلِّلُ لَكُمْ ما حَرَّمَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ أو يُحَرِّمُ ما أحَلَّهُ اللهُ لَكُمْ ، في هذا كُلِّهِ اعْتِداءٌ على حَقِّ الرُّبوبيّةِ في التَّشريعِ ، وَهذا أقْبَحُ ما يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطانُ .

وَبَعْدَ أنْ نَهى اللهُ تَعالى النّاسَ عَنِ اتِّباعِ خُطواتِ الشَّيطانِ وبَيَّنَ لَهُمْ مَظاهِرَ عَداوَتِهِ ، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِبَيانِ حالِ طائِفَةٍ مِنَ النّاسِ الّذينَ اتّبَعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ ، وَقَلَّدوا آباءَهُمْ في الشِّرْكِ والجَهالَةِ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ .

أيْ : إذا قيلَ لِهَؤُلاءِ الّذينَ اتَّبَعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ مِنَ المُشْرِكينَ ، والّذينَ يَقولونَ على اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ ولا بُرْهانٍ ، إذا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعوا ما أنْزَلَهُ اللهُ على رسولِهِ مِنَ الوَحْيِ ، ولا تَتَّبعوا مِنْ دونِهِ أَحَداً ، لَمْ يَسْتَمِعوا لِهذا القَوْلِ ، بلْ قالوا إنَّا نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيهِ سادَتَنا وكُبراءَنا وشُيوخَنا وآباءَنا وأجْدادَنا ، فَجَنَحوا إلى التّقليدِ وإلْغاءِ عُقولِهِمْ ، و(بَلْ) للإِضْرابِ الإبْطاليِّ ، أي أضْرَبوا عَنْ قَوْلِ الرّسولِ ﷺ لَهُمْ : ﴿ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾إضْرابَ إعْراضٍ من دونِ حُجّةٍ إلاّ لأنّهُ مُخالِفٌ لِما وَجَدوا عَلَيْهِ آباءَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ والضَّلالِ . وَبيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بُطْلانَ قَوْلِهِمْ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ والهَمْزَةُ للاسْتِفْهامِ الإنْكاريِّ ، والواوُ للحالِ ، أي أيَتَّبِعونَ ما وَجَدوا عَلَيْهِ آباءَهُمْ والحالُ أنَّ آباءَهُم لا يَعْقِلونَ شَيْئاً مِنْ عقائِدِ الدّينِ وعِباداتِهِ ، ولا يَهْتَدونَ إلى طريقِ الصّوابِ ، فَهؤلاءِ ألْغَوْا عُقولَهُمُ الّتي تَهْديهِمْ إلى وُجودِ الخالِقِ سُبْحانَهُ مِنْ خِلالِ الأدلَّةِ الكَوْنِيَّةِ حَوْلَهُمْ ، وكُلُّ مَنْ عِنْدَهُ مِسْحَةُ عَقْلٍ لا يُمْكِنُ أنْ يَفْعَلَ فِعْلَهُمْ ويَسيرَ في طَريقِهِمْ ، فَما مَثَلُهُمْ إلاّ كَمَثَلِ البَهائِمِ الّتي لا تَعْقِلُ شَيْئاً ، يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ .

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ أيْ : مَثَلُ هَؤلاءِ الكافِرينَ في

تَقليدِهِمْ لآبائِهِمْ ورُؤَسائِهِمْ ، وبَقائِهِمْ على ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلالِ وعَدَمِ سَماعِهِمْ لِنِداءِ الحَقِّ ، وتَأمُّلِهِمْ في الأدِلَّةِ القرْآنيَّةِ والكَوْنيَّةِ ، مَثَلُ البَهائِمِ تَماماً ، الّتي يَنْعِقُ عَلَيْها الرّاعي ويَسوقُها إلى المَرْعى ويَدْعوها إلى الماءِ ويَزْجُرُها ، فَتَستَجيبُ دَعْوَتَهُ ، وتَنْزَجِرُ بزَجْرِهِ ، وهي لا تَعْقِلُ شَيْئاً مِمّا يَقولُهُ ولا تَفْهَمُ لَهُ مَعْنىً ، إنّما تَسْمَعُ أصواتاً تُقْبِلُ لِسَماعِ بَعْضِها ، وتُدْبِرُ لِسَماعِ صَوْتٍ آخَرَ ، وذَلِكَ بالتَّعوُّدِ ، ولا تَعْقِلُ سَبَباً لإقْبالِها وإدْبارِها .

وهَذا المَثَلُ الَّذي ضَرَبَهُ اللهُ تَعالى يَزيدُ الإنْسانَ السّامِعَ لآياتِ اللهِ مَعْرِفةً بِأحوالِ الكُفَّارِ ، ويَجْعَلُ الكافِرَ يَحْقِرُ نَفْسَهُ إذا سَمِعَ هذا الأَمْرَ عَنْهُ ، حيْثُ يَصيرُ كالبَهيمَةِ في تَقْليدِهِ لآبائِهِ دونَ تَفْكيرٍ وَوَعيٍ وتَدبُّرٍ ، ويَكونُ في هذا نهايةُ الزَّجْرِ والرَّدْعِ لِمَنْ يَسْلُكُ مَسْلَكَ التَّقليدِ ، ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ زيادةً في تَبْكيتِهِمْ وتَقْريعِهِمْ ، أي : هُمْ صُمٌّ عَنِ اسْتِماعِ دَعْوَةِ الحَقِّ ، بُكْمٌ عَنْ إجابَةِ الدّاعي إلَيْها ، عُمْيٌ عَنْ آياتِ صِدْقِها وصِحَّتِها ، فَهُمْ لإعْراضِهِمْ عَنِ الهادي لَهُمْ إلى ما يَنْفَعُهُمْ ويُنَجّيهِمْ مِنَ العَذابِ صاروا بِمَنْزِلَةِ مَنْ فَقَدَ حَواسَّهُ ، فَأَصْبَحَ لا يَسْمَعُ ولا يَنْطِقُ ، ولا يُبْصِرُ ، فَهُمْ لا يَعْقِلونَ لِعَمَلِهِمْ مبدأً ولا غايَةً ، بَلْ يَنقادونَ إلى غَيْرِهِمْ كَما هُوَ شَأْنُ الحَيوانِ ، ومِنْ ثُمَّ اتَّبعوا مَنْ لا يَعْقِلونَ ولا يَهتدونَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الحُكْمُ للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، فَلا مُحَلِّلَ ولا مُحَرِّمَ إلاّ اللهُ .

٢ـ أباحَ اللهُ تَعالى للنّاسِ الطَّيِّباتِ ، الّتي تَسْتَلِذُّها النُّفوسُ السَّليمَةُ ، وَحَرَّمَ عَلَيهِمُ الخَبائِثَ الّتي تَسْتَقْذِرُها النُّفوسُ السَّليمَةُ الطَّيِّبَةُ .

٣ـ الشَّيْطانُ عَدوٌّ للإنسانِ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ آدَمَ ، وهُوَ لا يَنْفَكُّ في إغْواءِ الإنْسانِ وتَزيينِ الباطِلِ والفَحشاءِ لَهُ .

٤ـ التَّقليدُ بِلا عَقْلٍ ولا فَهْمٍ مِنْ شَأْنِ الكافِرِ ، أَمّا المُؤْمِنُ فَهُوَ يَعْقِلُ دينَهُ ويَعْرِفُهُ بِنَفْسِهِ ، ويَقْتَنِعُ بِصِحَّتِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَا مَعْنى الأَمْرِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿كُلوا﴾ ؟ وَلِمَ جاءَتْ (مِنْ) في قَوْلِهِ : ﴿مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ؟

٢ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ، وما سِرُّ التَّعبيرِ بِكَلِمَةِ ﴿خُطُوَاتِ﴾ ؟

٣ـ بَيَّنَتِ الآياتُ بَعْضَ المَظاهِرِ لِعَداوَةِ الشَّيْطانِ ، وضِّحْها كَما ذَكَرَتْها الآياتُ .

٤ـ تَحدَّثتِ الآياتُ عَنْ طائِفَةٍ اتَّبَعَتْ خُطواتِ الشَّيْطانِ ، مَنْ هِيَ تِلْكَ الطّائِفَةُ ؟

٥ـ ما مَعنى كَلِمَةِ ﴿بَلْ﴾ ؟

٦ـ بِمَ أَمَرَتِ الآياتُ المُشْرِكينَ ؟ وبماذا أجابوا ؟

٧ـ ضَرَبَتِ الآياتُ مَثَلاً للمُشْركينَ المقلِّدينَ لآبائِهِمْ ، هاتِ هَذا المَثَلَ .

٨ـ لِمَ وَصَفَتِ الآياتُ المُشْرِكينَ بَعْدَ ذَلِكَ بأَنَّهُمْ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ ؟ وهَلْ هُمْ كَذَلِكَ حَقيقةً ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الّتي بَيَّنَ فيها سُبْحانَهُ وتَعالى ما حَرَّمَهُ اللهُ على النّاسِ مِنْ مَطْعوماتٍ .

٢ـ اكتبْ في دفْتَرِكَ الآيةَ مِنْ سورةِ الحَشْرِ الّتي تُبيِّنُ تَوريطَ الشَّيْطانِ للإِنْسانِ .

❋ ❋ ❋

الدَّرسُ الرَّابِعُ

سورةُ البقرةِ ـ القِسمُ الخمسُونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ
ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ
ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

مَعاني المُفْرداتِ :

- **أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ** : ذُكِرَ عِنْدَ ذَبْحِهِ غَيْرُ اللهِ كالأَصْنامِ وغَيْرِها .
- **عادٍ** : العادي ؛ المُتَجاوِزُ قَدْرَ الضَّرورَةِ .
- **إِثْمَ** : الإِثْمُ : الذَّنْبُ والمَعْصِيةُ .
- **بالهُدى** : بالشَّرائِعِ الَّتي أَنْزَلَها اللهُ على لِسانِ أَنْبيائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .
- **شِقاقٍ** : عَداءٍ وتنازُعٍ .

التَّفسيرُ :

خاطَبَتِ الآياتُ السّابِقَةُ النّاسَ جَميعاً بِأَنْ يَأْكُلوا مِمّا أَحَلَّهُ اللهُ لَهُم ، واسْتَطَابَتْهُ النُّفوسُ السَّليمةُ ، وخاطَبَتْ آياتُ الدّرسِ المُؤْمِنينَ خاصّةً بِأَنْ يَأْكُلوا مِنَ الطَّيِّباتِ ، لأَنَّهُمْ هُمُ الأَحَقُّ بالفَهْمِ وأَحْرى بالاهْتِداءِ ، وأَوْلى بالتَّكْريمِ والتَّشريفِ . قالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ .

فيا مَنْ آمَنَ باللهِ تَعالى وملائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، وهذا النِّداءُ مُحبَّبٌ للمُؤمِنينَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يَحُثُّهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى فيهِ على الاستِجابَةِ ، ومَنْ مِنّا لا يُحِبُّ أَنْ يَكونَ مِمَّنْ يُناديهِمُ اللهُ تَعالى بِهذا الوَصْفِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ويَأْمُرُهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنْ يَأكلوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقَهُمُ اللهُ . والطَّيِّباتُ ما طابَ كَسْبُهُ مِنَ الحَلالِ ، ويَسْتَلْزِمُ مِنْ ذَلِكَ عَدَمُ تَحريمِ شَيْءٍ مِمّا أَحَلَّهُ اللهُ تَعالى ، والامْتِناعُ عَنْ أَكْلِهِ تَعذيباً للنَّفْسِ ، وفي هذا تَنْبيهٌ لِلْمُؤْمِنينَ كَيْلا يَكونوا كالمُشْرِكينَ ، الّذينَ أُبيحَتْ لَهُمْ خَيْراتُ الأَرْضِ ، فَصاروا يُحَرِّمونَ بَعْضَها ويُحَلِّلونَ بَعْضَها الآخَرَ ، وفيهِ تَنْبيهٌ لَهُم أَنْ يَأكُلوا مِمّا أَحَلَّهُ اللهُ لَهُمْ ، وأَنْ لا يُضَيِّقوا على أَنْفُسِهِمْ .

﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ إِنَّ النِّعَمَ لا بُدَّ وأَنْ تُقابَلَ بالشُّكْرِ حتّى تَدومَ على صاحِبِها ، فاشْكُروا اللهَ الّذي خَلَقَ لَكُمْ هذهِ الطَّيِّباتِ ، وسَهَّلَ عَلَيْكُمْ أَسْبابَ الحُصولِ عَلَيْها ، واعْتَرِفوا بِفَضْلِ اللهِ عَلَيْكُمْ مُعَظِّمينَ لَهُ تَعالى . والشُّكْرُ يَكونُ باتِّباعِ شَرْعِهِ سُبْحانَهُ في طَلَبِ الطَّيِّباتِ واسْتِخْراجِها ، وفي اسْتِعْمالِها فيما خُلِقَتْ لَهُ ، وفي الثَّناءِ عَلَيْهِ سُبْحانَهُ الّذي أَنْعَمَ بِها وأَحَلَّها ، وفي اعْتِقادِكُمْ أَنَّ هَذهِ الطَّيِّباتِ إِنَّما هِيَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وإِحْسانِهِ ، وهذا كُلُّهُ لَنْ يَكونَ إِلاَّ إِذا عَبَدْتُمُ اللهَ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وآمَنْتُمْ بِتَفرُّدِهِ بالسُّلْطَةِ والتَّدْبيرِ ، وقَدْ تَقَدَّمَ ضَميرُ الفَصْلِ (إِيّاهُ) لِيُفيدَ التَّخصيصَ ، أي : إِنْ كُنْتُمْ تَخصّونَهُ بالعِبادَةِ وَحْدَهُ ، وجوابُ الشَّرْطِ (إِنْ) مَحذوفٌ مَفْهومٌ مِنَ السِّياقِ ، وتَقْديرُ الكَلامِ ؛ إِنْ كُنْتُمْ تَخصّونَ اللهَ وَحدَهُ بالعِبادَةِ ، فاشْكُروهُ على نِعَمِهِ الّتي أَنْعَمَ بِها عَلَيْكُمْ .

وَقَدْ أَخْرَجَ الإِمامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ :

« إِنَّ اللهَ لَيَرْضى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْها ، أو يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْها »[(١)] .

وَبَعْدَ هَذا بيَّنَتِ الآياتُ ما لَيْسَ مِنَ الطَّيِّباتِ مِنَ الأَطْعِمَةِ ، الّتي حَرَّمَها اللهُ تَعالى عَلَيْنا ، وذلِكَ لِتَجَنُّبِها والحَذَرِ مِنْها ، فَقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ .

بَدَأَها بِكَلِمَةِ ﴿إِنَّمَا﴾ الّتي تُفيدُ الحَصْرَ ، أي : حَصْرَ الأَطْعِمَةِ المُحرَّمَةِ في هذهِ الأَنْواعِ الّتي سَتَذْكُرها الآيَةُ الكريمةُ .

---

(١) رواه الإمام مسلم في الصحيح ، حديث رقم (٢٧٣٤) .

١ـ والمَيْتَةُ : ما ماتَ حَتْفَ أَنْفِهِ ، أَوْ قُتِلَ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مَشْروعَةٍ كالمُنْخَنِقَةِ والمَوْقوذَةِ والمُتَرَدِّيَةِ والنَّطيحَةِ وما أَكَلَ السَّبُعُ ، وَقَدْ حُرِّمَتِ المَيْتَةُ لأَنَّ الطِّباعَ السَّليمةَ تَسْتَقْذِرُها ، ولأَنَّها يُتَوَقَّعُ الضَّررُ مِنْها ، فَهِيَ إمّا أَنْ تَكونَ ماتَتْ لِمَرَضٍ فيها ، وقَدْ يَكونُ هذا المَرَضُ مُؤْذِياً ، وإمّا أَنَّها ماتَتْ بِسَبَبِ عِلَّةٍ عارِضَةٍ ، والمَوْتُ الفُجائيُّ يَقْتَضي بَقاءَ الأَشْياءِ الضّارَّةِ في جِسْمِها ، إضافَةً إلى ذلكَ فإنَّها لم تُذْبَحْ بِطَرِيقَةٍ شَرْعِيَّةٍ ، ولِذا بَقِيَ الدَّمُ الفاسِدُ فيها ، وهذا كُلُّهُ فيهِ ما فيهِ مِنَ الضَّررِ على الإنْسانِ .

٢ـ الدَّمُ : ويُقْصَدُ بهِ الدَّمُ المَسْفوحُ ، الّذي يَسيلُ مِنَ الدّابَّةِ حينَ ذَبْحِها ، وهَذا الدَّمُ مُسْتَقْذَرٌ تَعافُهُ النَّفْسُ السَّليمَةُ ، وهُوَ حامِلٌ لِلجَراثيمِ ، وما فيهِ خَطَرٌ على الإنْسانِ .

٣ـ لَحْمُ الخِنزيرِ : وهُوَ لَحْمٌ قَذِرٌ كَذَلِكَ ، فالخِنْزيرُ يَتَغذّى على القاذوراتِ والنَّجاساتِ ، وهُوَ يَشْتَمِلُ على دُودةٍ تَضُرُّ بِبَدَنِ آكِلِهِ ، وهذا ما أَثْبَتَهُ العِلمُ الحَديثُ ، وقَدْ تَكونُ هناكَ حِكَمٌ كَثيرَةٌ ما زِلْنا نَجْهَلُها لِتَحْريمِ لَحْمِ الخِنْزيرِ ، ولِذَلِكَ نَحْنُ نُسَلِّمُ بالتَّحريمِ دونَ أسبابٍ . والتَّحريمُ يَشْمَلُ لَحْمَ الخِنزيرِ وشَحْمَهُ وجِلْدَهُ ، وشَعْرَهُ .

٤ـ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ : وهو ما يُذْبَحُ ويُقَدَّمُ للأَصْنام ، وَقَدْ كانوا يَرْفَعونَ أَصْواتَهُمْ بِذِكْرِ اسْمِ الصَّنَمِ الّذي يَذبَحونَ لأَجْلِهِ ، فَيَقولونَ : يا مَناةَ أو يا هُبَل ، وهذا كُلّهُ مُحَرَّمٌ ، لأَنَّ فيهِ إشْراكاً مَعَ اللهِ تَعالى ، فَكُلُّ ما ذُكِرَ اسْمُ غَيْرِ اللهِ عَلَيْهِ أو ما ذُبِحَ تَقَرُّباً لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ حرامٌ . هذِهِ الأُمورُ هِيَ الّتي حَرَّمَها اللهُ تَعالى ، والأمورُ الثَّلاثَةُ الأُولى حُرِّمَتْ لِعِلَّةٍ ذاتيَّةٍ فيها ، والأَمْرُ الرّابِعُ حُرِّمَ لأَمْرٍ خارِجٍ ، وهُوَ ذِكْرُ غيرِ اسْمِ اللهِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : مَنِ الْتجأَ واحْتاجَ إلى أَكْلِ شيْءٍ مِمّا حرَّمَهُ اللهُ تَعالى ، وذَلِكَ بأَنْ لا يَجِدَ غَيْرَ هذا المُحَرَّم ، وخافَ على نَفْسِهِ مِنَ المَوتِ جوعاً ، وكانَ غَيْرَ راغِبٍ في المُحَرَّم وغَيرَ ساعٍ في فسادٍ ، وكَذلِكَ غَيْرَ مُتَجاوِزٍ ما يَسُدُّ جوعَهُ ويَحْفَظُ حياتَهُ ، فلا يأْكُلُ إلاّ ما يَسُدُّ رَمَقَهُ ، فإنْ أَكَلَ مِنْ هذهِ المُحرَّماتِ فلا إثمَ عَلَيْهِ ، ولا حَرَجَ ؛ وذَلِكَ إنّ إلقاءَ نَفْسِهِ إلى التَّهْلُكَةِ بالموْتِ جوعاً ، أَشَدُّ ضَرراً مِنْ أَكْلِ المَيْتَةِ أَوْ غَيْرِها . وحِفْظُ النَّفْسِ الإِنْسانيَّةِ مِنَ الضَّروراتِ الخَمْسِ الّتي حافَظَ الإسْلامُ عَلَيْها .

﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : إنّ اللهَ يَغْفِرُ لِعِبادِهِ خَطأَهُمْ في تَقْديرِ الضَّرورَةِ ، رَحيمٌ بِهِمْ إذْ رَخَّصَ لَهُمْ في تَناوُلِ المُحَرَّماتِ للضَّرورَةِ ، ولَمْ يُوقِعْهُمْ في الحَرَجِ والعُسْرِ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبيِّنَ أَنَّ بَعْضَ الرُّؤساءِ الّذينَ حَرَّموا ما لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ ، وأَحَلّوا ما لَمْ يُحِلَّهُ اللهُ ، قَدْ كَتَموا ما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى إمّا بِتَأويلِهِ أَوْ تَرْكِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ أي : إنَّ الّذينَ يُخْفونَ شَيْئاً مَمّا أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى فلا يُبَلِّغونَهُ للنّاسِ ، أو يُخْفونَ مَعْناهُ عَنْهُمْ بتَأْويلِهِ أوْ تَحْريفِهِ ، أوْ وَضْعِ آرائِهِمْ مَوْضِعَ كَلامِ اللهِ تَعالى ، ويَسْتبدِلونَ بما يَكْتُمونَهُ ثَمَناً قَليلاً مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا وحُطامِها ، وسُمِّيَ قَليلاً ، لأنَّ كُلَّ عِوَضٍ عَنِ الحَقِّ فَهُوَ قليلٌ ، إذْ إنَّ أَخْذَهُ يُفَوِّتُ على نَفْسِهِ سَعادَةَ الحَقِّ الدّائِمَةِ بِدَوامِ المُحافَظَةِ عَلَيْهِ ، والتّارِكُ لِلْحَقِّ وإنْ تَمَتَّعَ بِثَمَنِ الباطِلِ ، فَإِنَّ هذا إنَّما يَكونُ إلى أَمَدٍ قَريبٍ ، لأَنَّ مَتاعَ الحياةِ الدُّنْيا في الآخِرَةِ قَليلٌ .

إنَّ نَتيجَةَ أولئِكَ الّذينَ كَتَموا ما أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى :

١ـ ما يَأكُلُونَ في بُطونِهِمْ مِنْ ثَمَنِ بَيْعِ الحَقِّ واسْتِبْدالِهِ إلاّ ما يُؤَدّي بِهِمْ إلى النّارِ ، ولَنْ تَمْلأَ بُطونَهُمْ ولَنْ يُشْبِعَ جَشَعَهُمْ إلاّ النّارُ الّتي تَكْويها ، وفي هَذِهِ الجُمْلَةِ تَمْثيلٌ لِحالَةِ أُولئِكَ الكُفّارِ ، فَقَدْ مَثَّلَ لِحالِهِمْ في أَكْلِهِمْ ذَلِكَ الثَّمنَ القَليلَ الّذي سَيُفْضي بِهِمْ إلى النّارِ بحالةِ مَنْ يَأْكُلُ النّارَ نَفْسَها ، إلاّ أنَّ العَذابَ الحَاصِلَ مِنْ أَكْلِ النّارِ يَقَعُ عَنْدَما تَمْتَلِىءُ بِها بُطونُهُمْ . والعَذابُ الحاصِلُ مِنْ أَكْلِ المالِ الحَرامِ يَقَعُ يَوْمَ القِيامَةِ وذَلِكَ بإِحْراقِهِ بنارِ جَهَنَّمَ .

٢ـوهَؤلاءِ عَقاباً لَهُمْ ، لا يُكَلِّمُهُمْ اللهُ تَعالى يَوْمَ القِيامَةِ ، كلاماً تَطْمَئِنُّ بِهِ نُفوسُهُمْ وتَنْشَرِحُ لَهُ صُدورُهُمْ ، وإنّما يُكَلِّمُهُمْ بما يُخْزيهِمْ ويَفْضَحُهُمْ ، ففي عَدَمِ كَلامِهِ لَهُمْ سُبْحانَهُ كِنايَةٌ عَنْ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ ، وإنَّ مِنْ عادَةِ المُلوكِ إذا غَضِبوا مِنْ أَحَدٍ ، أَعْرَضوا عَنِ المَغضوبِ عَلَيْهِ ولَمْ يُكَلِّموهُ .

٣ـ ولا يَزَكِّيهِمُ اللهُ تَعالى ، أي لا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ الكُفْرِ والذُّنوبِ ، بالمَغْفِرَةِ والصُّلْحِ ، فَهُمْ قَدْ ماتوا كافِرينَ مُصِرّينَ على كُفْرِهِمْ ، ولِذا لَنْ يَغْفِرَ اللهُ تَعالى لَهُمْ .

٤ـ ولَهُمْ عذابٌ أَليمٌ ، وعَذابٌ شَديدٌ موجِعٌ ، بِسَبَبِ كِتْمانِهِمُ الحَقَّ ، وقَدْ تَقَدَّمَ الجارُّ على المَجرورِ ﴿لَهُم﴾ لِيُفيدَ خُصوصِيَّتَهُمْ بهذا العذابِ هُمْ ومَنْ كانَ على شاكِلَتِهِمْ .

ويَقولُ سُبْحانَهُ وصْفاً للكاتِمينَ للحَقِّ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ أي : أُولَئِكَ الّذينَ كانَ جَزاؤُهُمْ ما قَصَّهُ اللهُ عَلَيْنا ، هُمُ الّذينَ تَركوا الهُدى ، الّذي جاءَ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، والْتَزَموا في مُقابِلِهِ بالكُفْرِ والضَّلالِ ، وهَذا دليلٌ على غَبائِهِمْ وانطِماسِ بَصيرَتِهِمْ ، إذْ لَوْ كانَ عِنْدَهُمْ مِسْحَةُ عَقْلٍ ما اسْتَبْدَلوا

الباطِلَ بالْحَقِّ ، والعذابَ بالمَغْفِرةِ ، فَهُمْ قَدْ باعوا ما يوصِلُهُمْ إلى رَحْمَةِ اللهِ ومَغْفِرَتِهِ وتَرَكوهُ وراءَ ظُهورِهِمْ ، واسْتَبْدَلوا بِهِ الباطِلَ الّذي يوصِلُهُمْ إلى عذابِ اللهِ تَعالى .

ويُبيِّنُ اللهُ تَعالى شِدَّةَ صَبْرِهِمْ على النّارِ ، وفيهِ تَعْجيبٌ لِلْمُؤْمِنينَ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ إنَّ هَذا العَذابَ الّذي يَنالُهُ أُولَئِكَ المُبْطِلونَ بِسَبَبِ إنْكارِهِمْ وتَكْذيبِهِمْ لِهَذا الكتابِ الّذي جاءَ بالحَق ، والحَقُّ لا يُغالَبُ ومَنْ غالَبَهُ غُلِبَ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ ذلِكَ العذابُ الأَليمُ قَدْ حَلّ بِهؤلاءِ الأشْقياءِ بِسَبَبِ كِتمانِهِمْ ما أَنْزَلَهُ اللهُ في كِتابِهِ مِنَ الحَقِّ ، وإنَّ الّذينَ اخْتَلَفوا في الكِتابِ الّذي نَزَّلَهُ اللهُ لِجَمْعِ الكَلِمَةِ على اتِّباعِ الحَقِّ ، لَفي شِقاقٍ بَعيدٍ ، فلا يُمْكِنُ أَنْ يَهْتَدوا إلى الحَقِّ ، لأَنَّ كَلامَهُمْ يُخالِفُ الآخَرَ بما ابْتَدَعوهُ مِنْ آراءَ تُناسِبُ أَهْواءَهُمْ ، فَكُلٌّ مِنْهُمْ يَأْخُذُ بِرَأْيِهِ ويَتْرُكُ رَأْيَ غَيْرِهِ ، لأَنَّهُ لا يُناسِبُ هَواهُ ، وهُم جَميعاً يَبْتَعِدونَ عَنِ الحَقِّ الّذي جاءَهُمْ في كتابِ اللهِ العزيزِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وُجوبُ أَكْلِ الحَلالِ وتَرْكِ الحَرامِ ، طاعَةً للهِ تَعالى وتَسْليماً لأَمْرِهِ ، وَوُجوبُ شُكْرِ المُنْعِمِ على نِعَمِهِ .

٢ـ حافَظَ الإِسْلامُ على حياةِ الإِنْسانِ مِنَ الهَلاكِ ، فَأَباحَ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِمّا هُوَ مُحَرَّمٌ عِنْدَ الضَّرورَةِ ، وهَذا مِنْ رَحْمَةِ هذا الدّينِ .

٣ـ المُؤْمِنونَ لا بُدَّ وَأَنْ يَكونوا أُمّةً واحِدَةً مُتَّحِدَةٍ ، ولا يَنْبَغي أَنْ يَكونوا شِيَعاً ومَذاهِبَ شَتّى ، فإنَّ دينَ اللهِ تَعالى واحِدٌ .

٤ـ المُؤْمِنُ مُطالَبٌ بِبَيانِ شَرْعِ اللهِ تَعالى ، وعَدَمِ كِتْمانِهِ ، وأَنْ لا يَقولَ على اللهِ ما لا يَعْلَمُ .



التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ مَعْنى المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

طيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ، أُهِلَّ بهِ ، غَيْرَ باغٍ ولا عادٍ .

٢ـ ماذا يُفيدُ الأَمْرُ في قَولِهِ تَعالى : ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ؟

٣ـ كَيْفَ يَكونُ شُكْرُ اللهِ تَعالى على ما رَزَقَنا مِنَ الطَّيِّباتِ ؟

٤ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ تَحريمِ المَيْتَةِ ؟

٥ـ لِماذا حَرَّمَ اللهُ ما أُهِلَّ بهِ لِغَيْرِه ؟

٦ـ مَتى يُباحُ للإنْسانِ أَنْ يَأْكُلَ مِمّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَيْهِ ؟

٧ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿يَشْتَرُون بِهِ ثَمناً قَليلاً﴾ .

٨ـ ذَكَرَتِ الآيةُ نَتيجَةً حَتْمِيَّةً لأولئِكَ الّذينَ يَكْتُمونَ ما أَنْزَلَ اللهُ ، ما تِلْكَ النَّتيجَةُ الّتي أَعَدَّها اللهُ لَهُمْ ؟

٩ـ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ كَيْفَ يَكونُ صَبْرُ الكافِرِ على النارِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ أباحَ لَنا الإِسْلامُ مَيْتَتَيْنِ ودَمَيْنِ ، ما هُما ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما الضَّروراتُ الخَمْسُ الّتي حافَظَ الإِسْلامُ عَلَيْها لِيُؤَمِّنَ للإِنْسانِ حَياةً سَليمَةً ؟ اكْتُبْها في دفْتَرِكَ .

❋ ❋ ❋

الدَّرْسُ الخامِسُ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الحادي والخَمْسونَ

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ
وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا
عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

البِرَّ	: اسْمٌ جامِعٌ لِكُلِّ خَيْرٍ .
ابنِ السَّبيلِ	: المُسافِرُ المُنْقَطِعُ عَنْ مالِهِ ووَلَدِهِ وَوَطَنِهِ .
في الرِّقابِ	: فَكُّ الرِّقابِ وتَخْليصُها مِنَ العُبودِيَّةِ والرِّقِّ .
البَأْساءِ	: ما يُصيبُ النّاسَ في أَمْوالِهِمْ وهُوَ الفَقْرُ .
الضّراءِ	: ما يُصيبُ النّاسَ في أَنْفُسِهِمْ كالمَرَضِ .
حينَ البَأْسِ	: وَقْتَ القِتالِ في سَبيلِ اللهِ .

التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ الكَريمَةُ في الدُّروسِ السّابِقَةِ عَنْ تَحويلِ القِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ ، وبَيَّنَتْ أَنَّ اليَهودَ قَدْ أثاروا الفِتَنَ والشُّبُهاتِ حَوْلَ هَذِهِ القَضِيَّةِ ، وَطالَ خَوْضُهُمْ فيها حَتّى شَغَلوا المُسْلِمينَ بِها ، وكانَ أَهْلُ الكِتابِ يَرَوْنَ أَنَّ الصَّلاةَ إلى غَيْرِ قِبْلَتِهِمْ لا تُقْبَلُ عِنْدَ اللهِ ، ولا يَكونُ صاحِبُها على دينِ الأَنْبياءِ ، وكانَ المُسْلِمونَ يَرَوْنَ أَنَّ الصَّلاةَ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ هِيَ كُلُّ

شَيْءٍ ، لأَنَّهُ قِبْلَةُ سَيِّدِنا إِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَبَيَّنَ اللهُ تَعالى لَهُمْ أَنَّ مُجَرَّدَ تَوْلِيَةِ الوُجوهِ قِبَلَ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ لَيْسَ هُوَ البِرُّ ، وأَنَّ اسْتِقبالَ القِبلَةِ إِنّما شُرِعَ لِجَمْعِ النّاسِ وتَوْحيدِهِمْ وتَذْكيرِهِمْ بالصَّلاةِ والإِعْراضِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوى اللهِ تَعالى ، فالقِبْلَةُ لَمْ تُشْرَعْ لِذاتِها . قالَ تَعالى :

﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ .

﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ ، والبِرُّ كُلُّ ما يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلى اللهِ تَعالى مِنَ الإِيمانِ والأَخلاقِ والأَعْمالِ الصّالِحَةِ ، وتَوْجيهِ الوُجوهِ إِلى المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ لَيْسَ هُوَ البِرُّ ، فيقولُ سُبْحانَهُ : إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ هُوَ البِرَّ ، ولَكِنَّ البِرَّ يَتَمَثَّلُ في الأُمورِ التّالِيَةِ :

أولاً : الإِيمانُ باللهِ تَعالى واليوم الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتابِ والنَّبيينَ : فَأَصْلُ البِرِّ هُوَ الإِيمانُ باللهِ الّذي هوَ أَساسُ كُلِّ بِرٍّ ، وأَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ ، وهُوَ التَّصْديقُ بِأَنَّهُ تَعالى الواحِدُ الفَرْدُ الصَّمَدُ ، الّذي لا تَعنوا الوُجوهُ إِلاّ لَهُ ، ولا تَتَّجِهُ القُلوبُ بالعِبادَةِ إِلاّ إِلَيْهِ .

وَذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ الإِيمانَ باليومِ الآخِرِ ، وهُوَ التَّصديقُ بالبَعْثِ وما يَقَعُ بَعْدَهُ مِنْ حِسابٍ وثَوابٍ وعِقابٍ . إِنَّ الإِيمانَ المَطْلوبَ مِنَ الإِنْسانِ لَيْسَ مُجَرَّدَ مَعْرِفَةٍ ، ولكِنَّ هذهِ المَعْرِفَةَ لا بُدَّ أَنْ تَمْلُكَ العَقْلَ بالبُرْهانِ ، والنَّفْسَ بالإِذْعانِ ، حتَّى يَكونَ اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إِلى المُؤْمِنِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

إِنَّ القُرْآنَ الكَريمَ يَذْكُرُ الإِيمانَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ كَثيراً ، ويَقْرِنُ بَيْنَهُما فالإِيمانُ باللهِ أَساسُ المَعْرِفَةِ كَما قُلْنا ، وغايَتُها الإِيمانُ باليومِ الآخِرِ .

ثُمَّ أَمَرَ سُبْحانَهُ بالإِيمانِ بالملائِكَةِ ، الّذي هُوَ أَصلُ الإِيمانِ بالوَحْيِ والنُّبُوَّةِ ، فَمَنْ أَنْكَرَها أَنْكَرَ كُلَّ ذَلِكَ ، فالمَلَكُ هُوَ الّذي يَنْزِلُ بالوَحْيِ على الأَنْبِياءِ بِإِذْنِ اللهِ تَعالى ، لِيُبَيِّنَ أُمورَ الدّينِ .

والإِيمَانُ بالكُتُبِ السَّماوِيَّةِ الّتي جاءَ بِها الأَنْبِياءُ ، يَتَطَلَّبُ امْتِثالَ ما فيها مِنْ أَوامِرَ ونَواهٍ ، والإِيمانُ بالأَنْبِياءِ يَتَطَلَّبُ الاهْتِداءَ بِهَدْيِهِمْ والتَّخَلُّقَ بِأَخْلاقِهِمْ ، والتَّأَدُّبَ بآدابِهِمْ ، هَذِهِ هِيَ أَرْكانُ الإِيمانِ الّتي لا بُدَّ للإِنْسانِ مِنْ أَنْ يُصَدِّقَ بِها ، حتّى يَكونَ ذا عقيدَةٍ سَليمَةٍ تَصِلُ إِلى الفَلاحِ والسَّعادَةِ ، وهذِهِ هِيَ أُصولُ الإِيمانِ .

ثانياً : الأَعْمالُ الصّالِحَةُ ؛ فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَتِ الآيَةُ أُصولَ الإِيمانِ الّذي هوَ مِنَ البِرِّ ، أَتْبَعَتْها بِذِكْرِ أُصولِ الأَعْمالِ الّتي هِيَ ثَمَرَةُ الإِيمانِ ، وَيَتَمَثَّلُ ذلِكَ في :

١ ـ ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ أيْ :

أعطى المالَ على حُبِّهِ الشّديدِ لِذلكَ المالِ لِمَنْ هُمْ في أمَسِّ الحاجَةِ لِذَلِكَ المالِ ، رَحْمَةً بِهِمْ وشَفَقَةً عَلَيْهِمْ ، وهُمْ :

أ . ذوو القُرْبى : وهُمْ أَحَقُّ النّاسِ بالبِرِّ ؛ إذِ الإنْسانُ يَتأَلَّمُ دائِماً لِحالِ أقْرِبائِهِ عِنْدَ الفاقَةِ وشِدَّةِ الحاجَةِ ، أكْثَرَ مِمّا يَتألَّمُ لِرُؤْيَةِ غَيْرِهِمْ ، وفي إعْطائِهِمْ إحْسانٌ وصِلَةٌ لِلرَّحِمِ ، فَمَنْ قَطَعَ رَحِمَهُ ، وامْتَنَعَ عَنْ مُساعَدَتِهِمْ ، وهُوَ يَتَمَتَّعُ بِنِعْمَةٍ وَفَضْلٍ مِنَ اللهِ ، بَعُدَ عَنِ الدّينِ والفِطْرَةِ .

أخرجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ سُلَيْمانَ بن عامِرٍ قالَ ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ الصَّدَقَةَ على المِسْكينِ صَدَقَةٌ وعلى ذي الرَّحِمِ اثْنَتانِ : صَدَقَةٌ وصِلَةٌ »[1] .

ب ـ اليَتامى : جَمْعُ يَتيمٍ ، وهُوَ مَنْ فَقَدَ أباهُ بالموتِ ، ولَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ بَعْدُ ، وهَؤلاءِ في حاجةٍ شَديدَةٍ إلى الإحْسانِ إلَيْهِمْ ، حتّى لا تَسوءَ حالُهُمْ ، وتَفْسُدَ تَرْبِيَتُهُمْ ، فَيَكونونَ ضَرَراً على أنْفُسِهِمْ وعلى المُجْتَمَعِ .

ج ـ المَساكينُ : والمِسْكينُ مَنْ لا يَمْلِكُ شَيْئاً مِنَ المالِ ، أو يَمْلِكُ مالا يَكْفي حاجَتَهُ ، وهَؤلاءِ في حاجَةٍ إلى العِنايَةِ والرِّعايَةِ ، وهُمْ في الغالِبِ لا يَسْألونَ النّاسَ شيْئاً ، حِفْظاً على كَرامَتِهِمْ .

وجاء في الحديث الشريف : « لَيْسَ المِسْكينُ الّذي يَطوفُ على النّاسِ فَتَرُدُّهُ الُّلقْمَةُ والُّلقْمَتانِ ، والتَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ ، قالوا : فَما المِسْكينُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : الّذي لا يَجِدُ غِنىً يُغْنِيهِ ، ولا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ، ولا يَسْأَلُ النّاسَ شَيْئاً »[2] .

دـ ابنُ السَّبيلِ : وهُوَ المُسافِرُ الّذي انْقَطَعَتْ بِهِ السُّبُلُ ، وقَدْ أَمَرَ الشّارِعُ بِمُعاوَنَتِهِ ومُواساتِهِ ، حتّى يَسْتَطيعَ الوُصولَ إلى بَلَدِهِ ومالِهِ ، وفي هذا تَنْبيهٌ لِلْمُسْلِمينَ ، بِأنَّهُمْ وإنِ اخْتَلَفَتْ أوطانُهُمْ فَهُمْ كالجَسَدِ الواحِدِ ، يَنبَغي أنْ يَكونَ بَيْنَهُمُ التَّعاطُفُ والتَّعاونُ على مَتاعِبِ الحياةِ .

هـ ـ السّائِلينَ : والسّائِلُ هُوَ الّذي اضْطُرَّ للطَّلَبِ مِنَ النّاسِ لِشِدَّةِ حاجَتِهِ . والسُّؤالُ علامَةُ الحاجَةِ غالِباً ، ولكنْ لا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ حالِهِ ، وخاصَّةً أنّنا الآنَ في زَمَنٍ كَثُرَ فيهِ السّائِلونَ الّذينَ امْتَهَنوا هذِهِ المِهْنَةَ مَعَ عَدَمِ حاجَتِهِمْ للمالِ .

وـ في الرِّقابِ : أي : في تَخْليصِ الأَسْرى مِنْ أيْدي العَدوِّ بِفِدائِهِمْ بالمالِ ، أو تَخْليصِ الأَرِقّاءِ بِشِرائِهِمْ وإعْتاقِهِمْ . وقَدْ جَعَلَ الإسْلامُ هذا النَّوْعَ مِنَ البَذْلِ واجِباً على المُسْلِمينَ ، وفي هذا أكْبَرُ دَليلٍ على رَغْبَةِ الإسْلامِ في فَكِّ الرِّقابِ ، وتَحْريرِهِمْ ، لأنَّ الإنْسانَ في نَظَرِ الشَّرْعِ خُلِقَ حُرّاً ، وقَدْ قالَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : « مَتى اسْتَعْبَدْتُمُ النّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهاتُهُمْ أَحْراراً » .

---

(١) الترمذي ، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة ، حديث رقم ٦٥٨ .

(٢) أخرجه ابن خزينة في صحيحه في باب الصدقة ، حديث رقم ٢٣٦٣ ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٨٤ .

وقَدْ أَغْفَلَ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ هذِهِ الحُقوقَ الّتي ذَكَرَها القُرْآنُ الكَريمُ ، ولَوْ أَنَّهُمْ أَدّوها لَكانوا خَيْرَ الأُمَمِ ، ولَدَخَلَ كثيرٌ مِنَ الأُمَمِ في دينِ اللهِ ، لِما يَرَوْنَ مِنْ عَلاقَةٍ وَثيقَةٍ وَصِلَةٍ قَوِيَّةٍ بَيْنَ المُسْلِمينَ .

٢ـ الأَمْرُ الثّاني مِنْ تلكَ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ : إِقامُ الصّلاةِ ، والمَقْصودُ ؛ أداؤُها على أَحْسَنِ وَجْهٍ بِكامِلِ أَرْكانِها ، وبِحَيْثُ تُؤتي الصّلاةُ ثمارَها ، فَمِنْ أَرْكانِها الخُشوعُ فيها ، بِحَيْثُ يَعي الإِنْسانُ صَلاتَهُ ، فلا تَكونُ مُجَرَّدَ حَرَكاتٍ يَقومُ بِها ، ومِنْ ثِمارِها تَحَلّي المُسْلِمِ بالأَخْلاقِ الفاضِلَةِ ، وبُعْدُهُ عَنِ الرَّذائِلِ ، فَلا يَقْتَرِفُ فاحِشاً ولا مُنْكَراً ، ولا يَكونُ هَلوعاً ولا جَزوعا ولا بَخيلاً ، ولا يَخْشى في اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ .

إِيتاءُ الزّكاةِ بمعنى : دفعُ الزّكاةِ المَفْروضَةِ . وإقامُ الصّلاةِ وإيتاءُ الزَّكاةِ يَأْتِيانِ غالِباً مُقْتَرِنَيْنِ في كتابِ اللهِ تَعالى ؛ وذلكَ أَنَّ الصّلاةَ تُهَذِّبُ الرّوحَ ، والمَالُ قرينُ الرّوحِ ، فإيتاءُ الزّكاةِ رُكْنٌ عَظيمٌ مِنْ أَعْمالِ البِرِّ ، وقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ إيتاءَ الزّكاةِ المَفروضَةِ بَعْدَ ذِكْرِ إيتاءِ المالِ على حُبِّهِ لِبَعْضِ الأَصْنافِ ، وفي هَذا دَليلٌ على أَنَّ هُناكَ حُقوقاً في المالِ سِوى الزَّكاةِ ، وذَلِكَ أَنَّ الحاجَةَ إذا بَلَغَتْ بِطائِفَةٍ مِنَ الأُمَّةِ حدّاً عظيماً ، وَجَبَ على الأَغْنِياءِ سَدُّ هَذِهِ الحاجَةِ ، ولَوْ زادَ هذا القَدْرُ على الزَّكاةِ المَفْروضَةِ .

ثالثاً : التَّحلّي بالأَخْلاقِ الكَريمَةِ . انْتَقَلَتِ الآياتُ بعدَ ذَلِكَ ، لِذِكْرِ الأَخْلاقِ الّتي لا بُدَّ وَأَنْ يَتَحلّى بِها المُسْلِمُ ، والّتي هِيَ ثَمَراتٌ للإيمانِ والعَمَلِ الصّالحِ ، ومِنْ ذَلِكَ :

١ـ الوَفاءُ بالعَهْدِ : الوَفاءُ بالعَهْدِ يَشْمَلُ ما يُعاهِدُ عليْهِ النّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، وما يُعاهِدُ عليهِ المُؤْمِنونَ رَبَّهُمْ مِنَ السَّمْعِ والطّاعَةِ لِما جاءَ في دينِهِمْ ، وهذِهِ العُهودُ لا بُدّ مِنَ الوَفاءِ بِها ، إِذْ إِنَّ فيها حِفْظاً لِكيانِ المُجْتَمَعِ مِنْ أَنْ يَنْفَرِطَ عِقْدُهُ ، وفي عَدَمِ الوفاءِ بالعَهْدِ هَدْمٌ لِنِظامِ المُجْتَمَعِ وانْعِدامِ الثِّقَةِ بَيْنَ أَفْرادِهِ .

٢ـ الصَّبْرُ : وقَدْ قالَ تَعالى : ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ وقَدْ تَحَدَّثَتْ آياتٌ سابِقَةٌ عَنِ الصَّبرِ ، وأَهَمِّيَّتِهِ في دروسٍ سابِقَةٍ . والصَّبْرُ مَحْمودٌ في جَميعِ الأَحْوالِ ، إلاّ أَنَّ القُرآنَ الكَريمَ خَصَّ هذهِ المواضِعَ الثّلاثَةَ ؛ لأَنَّ مَنْ صَبَرَ فيها كانَ في غَيْرِها أَصْبَرَ ، ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الحالاتِ هِيَ أَشَدُّها على ذَلِكَ الإِنْسانِ أَنْ يُصابَ في نَفْسِهِ أو مالِهِ ، أو دينِهِ ووطَنِهِ ، والفَقْرُ إذا اشْتَدَّ بالإِنْسانِ ضاقَ بِهِ صَدْرُهُ ، وكادَ يُودي بِهِ إلى الكُفْرِ ، والمَرَضُ إذا أصابَ البَدَنَ أَضْعَفَ الهِمَمَ والأَخْلاقَ ، وفي الحَرْبِ تَعرُّضٌ للهَلاكِ والمَوتِ ، فَهذِهِ كُلُّها قَرَنَها سُبْحانَهُ وتَعالى بالصَّبْرِ ؛ صَبْرِ الإِنسانِ على الفاقَةِ والفَقْرِ ، وصَبْرِهِ على ما يُصيبُهُ مِنْ مَرَضٍ ، وصَبْرِهِ في الحَرْبِ . والصَّبْرُ في القِتالِ يَظْهَرُ عِنْدَما يَلْتَقي الجَمْعانِ وتَشْتَدُّ الحَرْبُ ، وبَعْضُ النّاسِ لا يَستَطيعُ البَقاءَ فَيلوذُ بالفِرارِ ، أَوْ يَسْتَسْلِمُ لِلْعَدوِّ ، ولِذا جَعَلَ الإِسلامُ مِنَ الكَبائِرِ الفِرارَ يَومَ الزَّحْفِ .

هذهِ الأُمورُ الّتي ذَكَرهَا القُرْآنُ هِيَ جَوامِعُ الخَيْرِ ، وهِيَ البِرُّ كُلُّ البِرِّ ، فَلَيْسَ البِرُّ مُجَرَّدَ التَّوَجُّهِ إلى جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ سَواءً أكانَتْ إلى المَشْرِقِ أمْ إلى المَغْرِبِ . وَقَدْ جَمَعَتْ هَذهِ الآيَةُ بَيْنَ أُصولِ الإيمانِ وأُصولِ الأَعْمالِ ، وأُصولِ الأَخْلاقِ ، وبَيَّنَتْ كَيْفَ يَنْبَغي أنْ تَكونَ عَلاقَةُ العَبْدِ مَعَ رَبِّهِ ، وعَلاقَتُهُ مَعَ نَفْسِهِ ، وعلاقَتُهُ مَعَ الآخَرينَ كَيْ يَحوزَ الْخَيْرَ ، ويَكونَ أَهْلاً لِلبِرِّ .

إنَّ الّذينَ قاموا بِما أَمَرَهُمُ اللهُ تَعالى بِهِ مِنْ بِرٍّ ، والتَزَموا بِهِ عَلى الوَجْهِ الّذي أَرادَهُ اللهُ تَعالى إنَّ هؤلاءِ قدْ وَصَفَهُمُ اللهُ بِوَصْفَيْنِ عَظيمَيْنِ :

١ـ أُولَئِكَ الّذينَ صَدَقوا في دَعْواهُمُ الإيمانَ ، فَلَمْ يُؤْمِنوا بِأَقوالِهِم فَقَط ، وإِنَّما بِقُلوبِهِمْ وجَوارِحِهِمْ كَذلكَ .

٢ـ وأولئِكَ هُمُ المُتَّقونَ ، هَؤلاءِ الّذينَ الْتَزَموا بِما ذَكَرَ اللهُ ، هُمْ وحْدَهُمُ المُتَّقونَ الّذينَ عَمِلوا بالتَّنْزيلِ ، وخافوا مِنَ الجَليلِ سُبْحانَهُ ، واسْتَعَدُّوا لِيومِ الرَّحيلِ ، أولئِكَ الّذينَ هيَّأوا باطِنَهُمْ لِلْحَقِّ سُبْحانَهُ كَما يُحِبُّونَ أنْ يكونَ ظاهِرُهُمْ أمامَ الخَلْقِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، منها :

١ـ الإنْسانُ لا يَكونُ مُؤمِناً إلاّ إذا كانَ حُبُّهُ للهِ ورَسولِهِ ﷺ أشَدَّ مِنْ حُبِّ ما سِواهُما ، واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ بِذِكْرِ اللهِ ، وابْتَعَدَ عَنِ المَعاصي .

٢ـ الأَعْمالُ الصّالِحَةُ هِيَ ثَمرةُ الإيمانِ الصَّحيحِ وتَرْجَمَةٌ لَهُ .

٣ـ المُجْتَمَعُ الآمِنُ ، هُوَ الّذي يَكونُ التّعاوُنُ والتَّآلُفُ والتَّوادُّ والتَّراحُمُ بَيْنَ أفْرادِهِ ، إذْ هُوَ كالجَسَدِ الواحِدِ إذا اشْتَكى مِنْهُ عُضْوٌ تَداعى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى .

٤ـ المُجْتَمَعُ الفاضِلُ والآمِنُ هُوَ الّذي يَتَحَلّى أفْرادُهُ بِأَخْلاقيّاتِ الرّسولِ ﷺ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقصودُ بالبِرِّ ؟ وما عَلاقَةُ ما جاءَ في الآيةِ هُنا بقَضيَّةِ تَحويلِ القِبْلَةِ ؟

٢ـ مِنْ جَوامِعِ البِرِّ ما ذَكَرَتْهُ الآيَةُ مِنْ أُصولِ الإيمانِ ، ما تِلْكَ الأُصولُ ؟

٣ـ ما الإيمانُ المَطْلوبُ مِنَ الإنْسانِ ؟

٤ـ إيتاءُ المالِ لِمُسْتَحقّيهِ مِنْ جوامِعِ البرِّ ، مَنْ هُمُ المُسْتَحِقّونَ لهذا المالِ ؟

٥ـ لِمَ قَدَّمَتِ الآياتُ ذوي القُرْبى ؟

٦ـ مَنْ هُوَ المِسْكينُ وابْنُ السَّبيلِ ؟

٧ـ ما المَقْصودُ بإقامِ الصَّلاةِ ؟

٨ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أُصولَ الأَخلاقِ الّتي يَنْبَغي على الإنْسانِ أنْ يَتَحَلّى بِها . ما تِلْكَ الأُصولُ ؟

٩ـ بماذا وَصَفَتِ الآياتُ أولئكَ الّذينَ الْتَزموا بِجَوامِعِ البِرِّ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ آيَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مِنْ كِتابِ اللهِ قَرَنَ فيهما بَيْنَ الإيمانِ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ .

٢ـ اكتبْ مِنْ سورَةِ الضُّحى الآيَةَ الدّالَّةَ على إكرامِ اليَتيمِ .

٣ـ مِنْ خِلالِ الآيةِ الكريمةِ ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ .

أ ـ حَدِّدِ النَّصَّ الّذي بَيَّنَ عَلاقَةَ الإنسانِ مَعَ رَبِّهِ ، وعلاقَتَهُ مَعَ نَفْسِهِ ، وعلاقَتَهُ مَعَ الآخَرينَ .

ب ـ اكْتُبْ مَوْضوعاً حَوْلَ الآيةِ المَذْكورَةِ وَضَعْهُ على مَجلَّةِ الحائِطِ في مَدْرَسَتِكَ .

❃ ❃ ❃

الدَّرْسُ السَّادِسُ

سورةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ الثّاني والخَمْسونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ
عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ
ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كُتِبَ	: فُرِضَ .
القِصاصُ	: العُقوبَةُ بالمِثْلِ مِنْ قَتْلٍ أو جَرْحٍ .
عُفِيَ	: مِنَ العَفْوِ وَهُوَ إِسقاطُ العُقوبَةِ .
أُولي الأَلْبابِ	أَصْحابِ العُقولِ .

التَّفْسيرُ :

ذَكَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ أنَّ البِرَّ هُوَ الّذي يَجْمَعُ أَلْوانَ الخَيْرِ الكَثيرَةَ ، وقَدْ بَدَأَتْ هَذِهِ الآياتُ تَتَحدَّثُ عَنْ بَعْضِ الأَحْكامِ العَمَلِيَّةِ الّتي لا بُدَّ مِنْها لِصَلاحِ النّاسِ وصَلاحِ المُجْتَمَعِ ، ومِنْ أَهَمِّ هذِهِ الأَحْكامِ ، الحِفاظُ عَلى أَمْنِ النّاسِ وحَياتِهِمْ ودِمائِهِمْ ، ولِذا فَقَدْ بَدَأَتْ آياتُ هَذِهِ السّورَةِ ببيانِ حُكْمِ القِصاصِ . قالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾ .

افتُتِحَتْ هذِهِ الآياتُ بهذا النّداءِ المُحَبَّبِ إلى نُفوسِ المُؤْمنينَ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وبَيَّنَتْ لَهُم أنَّ اللهَ تعالى قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمُ القِصاصَ ، الّذي هُوَ العُقوبَةُ بالمِثْلِ مِنْ قَتْلٍ أوْ جَرْحٍ ؛ ذَلِكَ أنَّ الاعْتِداءَ قَدْ يَقَعُ على نَفْسِ الإنْسانِ ، وذَلِكَ بِقَتْلِهِ وإزْهاقِ روحِهِ ، وقَدْ يَقَعُ على عُضْوٍ مِنَ الإنْسانِ ، وذَلِكَ كَكَسْرِ يَدِهِ ، أَوْ فَقْءِ عَيْنِهِ ، أو قَطْعِ أُذُنِهِ ، أَوْ جَرْحِهِ ، وهكَذا .

والحديثُ هُنا عَنِ النّوْعِ الأَوّلِ ، وهُو القِصاصُ في القَتْلى ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ تَعالى القِصاصَ الّذي هُوَ قَتْلُ القاتِلِ عُقوبَةً لَهُ على جَريمَتِهِ ، إذْ أَنَّهُ اعْتَدى على النَّفْسِ الإنْسانِيَّةِ ، ومَعْروفٌ أَنَّ دَمَ الإنْسانِ مَعْصومٌ كَما قالَ النَّبيُّ ﷺ .

وقَدْ راعى الإسْلامُ قَضِيَّةَ المُساواةِ في القَتْلِ ؛ إذْ لا يَجوزُ قَتْلُ غَيْرِ القاتِلِ ، كَما لا يَجوزُ الإسرافُ في القَتْلِ كَأَنْ يُقْتَلَ القاتِلُ ومَعَهُ غَيْرُهُ مِنْ أَقاربِهِ .

وقَدْ وجَّهَ سُبْحانَهُ الخِطابَ للمُؤمنينَ ، مَعَ أَنَّ تَنْفيذَ الحُكْمِ إنّما يَكونُ إلى أولياءِ الأُمورِ ، وذلِكَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ الحُكّامَ إنْ لَمْ يُنَفِّذوا شَرْعَ اللهِ ، فَعَلَيْهِمْ تَبِعَةُ ذَلِكَ ، وعلى الأُمّةِ مُطالبَتُهُمْ تَنْفيذَ شَرْعِ اللهِ تَعالى :

﴿ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾ إنَّ هذا القِصاصَ لَيْسَ فيهِ جَوْرٌ ولا ظُلْمٌ ، إنّما فيهِ العَدْلُ المُطْلَقُ والمُساواةُ ، فإذا قَتَلَ حُرٌّ حُرّاً ، يُقْتَلُ بهِ هُوَ لا أَحَدٌ غَيْرُهُ ، وإذا قَتَلَ عَبْدٌ عَبْداً يُقْتَلُ هو بهِ أيْضاً ، لا سَيّدُهُ ، ولا أَحَدٌ مِنْ أحْرارِ القَبيلةِ ، وكَذلِكَ إذا قَتَلَتِ امْرأةٌ المرأةَ ، تُقْتَلُ هِيَ ، ولا يُقْتَلُ أَحَدٌ آخَرُ بَدَلاً عَنْها ، وهَذا كُلُّهُ خِلافاً لِما كانَتْ عَلَيْهِ الجاهِلِيَّةُ .

فَالقِصاصُ يَنْبَغي أنْ يَكونَ على القاتِلِ نَفْسِهِ أيّاً كان ، ولَيْسَ على أحدٍ مِنَ القَبيلَةِ ، وبِهذا الحُكْمِ أَلْغَتِ الشَّريعَةُ عادةَ الثَّأْرِ الّتي كانَتْ شائِعَةً في الجاهِلِيّةِ .

وقَدْ ذَكَرَ المُفَسِّرونَ أَنّهُ كانَ في الجاهِلِيّةِ بَيْنَ حَيَّيْنِ مِنَ العَرَبِ دماءٌ ، وكانَ لأَحَدِهِما طَوْلٌ أيْ : فَضلٌ وشَرَفٌ على الآخَرِ ، فَأَقْسَموا لَنَقْتُلَنَّ الحُرَّ مِنْكُمْ بالعَبْدِ والذَّكَرَ بالأُنْثى ، ولمّا جاءَ الإسْلامُ تَحاكَموا إلى الرَّسولِ ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَبارأوا أيْ : يَتساوَوْا في القِصاصِ .

ثُمَّ ذَكَرَتِ الآياتُ حُكْماً يَفْتَحُ بَيْنَ القاتِلِ وأوْلِياءِ المَقتولِ باباً مِنَ التَّراضي ، فَقَدْ أَباحَ الإسْلامُ لَهُمْ أَنْ يَعْفوا ، ويُسْقِطوا عَنْهُ العُقوبَةَ ، ويَأْخُذوا مُقابِلَ ذلِكَ الدِّيَةَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ فَالقاتِلُ عَمْداً إذا أَسْقَطَ عَنْهُ وَليُّ القَتيلِ

القِصاصَ ، عَنْ رِضىً وقَبِلَ الدِّيَةَ بَدَلَ القِصاصِ ، فَمِنَ الواجبِ على وليِّ الدَّمِ أنْ يَتَّبِعَ العَدْلَ في أخْذِ الدِّيَةِ مِنَ القاتِلِ ، فلا يُطالِبُهُ بأكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ ، والواجبُ كذلِكَ على أولياءِ القاتِلِ أنْ يَدْفَعَ الدِّيَةَ بالحُسْنى ، فلا يُماطِلُ في الدَّفْعِ ، ولا يَبْخَسُ وليَّ المَقْتولِ كَذَلِكَ حَقَّهُ ، فَقوْلُهُ تَعالى : ﴿ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وَصيَّةٌ لِوَلي الدّمِ أنْ يَكونَ عادِلاً رَفيقاً في مُطالبَةِ القاتِلِ بدَفْعِ الدِّيَةِ ، وقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ وصيَّةٌ مِنْهُ للقاتِلِ بأَنْ يَدْفَعَ الدِّيَةَ لِوَليِّ الدَّمِ دونَ تَسْويفٍ أو مُماطَلَةٍ .

وقَدْ سمّى القُرآنُ الكَريمُ القاتِلَ أخاً لِوَليِّ المقتولِ ، لِيُذَكِّرَهُمْ بالأُخوَّةِ الإنْسانيّةِ والأُخوّةِ النّابعَةِ مِنَ العَقيدةِ الإسْلاميّةِ ، فَيُثيرُ لَدى كلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ هذا الإحْساسَ ، فَيَقَعُ بَيْنَهُمُ العَفْوُ والاتِّباعُ بالمَعروفِ والأداءُ بالإحْسانِ .

وَجاءَتْ كَلِمَةُ ﴿شَيْءٌ﴾ الّتي تَعْني القِصاصَ نَكِرَةً ، وذَلِكَ لِتُفيدَ التَّقليلَ ، أي : فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخيهِ شَيءٌ مِنَ العَفْوِ والتَّجاوُزِ ولَوْ أقَلَّ القَليلِ ، تمَّ العَفْوُ وسَقَطَ القِصاصُ ووَجَبَتِ الدِّيَةُ .

وَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ الحِكْمَةَ مِنْ هذا التَّشريعِ، فقالَ سُبحانَهُ : ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أَي : ذَلِكَ الحُكْمُ الّذي شَرَعْناهُ لَكُمْ مِنَ العَفوِ عَنِ القاتِلِ ، والاكْتِفاءِ بِقَدْرٍ مِنَ المالِ ، تَخْفيفٌ ورُخْصَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ورَحْمَةٌ لَكُمْ مِمّا كَتَبَهُ اللهُ على الأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وأيُّ رَحْمَةٍ أفْضَلُ مِنَ العَطْفِ والعَفْوِ والامتِناعِ عَنْ سَفْكِ الدِّماءِ .

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : مَنِ اعْتَدى وانْتَقَمَ مِنَ القاتِلِ بَعْدَ العَفْوِ والرِّضى بالدِّيَةِ ، فَلَهُ عذابٌ أليمٌ مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ القيامَةِ .

وبعدَ أنْ ذَكَرَتِ الآياتُ الحِكْمَةَ مِنَ العَفْوِ ، والتَّحْذيرَ مِنَ الغَدْرِ ، وتَوّعَدَ اللهُ الغادرَ بِعَذابٍ أليمٍ ، أرْشَدَتْ إلى بيانِ الحِكْمَةِ في القِصاصِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ .

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ إنَّ لَكُمْ في القِصاصِ حَياةً عَظيمَةً هَنيئَةً ، وهَذا مَفْهومٌ مِنْ تَنْكيرِ كَلِمَةِ ﴿حَيَاةٌ﴾ إذ فيهِ صِيانَةُ النّاسِ مِنَ اعْتِداءِ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ ، فَمَنْ عَلِمَ أنّهُ إذا قَتَلَ نَفْساً يُقْتَلُ بِها ، يَرْتَدِعُ عَنِ القَتْلِ فيَحْفَظُ حياةَ مَنْ أرادَ قَتْلَهُ وحياةَ نَفْسِهِ .

وقَدْ نُقِلَ عَنِ العربِ كَلِماتٌ تُفيدُ مَعْنى الآيةِ ، فَقالوا : (القَتْلُ أَنْفى لِلقَتْلِ) ، ومَعَ أنَّ هذِهِ مِنْ أفْصَحِ كلامِ العَرَبِ ، إلا أَنَّ الآيَةَ أبْلَغُ وأفْصَحُ مِنْها ، وفيها الكَثيرُ مِنَ الفَوائِدِ ، فإنَّ الآيَةَ جَعَلَتْ سَبَبَ الحياةِ القِصاصَ ، الّذي هُوَ القَتْلُ على وَجْهِ التَّساوي ، أمّا ما قالَهُ فُصَحاءُ العَرَبِ : (القَتْلُ أَنْفى لِلقَتْلِ) فَقَدْ جَعَلَتْ سَبَبَ الحياةِ القَتْلَ وَمِنَ القَتْلِ ما يَكونُ ظُلْماً ، فلا يَكونُ نافِياً لِلقَتْلِ ، بَلْ يَكونُ سَبَباً في زِيادَتِهِ .

وقَدْ خَصَّ سُبْحانَهُ بِهذا الخطابِ ﴿ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وهُمْ أَرْبابُ العُقولِ ، للدّلالَةِ على أَنَّ الّذي

يَفْهَمُ قيمةَ الحياةِ ، ويَتَدَبَّرُ عواقِبَ الأُمورِ ، ويَفْقَهُ سِرَّ هذا الحُكْمِ وما يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ المَصْلَحَةِ والحِكْمَةِ هُوَ صاحِبُ العَقْلِ الرّاجِحِ .

وإِنَّ مَنْ يُنْكِرُ القِصاصَ والحِكْمَةَ مِنْهُ ، وأَثَرَهُ في تَثْبيتِ دعائِمِ الأَمْنِ يَعيشُ بَيْنَ النّاسِ بِعَقْلٍ غَيْرِ سليمٍ ، فَنَحْنُ نَرى ونُشاهِدُ أَنَّ القَتْلَ في ازْدِيادٍ ، وعُقوبَةُ القاتِلِ بالسِّجْنِ لِمُدةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، عُقوبَةٌ غَيْرُ رادِعَةٍ ؛ ولِذا فإِنَّ الناسَ لا يأْمَنونَ على حَياتِهِمُ الّتي هِيَ ضَرورَةٌ مِنْ ضَروريّاتِ الدّينِ ، فالقِصاصُ فيهِ حَياةٌ وأَمْنٌ واسْتِقْرارٌ للنّاسِ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بقولِهِ تَعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أيْ : شَرَعْنا لَكُمْ هذهِ الأَحْكامَ لعلَّكُمْ تَتَّقونَ اللهَ وتَكُفّونَ عَنْ سَفكِ الدّماءِ ، إِذِ العاقِلُ يَحْرِصُ على الحياةِ السَّعيدَةِ الكَريمَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُساواةُ في القِصاصِ مِنَ القاتِلِ ، فالقاتِلُ يُقتَلُ ، لا أَحَدَ غَيْرُهُ .

٢ـ دَعْوَةُ القُرْآنِ الكَريمِ لأَوْلياءِ المَقتولِ في العَفْوِ ، لأَنَّهُ أَقْرَبُ إلى صَفاءِ القُلوبِ ، وجَمْعِ النُّفوسِ على الإخاءِ والتَّعاطُفِ والتَّسامُحِ .

٣ـ تَحْريمُ ما يُسَمّى بالثَّأْرِ الّذي يَكونُ ضَحاياهُ كَثيرينَ سواءٌ مِنْ أَهْلِ القاتِلِ أَمْ أَهْلِ المَقتولِ .

٤ـ القِصاصُ الّذي شَرَعَهُ اللهُ تَعالى فيهِ الحِفاظُ على حَياةِ النّاسِ وأَمْنِهِمْ واسْتِقْرارِهِمْ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ معانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

كُتِبَ القِصاصُ ، عُفِيَ ، اعْتَدى .

٢ـ الاعْتِداءُ على الإنْسانِ لَهُ صورتانِ ، ما هُما ؟

٣ـ ما الأَمْرُ الّذي وَجَّهَتْ إِلَيْهِ الآياتُ الخِطابَ في قَضِيَّةِ القِصاصِ ؟

٤ـ إلى مَنْ وَجَّهَ اللهُ الخِطابَ في آياتِ القِصاصِ ؟ ما المَقْصودُ بقولِهِ تَعالى : ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ ؟ وعَلامَ تَدُلُّ الآيةُ ؟

٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ حُكْماً يَفْتَحُ بَيْنَ القاتِلِ وأَولياءِ المَقْتولِ باباً مِنَ التَّراضي ، ما هذا الحُكْمُ ؟

٦ـ لِمَ سَمّى القُرْآنُ القاتِلَ أخاً لِوَلِيِّ المَقْتولِ ؟

٧ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ تَشْريعِ العَفْوِ عَنِ القاتِلِ ؟ وما الحِكْمَةُ مِنْ تَشْريعِ القِصاصِ ؟

٨ـ اعْقِدْ مُقارنَةً بَيْنَ قولِهِ تَعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وقولِ العَرَبِ : القَتْلُ أَنْفى لِلقَتْلِ .

٩ـ مَنْ أُولو الأَلْبابِ ؟ ولِماذا ذُكِروا في هذهِ الآياتِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ بَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ دَمَ الإنْسانِ مَعْصومٌ إلاّ بإحْدى ثَلاثٍ ، ما تِلكَ الثَّلاثُ ، اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أَنْواعَ القَتْلِ ، ومِقدارَ الدِّيَةِ لِكُلِّ نَوْعٍ .

٣ـ ارْجِعْ إلى تَفْسيرِ « روحِ المَعاني » للآلوسي ، واكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما جاءَ فيهِ مِنْ أَفْضَلِيَّةِ الآيَةِ القُرْآنيَّةِ على قولِ العَرَبِ .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّالِثُ والخَمْسونَ

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾
فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

خَيْراً : مالاً كَثيراً .

الوَصِيَّةُ : كُلُّ شَيْءٍ يُؤْمَرُ بِفِعْلِهِ وتَنْفيذِهِ بَعْدَ المَوْتِ .

جَنَفاً : خَطَأً .

إِثْماً : تَعَمُّدَ الظُّلْمِ .

التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنِ القِصاصِ ، وهُنا تَتحدَّثُ عَنْ حُكْمٍ آخَرَ مِنَ الأَحْكامِ وهُوَ ما يَتعلَّقُ بالوَصيَّةِ . قالَ تَعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : فُرِضَ عَلَيْكُمْ أَيُّها المؤْمِنونَ إذا حَضَرَتْ أَحَدَكُمْ أَسْبابُ المَوْتِ وعَلاماتُهُ ، وكانَ قدْ تَرَكَ وراءَهُ مالاً كثيراً لِوَرَثَتِهِ سواءً أكانوا أَبْناءً أَمْ زوْجَةً أَمْ غَيْرَهُمْ ، فُرِضَ عَلَيْكُمْ في هَذِهِ الحالَةِ أَنْ توصوا بشيءٍ مِنْ هذا المالِ والخَيْرِ لِلْوالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ ، وذلِكَ رعايةً لِحَقِّهِمْ

وحاجَتِهِمْ ، بحيْثُ تَكونُ هذِهِ الوصيّةُ بالوَجْهِ المَعروفِ الّذي لا يُسْتَنْكَرُ لِقِلَّتِهِ ، فلا يَكونُ قليلاً لا يَفي بالحاجَةِ ، ولا يُسْتَنْكَرُ كَذَلِكَ لِكَثْرَتِهِ ، إذْ إنَّهُ سَيَضُرُّ عِنْدَ ذَلِكَ بالوَرَثَةِ ، ويَنْبَغي أَنْ تَكونَ الوَصِيَّةُ بالعَدْلِ ، وهَذِهِ الوَصِيَّةُ على هذا الوَجْهِ تُعَدُّ حقّاً على المُتَّقينَ ، الَّذينَ اتَّقوا اللهَ تَعالى ، وخَشوا مِنْهُ .

وقَدْ جاءَ الحَديثُ عَنِ الوَصِيَّةِ بهذا الأُسلوبِ ، لِتَوجيهِ النَّاسِ إلى وُجوبِ تَغييرِ ما كانَ مُنْتَشِراً بَيْنَهُمْ مِنْ عاداتِ الجاهِلِيَّةِ ، فَقَدْ كانوا يَمْنَعونَ أَقْرِباءَهُمْ مِنَ المالِ تَوهُّماً مِنْهُمْ أَنَّ هذا القَريبَ كانَ يَتمنَّى المَوْتَ لِصاحِبِ المالِ ، لِيَصيرَ ذَلِكَ المالُ إلَيْهِ .

وَرُبَّما فَضَّلوا بَعْضَ أقارِبِهِمْ على بَعْضٍ ، فَيُؤَدّي هَذا إلى التَّباغُضِ والتَّحاسُدِ بَيْنَ الأَقْرباءِ ، وقَدْ جاءَتْ ﴿كُتِبَ﴾ بصيغَةِ الماضي المَبْنِيِّ لِلْمَجْهولِ ، وحُذِفَ الفاعِلُ للعِلْمِ بِهِ ، وهُوَ اللهُ تَعالى ، أيْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْكُمْ إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ ، وقَدْ خَصَّ اللهُ تَعالى هذا الحقَّ بالمُتَّقينَ تَرْغيباً لَهُمْ في الرِّضا بِحُكْمِ اللهِ تَعالى ، فما كانَ مِنْ شَأْنِ المُتَّقينَ حَرِيٌّ بالنّاسِ أَنْ يَفْعَلوهُ ويَتأسَّوا بهِ ، لأَنَّهُمْ إنْ أَهْمَلوهُ وتَرَكوا العَمَلَ بهِ ، حُرِموا مِنْ أَنْ يَكونوا مِنَ المُتَّقينَ .

هَلْ تَصِحُّ الوَصِيَّةُ للوارِثِ ؟

ذَهَبَ جُمْهورُ العُلَماءِ إلى أَنَّ الوَصِيَّةَ للوارِثِ لا تَصِحُّ ، لِقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ : « إنَّ اللهَ أَعْطى كُلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، ألا لا وَصِيَّةَ لِوارِثٍ »[1] . ولِذا فَقَدْ ذَكَروا أَنَّ هذِهِ الآيَةَ مَنْسوخَةٌ بآيَةِ المَواريثِ في سورةِ النِّساءِ ، وقَدْ ذَكَرَ الإمامُ البُخاريُّ في صَحيحِهِ عَنِ ابنِ عباسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ قالَ : كانَ المالُ للولَدِ وكانَتِ الوَصِيَّةُ للوالدَيْنِ ، فَنَسَخَ اللهُ مِنْ ذلِكَ ما أَحَبَّ ، فَجَعَلَ للذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ، وجَعَلَ للأَبوينِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما السُّدُسَ ، وجَعَلَ للمَرْأَةِ الثُّمُنَ والرُّبُعَ ، وللزَّوْجِ الشَّطرَ والرُّبُعَ[2] .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتوعَّدَ مَنْ يُبَدِّلُ الوَصِيَّةَ ، بِأُسْلوبٍ وطَريقَةٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِما اللهُ تَعالى ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ ﴾ .

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ أيْ : مَنْ غَيَّرَ هذا الّذي أَوْصى بهِ المُتوفّى ، وذَلِكَ بالزِّيادَةِ في الموصى بهِ ، أوِ النَّقْصِ مِنْهُ ، أو كَتَمَهُ مِنْ بَعْدِ أَنْ عَلِمَ وتَحَقَّقَ مِنْ هَذِهِ الوَصِيَّةِ ، وقَدْ عَبَّرَتِ الآياتُ عَنِ العِلْمِ بالسَّماعِ ، لأَنَّ السَّماعَ طريقٌ لِلْعِلْمِ ، فَمَنْ بَدَّلَ أَوْ غَيَّرَ في الوَصِيَّةِ ، فإنَّما إثْمُ ذلِكَ التَّغييرِ عَلَيْهِ ، لأَنَّهُ بتَغييرِ الوَصِيَّةِ وتَبْديلِها ، يَكونُ قدْ خانَ الأَمانَةَ وخالَفَ شَريعَةَ اللهِ

---

(١) أخرجه الترمذي/ كتاب الوصايا ، باب: ما جاء لا وصية لوارث ، حديث رقم ٢١٢٠، والنسائي حديث رقم (٣٥٨١)/ كتاب الوصايا ، باب : إبطال الوصية للوارث ، وأبو داود ، حديث رقم (٢٤٨٦)/ كتاب الوصايا ، باب: ما جاء في الوصية للوارث .

(٢) أخرجه البخاري ، باب : لا وصية لوارث برقم ٢٥٩٦ .

تَعالى ، أمّا الموصي فَلَنْ يَلْحَقَهُ شيْءٌ مِنَ الإثْمِ عِنْدَ ذَلِكَ ، لأنَّهُ قَدْ أدّى ما عليهِ ، فَقَدْ أوصى كَما أرادَ اللهُ تَعالى .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لِتُشْعِرَ بالوَعيدِ الشَّديدِ لِكُلِّ مَنْ غَيَّرَ وبَدَّلَ بهذا الحَقِّ الّذي أوْجَبَهُ اللهُ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَهُوَ سَميعٌ لِوَصِيَّةِ الموصي ، عَليمٌ بما يَقَعُ فيها مِنْ تَبْديلٍ وتَحْريفٍ .

مَتى يَجوزُ تَعديلُ الوَصِيَّةِ ؟

قالَ تَعالى :

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾ .

اسْتَثْنَتِ الآياتِ مِنْ إثْمِ التَّبْديلِ حالَةً يَجوزُ فيها التَّغْييرُ والتَّبديلُ[1] ، وهِيَ إذا ما رأى الوَصِيُّ أَنَّ الموصي قَدْ حادَ في وَصِيَّتِهِ عَنْ حُدودِ العَدْلِ ، فَلَهُ حينئذٍ أَنْ يُصْلِحَ في الوَصِيَّةِ بحيثُ يَجْعَلُها مُتَّفِقَةً مَعَ ما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى ، فلو رأى في الوَصِيَّةِ مَيْلاً عنِ الحَقِّ خَطأً أو عَمْداً ، وأَصْلَحَ بَيْنَ الموصى لَهُمْ بِرَدِّهِمْ إلى شَرْعِ اللهِ تَعالى فلا إثْمَ عَلَيْهِ في هذا التَّغْييرِ ، فالضَّميرُ في (بَيْنَهُم) عائِدٌ عَلى الموصى لهُمْ ، أي : أَصْلَحَ الوَصِيُّ بَيْنَ الموصى لَهُمْ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أيْ : إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ لِمَنْ يَتوبُ ، ويَرْجِعُ إلى اللهِ تَعالى ، ويَغْفِرُ لِمَنْ يُصْلِحُ بَيْنَ النّاسِ ، ويُصْلِحُ في تِلْكَ الوَصِيَّةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الأَقْرَبونَ أوْلى بالمَعروفِ ، فَعلى الإنْسانِ أَنْ يَصِلَهُمْ ، ويَقْضيَ حاجاتِهِمْ .

٢ـ الوَصِيَّةُ للوالِدَيْنِ مَنْسوخَةٌ بآيةِ المواريثِ .

٣ـ لا بُدَّ مِنْ تَنْفيذِ الوَصِيَّةِ وعَدَمِ التَّبْديلِ والتَّغْييرِ فيها ، إلاّ إنْ كانَ فيها ظُلْمٌ وإجْحافٌ بِحَقِّ أَحَدٍ .

---

(١) الإصلاحُ يكونُ بتَوْجيهِ الموصي للّتي هي أقْوَمُ ، وذلكَ بالعَدْلِ في الوَصِيَّةِ ، و التَّغْييرُ والتَّبديلُ لَيْسَ إصْلاحاً .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بِحُضورِ المَوْتِ ؟

٢ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أنَّ الوَصِيَّةَ للوالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ يَنْبغي أنْ تَكونَ بالمَعروفِ ، ما حُدودُ هذا المَعْروفِ ؟

٣ـ لِماذا جاءَ الحديثُ عَنِ الوَصِيَّةِ بهذا الأُسلوبِ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ.......﴾ ؟ ولِمَ جاءَ الفِعْلُ الماضي مَبْنِيّاً لِلمَجهولِ ؟

٤ـ خَصَّتِ الآياتُ هَذا الحَقَّ الّذي ذَكَرَتْهُ على المُتَّقينَ ، ما الحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ ؟

٥ـ هلْ تَصِحُّ الوَصِيَّةُ للوارِثِ ؟ بَيِّنْ ذَلِكَ .

٦ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ .

٧ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ؟

٨ـ هَلْ يَجوزُ تَبْديلُ الوَصِيَّةِ وتَغْييرُها ؟ ومَتى ؟

نَشاطٌ :

ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آياتِ المواريثِ مِنْ سورةِ النِّساءِ .

❉ ❉ ❉

الدَّرسُ الثّامِنُ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الرابِعُ والخَمْسونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ
إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ
ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ
فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ
وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الصّيامُ : لُغَةً الإمْساكُ ، وشَرْعاً : الإمْساكُ عَن شَهَواتِ البَطْنِ والفَرْجِ وما يَقومُ مَقامَهُما مِنْ طُلوعِ الفَجْرِ الصّادِقِ إلى غُروبِ الشَّمْسِ .

يُطيقونَهُ : مِنَ الطّاقةِ ، وهِيَ القُدْرَةُ على الشَّيْءِ .

الفُرْقانِ : الّذي يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ ، وهُوَ القُرْآنُ الكَريمُ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ بَيَّنَتِ سورَةُ البَقَرَةِ وَجوهَ البِرِّ كما ذُكِرَ في السّابِقِ ، وبَدَأَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الأَحْكامِ التَشريعيَّةِ الّتي كَلَّفَ اللهُ بِها المُسْلِمينَ ، وذَكَرَ مِنْ تِلْكَ التَّكاليفِ القِصاصَ والوَصِيَّةَ ، وهاهيَ الآياتُ تُحَدِّثُنا عَنِ الصِّيامِ . قالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ .

بَدَأَتِ الآياتُ بِهذا النِّداءِ الرَّبانيِّ : ﴿يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ أَمَنُوا﴾ الّذي يَنْطَوي عَلى غَرَضٍ تَرْبَوِيٍّ ، وهُوَ تَنْبيهُ المؤْمنينَ إلى أنَّ ما بَعْدَ النِّداءِ أَمْرٌ ، جَديرٌ بالعِنايةِ والاهْتِمامِ ، وقَدْ مَرَّتْ مَعَنا آياتٌ كثيرةٌ ابْتَدَأَتْ بِهذا النِّداءِ .

وهَكذا كُلُّ نِداءٍ للمُؤْمنينَ فيهِ توْجيهٌ إلى أنَّ ما يُلْقى عَلَيْهِمْ بَعْدَ النِّداءِ مِمّا كَلَّفَهُمْ اللهُ بهِ جَديرٌ بالعِنايَةِ والتَّنْفيذِ .

وقَدْ وَصَفَهُمْ اللهُ بالإيمانِ ، تَنْشيطاً لَهُمْ وتَرْغيباً لَهُمْ ، لِيُنَفِّذوا ما أَمَرَهُمْ اللهُ بهِ أو نَهاهُمْ عَنْهُ ، بِنُفوسٍ تَمْلؤُها الطُّمأْنينَةُ ، وقلوبٍ يَمْلؤُها الإيمانُ ، كيفَ لا ؟ وهاهُمْ يَسْمَعونَ رَبَّهُمْ يُثْني عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمُ المُؤْمِنونَ ، فَكَأَنَّ هَذا الوَصْفَ يَهيبُ ويَرْتَفِعُ بِهِمْ حتَّى تَصيرَ هَذِهِ التَّكاليفُ الإلهيَّةُ مَأْلوفَةً لَدَيْهِمْ ، يُؤَدّونَها كَما أَمرَ اللهُ تَعالى .

وبَعْدَ هذا النِّداءِ ، يُوَجِّهُ اللهُ تَعالى إلَيْهِمْ هَذا الأَمْرَ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي : فُرِضَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ ، ولَسْتُمْ أَنْتُمْ أَوَّلَ أُمَّةٍ يُفْرَضُ عَلَيْهِمْ ، ولَكِنَّهُ عِبادَةٌ كُلِّفَتْ بِها الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ ، فَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلَهُ : « خيرُ الصِّيامِ صِيامُ داودَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، كانَ يَصومُ يَوْماً ويُفْطِرُ يَوْماً ، ولا يَفِرُّ إذا لاقى »[1]

وَلَكِنَّ الصَّوْمَ الّذي كُتِبَ على الأُمَمِ الأُخرى هُوَ نَفْسُهُ الصَّوْمُ الّذي كُتِبَ عَلَيْنا ، باسْتِثْناءِ أَكْلَةِ السّحورِ ، وحُرْمَةِ تَناوُلِ الطَّعامِ بَعْدَ النَّوْمِ في لَيْلِ رَمَضانَ .

ثُمَّ يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وتِلْكُمْ هِيَ غايَةُ الصَّوْمِ ، إنَّها التَّقْوى ، فالتَّقْوى هِيَ ثَمَرَةُ العِبادَةِ ، وهِيَ ثَمَرَةُ الصَّوْمِ ، يَتَّصِفُ بِها المُسْلِمُ إذا كانَ باطِنُهُ عامِراً بِمُراقَبَةِ اللهِ تَعالى ، وفي ذِكْرِ هذهِ الجُمْلَةِ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تنبيهٌ على شَأْنِ الصَّوْمِ وفَضْلِهِ ومَنْزِلَتِهِ ، فَمَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بالتَّقوى لا بُدَّ وَأَنْ يَكونَ مُنْتَهِياً عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، زَكِيَّ النَّفْسِ ، باحِثاً عَنْ كُلِّ ما يَنْفَعُهُ مِنْ أُمورِ الدُّنيا والآخِرَةِ ، فما أَعْظَمَ فَريضَةَ الصَّوْمِ . ولَعَلَّ هذا هُوَ السَبَبُ في أَنَّ الصَّوْمَ كانَ للهِ دونَ غَيْرِهِ مِنَ العِباداتِ ، واللهُ تَعالى أَعْلَمُ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم ، باب : صوم داود عليه السلام ، رقم الباب ٥٨ .

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)﴾ .

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ المَقْصودُ باليَوْم هُنا النَّهارُ دونَ اللَّيْلِ ، وقَدْ يُطْلَقُ اليَوْمُ على النَّهارِ وحْدَهُ دونَ اللَّيلِ ، كَما في قولِهِ تَعالى : ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة : ٧] .

أَمّا وَصْفُ الأَيّام بِأَنَّها مَعْدوداتٌ ، فَفيهِ إشارةٌ إلى قِلَّتِها مِنْ جِهَةٍ ، وكَوْنِها مُنْضَبِطَةً مِنْ جِهَةٍ أُخْرى . وقَدْ قالوا : إنَّ كُلَّ ما ذَكَرَهُ اللهُ بهذا الوَصْفِ ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ فإنَّهُ لا يَزيدُ عَنْ أَرْبَعينَ .

وأَكْثَرُ المُفَسِّرينَ على أَنَّ الأَيامَ المَعدودَةَ هِيَ أَيَّامُ شَهْرِ رَمَضانَ ، ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ هذه رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى لأَصْحابِ الأَعْذارِ الّذينَ يَشُقُّ عَلَيْهِمُ الصَّوْمُ ، فالمَريضُ والمُسافِرُ إنْ أَفْطَرا فلا حَرَجَ عَلَيْهِما ، وعَلَيْهِما قضاءُ ما أَفْطَراهُ مِنْ أيّامٍ بَعْدَ شَهْرِ رَمضانَ .

ثُمّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولا يُقْصَدُ بالآيَةِ هُنا الشَّيْخُ الهَرِمُ والعَجوزُ ، أو أحدٌ مِنْ أَصْحابِ الأَعْذارِ الّذينَ لا يَستَطيعونَ الصَّومَ ، ومَعْنى الآيَةِ : الَّذينَ يستَطيعونَ الصَوْمَ ، ولَكِنْ بِمَشَقَّةٍ إذا لَمْ يُريدوا أَنْ يَصوموا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُخْرِجوا الفِدْيَةَ .

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ أيْ : إذا زادوا على هَذِهِ الفِدْيَةِ فَذلِكَ خَيْرٌ لَهُمْ ، ومَعَ أَنَّهُمْ مُخَيَّرونَ بَيْنَ الصَّومِ والفِدْيَةِ ، فإنَّ الصَّوْمَ خَيْرٌ لَهُمْ ، أي : الأَفْضَلُ لَهُمْ أَنْ يَصوموا ، فإنَّ صَوْمَهُمْ خَيْرٌ لَهُم مِنْ أنْ يُفْطِروا ويُخْرِجوا الفِدْيَةَ .

وقَدْ كانَ هَذا الحُكْمُ أَوَّلاً ، التخييرُ بَيْنَ الصَّوْمِ والإفْطارِ مَعَ دَفْعِ الفِدْيَةِ ، رُوِيَ عَنْ سَلَمَةَ بنِ الأَكْوَعِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَوْلَهُ : « لمّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كانَ مَنْ أَرادَ أَنْ يُفْطِرَ يُفْدي حتَّى نَزَلَتِ الآيَةُ الّتي بَعْدَها فَنَسَخَتْها » وفي روايةٍ « كُنَّا في رَمَضانَ على عَهْدِ رَسولِ اللهِ ﷺ مَنْ شاءَ صامَ ومَنْ شاءَ أَفْطَرَ فافتدَى بِطعامِ مِسْكينٍ حتَى نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ »(١)

وَأَخْرَجَ البُخاريُّ عَنِ ابنِ أبي لَيْلى قالَ : حَدَّثَنا أَصْحابُ مُحَمَّدٍ : نَزَلَ رَمَضانُ ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ، فَكانَ مَنْ أَطْعَمَ كُلَّ يَوْمٍ مِسْكيناً تَرَكَ الصَّوْمَ مِمَّنْ يُطيقُهُ ، وَرَخَّصَ لَهُمْ في ذَلِكَ فَنَسَخَتْها : ﴿وَأَن

---

(١) أخرجه مسلم/ كتاب الصوم ، باب : نسخ قوله (وعلى الذين يطيقونه . . .) (٢٥/ ١١٤٥) .

تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فأُمِروا بِالصَّوْمِ[1] .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ .

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّ الصَّوْمَ الّذي فَرَضَهُ على المُؤْمِنينَ أيّاماً مَعدوداتٍ ، بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ أنَّ هَذِهِ الأيّامَ المَعْدوداتِ شَهْرُ رَمَضانَ ، وَهَذا تَدَرُّجٌ فيهِ تَرْبِيَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَشْويقٌ ، حَيْثُ قالَ أَوْلاً : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ فَصارَتِ النُّفوسُ تَوّاقَةً لِتَعْرِفَ هَذا الصِّيامَ الّذي كُتِبَ ، فَقالَ :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ وهذِهِ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، أَنْ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الصَّوْمَ في الشَّهْرِ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ فيهِ كِتابَهُ ، فَقَدْ حازَ رمَضانُ هَذِهِ الفَضائِلَ ، أَنْزَلَ اللهُ فيهِ القُرْآنَ وكانَ هَذا الإنْزالُ حينما كانَ النَّبيُّ ﷺ في غارِ حراءٍ ، ثُمَّ فَرَضَ فيهِ الصَّوْمَ في السَّنَةِ الثّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ ، فَبَيْنَ نُزولِ أَوَّلِ آياتٍ مِنَ القُرْآنِ وهِيَ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ وفَرْضِ الصَّوْمِ خَمْسَةَ عَشَرَ عاماً . وقَوْلُهُ : ﴿ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ مَعناهُ : ابْتَدَأَ نُزولُ القرآنِ على قَلْبِكَ أَيُّها النَّبيُّ في هَذا الشَّهْرِ ، وقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعالى هذا القُرْآنَ بِوَصْفَيْنِ :

فَهُوَ ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ على اخْتِلافِ أَجْناسِهِمْ ولُغاتِهِمْ وأَعْصارِهِمْ وأَمصارِهِمْ ، وهَذا دليلٌ على عُمومِ رِسالَتِهِ عليهِ وعلى آلِهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأنّها لِلنّاسِ كافَّةً ، ودَليلٌ عَلى أنَّ هَذا القُرْآنَ فيهِ المَنْهَجُ القَويمُ للإنسانيَّةِ كُلِّها ، لَنْ تَنالَ الخَيْرَ إلاّ بِهِ ، فَكُلَّما ابْتَعَدَتِ الإِنْسانِيَّةُ عَنْهُ عاشَتْ شَقاءً وجَحيماً .

أمّا الوصْفُ الثّاني فَقَوْلُهُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ والبَيِّناتُ هِيَ المُعْجِزاتُ الّتي لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ إنْكارَها ، وهَذِهِ البَيِّناتُ مُتَّفِقَةٌ مَعَ هَدْيِ الأَنْبِياءِ مِنْ قَبْلُ ، ثُمَّ هِيَ فارِقَةٌ بَيْنَ الإيمانِ والكُفْرِ ، والحَقِّ والباطِلِ ، والخَيْرِ والشَّرِّ لِمَنْ تَأَمَّلَها وتَدَبَّرَها ، فالقُرْآنُ هُدىً ، والقُرْآنُ بَيِّناتٌ ، ومَعْنى هَذا أَنَّ هُناكَ مَقْصَدَيْنِ عَظيمَيْنِ لِهذا الكتابِ الكَريمِ ، أَوَّلُهُما : كَوْنُهُ هِدايَةً لِلنّاسِ ، والثّانِيَةُ : كَوْنُهُ مُعْجِزاً ، وسَتَظَلُّ هِدايَتُهُ وإِعْجازُهُ مَدى الدَّهْرِ .

﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ذُكِرَتْ هذِهِ الجُمْلَةُ مِنْ قَبْلُ ، ولَكِنْ لِمَ ذُكِرَتْ مَرَّةً ثانيةً ؟ والجَوابُ : أنَّ ذِكْرَها هُنا كانَ أمراً لا بُدَّ مِنْهُ ، فَقَدْ عَرَفْنا مِنْ قَبْلُ أَنَّ قَوْلَهُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ مَنْسوخٌ ، فَقَدْ يَتَوَهَّمُ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ أَنَّ النَّسخ

(١) أخرجه البخاري/ كتاب الصوم ، باب (وعلى الذين يطيقونه فدية) رقم الباب ٣٨ ، حديث رقم ١٨٤٧ .

لَيسَ لِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ فَحَسْبُ ، وإنّما الآيةُ كُلُّها مَنسوخَةٌ ومِنْ جُمْلَتِها : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ وهِيَ الّتي ذُكِرَتْ مِنْ قَبْلُ ، فَمِنْ أَجْلِ أنْ لا يَكونَ هذا التَّوَهُّمُ ، ذَكَرَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى هذِهِ الجُمْلَةَ الكريمةَ : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ لِيُبَيِّنَ أَنَّ حُكْمَ المريضِ والمسافِرِ باقٍ غيرُ منسوخٍ .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ وهَذا المَبْدَأُ يَنْتَظِمُ جَميعَ التَّشريعاتِ الإسلاميَّةِ وجَميعَ التَّكاليفِ ، فاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما جَعَلَ عَلَيْنا في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، وجَميلٌ أنْ تُذْكَرَ هَذِهِ الجُمْلَةُ عَقِبَ فَرْضِ الصّومِ ، لِنُدْرِكَ أَنَّ الصَّوْمَ إِنَّما فَرَضَهُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى مِنْ أَجْلِ خيْرِنا وسعادَتِنا في الدُّنيا والآخِرَةِ .

﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

إكْمالُ العِدَّةِ ، هُوَ إتْمامُ صَوْمِ هذا الشَّهْرِ لِمَنْ مَنّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِتَوفيقِهِ للصَّوْمِ .

وتَكْبيرُ اللهِ تَعالى هُوَ ذِكْرُ اللهِ تَعالى وتَعظيمُهُ على نِعْمَةِ الهِدايةِ ، وهَلْ هُناكَ نِعْمَةٌ أَعْظَمُ مِنْها ؟ فَقَدْ هَداكُمْ إلى الأَحْكامِ الّتي فيها سعادَتُكُمْ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، والشُّكْرُ هُوَ على نِعْمَةِ الصِّيامِ ، ونِعْمَةِ اليُسْرِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ فَرَضَ اللهُ تَعالى الصَّوْمَ ؛ لأَنَّ فيهِ صلاحاً للنَّفْسِ الإنْسانِيَّةِ ، إذْ إنَّ غايَةَ الصَّومِ وحِكْمَتَهُ تَحقيقُ تَقوى اللهِ تَعالى .

٢ـ رَحْمَةُ اللهِ تَعالى بالنَّاسِ ، وذَلِكَ بالتَّيسيرِ على مَنْ لا يسْتَطيعُ الصَّوْمَ ، والتَّرْخيصِ لَهُ بالإفْطارِ ودَفْعِ الفِدْيَةِ أو القَضاءِ .

٣ـ قِراءَةُ القرآنِ الكريمِ وصِيامُ رمضانَ أَمْرانِ مُتَلازِمانِ ؛ ولِذا كانَ فَرْضُ الصَّوْمِ ونُزولُ القُرْآنِ في شَهْرِ رَمَضانَ .

٤ـ القُرْآنُ الكريمُ جاءَ هِدايةً للنَّاسِ ، فَلَنْ تَنالَ الإنْسانِيَّةُ الخَيْرَ إلاّ إذا تَمَسَّكَتْ بالقُرْآنِ ، وإنِ ابْتَعَدَتْ عَنْهُ عاشَتْ في شَقاءٍ وجَحيمٍ .

٥ـ الصّائِمُ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ على صِلَةٍ باللهِ تَعالى ، فَهُوَ مُمْسِكٌ عِنْ شَهْوتي الفَرْجِ والبَطْنِ ، لِسانُهُ وقَلْبُهُ يَلْهَجُ بِذِكْرِ اللهِ تَعالى وتَعْظيمِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّن السِّرَّ في مَجيءِ النِّداءِ : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾

٢ـ هَلْ كانَ فَرْضُ الصَّوْمِ على أُمَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فقط ؟ بَيِّنْ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ الآياتِ .

٣ـ شَرَعَ اللهُ تَعالى الصَّوْمَ لِتَحْقيقِ التَّقْوى عِنْدَ الصّائِمينَ : وضِّحْ ذَلِكَ .

٤ـ ما المَقْصودُ بالأَيّامِ المَعْدودَةِ ؟

٥ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ ، وهَلِ الآيَةُ مَنْسوخَةٌ ؟ وَلِماذا ؟

٦ـ متى فُرِضَ الصَّوْمُ ؟ وكَيْفَ كانَ التَّكْليفُ في بِدايةِ الفَريضَةِ ؟

٧ـ بِمَ وصَفَ اللهُ تَعالى القُرْآنَ الكريمَ ؟

٨ـ ما مَعنى كَوْنِ القُرْآنِ هُدىً للنّاسِ ؟

٩ـ لِمَ ذُكِرَ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ. . . . .﴾ مَرَّتَيْنِ ؟

١٠ـ ما معْنى : ولِتُكْمِلوا العِدَّةَ ، ولِتُكَبِّروا اللهَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيتيْنِ بُدِأَتا بِهذا النِّداءِ ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الحَديثَ القُدُسِيَّ الّذي يُبَيِّنُ أَنَّ الصَّوْمَ للهِ تَعالى .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ تَحْديدَ يَوْمِ الصَّوْمِ بِدايَةً ونِهايَةً .

٤ـ ما السَّفَرُ الّذي يُبيحُ للإِنْسانِ الإِفْطارَ في رَمَضانَ ؟ اكْتُبْ تَحْديدَهُ في دَفْتَرِكَ .

٥ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مِقْدارَ الفِديَةِ لِمَنْ أَفْطَرَ في رَمَضانَ .

٦ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صيغَةَ التَّكْبيرِ ليومِ العيدِ الّتي يَقولُها المُسْلِمُ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ

سورةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والخَمْسونَ

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى
وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ
لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا
عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ
مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى
ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

لَيْلَةَ الصِّيامِ	: اللَّيْلَةَ الَّتي يُصْبِحُ فيها المَرْءُ صائِماً .
الرَّفثُ	: كَلِمَةٌ جامِعَةٌ لِكُلِّ ما يُريدُهُ الرَّجُلُ مِنَ المَرْأَةِ مِنْ جِماعٍ وغَيْرِهِ .
لباسٌ	: اللّباسُ : المُلابَسَةُ والمُخالَطَةُ .
تَخْتانونَ	: مُراوَدَةُ الْخِيانَةِ ، وهي تَحريكُ شَهْوَةِ الإنْسانِ لِتَحريكِ الخيانَةِ .
الخَيْطُ الأَبيضُ	: أوّلُ ما يبدو مِنْ بياضِ النّهارِ .
الخَيْطُ الأَسْوَدُ	: ما يَمْتَدُّ مِنْ سوادِ اللّيلِ معَ بياضِ النَّهارِ .
عاكِفونَ	: ماكِثونَ في المَسْجِدِ طاعةً للهِ وتَقَرُّباً إليْهِ .
حُدودُ اللهِ	: الأَحْكامُ الّتي شَرَعَها اللهُ لِعِبادِهِ .



أَمَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ المؤمنينَ بإكْمالِ عِدَّةِ الصَّوْمِ ، وحَثَّتْهُمْ على تَكْبيرِ اللهِ تَعالى وتَعْظيمِهِ شُكراً للهِ تَعالى ، وبَعْدَ ذلك عقَّبَتْ بِذِكْرِ الدُّعاءِ ، وفي هذا إرْشادٌ إلى أَهَميَّةِ الدُّعاءِ لِمَنْ هَذَّبَ نَفْسَهُ بالصِّيامِ ، وزكّى قَلْبَهُ بالقُرْآنِ ، وهُو إرشادٌ كَذلِكَ إلى قُرْبِ اللهِ تَعالى مِنَ الصّائِمِ القائِمِ المُتَدَبِّرِ لِكتابِ رَبِّهِ سُبْحانَهُ .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ أيْ : ذَكِّرْ أيُّها الرّسولُ ﷺ عبادِيَ بما يَجِبُ أَنْ يُراعوهُ في هذهِ العبادَةِ وغَيْرِها ، فَعَلَيْهِمْ بالطّاعَةِ والإخْلاصِ والتَّوَجُّهِ إلى اللهِ تَعالى وحْدَهُ بالدُّعاءِ ، وأَخْبِرْهُمْ يا مُحَمَّدُ أَنَّ اللهَ قَريبٌ مِنْهُمْ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ حِجابٌ ، ولا وليٌّ ولا شفيعٌ يُوصِلُ دُعاءَهُمْ وعِبادَتَهُمْ للهِ ، ولَيْسَ كَما يفْعَلُ النَّصارى الّذينَ يَذْهَبونَ إلى رِجالِ الدّينِ عِنْدَهُمْ ، فَيَعْتَرِفونَ بِذُنوبِهِمْ ، ولِيَتَوسَّلوا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعالى بالمَغْفِرَةِ .

إنَّ اللهَ تَعالى قَريبٌ مِنْ عِبادِهِ ، فَقَدْ أحاطَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ ، فَهُوَ يَسْمَعُ أَقْوالَهُمْ ويَرى أَعْمالَهُمْ فَلَيْسَ بحاجَةٍ إلى وساطةٍ بَيْنَهُ وبَيْنَ عِبادِهِ ، فلا بُدَّ للعَبْدِ مِنْ أنْ يتوجَّهَ مُباشَرَةً إلى اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، ليَطْلُبَ منهُ حاجَتَهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى الّذي خَلَقَهُ ، ويَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .

ومَعْنى قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ تَمْثيلٌ لِكامِلِ عِلْمِهِ تَعالى ، بِأَفْعالِ عِبادِهِ وأَقْوالِهِمْ واطِّلاعِهِ على سائِرِ أَحْوالِهِمْ ، بِحالِ مَنْ قَرُبَ مَكانُهُ مِنْهُمْ .

وَقَدْ وَرَدَ في الصَّحيحيْنِ عَنْ أَبي موسى الأَشْعَريّ قالَ : كُنّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ في سَفَرٍ فَجَعَلَ النّاسُ يَجْهَرونَ بالتَّكْبيرِ ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ : « أَيُّها النّاسُ ، أرْبِعوا على أَنْفُسِكُمْ ؛ أي : ارْفِقوا بِها ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعونَ أَصَمّاً ولا غائباً ، إنَّكُمْ تَدْعونَ سَميعاً بَصيراً وهُوَ مَعَكُمْ ، والّذي تَدْعونَهُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ راحِلَتِهِ[1] .

والدُّعاءُ المَطْلوبُ هُوَ الدُّعاءُ بالقَوْلِ مَعَ التّوجُّهِ بالقَلْبِ ، وذَلِكَ إثْرَ الشُّعورِ بالحاجَةِ إليْهِ ، وتَذَكُّرِ عَظَمَةِ اللهِ تَعالى وجَلالِهِ ، ولِذا فَقَدْ وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ الدُّعاءَ بِأَنَّهُ العِبادَةُ[2] .

---

(١) صحيح البخاري/كتاب الدعاء ، باب : ما يكره من رفع الصوت في التكبير، حديث رقم ٢٨٣٠ ومسلم في باب : استحباب خفض الصوت بالذكر ، حديث رقم ٢٧٠٤ . .

(٢) أخرجه ابن حبان في الصحيح ، حديث رقم ٨٩٠ وهو عند الترمذي برقم ٢٩٦٩ وقال : حديث صحيح ، وعند أبي داود برقم ١٤٧٩ وفي مسند أحمد ٤/ ٢٦٧ . .

وَإجابَةُ الدُّعاءِ تكونُ مِمّنْ أخْلَصَ للهِ وفَزِعَ إليهِ ، سواءٌ وَصَلَ الأمْرُ الّذي طَلَبَهُ أمْ لمْ يَصِلْ ، فَعَنْ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ : « ما مِنْ مُسْلِمٍ يَدعو اللهَ - عَزّ وجَلَّ - بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فيها إثْمٌ ولا قطيعةُ رَحِمٍ إلاّ أعْطاهُ اللهُ بها إحدى ثَلاثِ خِصالٍ ، إمّا أنْ يُعَجِّلَ إليهِ دَعْوَتَهُ ، وإمَّا أنْ يَدَّخِرَها لَهُ في الآخِرَةِ ، وإمّا أنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السّوءِ مِثْلَها »[1] .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أيْ : لَقَدْ وَعَدْتُكُمْ يا عِبادي بأنْ أُجيبَ دُعاءَكُمْ إذا دَعَوْتُموني ، وعَلَيْكُمْ أنْتُمْ أنْ تَسْتَجيبوا لأمْري ، وأنْ تَقِفوا عِنْدَ حُدودي ، وأنْ تَثْبُتوا على إيمانِكُمْ بي ، لَعَلَّكُمْ بذلِكَ تَصِلونَ إلى ما فيهِ رُشْدُكُمْ وسعادَتُكُمْ في الحياتَيْنِ العاجِلَةِ والآجِلَةِ ، وأَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ بالإيمانِ بَعْدَ الأمْرِ بالاستِجابَةِ ، فَهُوَ أوَّلُ مراتِبِ الدَّعْوَةِ ، وأَوْلى الطّاعاتِ بالاسْتِجابَةِ .

لَقَدْ جَمَعَ اللهُ بَيْنَ الإيمانِ والإذْعانِ للأَمْرِ والنَّهْيِ والرُّشْدِ ، والرَّشادُ ضِدُّ الفَسادِ ، والغَيِّ ، فَمَنْ يَصومُ مَثَلاً اتِّباعاً للعادَةِ ومُوافَقَةً لِغَيْرِهِ فإنَّ صَوْمَهُ لا يُعَدُّ للتَّقْوى والرَّشادِ ، ورُبَّما زادَهُ فَساداً في أخْلاقِهِ ، فالأعْمالُ إذا لمْ تَكُنْ صادِرَةً بروحِ الإيمانِ لا يُرْجى مِنْ صاحِبِها أنْ يَكونَ راشِداً مُهْتَدِياً .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْحَديثِ عَنْ بَعْضِ أحْكامِ الصّيامِ ، فقالَ تَعالى :

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ .

لَقَدْ جاءَتْ هذِهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ ما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى لِعِبادِهِ خِلالَ شَهْرِ الصَّوْمِ ؛ مِنْ إباحَةِ الجماعِ لَيْلاً ، وجَوازِ الأكْلِ والشُّرْبِ حتَّى يَتَبَيَّنَ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأسْوَدِ ، فَقَدْ أَخْرَجَ الإمامُ البُخاريُّ عَنِ البَراءِ قالَ : لمّا نَزَلَ صَوْمُ رَمضانَ كانوا لا يَقْرَبونَ النِّساءَ رَمضانَ كُلَّهُ ، وكانَ رجالٌ يَخونونَ أنْفُسَهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى : ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[2] .

فالمَقْصودُ رَفْعُ ما تَوَهَّمَهُ بَعْضُ الصّحابَةِ مِنْ أنَّ الأكْلَ والشُّرْبَ أو الجِماعَ لا يَجوزُ ما داموا قَدْ ناموا بَعْدَ أنْ أفْطَروا .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣/١٨ رقم ١١١٤٩ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٤٢٣٨ .

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ أيْ : رَخَّصَ لَكُمْ في مباشَرَتِهِنَّ لَيْلَةَ الصّيام ، لِما بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُنَّ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ المُخالَطَةِ والمُعاشَرَةِ ، الّتي تَجْعَلُ مِنَ العَسيرِ عَلَيْكُمْ أنْ تجْتَنِبوهُنَّ ، وتَجْعَلُ مِنَ الصَّعْبِ الصَّبْرُ عَلَيْهِنَّ . وقَدْ جاءَ هذا التَّعْبيرُ لأنَّ كلا الزَّوْجَيْنِ يَسْكُنُ إلى صاحِبِهِ ، ويَكونُ مِنْ شِدَّةِ القُرْبِ منهُ كالثَّوْبِ الّذي يَلْبَسُهُ ، فَجَعَلَ اللِّباسَ كِنايَةً عَنِ الزَّوْجِ ، لِكَوْنِهِ سِتْراً لِنَفْسِهِ ولِزَوْجِهِ أنْ يَظْهَرَ مِنْهُما سوءٌ ، كما أنَّ اللِّباسَ سِتْرٌ يَمْنَعُ أنْ يَبْدوَ مِنْهُ السَّوْءَةُ ، وفي هذا التَّعبيرِ القُرْآنيِّ ما فيهِ مِنَ اللَّطافَةِ والأَدَبِ وسُموِّ التَّصوُّرِ لِما بَيْنَ الرَّجُلِ وزَوْجِهِ مِنْ شِدَّةِ اتِّصالٍ وَمَوَدَّةٍ ، واسْتِتارِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُما بِصاحِبِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ إنَّ الاخْتِيانَ مُراوَدَةُ الخِيانَةِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لَمْ يَقُلْ تَخونونَ أَنْفُسَكُمْ ، لأَنَّهُ لمْ تَكُنْ مِنْهُمْ خِيانَةٌ ، بَلْ كانَ مِنْهُمُ الاخْتِيانُ ، الّذي هو تَحَرُّكُ شَهْوَةِ الإنْسانِ لِتَحرّي الخيانَةِ ، وهذا هُوَ المَشارُ إليْهِ بقولِهِ : ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ ومَعْنى الآيةِ : عَلِمَ اللهُ تَعالى أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُراوِدونَ أَنفُسَكُمْ على مُباشَرَةِ نِسائِكُمْ لَيْلاً ، وعلى الأَكْلِ بَعْدَ النَّوْمِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ الفَجْرُ الصّادِقُ ، بَلْ إنَّ بَعضَكُمْ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ، فَكانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنْ أَباحَ لَكُمُ الأَكْلَ والشُّرْبَ والجِماعَ في ليالي الصِّيامِ ، وأَنَّهُ قَبِلَ تَوْبَتَكُمْ ، وعفا عَنْ مُخالَفَتِكُمْ لِما كُنْتُمْ تَعْتَقِدونَ أَنَّهُ غيرُ مُباحٍ لَكُمْ .

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الأَمْرُ للإباحَةِ ، ولَفْظُ (الآنَ) يُطْلَقُ حَقيقَةً على الوَقْتِ الّذي يَكونُ الإنْسانُ فيهِ ، وقَدَ يَقَعُ على الماضي القَريبِ مِنهُ ، وعلى المُسْتَقبَلِ القَريبِ الوقوعِ ، تَنْزيلاً لَهُ مَنْزِلَةَ الحاضِرِ ، وهُو المَقْصودُ هُنا ، فَقَدْ أَباحَ اللهُ مُباشَرَةَ أزواجِهِمْ في ليالي رَمَضانَ بَعْدَ أنْ كانَ مُحرَّماً عَلَيْهِمْ ، فَضْلاً منهُ تَعالى ورَحْمَةً بِهِمْ ، أيْ : باشِروهُنَّ واطْلبوا بِتِلْكَ المُباشَرَةِ ما قَدَّرهُ اللهُ تَعالى لَكُمْ بِمُقْتَضى الفِطْرَةِ ، مِنْ جَعْلِ المُباشَرَةِ سَبَباً للنَّسْلِ ، ولإِحْصانِ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ ، وتَعفُّفِهِما عَنِ الحَرامِ .

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ والمَعْنى : يُباح لَكُمُ الأَكْلُ والشُّرْبُ والمُباشَرَةُ عامَّةَ اللَّيلِ ، حتَّى يَظْهَرَ بَياضُ النَّهارِ مِنْ سَوادِ اللَّيلِ ، ويَتَبيَّنَ بِطُلوعِ الفَجْرِ الصّادِقِ .

ثُمَّ قالَ تَعالى : ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أيْ : ثُمَّ اسْتَمِرّوا في صِيامِكُمْ إلى ابْتِداءِ اللَّيلِ بِغُروبِ الشَّمْسِ ؛ إذِ اللَّيلُ لَيْسَ بِوَقْتٍ للصِّيام ، وكَلِمَةُ (إلى) لانتهاءِ الغايَةِ ، أيْ : أَنَّ الصَّوْمَ يَنتَهي عِنْدَ دُخولِ اللّيلِ ، وجاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا﴾ لِتُفيدَ التَّراخي الزَّمنيَّ ، إذْ هناكَ مُدَّةٌ مِنَ الزَّمَنِ بَيْنَ الإمْساكِ عَنِ الطَّعامِ وقْتَ الفَجْرِ ، وإباحَةِ الأَكْلِ .

وقولُهُ تعالى : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ اسْتِثْناءٌ مِنْ عُموم إباحَةِ المُباشَرَةِ ، الّتي فُهِمَتْ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ أيْ : لا تُباشِروا النِّساءَ حالَ عُكوفِكُمْ في المساجِدِ للعبادَةِ ، إذْ إنَّ المُباشَرَةَ تُبْطِلُ الاعْتِكافَ ولَوْ ليْلاً ، كَما تُبْطِلُ الصِّيامَ نَهاراً .

وَقَدْ يَسْأَلُ السّائِلُ : كَيْفَ يَكونُ هذا والمُعْتَكِفُ في المَسْجِدِ ، ومِنَ المُحالِ أنْ يَكونَ في المَسْجِدِ جِماعٌ ؟ وهَذا القَوْلُ صَحيحٌ ، فَلَيْسَ مَعنى الآيةِ الكريمَةِ النَّهْيُ عَنِ الجماعِ حينَ الاعْتِكافِ في المَسْجِدِ ، فهَذا أمْرٌ لا يَجوزُ ولا يُحِلُّهُ مُسْلِمٌ ، فَمِنَ المَعْلوم بَداهةً أنَّ الجُنُبَ يَحْرُمُ عَلَيْهِ عُبورُ المَسْجِدِ ، فَضْلاً عنِ الُّلبْثِ فيهِ ، فما مَعنى الآيَةِ ؟ إنَّ المُعْتَكِفَ يَجوزُ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ لِقضاءِ حاجَةٍ وأَكْلٍ وَشُرْبٍ ، وهَذا يَكونُ في بَيْتِهِ بالطَّبْعِ ، فالآيَةُ الكَريمَةُ تُحَذِّرُ هذا المُعْتَكِفَ إذا ذَهَبَ إلى بيْتِهِ ، مِنْ أنْ يُباشِرَ أَهْلَهُ بِشَهْوَةٍ ، هَذا مَعنى الآيةِ الكَريمَةِ ، فإنْ فَعَلَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ بَطُلَ اعْتِكافُهُ .

وقَدْ أَجْمَعَ العُلَماءُ على أَنَّ الاعْتِكافَ لا يَكونُ إلاّ في المَساجِدِ ، بناءً على ما وَرَدَ في الآيَةِ القُرْآنِيَّةِ .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ أيْ : أنَّ هذِهِ الأَحْكامَ ، هِيَ حُدودُ اللهِ تَعالى وأَحْكامُهُ ، والحَدُّ هُوَ الحاجِزُ بَيْنَ شيْئَيْنِ لِيَمْنَعَ دُخولَ أَحَدِهِما بالآخَرِ ، وسُمِّيَتِ الأَحْكامُ الّتي شَرَعَها اللهُ حُدوداً لأنَّها تَحْجِزُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ ، أيْ : تِلْكَ الأَحْكامُ الّتي شَرَعْناها لَكُمْ مِنْ إيجابِ الصَّوْمِ ، وتَحريمِ الأَكْلِ والشُّرْبِ والجِماعِ في النَّهارِ ، وإباحَةِ ذلِكَ في الَّليلِ ، هِيَ حُدودُ اللهِ الّتي لا يَحِلُّ لَكُمْ مُخالَفَتُها ، ولِذا قالَ : ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ مُبالَغَةً في التَّحذيرِ ، إذِ النَّهْيُ عَنِ القُرْبِ مِنَ الشَّيءِ نَهْيٌ عَنِ إتيانِهِ بالأَولى .

وَقَدْ بيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً ، وحِمى اللهِ مَحارِمُهُ ، فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الحِمى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فيهِ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أيْ : مثلَ ذَلِكَ البَيانِ الجامعِ الّذي بَيَّنَ اللهُ بِهِ حُدودَهُ الّتي أَمَرَكُمْ بالتِزامِها ، ونَهاكُمْ عَنْ مُخالَفَتِها ، بيَّنَ لَكُمْ آياتِهِ ، وهي أدِلَّتُهُ وحُجَجُهُ حتّى تَصْرِفوا أَنْفُسَكُمْ عَمّا يُؤَدّي بِكُمْ إلى العُقوبَةِ ، وتَكونوا على تَقوىً مِنَ اللهِ ، وهذِهِ غايَةُ الصَّوْمِ وحِكْمَتُهُ : تَقوى اللهِ تَعالى ، فَيُعَمِّرُ الإنْسانُ باطِنَهُ وظاهِرَهُ بِخَشْيَةِ اللهِ تَعالى ، وذَلِكَ بِتَنْفيذِ كُلِّ ما أَمَرَ اللهُ تَعالى بهِ ، والانْتِهاءِ عَنْ كُلِّ ما نَهى اللهُ عَنْهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرةٍ ، منها :

١ـ الأَحْكامُ العَمَلِيَّةُ شَرَعَها سُبْحانَهُ وتَعالى لِتَقْوِيَةِ الإيمانِ وإصْلاحِ النَّفْسِ ، وهَذا يَكونُ بِذِكْرِ اللهِ وتَعْظيمِهِ والتَّوَجُّهِ إليهِ بالدُّعاءِ والضَّراعَةِ .

٢ـ الدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ ، فلا بُدَّ مِنَ الطَّلَبِ باللِّسانِ مَعَ التَّوَجُّهِ بالقَلْبِ إلى اللهِ تَعالى ، فالدُّعاءُ باللِّسانِ هُوَ أَثَرُ الشُّعورِ بالحاجَةِ إلى اللهِ ، وفَزَعُ القَلْبِ إلَيْهِ .

٣ـ الأَعْمالُ إذا لَمْ تَكُنْ صادِرَةً بِروحِ الإيمانِ لا يُرْجى أَنْ يَكونَ صاحِبُها مَهْدِيّاً راشِداً .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِعبادِهِ الصّائِمينَ أَنْ أَباحَ لَهُمُ الأَكْلَ والشُّرْبَ والجِماعَ لَيْلاً ، وحَرَّمَ اللهُ الطَّعامَ والشَّرابَ والنِّكاحَ وأَصْبَحَ الطَّعامُ آخِرَ اللَّيْلِ مُسْتَحَبّاً وهو السّحورُ ، وأَصْبَحَ فارِقاً بَيْنَ صَوْمِنا وَصَوْمِ أَهْلِ الكِتابِ في النَّهارِ فقط .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما صِلَةُ الصَّوْمِ بِالدُّعاءِ ؟

٢ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ؟ وعَلى ماذا يَدُلُّ ذَلِكَ ؟

٣ـ كَيْفَ يَكونُ تَوجُّهُ الإنْسانِ إلى اللهِ تَعالى بالدُّعاءِ ؟

٤ـ أَعطى اللهُ تَعالى الّذي يَدْعوهُ واحِدَةً مِنْ ثَلاثِ خِصالٍ ، ما تِلْكَ الخِصالُ ؟ وما دَليلُ ذَلِكَ ؟

٥ـ هاتِ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قولُهُ تَعالى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ .

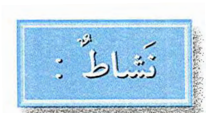
٦ـ بَيِّنْ الصُّورَةَ البَديعيَّةَ في التَّعْبيرِ : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ .

٧ـ ما مَعنى : ﴿كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ ؟

٨ـ ما مَعْنى الأَمْرِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ ، ﴿أَتِمُّوا﴾ ؟

٩ـ عَلامَ تَدُلُّ كَلِمَةُ (إلى وثُمَّ) في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ ؟

١٠ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ .



١ـ بيِّنِ كَيْفَ يَكونُ الدُّعاءُ هو العِبادَةُ ، واكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ قَرَنَ النَّبيُّ ﷺ بيْنَ الدُّعاءِ والصَّوْمِ ، بيّنْ ذَلِكَ بِذِكْرِكَ للْحَديثِ الدّالِ على هذا الأَمْرِ واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ هاتِ حديثاً عَنِ الرَّسولِ ﷺ يَدُلُّ على اسْتِحْبابِ تَعْجيلِ الفِطْرِ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ كَيْفَ يَكونُ الاعْتِكافُ ؟ وأيْنَ يَكونُ ؟ اكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ العاشِرُ

سورَةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ السّادِسُ والخَمْسونَ

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ
ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ
وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ
أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **تأكلوا** : تأْخُذوا وتَسْتولوا .
- **بالباطلِ** : منْ دونِ حَقٍّ .
- **تُدْلوا** : تُلقوا .
- **الإِثْم** : شَهادَةِ الزّورِ أو اليَمينِ الفاجِرَة .
- **الأَهِلَّةِ** : جَمْعُ هِلالٍ ، وسُمِّيَ القَمَرُ كَذَلِكَ لأَنَّ النّاسَ يَرْفَعونَ أَصْواتَهُمْ بالذِّكْرِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ .
- **مواقيتُ** : واحِدُها ميقاتٌ ، وهُوَ الزَّمَنُ المُقَدَّرُ المُعيَّنُ .

التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ أَحْكامِ الصِّيامِ ، وجاءَتْ هذهِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ حُرْمَةِ أَكْلِ الإِنْسانِ مالَ غَيْرِهِ مِنْ دونِ حَقٍّ ، قالَ تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ أي : لا يَأْكُلْ بَعْضُكُمْ مالَ بَعْضٍ ، وقَدْ جاءَ اللَّفْظُ ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾

إشْعاراً بوحْدَةِ الأُمَّةِ وتَكافُلِها ، وتَنبيهاً على أَنَّ احْتِرامَ مالِ الآخَرينَ ، هُوَ احترامٌ وحِفْظٌ لمالِ الإنْسانِ ، كما أَنَّ التَّعدّي على مالِ أحَدٍ ، جنايةٌ على الأُمَّةِ الّتي يَكونُ هَذا الشَّخْصُ أَحَدَ أَعْضائِها ، فإذا أباحَ لِنَفْسِهِ اسْتِحلالَ مالِ غَيْرِهِ وأَكَلَهُ ، جَرَّأَ غَيْرَهُ على اسْتِحْلالِ أَكْلِ مالِهِ .

إنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّةَ ، تَحُثُّ الإنسانَ على اكْتِسابِ المالِ مِنَ الطُّرُقِ المَشْروعَةِ الصَّحيحَةِ الّتي لا تَضُرُّ أَحَداً ، وقَدْ أَجْمَلَ القُرْآنُ الأَكْلَ بالباطِلِ ؛ لأنَّهُ مِنَ الأُمورِ المَعروفَةِ للنّاسِ بِوجوهِهِ الكَثيرَةِ ، فَهُوَ يَتَحقَّقُ في كُلِّ أَخْذٍ للمالِ بِغَيْرِ رِضىً مِنَ المَأْخوذِ مِنْهُ .

وبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى الأَكْلَ مُجْمَلاً عامّاً ، ذَكَرَ نَوْعاً خَصَّهُ سُبْحانَهُ بالنَّهي ، مَعَ أَنَّهُ داخِلٌ في النَّهي عَنِ الأَكْلِ ، لِما يَقَعُ مِنَ الشُّبْهَةِ فيهِ لِبَعْضِ النّاسِ ، إذْ يَعْتَقِدُ بَعْضُهُمْ أَنَّ الحاكِمَ الّذي يَنْبَغي أَنْ يَكونَ مُنَفِّذاً لِشَرْعِ اللهِ ، إذا حَكَمَ لإنْسانٍ ولَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، فإنَّهُ يَحِلُّ لَهُ أَخْذُ مالِ غَيْرِهِ بهذا الحُكْمِ ، ولا يَكونُ مِنَ الباطِلِ ، فقال تَعالى :

﴿ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أيْ : ولا تُلْقوا بِأَمْوالِكُمْ إلى الحُكّام رَشْوَةً لَهُمْ ، لِتَأْخُذوا بَعْضاً مِنْ أَمْوالِ غَيْرِكُمْ بوساطَةِ يَمينٍ فاجِرَةٍ تَحْلِفونَها أَوْ شَهادَةِ زورٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمّا تُثْبِتونَ بِهِ أَنَّكُمْ على حَقٍّ فيما تَدَّعونَ ، وأَنْتُمْ تَعلمونَ أَنَّكُمْ على الباطِلِ ، وذَلِكَ أَنَّ الاسْتِعانَةَ بالحُكّام على أَكْلِ الأَموالِ بالباطِلِ حَرامٌ ، وإنَّ حُكْمَ الحاكِمِ على ما يَدُلُّ عليهِ الظّاهِرُ مِنْ أَمْرِ القَضيَّةِ ، لا يُحِلُّ في الواقِعِ حَراماً ، ولا يُحَرِّمُ حَلالاً ، فَقَدْ أَخْرَجَ الإمامُ البُخاريُّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عنْها ـ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ، أَنَّهُ سَمِعَ خُصومَةً بِبابِ حُجْرَتِهِ ، فَخرَجَ إلَيْهِمْ فَقالَ : « إنّما أَنا بَشَرٌ ، وإنَّهُ لَيأْتيني الخَصْمُ ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يكونَ أَبْلَغَ مِنْ بعضٍ ، فَأَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ ، فَأَقْضي لَهُ بِذَلِكَ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فإنّما هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النّارِ فَلْيَأْخُذْها أَوْ لِيَتْرُكْها[1]

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتتحدَّثَ عَمّا يَتَعلَّقُ بالأَهِلَّةِ ، إذْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنِ الصَّوْمِ وشَهْرِ رَمضانَ ، والصَّوْمُ والإفْطارُ مُقْتَرِنٌ بالهِلالِ ، ولِذا جاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَتحدَّثَ عَنِ الأَهِلَّةِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ .

أيْ : يَسْأَلُكَ بَعْضُ النّاسِ عَنِ الحِكْمَةِ مِنْ خَلْقِ الأَهِلَّةِ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الصَّحابَةَ سَأَلوا الرَّسولَ ﷺ : مابالُ الهِلالِ يَبدو ـ أَوْ يَطْلُعُ ـ دَقيقاً مِثْلَ الخَيْطِ ثُمَّ يَزيدُ حَتّى يَعْظُمَ ويَسْتَديرَ ، ثُمَّ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب : المظالم والغصب ، باب : إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه ، حديث رقم ٢٣٢٦ .

لا يَزالُ يَنْقُصُ ويَدِقُّ حتّى يَعودَ كَما كانَ ، لا يَكونُ على حالٍ واحِدٍ ، فقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ بأنَّ هَذِهِ الأَهِلَّةَ قَدْ خَلَقَها اللهُ تَعالى لِتَكونَ مَعالِمَ للنّاسِ يُوَقِّتونَ بِها أُمورَهُمُ الدُّنْيَوِيَّةَ فَيُحَدِّدونَ بِها أَوْقاتَ زُروعِهِمْ وتِجارَتِهِمْ ، وآجالَ عُقودِهِمْ في المُعامَلاتِ ، ويَعْرِفونَ بِها أَوقاتَ عِباداتِهِمْ كالصِّيامِ والزَّكاةِ والحَجِّ .

وَقَدْ خَصَّ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الحَجَّ بالذِّكْرِ ، مَعَ أَنَّ الأَهِلَّةَ مَواقيتٌ لِعباداتٍ أُخرى ـ كَما قُلْنا ـ للتَّنْبيهِ على أَنَّ الحَجَّ مَقْصورٌ وقْتُ أدائِهِ على الوقْتِ الّذي عَيَّنَهُ لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، فلا يَجوزُ تَغْييرُ وقْتِهِ ، كَما كانَتِ العَرَبُ تَفْعَلُ ، إذْ كانوا يَنْقُلونَ ما شاءوا مِنَ الأَشْهُرِ الحُرُمِ الأَرْبَعَةِ إلى شَهْرٍ آخَرَ مِنْ غَيْرِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ .

وخَصَّ الشارِعُ المواقيتَ بالأَهِلَّةِ وأَشْهُرِها ـ وهي الأَشْهُرُ القَمَرِيَّةُ ـ ولَمْ يَذْكُرِ الشَّمْسَ وأَشْهُرَها ، لأَنَّ الأَشْهُرَ القَمَرِيَّةَ تُعْرَفُ بِرُؤْيَةِ الهِلالِ ، وذَلِكَ ما لا يَخْفى على أَحَدٍ مِنَ العامَّةِ ، أو للعالِمينَ بِدَقائِقِ الفَلَكِ .

وفي الكلامِ ضَرْبٌ مِنْ عِلْمِ البَديعِ ، الّذي يُسمّى أُسْلوبَ الحَكيمِ ، فَقَدْ سَأَلَ الصَّحابَةُ عَنِ الهِلالِ ما بالُهُ يَبْدو صَغيراً ثُمَّ يَعودُ كَما بَدَأَ ؟ فكانَ سُؤالُهُمْ عَنِ السَّبَبِ والعِلَّةِ ، ولَكِنَّ القُرْآنَ الكَريمَ قالَ : ﴿ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ وهَذا فيهِ مِنَ الحِكْمَةِ ما فيهِ ، فَكَأَنَّهُ سُبْحانَهُ يَقولُ لَهُمْ : حَرِيٌّ بِكُمْ أَنْ تَسْأَلوا عَمّا يَمَسُّ واقِعَكُمْ ، وعمّا أَنْتُمْ بحاجَةٍ إليْهِ .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ وفي هذا إبْطالٌ لما كانوا يفْعَلونَهُ في الجاهِلِيَّةِ ، وهِيَ أَنَّهُمْ إذا عادوا مِنْ حَجِّهِمْ لا يَدْخُلونَ بُيوتَهُمْ مِنْ أَبْوابِها ، بَلْ يَنْقُبونَ نَقْباً مِنْ ظُهورِها ويَدْخُلونَ ، فَقَدْ أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنِ البراءِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : « نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ فينا ، كانَتِ الأَنْصارُ إذا حَجّوا لَمْ يَدْخلوا مِنْ قِبَلِ أَبوابِ بُيوتِهِمْ ولَكِنْ مِنْ ظُهورِها ، فجاءَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصارِ فَدَخَلَ قِبَلَ بابِهِ فكأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ »[1] .

يَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ ، لَيْسَ البرَّ ما كُنْتُمْ تَفْعلونَهُ في الجاهِلِيَّةِ مِنْ دُخولِكُمُ البُيوتَ مِنْ ظُهورِها عِنْدَ إحرامِكُمْ ، أو عَوْدَتِكُمْ مِنْ حَجِّكُمْ ، ولَكِنَّ البرَّ الحَقَّ الجامِعَ لأُمورِ الخَيْرِ ، إنَّما يَكونُ في تَقوى اللهِ تَعالى ، وذَلِكَ بِأَنْ تَمْتَثِلوا أوامِرَهُ ، وتَجتَنِبوا نواهيهِ ، وإذا ثَبَتَ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تأْتوا البُيوتَ مِنْ أبوابِها .

وفي الآيَةِ اسْتِعارَةٌ تَمْثيلِيَّةٌ حَيْثُ شُبِّهَتْ حالَةُ الّذي يُعنى بِغَيْرِ ما يَعْنيهِ ويَنْشَغِلُ بغَيْرِ واقِعِهِ ، ويُعْطي الأَوْلَوِيَّةَ في البَحْثِ لِما مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُبْحَثَ فيهِ ، كَما هُوَ شَأْنُ الأُمَّةِ اليَوْمَ ـ شَبَّهَ حالَ هَذا بحالِ الّذي يَأْتي البَيْتَ مِنْ ظَهْرِهِ ، فَهُوَ مُضطَرٌّ أَنْ يَنْقُبَ ويُخَرِّبَ لِيَسْتَطيعَ دُخولَ البيْتِ ، وكانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ

---

(١) أخرَجه البخاري في صحيحه ، حديث رقم ١٧٠٩ ، باب قوله تعالىٰ (وأتوا البيوت من أبوابها) .

يَلِجَ البَيْتَ مِنْ بابِهِ ، فَهُوَ أَيْسَرُ مِنْ جِهَةٍ ، وَلَيْسَ فيهِ الضَّرَرُ والخَرابُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُوَجِّهُ النَّاسَ إلى مُباشَرَةِ الأُمورِ مِنْ وُجوهِها الّتي يَجِبُ أنْ تُباشَرَ عَلَيْها وأنْ لا يَعْكِسوا ، والمُرادُ مِنْ ذَلِكَ تَوْطينُ النُّفوسِ ورَبْطُ القُلوبِ على أنَّ جميعَ أفْعالِ اللهِ حِكْمَةٌ وصَوابٌ .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أَمَرَ سُبْحانَهُ بالتَّقْوى ، وهِيَ تَتَضَمَّنُ القِيامَ بِكُلِّ ما أَمَرَ اللهُ تَعالى بهِ ، واجْتِنابَ كُلِّ ما نَهى عَنْهُ ، فافْعَلوا ـ أَيُّها المُؤْمِنونَ ـ ذَلِكَ ، لِتَكونوا مِنَ المُفْلِحينَ الفائِزينَ بالحياةِ المُطْمَئِنَّةِ في الدُّنْيا والنَّعيمِ الخالِدِ في الآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حُرْمَةُ أَكْلِ أمْوالِ النَاسِ بالباطِلِ ، وحُرْمَةُ الرَّشْوَةِ للحُكّامِ والرُّؤساءِ ، لِيُعْطوا الرّاشي مالَ غَيْرِهِ .

٢ـ حُكْمُ الحاكِمِ على ما يَدُلُّ عَلَيْهِ الظَاهِرُ لا يُحِلُّ حراماً ولا يُحَرِّمُ حلالاً .

٣ـ يَنْبَغي على الإنْسانِ أنْ يَهْتَمَّ ويَنْشَغِلَ بِما يَمَسُّ واقِعَهُ ، وما هُوَ بِحاجَةٍ إليهِ ، ويَتْرُكَ الانْشِغالَ بِما لا يَنْفَعُهُ ولا يَعودُ عَلَيْهِ بِفائِدَةٍ .

٤ـ الّذي يَلْتَزِمُ بِما أَمَرَهُ اللهُ بهِ ، ويَجْتَنِبُ كُلَّ ما نَهاهُ عَنْهُ ، فازَ بالحياةِ السَّعيدةِ المُطْمَئِنَّةِ في الدُّنْيا ، والنَّعيمِ الخالِدِ في الآخِرَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنِ الحِكْمَةَ مِنْ مَجيءِ كَلِمَةِ : ﴿أَمْوَالَكُم﴾ بَدَلَ أَمْوالِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً .

٢ـ ما المَقْصودُ بالباطِلِ ؟ وما هِيَ وجوهُهُ ؟

٣ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ .

٤ـ لماذا خَصَّتِ الآياتُ الحُكّامَ هُنا ؟

٥ـ هاتِ ما تَسْتَنْتِجُهُ مِنْ قَوْلِهِ تعالى : ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ .

٦ـ ما صِلَةُ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلأَهِلَّةِ﴾ بما سَبَقَ ؟

٧ـ ما سَبَبُ نُزولِ هذِهِ الآيَةِ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ؟

٨ـ لماذا خَصَّ القُرْآنُ الأَهِلَّةَ بالذِّكْرِ ؟

٩ـ بيِّنِ الصُّورةَ البَديعيَّةَ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ. . . . ﴾ .

١٠ـ بيَّنَتِ الآياتُ عادةً مِنْ عاداتِ الجاهِلِيَّةِ ، ما هِيَ ؟ وكَيْفَ أَبْطَلَتْها الآياتُ ؟

١١ـ ما نَوْعُ الاسْتِعارَةِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ. . . . . . ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ لأَكْلِ المالِ بالباطِلِ صُوَرٌ كَثيرةٌ ، اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أَرْبعاً مِنْها .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الأَشْهُرَ القَمَرِيَّةَ وحَدِّدِ الأَشْهُرَ الحُرُمَ مُرَتَّبَةً .

* * *

الدَّرْسُ الحادي عَشَرَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السّابِعُ والخَمْسونَ

وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾
ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ
عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ولا تَعْتَدوا : ولا تَتَجاوزوا الحدَّ فيما أَمرَ اللهُ بهِ أو نَهى عَنْهُ .

ثَقِفْتُموهُمْ : أَدْرَكْتُموهُمْ وظَفِرْتُمْ بِهِمْ .

الفِتْنَةُ : الابْتِلاءُ ، وهِيَ ما كانَ يَفْعَلُهُ المشْرِكونَ مِنْ إيذاءٍ وتَعْذيبٍ للْمُسْلِمينَ لِرَدِّهِمْ عَنْ دينِهِمْ .

جزاءُ : الجزاءُ : ما وَقَعَ في مُقابَلَةِ الإِحْسانِ أو الإساءَةِ .

العُدوانِ : الاعْتِداءُ والظُّلْمُ ، والمُرادُ بِهِ القَتْلُ .

الشّهْرُ الحرامُ : سُمِّيَ كَذَلِكَ لأنّهُ يَحرُمُ فيهِ ما يَحِلُّ في غَيْرِهِ مِنَ القِتالِ .

الحُرُماتُ : ما يَجِبُ احْترامُهُ والمُحافظَةُ عَلَيْهِ .

قِصاصٌ : القِصاصُ : مُقابَلَةُ الشَّيْءِ بِمِثْلِهِ .



تحَدَّثَتِ الآياتُ عَنِ الصِّيامِ وما يَتَّصِلُ بهِ مِنْ أَحْكامٍ ، وأَتْبَعَتْهُ بالحَديثِ عَنِ الأَهِلَّةِ ، وتَوْجيهِ النّاسِ إلى ما يَمَسُّ واقِعَهُمْ ، ولَيْسَ هُناكَ أَكْثَرُ مَساساً لِهذا الواقِعِ الّذي تَعيشُهُ الأُمَّةُ مِن قِتالِ أَعْدائِها ، والدِّفاعِ عَنْ دِينِها وأَرْضِها وشَرَفِها وعِزِّها .

إنَّ الصَّوْمَ والجِهادَ مُتَّصِلٌ بَعْضُهُما بِبَعْضٍ في كتابِ اللهِ ، وهُما كَذلِكَ في واقِعِ المُسْلِمينَ ، ولِذا فإنَّنا نَجِدُ أَنَّ العامَ الّذي فُرِضَ فيهِ الصَّوْمُ هو العامُ الثّاني لِلْهِجْرَةِ ، وهُوَ العامُ الّذي سَجَّلَ فيهِ المُسْلِمونَ بإذْنِ اللهِ نَصْراً مُؤَزَّراً : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

قالَ تَعالى :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : أَيُّها المُؤْمِنونَ ، قاتِلوا في سَبيلِ اللهِ تَعالى الّذين يقاتِلونَكُمْ ، ولْيَكُنْ قِتالُكُمْ إعْزازاً لِدينِ اللهِ تَعالى وإعْلاءً لِكَلِمَتِهِ ، لا لِهوى النَّفْسِ وشَهَواتِها . أَخْرَجَ الإمامُ البُخاريُّ أَنَّ أعرابيّاً أَتى النَّبيَّ ﷺ فقالَ : « يا رَسولَ اللهِ : الرَّجُلُ يُقاتِلُ لِلمَغْنَمِ ، والرَّجُلُ يُقاتِلُ لِيُذْكَرَ ، والرَّجُلُ يُقاتِلُ لِيُرى مَكانَهُ - أي : لِيَتحدَّثَ النّاسُ بِشَجاعَتِهِ ولِيَظْهَرَ بَيْنَهُمْ - أَيُّ ذلِكَ في سَبيلِ اللهِ ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : مَنْ قاتَلَ لِتَكونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُليا فَهُوَ في سبيلِ اللهِ »[1] .

﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أيْ : ولا تَعْتَدوا بالقِتالِ فَتَبْدَءوهُمْ بِهِ ، ولا في القَتْلِ فَتَقْتُلوا مَنْ لا يُقاتِلُ مِنَ النِّساءِ والصِّبيانِ ، والشُّيوخِ والمَرْضى ، ولا مَنْ أَلْقى إلَيْكُمُ السَّلَمَ ، وكَفَّ عَنْ حَرْبِكُمْ ، ولا تَخْرُبوا بَيْتاً ولا تَقْطَعوا شَجرَةً ، فإنَّ الاعْتداءَ مِنَ الأُمورِ الّتي لا يُحِبُّها اللهُ تَعالى .

﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾ .

﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أيْ : إذا نَشَبَ القِتالُ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ الكُفّارِ فاقْتُلوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُموهُمْ وَظَفَرْتُمْ بِهِمْ ، ولا يَصُدَّنَّكُمْ عَنْهُمْ شَيْءٌ ، فَهُمْ بَدَءوكُمْ بالعُدوانِ ، وتَمَنَّوْا لَكُمْ كُلَّ شَرٍّ وسوءٍ .

﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أيْ : أَخْرِجوهُمْ مِنَ المكانِ الّذي أخْرَجوكُمْ مِنْهُ ، وهُوَ مَكَّةُ المُكَرَّمَةُ ، إذْ إنَّ المُشركينَ أخْرَجوا النَّبيَّ ﷺ وأَصْحابَهُ مِنْها ، فَقَدْ أَنزَلوا بِهِمْ صُنوفَ العَذابِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، حديث رقم ٢٩٥٨ .

وَفتنوهُمْ ، حتّى اضْطَرّوهُمْ للخُروجِ مِنْها ، وفي هَذا تَهْديدٌ للْمُشرِكينَ وَوَعْدٌ لِلمُسلِمينَ بِفَتْحِ مَكّةَ المُكَرَّمَةِ .

﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ هذهِ هِيَ العِلّةُ في الإِذْنِ بِقِتالِ المُشْرِكينَ ، أيْ : أنَّ فِتْنَتَهُمْ إيّاكُمْ عَنْ دينِكُمْ بالإيذاءِ والتَّعْذيبِ ، وإخراجَكُمْ مِنْ وَطَنِكُمْ ومُصادَرَةَ أمْوالِكُمْ أشَدُّ على الإنْسانِ مِنْ إيذائِهِ واضْطِهادِهِ وتَعْذيبِهِ وصدِّهِ عَنْ دينِهِ ،فهذا أشَدُّ قُبْحاً عِنْدَ اللهِ تَعالى مِنَ القَتْلِ ، فَليسَ هُناكَ بلاءٌ أشَدُّ على الإنْسانِ مِنْ إيذائِهِ واضْطِهادِهِ وتَعْذيبِهِ وصدِّهِ عَنْ دينِهِ ،فهذا أشَدُّ على الإنسانِ مِنْ قَتْلِهِ ، يَدُلُّ لِذلِكَ أنَّ كَثيرينَ مِمّنْ يَتَعَرَّضونَ للأذى والاضْطِهادِ يَتَمَنَّوْنَ أنْ يَموتوا فَيكونُ ذَلِكَ خَيْراً لَهُمْ مِنَ الإهانَةِ والتَّعذيبِ .

ثُمَّ نَهَتِ الآياتُ المُؤْمنينَ عَنْ قِتالِ المُشرِكينَ عِنْدَ المسجِدِ الحرام مُراعاةً لِحُرْمَتِهِ ، ما دامَ المُشْرِكونَ لَمْ يَبْدَءوهُمْ بالقِتالِ عِنْدَهُ ، أمّا إنْ قاتَلوهُمْ عِنْدَهُ فلا حَرَجَ على المُسْلِمينَ مِنْ قِتالِهِمْ عِنْدَهُ ، لأنَّ البادِئَ بالقِتالِ هُوَ المُنْتَهِكُ لِحُرْمَةِ المَسْجِدِ ، وهُمُ المُشْرِكونَ ، ولَسْتُمْ أنْتُمْ أيُّها المؤْمِنونَ ، لأنَّكُمْ تُدافِعونَ عَنْ أنْفُسِكُمْ ، وقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ ولَمْ يَقُلْ (قاتِلوهُمْ) تَبشيراً للمُؤْمِنينَ بالغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ ، وإشْعاراً بِأنَّ المُشْرِكينَ في حالةٍ مِنَ الضَّعْفِ ، فَهُمْ لِضَعْفِهِمْ بِحاجَةٍ إلى قَتْلِهِمْ ولَيْسَ قِتالِهِمْ .

﴿ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أيْ : مِثْلُ هَذا الجَزاءِ العادِلِ مِنَ القَتْلِ والرَّدْعِ ، يُجازي اللهُ الكافِرينَ الّذينَ قاتَلوا المُؤْمِنينَ وأَخْرَجوهُمْ مِنْ ديارِهِمْ . وقَدْ جَرَتْ سُنّةُ اللهِ تَعالى بِأنْ يُجازِيَ الكافِرينَ مِثْلَ هذا الجَزاءِ ، ويُعذِّبَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ التَّعْذيبِ ، فَهُمْ قَدْ تَعدَّوْا حُدودَ اللهِ تَعالى الّتي شَرَعَها ، فَهُمُ الظّالِمونَ لأنْفُسِهِمْ .

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أيْ : إنِ انْتَهوْا عَنْ مُقاتَلَتِكُمْ ، أو عَنِ الكُفْرِ ، فَكُفّوا عَنْهُم ولا تَتَعرّضوا لَهُمْ ، فإنَّ اللهَ يَقْبَلُ مِنْهُمْ عَمَلَهُمْ ، لأنّهُ رَحيمٌ بِعِبادِهِ يَغْفِرُ لَهُمْ ما قَدْ سَبَقَ .

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ والفِتْنَةُ هُنا الشِّرْكُ وما يَتْبَعُهُ مِنْ أذى المُشركينَ لِلْمُسْلِمينَ واضْطِهادِهِمْ وتَعْذيبِهِمْ ، والدّينُ هُوَ ما يُتَعَبَّدُ اللهُ بهِ ، أي : الدّينُ الصَّحيحُ الّذي شَرَعَهُ اللهُ لِعِبادِهِ على لسانِ نَبِيِّهِمْ مُحَمّدٍ ﷺ ، لِيَتَوَصّلوا بهِ إلى الصَّلاحِ في الحالِ أو الفلاحِ في المآلِ .

أيْ : قاتِلوا أُولَئِكَ المشركينَ حتّى تُزيلوا الشِّرْكَ ، وتَكْسِروا شَوْكَةَ المُشْرِكينَ ، بِحَيْثُ

لا يَستَطيعونَ بهِ فِتْنَةَ أَهْلِ الحَقِّ ، وحتّى يَكونَ الدّينُ الظاهِرُ والمُنْتَشِرُ في الأَرْضِ هُوَ الدّينُ الّذي شَرَعَهُ اللهُ تَعالى على لِسانِ نَبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

إنّ المُشْرِكينَ لَيْسَ في حَقِّهِمْ إلاّ الإسْلامُ أَوِ السَّيْفُ ، وقَدْ أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ ابنِ عُمَرَ : أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النّاسَ حتّى يَشْهَدوا أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ ، وأَنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ ، ويُقيموا الصَّلاةَ ويُؤْتوا الزَّكاةَ ، فإنْ فَعَلوا ذَلِكَ عَصَموا مِنّي دماءَهُمْ وأموالَهُمْ إلاّ بِحَقِّ الإسْلامِ وحِسابُهُمْ على اللهِ »[1] .

وَقَدْ مَكَّنَ اللهُ لِلْمُؤْمنينَ في الأَرْضِ ، فَفَتَحوا مَكَّةَ وحَطَّموا الأَصْنامَ ، وكانَ الدّينُ كُلُّهُ للهِ تَعالى ، وجاءَ الحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ .

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أيْ : إنِ امْتَنَعوا عَنْ قِتالِكُمْ ولَمْ يُقْدِموا عَلَيْهِ ، وأَذْعَنوا لِتعاليمِ الإسْلامِ ، عِنْدَ ذَلِكَ كُفّوا عَنْ قِتالِهِمْ ، فما داموا قَدْ أَسْلَموا فَقَدِ ارْتَفَعَ عَنْهُمْ وَصْفُ الظُّلْمِ ، وما دامَ هَذا الوَصْفُ قَدِ انْتَفى عَنْهُمْ فَلا يَصِحُّ أَنْ تُقاتِلوهُمْ ، فالقِتالُ لا يَكونُ إلاّ للظّالِمينَ تَأْديباً لَهُمْ . ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ ﴾ هذا بَيانٌ لِلحِكْمَةِ في إباحَةِ القِتالِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ ، وبَيانٌ مِنَ اللهِ تَعالى بأَنَّ مُراعاةَ حُرْمَةِ هذهِ الأَشْهُرِ واجِبَةٌ في حَقِّ مَنْ يَصونُ حُرْمَتَها مِنَ الكافِرينَ ، أَمّا مَنِ انْتَهَكَ هذهِ الحُرْمَةَ فلا بُدَّ مِنْ مُعاقَبَتِهِ .

وقَدْ خَرَجَ المُسْلِمونَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ لأداءِ العُمْرَةِ في شَهْرِ ذي القِعْدَةِ ، فَصَدَّهُمُ المُشْرِكونَ عَنْ وصولِ مَكَّةَ ، وَوَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى بِدُخولِها وأداءِ العُمْرَةِ فيها ، وبَيَّنَ لَهُمْ بأَنَّ هذا الشَّهْرَ الّذي تُؤَدّونَ فيهِ عُمْرَةَ القَضاءِ ، يُقابِلُ ذَلِكَ الشَّهْرَ الّذي صَدَّكُمْ فيهِ المُشْرِكونَ عَنْ دُخولِ المَسْجِدِ الحَرامِ ، فإذا بَدَأوا بانْتِهاكِ حُرْمَتِهِ بِقِتالِكُمْ ، فلا تُبالوا في أنْ تُقاتِلوا فيهِ دِفاعاً عَنْ أَنْفُسِكُمْ ، فَهُمُ الّذينَ بَدَأوا بانْتِهاكِ حُرْمَةِ هَذا الشَّهْرِ .

ويَجِبُ مُقاصَصَةُ المُشْرِكينَ على انْتِهاكِ حُرْمَةِ هَذا الشَّهْرِ ، وذَلِكَ بِمُقابَلَتِهِمْ بالمِثْلِ ، لِيَكونَ شَهْرٌ بِشَهْرٍ جَزاءً وِفاقاً ، فَهُمْ قَدِ انْتَهَكوا حُرْمَةَ الشَّهْرِ ، وذَلِكَ بأَنْ صَدّوكُمْ عَنِ البيتِ الحَرامِ ، وأَرادوا أَنْ يَتَعرَّضوا لَكُمْ بالقِتالِ ، ولِذَلِكَ افْعَلوا بِهِمْ مِثْلَما فَعَلوا بِكُمْ . وأَكَّدَ سُبْحانَهُ وتَعالى هَذا المَعْنى بِقَوْلِهِ : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ أيْ : مَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ وظَلَمَكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) حديث رقم ٢٥ .

فَجازوهُ باعْتِدائِهِ وقابِلوهُ بِمِثْلِ ما اعْتَدى عَلَيْكُمْ ، مِنْ دونِ حَيْفٍ أَوْ تَجاوزٍ لِلْحَدِّ الّذي أباحَهُ اللهُ تَعالى لَكُمْ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ اتَّقوا اللهَ تَعالى ، واحْذَروا أنْ تَعْتَدوا بِما لَمْ يُرَخِّصْ لَكُمْ ، واعْلَموا أنَّ اللهَ معَ الّذينَ يَمْتَثِلونَ أوامِرَهُ بالمَعونَةِ والتَّأييدِ والنَّصْرِ والتَّمْكينِ والغَلَبَةِ على الأَعْداءِ تَأْييداً لِدينِهِ وإعْلاءً لِكَلِمَتِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الصِّيامُ والجِهادُ أَمْرانِ مُتلازِمانِ ، لا يَنْفَكُّ أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ ، إذْ حَرِيٌّ بالصّائِمِ أنْ يَكونَ إعصارَ حَقٍّ ، وعاصِفَةَ خَيْرٍ تَقْتَلِعُ جُذورَ الباطِلِ والشَّرِّ .

٢ـ فِتنَةُ الإنْسانِ بإيذائِهِ وعَذابِهِ وصَدِّهِ عَنْ دينِهِ أَشَدُّ عِنْدَ اللهِ مِنْ قَتْلِهِ .

٣ـ المَسْجِدُ الحَرامُ لَهُ حُرْمَتُهُ وهَيْبَتُهُ ، فلا يَجوزُ القِتالُ فيهِ ، ولا يُباحُ التَّعرُّضُ لِشَيْءٍ فيهِ بالأَذى إلاّ إذا قُوتِلَ المُسْلِمونَ فيهِ .

٤ـ قِتالُ الأَعْداءِ كَقِتالِ المُجْرِمينَ يَجِبُ أَنْ يَكونَ بِلا هَوادَةٍ ولا تَقْصيرٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنِ الصِّلَةَ بَيْنَ الجِهادِ والصَّوْمِ .

٢ـ شاءَ اللهُ تَعالى أَنْ تَكونَ أَشْهَرُ المَعارِكِ في شَهْرِ رَمَضانَ . ما الحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بالقِتالِ في سَبيلِ اللهِ ؟ ومَتى يَكونُ ذَلِكَ ؟

٤ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ .

٥ـ ما العِلَّةُ في الإذْنِ بالقِتالِ ؟

٦ـ ما حُكْمُ القِتالِ في المَسْجِدِ الحرامِ ؟

٧ـ ما مَعْنى الفِتْنَةِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ؟ وكَيْفَ يَكونُ الدّينُ للهِ ؟

٨ـ بَيِّنْ مَوْقِفَ الإسْلامِ مِنَ المُشْرِكينَ .

٩ـ ذَكَرَتِ الآياتُ الحِكْمَةَ مِنَ القِتالِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ ، هاتِ ما ذَكَرَتِ الآياتُ .

١٠ـ اسْتَنْتِجِ الحِكْمَةَ مِنْ خَتْمِ هذهِ الآياتِ بِقَوْلِهِ تعالى : ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ أَسْماءَ خَمْسِ مَعارِكَ حَدَثَتْ في شَهْرِ رَمَضانَ .

٢ـ في أي سَنَةٍ هِجْرِيَّةٍ كانَتْ عُمْرَةُ القَضاءِ ؟ ولِماذا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ وَصِيَّةَ أَبي بَكْرٍ الصِّديقِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ لأُسامَةَ بنِ زيدٍ حينَ بَعَثَهُ أَميراً على الجَيْشِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني عَشَرَ

سورَةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والخَمْسونَ

وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ
وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم
مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ
فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن
لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **التَّهْلُكَةِ** : الهَلاكُ ، والمُرادُ بِهِ تَرْكُ الجِهادِ .
- **أُحْصِرْتُمْ** : الإحْصارُ : الحَبْسُ والتَّضييقُ والمَنْعُ .
- **الهَدْيَ** : ما يَهديهِ الحاجُّ أو المعْتَمِرُ إلى البيْتِ الحرامِ مِنْ أنعامٍ لِيُذْبَحَ ، ويُوَزَّعَ عَلى الفُقَراءِ .
- **مَحِلَّهُ** : المَحِلُّ : مَكانُ الحُلولِ والنُّزولِ .
- **تَمَتَّعَ** : التَّمتُّعُ : أنْ يَنْويَ العُمْرَةَ ، ويَتَحلَّلَ ثُمَّ يَنْوي الحَجَّ .
- **حاضري المَسْجِدِ الحَرامِ** : هُمْ أَهْلُ مَكّةَ وما دونَها إلى المَواقيتِ .

التَّفْسيرُ :

أَمَرَتِ الآياتُ السّابقَةُ المُؤْمِنينَ بالجَهادِ بالنَّفْسِ ، وأَتْبَعَتْ ذَلِكَ بالأَمْرِ بالجهادِ بالمالِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ .

﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أيْ : ابْذُلوا المالَ لِتَأْمينِ وَسائِلِ الدّفاعِ عَنْ حِمى الدّينِ والوَطَنِ ، وذَلكَ بِشراءِ السّلاحِ والعَتادِ وما يَلْزَمُ للحُروبِ .

﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ أيْ : أنَّكُمْ إنْ لَمْ تَبْذُلوا في سبيلِ اللهِ تَعالى لِنُصْرَةِ دينِهِ كُلَّ ما تَسْتَطيعونَ ، فقَدْ أَهْلَكْتُمْ أَنْفُسَكُمْ .

أَخْرَجَ التِّرْمذيُّ عنِ ابنِ عُمَرَ قالَ : « كُنّا بِمَدينَةِ الرُّوم القُسْطَنطينةِ ، فَأَخْرَجوا لَنا صَفّاً عَظيماً مِنَ الرّوم ، فَخَرَجَ إلَيْهِم مِنَ المُسلمينَ مِثْلُهُمْ ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمينَ على صَفِّ الرُّوم حتّى دَخَلَ فيهِمْ ، فَصاحَ النّاسُ وقالوا : سُبْحانَ اللهِ يُلْقي بِيَدَيْهِ إلى التَّهْلُكَةِ ؟ فقامَ أبو أيّوبِ الأَنْصارِيُّ فَقالَ : أيُّها النّاسُ إنَّكُمْ لَتُؤَوّلونَ هذِهِ الآيَةَ هذا التَّأويلَ ، وإنّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ فينا مَعْشَرَ الأَنْصارِ ، لَمّا أعَزَّ اللهُ الإسلامَ وكَثُرَ ناصِروهُ ، فقالَ بَعْضُنا لِبَعْضٍ سِرّاً دونَ رسولِ اللهِ ﷺ : إنَّ أَمْوالَنا قَدْ ضاعَتْ ، وإنَّ اللهَ قَدْ أعَزَّ الإسْلامَ ، وكَثُرَ ناصِروهُ ، فَلَوْ أَقَمْنا في أَموالِنا فَأَصْلَحْنا ما ضاعَ مِنْها ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى على نبيِّهِ يَرُدّ عَلَيْنا ما قُلْناهُ : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ فكانَتِ التَّهْلُكَةُ الإقامَةُ على الأَموالِ وإصْلاحُها وتَرْكُ الغَزْوِ . قال الرّاوي : فما زالَ أبو أيّوبٍ شاخِصاً في سبيلِ اللهِ حتّى دُفِنَ بأَرْضِ الرّوم[1] .

والباء في (بِأَيْديكُمْ) تُفيدُ مَعْنى السَّبَبيةِ ، لا تُلقوا بأنْفُسِكُمْ بسَبَبِ ما اقْتَرَفَتْهُ أيْديكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ . وخُتِمَتِ الآيةُ بالأَمْرِ بالإحْسانِ : ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَحْسِنوا أعمالَكُمْ وأَتْقِنوها لأنّه سُبْحانَهُ وتَعالى يُحِبُّ المُحْسنينَ .

وبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنِ الجهادِ الأَكْبَرِ وهُوَ القِتالُ ، انْتَقَلَتْ لِلْحَديثِ عَنِ الجِهادِ الّذي لا شوْكَةَ فيهِ وهُوَ الحَجُّ ، يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ .

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ المُرادُ بإتْمامِ الحَجِّ والعُمْرَةِ ، الإتْيانُ بِهِما تامَّيْنِ كامِلَيْنِ ، وذَلِكَ يَكونُ ظاهِراً بِأَداءِ المَناسِكِ على وجْهِها المَشْروعِ ، وباطِناً ، بالإخْلاصِ للهِ تَعالى دونَ قَصْدِ الكَسْبِ أوِ

(١) رواه الترمذي في السّنن ، حديث رقم ٢٩٧٢ .

التِّجارَةِ أو الرِّياءِ والسُّمْعَةِ . والتِّجارَةُ لا تَتعارَضُ مَعَ الإخْلاصِ ، إذا لَمْ يُقْصَدُ الذَهابُ إلى مَكَّةَ لِذاتِ التِّجارَةِ .

وَمَعْنى الآيةِ : ائْتوا الحَجَّ والعُمْرَةَ كاملي الأَرْكانِ والشُروطِ والآدابِ ، خالِصيْنَ لوَجهِ اللهِ تَعالى . والحَجُّ ـ كما نَعْلَمُ ـ مِنَ أرْكانِ الإسْلام ، فَهُوَ فَرْضٌ على الإنسانِ القادِرِ ، مرَّةً في العُمْرِ ، أمّا العُمْرَةُ ، فَلَيْسَ هُناكَ دَليلٌ على وُجوبِها ، فَهِيَ تُعَدُّ مِنَ السُّنَنِ . وأرْكانُ العُمْرةِ وأَفعالُها الّتي هِيَ الإِحْرامُ والطَّوافُ والسَّعْيُ ، تَدْخُلُ في ثنايا أَفْعالِ الحَجِّ وأَرْكانِهِ .

وَقَدْ كانَ الحَجُّ مَعْروفاً في الجاهِلِيَّةِ مِنْ عَهْدِ سَيِّدِنا إبراهيمَ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وجاءَ الإسْلامُ وأَقَرَّهُ ، وَوَضَعَ لَهُ الأَحْكامَ وأسمى الآدابِ ، وأزالَ ما فيهِ مِنْ ضُروبِ الشِّرْكِ والمُنْكَراتِ .

وأَوَّلُ حِجَّةٍ حَجَّها المُسْلِمونَ كانَتْ سَنَةَ تِسْعٍ ؛ وذَلِكَ بإمْرَةِ سَيِّدنا أبي بَكْرٍ الصِّدّيقِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ تَمهيداً لِحِجَّةِ النَّبيِّ ﷺ ، وقَدْ أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ أبا بَكْرٍ أَنْ يُؤَذِّنَ بالمُشْرِكينَ ألاّ يَحُجَّ بَعْدَ هذا العامِ مُشْرِكٌ ، ولا يَطوفَ بالبيتِ عُرْيانٌ .

﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ أَيْ : إنْ مُنِعْتُمْ وأَنْتُمْ مُحْرِمونَ ، مِنْ إتمامِ النُّسُكِ ، سواءٌ أكانَ الحَجُّ أم العُمْرَةُ ، وسَواءٌ مُنِعْتُمْ بِسَبَبِ عَدُوٍّ أَوْ مَرَضٍ أو وَحْشٍ يَعْتَرِضُ الطَّريقَ ، أمْ قُطّاعِ الطُرُقِ ، إنْ مُنِعْتُمْ مِنْ إتْمامِ النُّسُكِ وأَرَدْتُمُ التَّحَلُّلَ مِنَ الإحرامِ عَلَيْكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ أنْ تَذْبَحوا ما تَيَسَّرَ مِنَ الهَدْيِ ، سَواءٌ أكانَ شاةً أمْ بقَرَةً ، أمْ ناقَةً . والذَّبْحُ إنّما يَكونُ في المَوْضِعِ الّذي أُحْصِرَ فيهِ الإنْسانُ المُحرِمُ ومُنِعَ مِنْ إتْمامِ نُسُكِهِ ، ولَوْ كانَ في مِنْطَقَةِ الحِلِّ ، فَقَدْ ذَبَحَ النَّبيُّ ﷺ عامَ الحُدَيْبِيَةِ في هذِهِ المِنطَقَةِ الّتي سُمِّيَ العامُ نِسْبَةً إليْها ، وهي مِنَ الحِلِّ ولَيْسَتْ مِنَ الحَرَمِ . ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ وحَلْقُ شَعَرِ الرَّأْسِ أوِ تَقْصيرُهُ هُوَ عَلامَةُ الانْتِهاءِ مِنْ أداءِ مَناسِكِ الحَجِّ أوِ العُمْرَةِ ، كَما أنَّ التَّسليمَ عَلامةُ الانْتِهاءِ مِنَ الصَّلاةِ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : لا تَتَحلَّلوا مِنْ إحْرامِكُمْ بالحَلْقِ حَتّى تَذْبَحوا الهَدْيَ في المَوْضِعِ الّذي أُحْصِرْتُمْ فيهِ ، فإذا تَمَّ الذَّبْحُ فاحْلِقوا وتَحلّلوا ، وهَذا فيهِ التَّيْسيرُ والتَّسْهيلُ عَلى المُحْصَرينَ ، فالذَّبْحُ لِهَدْيِهِمْ في مَكانِ إحْصارِهِمْ أيْسَرُ لَهُمْ .

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ الحَلْقَ لا يَجوزُ للإنْسانِ ما دامَ مُحْرِماً ، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِبيانِ حالةٍ يَجوزُ للإنْسانِ أَنْ يَحْلِقَ رَأْسَهُ فيها وهُوَ مُحْرِمٌ ، وهذِهِ الحالَةُ هِيَ : إذا كانَ في رأْسِ الإنْسانِ أذىً ، كَأَنْ ابْتُلِيَ بِكَثْرَةِ الحَشَراتِ في رَأْسِهِ ـ كالقَمْلِ ـ أو ابْتُلِيَ بِجراحٍ كَثيرةٍ ، فَعَلَيْهِ عِنْدئذٍ حَلْقُ رَأْسِهِ . ودَفْعُ الفِدْيَةِ ، هِيَ العِوَضُ عَنِ الشّيءِ النَّفيسِ ، وهِيَ هُنا كما بَيَّنَتْها الآياتُ :

١ـ إمّا الصّيامُ ثلاثَةِ أيّامٍ .

٢ـ أوْ إطْعامُ سِتّةِ مَساكينَ .

٣ـ أوْ ذَبْحُ شاةٍ وهِيَ النُّسُكُ هُنا .

أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ كَعْبِ بن عَجْرَةَ الأنْصاريِّ ، قالَ : « حُمِلْتُ إلى النَّبيِّ ﷺ والقَمْلُ يَتناثَرُ على وجْهي ، فَقالَ : ما كُنْتُ أَدْري أنَّ الجُهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذا ، أما تَجِدُ شاةً ؟ قلتُ : لا ، قالَ : صُمْ ثلاثَةَ أيّام ، أو أَطْعِمْ سِتَّةَ مَساكِينَ نِصْفَ صاعٍ مِنْ طعام ، واحْلِقْ رَأْسَكَ ؟ »[1] .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ كَيْفِيَّةَ التَّحَلُّلِ في حالةِ الأَمْنِ فقالَ تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ﴾ إذا أَمِنْتُمْ مِنَ الإحْصار ، وذَهَبَ خَوْفُ العَدوِّ ، أوِ المَرَضُ الّذي مَنَعَكُمْ مِنْ إتْمام المناسِكِ ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ﴾ أيْ : فَمَنْ اسْتَمْتَعَ بِأَنْ يُحْرِمَ لِلعُمْرَةِ أوّلاً ثُمَّ يَتحلَّلُ ويتَمَتَّعُ بِما كانَ مَحْظوراً عَلَيْهِ عِنْدَ إحْرامِهِ ، وبِما يَكونُ مَحْظوراً على الّذي أَحْرَمَ مُفْرَداً أو قارِناً للحَجِّ .

وهذا المُتَمَتِّعُ يَظَلُّ مُتَحَلِّلاً حتّى اليَوْمِ الثّامِنِ مِنْ ذي الحِجَّةِ ، وهُوَ الّذي يُسَمّى يَوْمَ التَروِيَةِ فَيُحْرِمُ للحَجِّ في ذَلِكَ اليَوْمِ ، ومَنْ نَوى التَّمَتُّعَ فَعَلَيْهِ صِيامُ ثَلاثَةِ أيّامٍ في أيّام الإحْرام بالحَجِّ ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَصومَ مَثَلاً اليَومَ السّادِسَ والسّابِعَ والثّامِنَ مِنْ ذي الحِجَّةِ ، ويَصومُ سَبْعَةَ أيّام إذا رَجَعَ مِنَ الحَجِّ إلى بَلَدِهِ ، لِيَكونَ مَجْموعُ ما صامَهُ بَدَلَ الهَدْيَ عَشَرَةَ أيّام . قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ﴾ ولِسائِلٍ أَنْ يَسْأَلَ : لِماذا قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ تِلۡكَ عَشَرَةٞ ﴾ فَنَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ ثلاثةً وسَبْعَةً تُساوي عَشَرَةً ، فَهَلِ الجُمْلَةُ زِيادَةٌ بلا مَعْنىً ولا فائِدَةٍ ؟ نَقولُ : إنّ الأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ ، أمّا قولُهُ سُبْحانَهُ : ﴿ تِلۡكَ عَشَرَةٞ ﴾ فَلَقَدْ جِيءَ بِها هُنا حتّى لا يُتَوَهَّمُ التَّخْييرُ بَيْنَ ثلاثةِ أيام في الحَجِّ وسَبْعَةٍ إذا رَجَعَ الحاجُّ إلى أَهْلِهِ وبَلَدِهِ ، ورُبَّما يُعلَّلُ هَذا بأَنَّ الصَّوْمَ في الحَجِّ فيهِ مَشَقَّةٌ أَكْثَرُ وعِبْءٌ أَكْبَرُ على الصّائِمِ ، ولا توجَدُ هَذِهِ المَشَقَّةُ إذا رَجَعَ الحاجُّ إلى بَيْتِهِ ، فَيُمْكِنُ أنْ تَقومَ الثّلاثةُ في الحَجِّ مَقامَ السَّبْعَةِ في الوَطَنِ والأَهْلِ ، فَأَرادَ القُرْآنُ أنْ يَنْفيَ هَذا الوَهْمَ . وأمّا قَولُهُ ﴿كَامِلَةٞ﴾ فَفيهِ تَطيبٌ لِخاطِرِ أُولَئِكَ الصّائِمينَ الّذينَ لا يَجِدونَ الهَدْيَ ، والّذينَ يَظُنّونَ أنَّ مَثوبَةَ مَنْ قَدَّمَ الهَدْيَ أَكْثَرَ وأَكْبَرَ ، فأرادَ رَبُّنا سُبْحانَهُ أنْ يُبيِّنَ أنَّها كامِلَةٌ في ثَوابِها وأَجْرِها ، فَلَقَدْ أَدَّتْ هذِهِ الجُمْلَةُ عَلى قِصَرِها أَكْثَرَ مِنْ فائِدَةٍ .

﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ يَقولُ سُبْحانَهُ : إنَّ ذَلِكَ المَذْكورَ وهُوَ التَّمَتُّعُ بَيْنَ العُمْرَةِ والحَجِّ ، بما هُوَ مَحْظورٌ عَلى المُحْرِمِ ، إنّما يَكونُ لِمَنْ لَيْسَ مُقيماً في مَكَّةَ وما حَوْلَها ، لأنَّ المُقيمينَ في مَكَّةَ وما حَوْلَها يُفْرِدونَ ، إذْ بإِمْكانِهِمْ أنْ يُؤدّوا العُمْرَةَ طَوالَ السَّنَةِ ، أمّا الّذين يَأْتونَ مِنْ خارِجِ مَكّةَ مِنْهُمْ فَهُمْ يَتمتَّعونَ لِما يَلْحَقُهُمْ مِنَ المَشَقّةِ بالسَّفَرِ إلى الحَجِّ وحْدَهُ ، ثُمَّ السَّفَرِ إلى العُمْرَةِ وَحْدَهُ . وخُتِمَتِ الآيةُ بالأَمْرِ بِتَقوى اللهِ تَعالى أوّلاً ، وذَلِكَ

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٣٩٥٤ .

يَكونُ بامْتِثالِ أوامرِ اللهِ تَعالى واجْتِنابِ نواهيهِ ، وبالتَّحْذيرِ مِنْ عِقابِ اللهِ تَعالى لِمَنِ انْتَهَكَ حُرُماتِ اللهِ تَعالى وارْتَكَبَ المَعاصي .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَرْكُ الجِهادِ ، وقِتالُ الأعْداءِ ، وتَرْكُهُمْ يَعْيثونَ فَساداً في البِلادِ فيهِ إلقاءٌ بالنَّفْسِ إلى التَّهْلُكَةِ .

٢ـ خَشْيَةُ اللهِ تَعالى ومُراقَبَتُهُ في كُلِّ عَمَلٍ يَقومُ بِهِ الإنْسانُ صِفَةٌ يَتَحلّى بِها المُؤْمِنونَ .

٣ـ الدّينُ دينُ يُسْرٍ ، فَمَنْ كانَ مُحْرِماً ، وكانَ في رَأْسِهِ أذىً ، فَقَدْ أباحَ لَهُ الإسلامُ رَحْمَةً بِهِ حَلْقَ رَأْسِهِ ودَفْعَ فِدْيَةٍ بِحَسَبِ حالِهِ .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بالإنْسانِ أنْ أَباحَ لَهُ التَّمَتُّعَ في الحَجِّ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

التَّهْلُكَةِ ، فَإنْ أُحْصِرْتُمْ ، فَمَنْ تَمَتَّعَ ، الهَدْيَ ، حاضِري المسْجِدِ الحرامِ .

٢ـ ما سَبَبُ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ ؟

٣ـ ما مَعنى الباءِ في قَوْلِهِ : ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ ؟

٤ـ اسْتَنْتِجِ الصِّلَةَ بَيْنَ الجِهادِ والحَجِّ .

٥ـ ﴿وَأَتِمّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾ ، ما المَقْصودُ بالإتمامِ ؟ وما حُكْمُ كُلٍّ مِنَ الحَجِّ والعُمْرَةِ ؟

٦ـ مَتى كانَتْ أوَّلُ حَجَّةٍ حَجَّها صَحابَةُ رسولِ اللهِ ﷺ ؟ وَأَوَّلُ حَجَّةٍ حَجَّها رسولُ اللهِ ﷺ ؟

٧ـ أـ كَيْفَ يَكونُ الإحْصارُ بالنِّسبةِ للحاجِّ والمُعْتَمِرِ ؟

ب ـ ما سَبَبُ هذا الإحْصارِ ؟

ج ـ ماذا يَترَتَّبُ عَلَيْهِ ؟

٨ـ مَتى يَجوزُ للمُحْرِمِ أنْ يَحْلِقَ رَأْسَهُ ؟ وماذا يَكونُ عَلَيْهِ مُقابِلَ ذَلِكَ ؟

٩ـ مِنْ أَنواعِ الإِحْرامِ بالحَجِّ الإِحْرامُ مُتَمَتِّعاً . ما المَقْصودُ بِذلِكَ ؟ وما الّذي يَتَرَتَّبُ على المُتَمَتِّعِ ؟

١٠ـ ما السِرُّ في التَّعبيرِ ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ﴾ ؟

١١ـ مَنْ هُمْ حاضِرو المَسْجِدِ الحرامِ ؟ وهَلْ يَجوزُ لَهُمُ الإِحْرامُ مُتَمَتِّعينَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ المَقْصودَ بالإِحْسانِ ، كَما وَرَدَ في حَديثِ الإِسْلامِ والإيمانِ والإِحْسانِ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ في أيِّ سَنَةٍ فُرِضَ الحَجُّ ؟ وفي أيِّ سَنَةٍ حَجَّ رسولُ اللهِ ﷺ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ أَيُّهُما أَفْضَلُ للرَّجُلِ ، الحَلْقُ أم التَّقْصيرُ ؟ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً يَدُلُّ لِذلِكَ .

٤ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ كُتُبِ الفِقْهِ واكْتُبْ في دَفْتَرِكَ المَقْصودَ بالإِفْرادِ والقِرانِ في الحَجِّ .

٥ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَحْظوراتِ الإِحْرامِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثَ عَشَرَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ التّاسِعُ والخَمْسونَ

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ
وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم
مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ
وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ
وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

فَرَضَ : أَوْجَبَ .

رفَثَ : الرَّفَثُ القَوْلُ الفاحِشُ البَذيءُ وقُرْبانُ النِّساءِ .

فسوقَ : الفسوقُ : الخُروجُ عمّا حَدّدَهُ الشَّرْعُ .

جدالَ : الجِدالُ : المِراءُ والخِصامُ .

الزّادِ : الأَعْمالِ الصّالِحَةِ وما يُدَّخَرُ مِنَ الخَيْرِ .

جُناحٌ : حَرَجٌ وإِثْمٌ .

أنْ تبْتَغوا : أَمَرَ أَنْ تَقْصُدوا وتَطْلُبوا .

أَفَضْتُمْ : الإِفاضَةُ مِنَ المَكانِ : الدّفعُ مِنْهُ ، ويَكونُ ذٰلِكَ عِنْدَ غُروبِ شَمْسِ يَوْمِ عَرَفَةَ .

فاذْكُروا : الذِّكْرُ : الدّعاءُ والتّلبيةُ والتَّكْبيرُ والتَّحْميدُ .

المَشْعَرِ الحَرامِ : جَبَلِ المُزْدَلِفَةِ .



التَّفسيرُ :

ما زالَتِ الآياتُ تَتحدَّثُ عَنْ هذا الرُّكْنِ العَظيمِ : الحّجِّ ، الَّذي سمّاهُ النَّبيُّ ﷺ الجِهادَ الَّذي لا قِتالَ فيهِ ، لِما فيهِ مِنْ مَشقَّةٍ وتَعَبٍ وتَحمُّلٍ وصَبْرٍ .

تَتَحدَّثُ الآياتُ عَنْ وَقْتِ الحَجِّ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ .

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ ﴾ أيْ : أَشْهُرُ الحجِّ أَشْهُرٌ مَعلوماتٌ ، وهذهِ الأَشْهُرُ هِيَ شوالُ وذو القِعدةِ وذو الحِجَّةِ ، وهَذهِ الأَشْهُرُ لِكَوْنِها تُؤَدّى فيها فريضةُ الحَجِّ فَقَدِ اكْتَسَبَتْ تَقْديساً وبَرَكَةً مِنْها ، وعَبَّرَ عَنْ هَذِهِ الأَشْهُرِ بِأَنَّها مَعْلوماتٌ ، وذَلِكَ لأنَّ العَرَبَ كانوا يَعْرِفونَها كُلَّ عامٍ مُنْذُ عَهْدِ سَيِّدِنا إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، نُقِلَ ذَلِكَ بالتَّواتُرِ العَمَلِيِّ ، وقَدْ جاءَ الإِسْلامُ مُقَرِّراً لِما هُوَ مَعْروفٌ ولَمْ يُغَيِّرْهُ .

﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ ﴾ وذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى هُنا ما يَجِبُ أَنْ يَتَحلَّى بِهِ المُسْلِمُ مِنْ فضَائِلَ عِنْدَ أدائِهِ لِفَريضَةِ الحَجِّ . يَقولُ سُبْحانَهُ : أَوْقاتُ الحَجِّ أَشْهُرٌ مَعْلوماتٌ ، فَمَنْ نَوى وأَوْجَبَ عَلى نَفْسِهِ الحَجَّ ، وأَحْرَمَ بِهِ ، فَعليْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ جِماعَ النِّساءِ ، ومُقَدِّماتِهِ ، وأَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ أَيِّ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يَكونُ بَعيداً عَنْ روحِ الإِسْلامِ ، أَوْ أَيِّ قَوْلٍ وفِعْلٍ يُمْكِنُ أَنْ يُؤدّي إلى التَّنازُعِ والخِصامِ بَيْنَ رُفَقاءِ السَّفَرِ والإِخْوانِ ، وذَلِكَ أَنَّهُمُ اجْتَمَعوا جَميعاً لأداءِ عِبادَةٍ واحِدَةٍ ولِطاعَةِ اللهِ تَعالى ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتعاونوا عَلى البِرِّ والتَّقوى ، ولَيْسَ عَلى الإِثْمِ والعُدْوانِ . ويَنْبَغي عَلى الحاجِّ أَنْ يَتَجرَّدَ عَنْ عاداتِهِ ، ويَنْسَلِخَ عَمّا كانَ يَفْتَخِرُ به ، فَهُوَ الآنَ يَتساوى معَ الجَميعِ : الغَنيِّ والفَقيرِ ، والتّابِعِ والمَتْبوعِ ، وهَذا فيهِ تَهْذيبٌ لِلنَّفْسِ ، وإِشْعارٌ لَها بِعُبودِيَّةِ اللهِ تَعالى .

أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ ولَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كيومِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ »(١) .

إِنَّ شَأْنَ الحَرَمِ عَظيمٌ ، فالمَرْءُ فيهِ في عِبادةٍ ومُناجاةٍ للهِ تَعالى ، فَيَجِبُ أَنْ يَكونَ عَلى أَكْمَلِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، حديث رقم ١٤٤٩ ، في باب فضل الحج المبرور .

الأَدَبِ وأَفْضَلِ الأَحوالِ ، وقَدْ قالَ سُبْحانَهُ في شَأْنِ ذَلِكَ : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج : ٢٥] .

والمَعْنى : مَنْ يَهُمُّ فيهِ بِإِلْحادٍ فَيَظْلِمُ نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ فإِنَّ اللهَ سَوْفَ يُذيقُهُ عَذاباً أليماً ، وذَلِكَ أَنَّ مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ يُضاعَفُ فيها العَمَلُ ، فإذا كانتِ الحَسَناتُ تُضاعَفُ لأَصْحابِها أَضْعافاً كَثيرةً ، فَيَنْبَغي أَنْ تَكونَ السَّيِّئاتُ كَذلِكَ ، والغُنْمُ بالعَزْمِ .

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي : لا تَرْفُثوا ولا تَفْسُقوا ولا تُجادِلوا ، لِتُزَكّوا نُفوسَكُمْ وتَتَخلّى عَنِ الرّذائِلِ وتَتحلّى بالفَضائِلِ ، سارِعوا إلى الأَعمالِ الصّالِحَةِ خاصَّةً في هذا المَكانِ المُشَرَّفِ ، وهَذا الزَّمانِ المُعَظَّمِ ، واللهُ تَعالى لا تَخفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ ، وسَيُجازيكُمْ بِأَعْمالِكُمْ ويُثيبُكُمْ عَلى أفْعالِكُمْ ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أَيْ : لِتَكُنِ التَّقْوى زادَكُمْ الّذي تَتزوَّدونَ بِهِ لِرَحيلِكُمْ عَنِ الدُّنيا ، ذَلِكَ أَنَّ الإنْسانَ في سَفَرِهِ في الدُّنْيا لا بُدَّ لَهُ مِنْ زادٍ ، وهُوَ طَعامُهُ وشَرابُهُ ، ومالُهُ ، وفي سَفَرِهِ مِنَ الدُّنْيا وعَنْها ، لا بُدَّ لَهُ مِنْ زَادٍ ، وهَذا هُوَ تَقوى اللهِ تَعالى ، ومَعْرِفَةُ اللهِ ومَحَبَّتُهُ ، والإعْراضُ عَمَّنْ سِواهُ ، وهذا الزّادُ خَيْرٌ مِنَ الزّادِ الأَوَّلِ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِتَأْكيدِ أَمْرِ التَّقوى ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي : أَخْلِصوا لي يا أَصْحابَ العُقولِ والأَفْهام وذَلِكَ بالامْتِثالِ لأَوامِري، وتَنْفيذِ ما أَوْجَبْتُهُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَحْكام تَنْفَعُكُمْ في دُنْياكُمْ وآخِرَتِكُمْ.

وقَدْ يَقولُ قائِلٌ إذا كانَ الجِدالُ في الحَجِّ مَمْنوعاً ، فَمَعْنى ذَلِكَ أَنَّهُ لا يَجوزُ لأيِّ إنْسانٍ أَنْ يَبيعَ ويَشْتَرِيَ ويُتاجِرَ بِأَمْوالِهِ ، لأنَّ هَذا يَحْتاجُ إلى الجِدالِ . ولِذا جاءَتِ الآيَةُ التّالِيَةُ رَدّاً عَلى هَذا التَّساؤلِ :

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ أي : لا إثْمَ ولا حَرَجَ عَلَيْكُمْ في أَنْ تَكْسِبوا المالَ الحلالَ في أَيّامِ الحَجِّ ، وذَلِكَ إذا لَمْ يَكُنْ مَقْصَدُكُمُ الأَساسيُّ في الخُروجِ لِلْحَجِّ هو التِّجارةُ ، أَمَّا إذا كانَ الحَجُّ مَقْصِدَكُمْ ، ونِيَّتُكُمْ خالِصةٌ للهِ ، وإذا رَأَيْتُم بَعْدَ ذَلِكَ اسْتِغْلالَ هَذا المَوْسِمِ في التِّجارَةِ لِحاجَتِكُمْ للمالِ ، فلا حَرَجَ عَلَيْكُمْ .

أَخْرَجَ البُخارِيُّ عَنِ ابنِ عَبّاسٍ قالَ : « كانَ ذو المجازِ وعُكاظُ مَتْجَرُ النّاسِ في الجاهِلِيَّةِ فلمّا جاءَ الإسْلامُ كأَنَّهُمْ كَرِهوا ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟﴾ الآية[1] .

---

(١) أخرجه البخاري ، حديث رقم ١٩٩٢ .

﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ ﴾ . جاءَتِ الفاءُ هُنا للتَّفْصيلِ ؛ تَفْصيلِ ما أَجْمَلَتْهُ الآياتُ مِنْ أَمْرِ الحَجِّ ، أي إذا دَفَعْتُمْ بَعْدَ وقوفِكُمْ عَلى عَرَفاتٍ وذلكَ بَعْدَ غُروبِ شَمْسِ اليَوْمِ التّاسعِ مِنْ ذي الحِجَّةِ ؛ إذا دَفَعْتُمْ تارِكينَ هذا المكانَ ، فاذْكروا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحرامِ .

والمَشْعَرُ الحرامُ هُوَ المُزْدَلِفَةُ ، وهُوَ مِنْ أَرْضِ الحَرَمِ ، والمُزْدَلِفَةُ مِنَ الازْدِلافِ بمعنى القُرْبِ ، إذِ الحاجُّ يَذْهَبُ بَعْدَ عَرَفاتٍ إلى المُزْدَلِفَةِ ابْتِغاءً للقُرْبِ مِنْ مِنى . والوُقوفُ بالمُزْدلِفَةِ واجِبٌ ، فَمَنْ لَمْ يَقِفْ في المُزْدَلِفَةِ ، عليهِ دَمٌ ، أي : وَجَبَ عَلَيْهِ ذِبْحُ شاةٍ .

والحاجُّ عندَ غُروبِ شَمْسِ يوم التّاسعِ مِنْ ذي الحِجّةِ يُغادِرُ عَرفاتٍ إلى المُزْدَلِفَةِ ، ويُصلّي فيها المَغْرِبَ والعِشاءَ جَمْعَ تَأْخيرٍ ، وَيبيتُ فيها ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْها إلى منىً . والحُجّاجُ يَتَّجِهونَ إلى المُزْدَلِفَةِ وهُمْ يَذْكُرونَ اللهَ تَعالى ؛ وذَلِكَ بالتَّلْبِيَةِ والتَّهْليلِ والدُّعاءِ .

﴿ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ ﴾ أيْ : اذْكُروا اللهَ تَعالى ذِكْراً حَسَناً ، كَما عَلَّمَكُمْ وهَداكُمْ إلى ذِكْرِهِ سُبْحانَهُ بأَنْ تَتوجَّهوا إليهِ تَضرُّعاً وخِيفةً .

﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ إنَّكُمْ كُنْتُمْ قَبْلَ هِدايَةِ اللهِ تَعالى لَكُمْ مِنَ الضّالينَ عَنِ الحَقِّ ، الجاهلينَ في الدِّينِ ، حَيْثُ كُنْتُمْ تَتَّخِذونَ الأَوْثانَ وُسَطاءَ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ اللهِ ، لِيُقرِّبوكُمْ إلَيْهِ تَعالى زُلْفى .

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ ﴾ .

وَبيَّنَتِ الآياتُ الطَّريقَةَ الصَّحيحَةَ للإفاضَةِ مِنْ عَرَفاتٍ : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ . أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ عائِشَةَ ـ رضِيَ اللهُ عنْها ـ قالَتْ : كانَتْ قُرَيْشٌ ، ومَنْ دانَ دينَها يَقِفونَ بالمُزْدَلِفَةِ ، وكانوا يُسمَّوْنَ الحُمُسَ ، وكانَ سائِرُ العَرَبِ يَقِفونَ بِعَرَفاتٍ ، فلمّا جاءَ الإِسْلامُ ، أَمَرَ اللهُ نَبيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ عرفاتٍ ثُمَّ يَقِفُ بِها ثُمَّ يُفيضُ مِنْها ، فَذَلِكَ قولُهُ : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾[1] .

أيْ عَلَيْكُمْ أَنْ تُفيضوا مَعَ النّاسِ مِنْ مكانٍ واحِدٍ ، لِتَتحقَّقَ المُساواةُ بَيْنَ الجَميعِ ، ولِكَيْ لا يَتَفاخَرَ أَحَدٌ على أَحَدٍ ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ اسْتَغْفِروا اللهَ مِنْ ذُنوبِكُمْ ، ومِمّا سَلَفَ مِنْكُمْ مِنْ أَخْطاءَ ، وأَكْثِروا مِنَ التَّوْبَةِ والاسْتِغْفارِ ، يَغْفِرُ اللهُ تَعالى لَكُمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ واسِعُ المَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ لِمَنْ يَسْتَغْفِرُهُ مَعَ الإنابَةِ إليهِ والتَّوْبَةِ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ باب قوله : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، حديث رقم ٤٢٤٨ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حتَّى يَعودَ الحاجُّ نَقِيّاً خالِياً مِنَ الخَطايا كَما ولَدَتْهُ أُمّهُ عَلَيْهِ أنْ لا يَرْفُثَ ولا يَفْسُقَ ولا يُجادِلَ في الحَجِّ .

٢ـ إنَّ الذَّنْبَ عَظيمٌ في الحَرَمِ ، إذْ تُضاعَفُ فيهِ السَّيِّئاتُ ، كَما تُضاعَفُ الحَسَناتُ .

٣ـ التَّقوى خَيْرُ زادٍ يَتزوّدُ بِهِ الإنْسانُ في رِحْلَةٍ يَنْتَقِلُ فيها مِنَ الدُّنْيا إلى الآخِرَةِ .

٤ـ إنَّما الأَعمالُ بالنِّياتِ ، فَمَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ الحجَ ، قُبِلَ عَمَلُهُ ، ومَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ التِّجارَةَ لَمْ يُقْبَلْ منهُ .

٥ـ الإِكْثارُ في الحَجِّ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعالى ، بالتَّلْبِيةِ والدُّعاءِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ ؟ وما أَشْهُرُ الحَجِّ ؟

٢ـ لماذا عَبَّرَتِ الآياتُ عَنِ الأَشْهُرِ بأَنَّها مَعلوماتٌ ؟

٣ـ ما معْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ ؟

٤ـ ذكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الأُمورِ الّتي تَحْرُمُ عَلى الحاجِّ ، بيِّنْ تِلْكَ الأُمورَ .

٥ـ الحَرَمُ لَهُ شَأْنٌ عَظيمٌ ، بيِّنْ هَذا الشَّأْنَ مِنْ خِلالِ مُحاسَبَةِ الإنْسانِ عَلى ما يَهُمُّ بِهِ مِنْ أعمالٍ .

٦ـ كَيْفَ يَكونُ التزَوُّدُ بالتَّقْوى ؟ ولِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ كَذلِكَ بالأَمْرِ بالتَّقْوى ؟

٧ـ ما سَبَبُ نُزولِ قولِهِ تَعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ؟

٨ـ ما معْنى الفاءِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ ؟ وأَيْنَ يَذْهَبُ الحاجُّ بَعْدَ الوُقوفِ عَلى عَرَفَةَ ؟

٩ـ ما حُكْمُ الوُقوفِ بِمُزْدَلِفَةَ ؟

١٠ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

١١ـ بيِّنْ سَبَبَ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ .

نَشاطٌ :

ـ ما حُكْمُ الوقوفِ عَلى عَرفة للحاجِّ ؟ اذْكُر دَليلَهُ مِنْ حَديثِ الرَّسولِ ﷺ ، واكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعَ عَشَرَ

سورَةُ الْبَقَرَةِ ـ القِسْمُ السّتونَ

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا
فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي
أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

خَلاقٍ : حَظٍ ونَصيبٍ .

أيامٍ مَعدوداتٍ : الأيامُ الّتي يقْضيها الحاجُّ في مِنىً .

تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ : خَرجَ مِنْ بَعْدِ أداءِ مَناسِكِهِ يَوْمَيْنِ بَعْدَ يَوْمِ العيدِ .

التَّفسيرُ :

عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : كانَ أَهْلُ الجاهِليَّةِ يَقِفونَ في المَوْسِمِ ، يَقولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ : كانَ أبي يُطعِمُ ويَحمِلُ الحمّالاتِ ، ولَيْسَ لَهُمْ ذِكْرٌ غَيْرُ فِعالِ آبائِهِمْ ، فجاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ للمُؤْمِنينَ ما يَنْبَغي عَلَيْهِمْ عِنْدَ أدائِهِمْ هذهِ الشَّعيرةَ ، ولِتُبْطِلَ عاداتِ الجاهِليَّةِ ؛ يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ . أي : إذا

فَرَغْتُمْ مِنْ عِبادَتِكُمْ ، وأَدَّيْتُمْ ما عَلَيْكُمْ مِنْ أَعْمالِ الحَجِّ ، فَأَكْثِروا مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعالى ، وبالِغوا فيهِ كَما تَذْكُرونَ آباءَكُمْ ، بَل اذْكروهُ أَشَدَّ مِنْ ذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ .

وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِذِكْرِهِ ، بَيَّنَ أَنَّ النَّاسَ قِسْمانِ :

١ـ الفَريقُ الأَوّلُ : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ أَيْ : مِنَ النّاسِ فَريقٌ يَطْلُبُ حَظَّ الدُّنيا ، ولَمْ يَقُلْ : (ربّنا آتنا في الدُّنيا حَسَنةً) ؛ لأَنَّ مَنْ كانَتِ الدُّنيا هَمَّهُ لا يُبالي أكانَتْ شَهَواتُهُ وحَظُّهُ في الدُّنيا حَسَنَةً أم سيّئةً ، فهذا الفريقُ يَطْلُبُ الدّنيا مِنْ كُلِّ بابٍ ، ويَسْلُكُ إلى هَذِهِ الدُّنيا كُلَّ طريقٍ ، لا يُمَيِّزُ بَيْنَ نافِعٍ لِغَيْرِهِ ولا ضّارٍ ، ومَنِ اسْتَوْلَتِ الدُّنْيا عليهِ ، لَمْ يَكُنْ للآخِرَةِ مَوْضِعٌ في قَلْبِهِ .

هَؤلاءِ لِكَسْبِهِمْ وسوءِ اخْتيارِهِمْ ، وتَفْضيلِهِمْ لِحَظِّ الدُّنْيا ، حَرَمَهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ حظِّ الآخِرَةِ ، هَؤلاءِ يَشْهَدونَ مواسِمَ الحَجِّ ، ولكِنَّ أَسْرارَ هذا المَنْسَكِ وحِكَمَهُ لَمْ تَصِلْ إلى شِغافِ قُلوبِهِمْ ، ولَمْ تُشْرِقْ هِدايَتُهُ على أرواحِهِمْ ، فَتكونُ الدُّنيا جُلَّ اهْتِمامِهِمْ .

وهَذا القِسْمُ مَوْجودٌ في كُلِّ زَمَنٍ ، فَتَجِدُهُم ، يَرْكضونَ وراءَ هَذِهِ الدُّنيا وحُظوظِها ، وبَهارِجِها ، وتَجِدُهُمْ يُصَلُّونَ الصَّلاةَ في أَوْقاتِها ، وقَدْ يَحُجّونَ كُلَّ عامٍ ، ولكنَّ هذِهِ العِباداتِ لا تُؤْتي ثِمارَها ، فلا تَنْهاهُمُ الصَّلاةُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، ولا يُطَهِّرُهُمُ الحَجُّ مِنَ الرَّفَثِ والفُسوقِ والجِدالِ ، فَهُمْ يُشْبِعونَ رَغَباتِهِمْ وَشَهواتِهِمْ دونَما ضابِطٍ ولا حاجِزٍ ، ولا هَمَّ لَهُمْ إلاّ حَظُّهُمْ مِنَ الدُّنيا .

قالَ تَعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ .

٢ـ الفَريقُ الثّاني : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ هَؤلاءِ يَطْلبونَ خَيْرَ الدُّنيا والآخِرَةِ ، لا حُظوظَ الدُّنْيا وحْدَها كَما يَفْعَلُ الفَريقُ الأَوَّلُ ، فَهُمْ يَطْلُبونَ الحياةَ السَّعيدَةَ الطَّيِّبَةَ في الدُّنيا ، وقَدْ تَكونُ الحَسَنَةُ الّتي يَطْلُبونَ هِيَ العافِيَةُ ، أو تيْسيرُ الحالِ بِحَيْثُ لا يَحْتاجونَ إلى أَحَدٍ سِوى اللهِ تَعالى ، أو المرأةِ الصَّالِحَةِ أو الزَّوْجِ الصّالِحِ ، أو الأَوْلادِ الأَبْرارِ ، أو الرِّزْقِ الحَسَنِ ، أَوِ العِلْمِ والمَعرِفَةِ ، أَو العِبادَةِ والطَاعَةِ ، كلُّ هذِهِ يُمْكِنُ أَنْ تَدْخُلَ في الحَسَنَةِ ، ولِذا جاءَتْ في الآيَةِ (نَكِرَةً) لِيَدْخُلَ فيها كُلُّ ما يَحْتاجُهُ الإنْسانُ ، وكلُّ ما يَطْلُبُ مِنَ اللهِ حَسَبَ حاجَتِهِ .

وهَؤلاءِ يَطْلُبونَ كَذَلِكَ حَسَنَةً في الآخِرَةِ . وحَسَنَةُ الآخِرَةِ يَدْخُلُ فيها جنّاتُ اللهِ تَعالى ، ونَعيمُها ، وكَذَلِكَ رُؤْيَةُ اللهِ تَعالى يَوْمَ القِيامَةِ .

وَطَلَبُ حَسَنَةِ الدُّنْيا يَتطَلَّبُ الأَخْذَ بالأَسْبابِ مِنَ الكَسْبِ الطَّيِّبِ ، وحُسْنِ مُعاشَرَةِ النّاسِ ، والتَّخَلُّقِ بآدابِ الشَّرْعِ . وطَلَبُ حَسَنَةِ الآخِرَةِ يَكونُ بالإيمانِ الخالِصِ ، والعَمَلِ الصّالِحِ والتَّحلّي بالأَخْلاقِ الكريمَةِ .

﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ أي احْفَظْنا مِنَ الشَّهَواتِ والذُّنوبِ المُؤَدِّيَةِ إلى النّارِ ، ولَمْ تَذْكُرِ الآياتُ الفَريقَ الَّذي يَعْمَلُ لآخِرَتِهِ فَقط ، ويَئِسَ مِنْ حَظِّ الدُّنيا ، إذ لا يَكادُ يوجَدُ في البَشَرِ مَنْ لا يَطْلُبُ حُسْنَ الحالِ في الدُّنيا . وفي الآيةِ إشْعارٌ بِأَنَّ هذا الغُلوَّ مَذْمومٌ .

أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دعا رَجُلاً مِنَ المُسْلِمينَ قَدْ صارَ مِثْلَ الفَرْخِ المَنْتوفِ ، فقالَ لَهُ : هَلْ كُنْتَ تَدعو اللهَ بِشَيءٍ ؟ قالَ : نَعَمْ ، كنتُ أقولُ : اللهُمَّ ما كُنْتَ مُعاقِبَني بهِ في الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لي في الدُّنْيا ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « سُبْحانَ اللهِ إذا لا تُطيقُ ذَلِكَ ولا تَسْتَطيعُهُ ، فَهلاّ قُلْتَ : ربَّنا آتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً ، وقِنا عذابَ النّارِ » ودعا لَهُ فَشَفاهُ اللهُ تعالى[1] .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ مُبيِّناً نَتيجَةَ هَؤلاءِ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ ﴾ أُولَئِك الّذينَ يَطْلُبونَ سَعادَةَ الدُّنْيا والآخِرَةِ ، والحَسَنَةِ فيهما ، لَهُمْ نَصيبٌ جَزيلٌ ، وحَظٌّ عَظيمٌ مِنْ جِنْسِ ما كَسَبوا مِنَ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ :

﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ يُوَفّي كُلَّ كاسِبٍ أَجْرَهُ بِحَسَبِ عَمَلِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُوفّي كُلَّ عامِلٍ عَمَلَهُ بِلا إبْطاءٍ ، وكما يَكونُ الجَزاءُ سَريعاً في الدُّنْيا ، فَكَذَلِكَ يَكونُ في الآخِرَةِ ، واللهُ سَريعُ الحِسابِ ، لا يَحْتاجُ إلى عَدٍّ ولا إلى عَقْدٍ ولا إلى إعمالِ فِكْرٍ . وَقَدْ قال سُبْحانَهُ أَولاً : ﴿ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ ﴾ والمُرادُ هُنا النَّصيبُ في الدُّنْيا ، فَيُعْطيهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ما يُريدُ ، ويُجيبُ دُعاءَهُ ، ثُمَّ قالَ : ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ وهَذا إشارَةٌ إلى الجَزاءِ في الآخِرَةِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ تَعالى بِذِكْرِهِ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرامِ ، أَمَرَ بِذِكْرِهِ في مِنىً ، فقالَ تَعالى :

﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ .

﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ ﴾ الأيّامُ المَعْدوداتُ هِيَ أيّامُ مِنىً ، وهِيَ الّتي تُسمّى أيّامَ التَّشريقِ الثَّلاثَةَ ، وهي اليومُ الحادي عَشَرَ والثّاني عَشَرَ والثّالِثَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ ذي الحجَّةِ ، والمَعنى

---

(١) أخرجه مسلم في باب كراهة الدعاء في الدنيا ، حديث رقم ٢٦٨٨ .

اذكُروا اللهَ تَعالى في هذِهِ الأيّام ، إذْ هِيَ أيّامٌ يَنْبَغي أنْ تُشْغَلَ بِذِكْرِ اللهِ تَعالى وشُكْرِهِ على نِعَمِهِ ، أخْرَجَ الإمامُ مُسْلِمٌ عَنْ نُبيشَةَ الهُذَليّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « أيّامُ التَّشريقِ أيّامُ أكْلٍ وشُرْبٍ وذِكرٍ للهِ»[1] .

وأخْرَجَ البُخاريُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أنَّهُ كانَ يُكَبِّرُ بِمِنىً تِلْكَ الأيّامَ وخَلْفَ الصَّلواتِ ، وعلى فِراشِهِ ، وفي فُسطاطِهِ وفي مَجْلِسِهِ وفي مَمْشاهُ ، في تِلْكَ الأيّام جَميعاً[2] .

وَفي مِنىً يَنْشَغِلُ الإنْسانُ بِرَمْيِ الجَمَراتِ ، ويُسَنُّ لَهُ أنْ يُكَبِّرَ اللهَ تَعالى مَعَ كُلِّ حَصاةٍ ؛ إذْ إنَّ الحاجَّ يَرْمي بَعْدَ يَوْم عَرَفة في كُلِّ يَوْمِ الجَمَراتِ الثّلاثَ بِدْءاً بالصُّغرى ثُمَّ الوُسْطى ثُمَّ الكُبْرى ، ويَجِبُ عَلَيْهِ المبيتُ بِمِنىً اللّيلةَ الأُولى والثّانِيَةَ مِنْ ليالي التَّشريقِ ، ومَنْ رَمى في اليومِ الثّاني ، وأرادَ الخُروجَ مِنْ منىً فَلَهُ ذلِكَ ولا إثْمَ عَلَيْهِ . يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ومَنْ تَأَخَّرَ فَلَمْ يَنْفِرْ وبَقِيَ حَتّى غَرَبَتْ شَمْسُ اليَوْمِ الثّاني ، فَعَلَيْهِ أنْ يَبيتَ في منىً حتّى يَرْمِيَ جَمراتِ اليَوْمِ الثّالِثِ .

وهَذا التَّخييرُ ونَفْيُ الإثْمِ عَنْ هذا المُسْتَعْجِلِ ، إنّما هُوَ لِمَنِ اتّقى وتَرَكَ ما نَهى اللهُ تَعالى عَنْهُ ، إذْ إنَّ غايَةَ كُلِّ عِبادَةٍ إنّما هِيَ تَقوى اللهِ تَعالى ، وهَذا إنّما يَكونُ بِذِكْرِ اللهِ تَعالى في الظّاهِرِ والباطِنِ ، ومُراقَبَتِهِ في جَميعِ الأحْوالِ ، حتّى يَكونَ عَبْداً للهِ تَعالى ، ولَيْسَ عَبْداً لأهْوائِهِ وشَهَواتِهِ ، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ اتَّقوهُ في حالِ أدائِكُمْ للمَناسِكِ ، وفي جَميعِ أحْوالِكُمْ ، وكونوا على عِلْمٍ يقينيٍّ بِأنَّكُمْ تُجْمَعونَ وتُساقونَ إلى اللهِ تَعالى يَوْمَ القِيامَةِ ، فَيُجازيكُمْ على أعْمالِكُمْ .

وتُؤَكِّدُ الآياتُ الكَريمَةُ على وُجوبِ تَقوى اللهِ ، وتُكْثِرُ مِنْ أمْرِ الإنْسانِ بِذِكْرِ اللهِ تَعالى ، وهَذا كُلُّهُ يَدُلُّ على أنَّ المُهِمَّ في العِبادَةِ ذِكْرُ اللهِ تَعالى ، الّذي يُصْلِحُ النُّفوسَ ، ويُنيرُ الأرْواحَ حتّى تَتوجَّهَ إلى اللهِ وتَتّقيَ الشُّرورَ والمَعاصي ، فيكونُ صاحِبُها مِنَ المُتَّقينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الغُلوُّ في الدّينِ والتَّشَدُّدُ فيهِ مَذْمومٌ ، ولَيْسَ مِنْ سُنَنِ الفِطْرَةِ .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصوم في باب تحريم أيام التشريق رقم ١١٤١ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب باب التكبير بمنى في معلقاته في ذلك ١/ ٣٣٠ طبعة دار ابن كثير ، بيروت ، سنة ١٩٨٧ .

٢ـ العاقِلُ مَنْ يَعْمَلُ لِدُنْياهُ كأَنَّهُ يَعيشُ أبداً ، ومَنْ يَعْمَلُ لآخِرَتِه كأَنَّهُ يَموتُ غَداً .

٣ـ المُتَوَجِّهُ إلى اللهِ تَعالى مُتَضرِّعاً إليهِ بِقَلْبٍ سَليمٍ مُنيبٍ ، يُجيبُ اللهُ تَعالى دُعاءَهُ ويُعْطيهِ سُؤالَهُ .

٤ـ أيّامُ الحجِّ كُلُّها أيّامُ ذِكْرٍ ودُعاءٍ وتَضَرُّعٍ إلى اللهِ تَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ الحَجُّ فَريضَةٌ قَديمَةٌ ، ما الّذي أَدْخَلَهُ أَهْلُ الجاهِليّةِ إلى تِلْكَ الفَريضَةِ فَأَخْرَجَتْها عَنْ شَرْعِ اللهِ تَعالى .

٢ـ ما الواجِبُ على العَبْدِ فِعْلُهُ إذا فَرَغَ مِنْ أداءِ مَناسِكِ الحَجِّ ؟

٣ـ كَيْفَ يَكونُ ذِكْرُ العَبْدِ لِرَبِّهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ؟

٤ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ عَدَمِ ذِكْرِ الحَسَنَةِ مَعَ الفريقِ الأَوَّلِ وذِكْرِها مَعَ الفريقِ الثّاني ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بِحَسَنَةِ الدُّنْيا وحَسَنَةِ الآخِرَةِ ؟

٦ـ ما النَّتيجَةُ الّتي أعدَّها اللهُ تَعالى للفَريقِ الثّاني ؟

٧ـ أَمَرَ اللهُ بِذِكْرِهِ في أيّامٍ معدوداتٍ . ما تِلْكَ الأَيّامُ ؟

٨ـ بِمَ يَنْشَغِلُ الحُجّاجُ في مِنىً ؟

٩ـ كَمْ يوماً يَمْكُثُ الحُجّاجُ في مِنىً ؟ وهَلْ يَجوزُ للحاجِّ أَنْ يَخْتَصِرَ مِنْها ؟ وما دَليلُ ذلِكَ ؟

١٠ـ خَيَّرَ اللهُ تَعالى الحاجَّ في أيّامِ مِنىً بَيْنَ أَنْ يَقْضِيَ فيها يَوْمَيْنِ أو ثَلاثةً ؟ ما الحِكْمَةُ مِنَ التَّخْييرِ ؟ ولِمَنْ هذا التَّخْييرُ ؟

١١ـ اسْتَنْتِجِ السَّبَبَ الّذي لأَجْلِهِ يَرِدُ الأَمْرُ بالتَّقوى كَثيراً في هذِهِ الآياتِ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الّتي أَمَرَتِ الإنْسانَ أَنْ يَعْمَلَ لآخِرَتِهِ ، ولا يَنْسى حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيا .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الخامِسَ عَشَرَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الحادي والسِّتونَ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ
ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ
ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَلَدُّ الخِصامِ : أشدُّ النّاسِ خُصومَةً ومُجادَلَةً .

حَسْبُهُ : كافيهِ .

المِهادُ : الفِراشُ والمَضْجَعُ ، وهُوَ هُنا جَهَنَّمُ .

التَّفْسيرُ :

رَكَّزَتِ الآياتُ السّابِقَةُ على التَّقوى ، والتَّقوى مَحِلُّها القَلْبُ ، وما دامَتْ كَذلِكَ فَلا يَطَّلِعُ على إخلاصِ الإنْسانِ إلاّ اللهُ تَعالى ، ولِذَلِكَ جاءَتْ هَذهِ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَنْ أَصنافِ النّاسِ بالنِّسْبَةِ لِهذا الأمْرِ ، فَمِنْهُمُ المُنافِقونَ الّذينَ يُظْهِرونَ غَيْرَ ما يُبْطِنونَ ، ومِنْهُمُ المُخْلِصونَ في أَعْمالِهِمُ الّذينَ اسْتَوى ظاهِرُهُمْ وباطِنُهُمْ . يقولُ تَعالى :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ .

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تَتحدَّثُ الآياتُ عَنْ فَريقِ المُنافقينَ وقَدْ ذَكَرَتْ لَهُمْ بَعْضَ الصِّفاتِ :

الصِّفَةُ الأُولى : ﴿ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ هَذا الفَريقُ ، يَروقُ للنّاسِ مَنْطِقُهُمْ ، ويُعْجِبُهُمْ بَيانُهُمْ ، ويَحْسُنُ عِنْدَهُمْ مَقالُهُمْ ، فالنّاسُ مُعْجَبونَ بِكلامِهِمْ ، إِذْ إِنَّهُمْ يُنَمِّقونَ كلامَهُمْ ، ويَسْتَخْدِمونَ العباراتِ المُحَبَّبَةَ إلى النُّفوسِ ـ فَيَسْحَرونَ النّاسَ ، ويُوهِمونَهُمْ بِأَنَّهُمْ صادِقونَ في إيمانِهِمْ ، وأَنَّهُمْ مُتَّقونَ للهِ في سِرِّهِم وعَلانِيَتِهِمْ ، وهَذا إنّما يَكونُ في الدُّنيا ، لأَنَّ النّاسَ لا تَحْكُمُ إلاّ بالظّاهِرِ ، أمّا في الآخِرَةِ ، فَلَنْ يُعْجِبَكَ أَمْرُهُمْ ؛ لأَنَّ اللهَ تَعالى سَيَفْضَحُهُمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا تَخفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ .

الصِّفَةُ الثّانِيَةُ : ﴿ وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ ﴾ أي : هُوَ يَقْرِنُ هَذا الكَلامَ المَعْسولَ ، وادِّعاءَهُ الإيمانَ والصَّلاحَ بالحَلْفِ باللهِ واليَمينِ المُغَلَّظَةِ ، بِأَنَّ كُلَّ ما يَقولُهُ ويَفْعَلُهُ ، إنّما هُوَ مُوافِقٌ لِما في قَلْبِهِ ، وهُمْ يَضْطَرونَ لِلحَلْفِ ، إذا رَأَوْا مِنَ النّاسِ مَنْ يُشَكِّكُ في صِحَّةِ كَلامِهِمْ .

الصِّفَةُ الثّالِثَةُ : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ وهُو الشَّديدُ في خُصومَتِهِ وعَداوَتِهِ ، فَهؤلاءِ الّذينَ يَحْلِفونَ الأَيْمانَ المُغَلَّظَةَ على صِدْقِ كَلامِهِمْ ، يُجادِلونَ بالباطِلِ بِقُوَّةٍ وعُنْفٍ ومُغالَبَةٍ ، فَهذا الإنْسانُ قَوِيُّ العارِضَةِ في الجَدَلِ ، لا يُعْجِزُهُ أَنْ يَخْتَلِبَ عُقولَ النّاسِ ويَغُشَّهُمْ بما يُظْهِرُ مِنَ المَيْلِ إِلَيْهِمْ وإِسْعادِهِمْ في شُؤونِهِمْ ومَصالِحِهِمْ ، عَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها ، قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ أَبْغَضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الأَلَدُّ الخَصْمُ »[1] .

هذِهِ الصِّفاتُ ـ إِذَنْ ـ تَتَعَلَّقُ بِأَقوالِ هَؤلاءِ المُنافِقينَ وهِيَ كَما رَأَيْنا : حُسْنُ أَقوالِهِمْ بِحَيْثُ يُعْجِبُ بِها السّامِعُ ، وإِشْهادُ اللهِ على صِدْقِهِ وحُسْنِ قَصْدِهِ ، وقُوَّةِ العارِضَةِ في الجَدَلِ الّتي يَحْتَجُّ بها المُنْكِرُ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ للتَّحَدُّثِ عَنْ سوءِ حالِهِمْ وفَسادِ أَعْمالِهِمْ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ (٢٠٥) ﴾ .

الصِّفَةُ الرّابِعَةُ : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ .

إنَّ هَؤلاءِ المُنافقينَ الّذينَ يَدّعي الواحِدُ مِنْهُمُ الصَّلاحَ ، والإِصْلاحَ وحبَّ الخَيْرِ أَمامَ النّاسِ ، إذا غابَ عَنِ النّاسِ الّذينَ خَدَعَهُمْ ، وابْتَعَدَ عَنْهُم ، فإِنَّهُ يسْعى في الأَرْضِ بالفَسادِ ، ذَلِكَ أَنَّهُ لا هَمَّ لَهُ إلاّ الإغْراقُ في الشَّهَواتِ واللَّذاتِ ، فَهُوَ لأَجْلِها يُعادي أَهْلَ الحَقِّ ويُؤْذيهِمْ ، ولا يَكونُ هَمُّهُ إلاّ

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصحيح في باب قول الله تعالى : (وهو ألد الخصام) ، حديث رقم ٢٣٢٥ .

الكَيْدُ للنّاسِ ومُحاوَلَةُ الإيقاعِ بِهِمْ ، فَهُوَ يُفْسِدُ باعْتِدائِهِ على الأَمْوالِ والأَعراضِ ، هَذا الصِّنْفُ مِنَ النّاسِ يَعيشونَ فَساداً في أيِّ مَكانٍ يَحِلّونَ فيهِ ، وهُمْ دائبونَ على الإفسادِ مُسْتَرْسِلونَ فيهِ ، حتّى لَوْ أدّى إلى إهلاكِ الحَرْثِ والنَّسْلِ . والحَرْثُ هُوَ الزَّرْعُ والثِّمارُ ، والنَّسْلُ هو ما تَناسَلَ مِنَ الحَيوانِ ، فَهُمْ يَقْتلونَ الزَّرْعَ ويَقْتلونَ البَهائِمَ .

إهْلاكُ الحَرْثِ والنَّسْلِ ـ إذن ـ كِنايَةٌ عَنْ إتْلافِهِ لما بِهِ قِوامُ أحوالِ النّاسِ ومَعيشَتِهِمْ . وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أيْ : إنَّ اللهَ لا يَرْضى عَمَّنْ يَكونُ منهُ الإفْسادُ في الأَرْضِ ، ويُظْهِرُ للنّاسِ الكلامَ الحَسَنَ وهُوَ يُبْطِنُ لَهُمُ السُّوءَ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ .

الصِّفَةُ الخامِسَةُ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ إنَّ ذَلِكَ المُفْسِدَ إذا أُمِرَ بِمَعْروفٍ أَوْ نُهِيَ عَنْ مُنْكَرٍ ، أَسْرَعَ إليهِ الغَضَبُ ، وعَظُمَ عَلَيْهِ الأَمْرُ ، واسْتَولَتْ عَلَيْهِ حَمِيَّةُ الجاهِلِيَّةِ ، وأَخذَتْهُ الكِبرياءُ ، ولَكِنَّ تِلْكَ العِزَّةَ الَتي تَكونُ مِنْ هَؤلاءِ ليستِ المَطلوبَةَ لِكَوْنِها مُلْتَبِسَةً بالإثْمِ الّذي اسْتَحوَذَ على قُلوبِهِمْ فَأَنساهُمْ كُلَّ ما يوصِلُ إلى الصَّلاحِ والتَّقوى .

إنَّ المُفسدينَ يَنْفِرونَ دائِماً مِمَّنْ يأْمُرُهُمْ بالصَّلاحِ ، إذْ يَروْنَ في ذلِكَ تَشهيراً بِهِمْ وإعلاناً لِمفاسِدِهِمُ الّتي يَسْتُرونَها بِزُخْرُفِ القَوْلِ ، وتَدَخُّلاً في شؤونِهِمْ وحَجْراً على تَصَرُّفاتِهِمْ .

وبَعْدَ أنْ ذَكَرَتِ الآياتُ هذهِ الصِّفاتِ للمُنافِقينَ ، ذَكَرَتْ سوءَ عاقِبَتِهِمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ : ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ أي : هِيَ مَصيرُهُ ، وكَفاهُ عذابُها جَزاءً على كِبْريائِهِ وحَمِيَّتِهِ للجاهِلِيَّةِ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ والمِهادُ : هُوَ الفِراشُ الّذي يأوي إليْهِ الإنْسانُ للرّاحَةِ ، واللّامُ واقِعَةٌ في جَوابِ قَسَمٍ مَحْذوفٍ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُقْسِمُ تَأكيداً للوَعيدِ ، بِأَنَّ هذا الّذي أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثْمِ ، سَيَكونُ مِهادُهُ ومأْواهُ النّارَ ، فَهِيَ بِئْسَ الفِراشُ ، إذ لا راحَةَ أَبَداً ولا اطْمِئنانَ .

وبَعْدَ أَنْ ذَكَرَتِ الآياتُ صِفاتِ هذا الفَريقِ الّذي أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثْمِ ، أَتْبَعَتْها بِذِكْرِ صِفاتِ المؤْمنينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ .

أي : مِنَ النّاسِ فَريقٌ يَبيعُ نَفْسَهُ للهِ تَعالى لا يَبغي ثَمَناً لَها غَيْرَ مَرْضاتِهِ تَعالى .

وقَدْ جاءَ هَذا الوَصْفُ في مُقابَلَةِ أَوْصافِ الفَريقِ الأَوَّلِ ، وذَلِكَ أَنَّ مَنْ يَبيعُ نَفْسَهُ للهِ ، لا يَتحرّى إلاّ العَمَلَ الصالِحَ وقَوْلَ الحَقِّ ، مَعَ إخْلاصِ القَلْبِ ، فَلا يَتَكَلَّمُ بِلِسانينِ ، ولا يُقابِلُ النّاسَ بِوَجْهَينِ ، وشَرُّ النّاسِ ذو الوَجْهَيْنِ ، وهُو لا يُؤْثِرُ على ما عِنْدَ اللهِ تَعالى عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا .

إنَّ اللهَ تَعالى رَؤوفٌ بِهَؤلاءِ إذْ يُجازيهِمْ على أعمالِهِمْ ، مَهْما قَلَّتْ ، نَعيماً دائِماً ، إذ هُوَ سُبْحانَهُ

لا يُكلِّفُنا إلاّ ما في وسْعِنا ، ومَعَ ذَلِكَ فَنِعَمَهُ علَيْنا عَظيمَةٌ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ رَؤوفٌ بِعِبادِهِ عَظيمُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ فَسادُ المُنافِقِ ظاهِرٌ لِكَثيرٍ مِنَ النّاسِ ، فإنْ خَفِيَ على أحدٍ ، فإنَّهُ لا يَخْفى على الكَثيرينَ .

٢ـ المُؤْمِنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ ، فَعلَيْهِ أنْ لا يَغْتَرَّ بِزُخْرُفِ القَوْلِ ومَعْسولِهِ .

٣ـ يِنْبَغي على الإنسانِ أنْ يَتحرَّى الصِّدْقَ في القَوْلِ والعَمَلِ دائماً ، حتّى لا يَكونَ مِنْ زُمْرَةِ المُنافِقينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ عَمَّنْ تَتَحدَّثُ هَذِهِ الآياتُ ؟

٢ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الصِّفاتِ للمُنافقينَ ، ومِنْها ﴿ يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ . كَيْفَ يَسْتَولي المُنافِقونَ على إعجابِ النّاسِ بِأَقوالِهِم ؟

٣ـ ما مَعْنى ﴿ وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ ﴾ ؟ ولِمَ يُضْطَرُّ المُنافِقونَ لِلْحَلْفِ ؟

٤ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ .

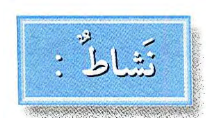
٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ صِفَتَيْنِ تَدُلاّنِ على سوءِ أَعمالِ المُنافقينَ ، اذْكُرْ هاتينِ الصِّفَتينِ .

٦ـ كَيْفَ يُفْسِدُ المُنافِقُ في الأَرْضِ ؟ وما المَقْصودُ بِإهلاكِ الحَرْثِ والنَّسْلِ ؟

٧ـ على ضَوْءِ الآيةِ القُرْآنيَّةِ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ ﴾ قارِنْ بَيْنَ المُؤْمِنِ والمنافِقِ ، مُدَعِّماً إجابَتَكَ بِحَديثٍ نَبَويٍّ شريفٍ تَحْفَظُهُ .

٨ـ ما النَّتيجَةُ الحَتْميَّةُ الّتي أَعَدَّها اللهُ لِلْمُنافِقينَ ؟

٩ـ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى في مُقابَلَةِ أَوْصافِ المُنافقينَ وصْفاً للمُؤْمنينَ ، ما هَذا الوَصْفُ ؟ وعَلامَ يَدُلُّ ؟



١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ صِفاتِ المُنافقينَ والحَديثَ الدّالَّ على ذَلِكَ .

٢ـ هَلْ تتَنافى هذهِ الآيةُ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ مَعَ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً﴾ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورةُ الْبَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّاني والسّتونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ
لَكُمۡ عَدُوٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ
ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ
مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **السِّلْمِ** : التَّسْليمِ والانْقيادِ ، ويُقْصَدُ بِهِ هُنا الدّينُ .
- **كافّةً** : جَميعاً .
- **زَلَلْتُمْ** : الزَّلَلُ لُغَةً : عَثْرَةُ القَدَمِ ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في الانْحرافِ عَنِ الحَقِّ .
- **البيِّناتِ** : الحُجَجِ والأَدِلَّةِ الواضِحاتِ .
- **العَزيزِ** : الّذي لا يُغْلَبُ .
- **الغَمامَ** : السَّحابَ الأَبيضَ الرَّقيقَ .
- **قُضِيَ الأَمْرُ** : تَمَّ أَمْرُ إِهْلاكِهِم .

التَّفسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ فريقينِ مِنَ النّاسِ ، فَريقٍ مُنافِقٍ وفَريقٍ مُؤْمِنٍ ، وتَتَحَدَّثُ هذهِ الآياتُ عَنْ دَعْوَةِ النّاسِ إلى الاستِجابَةِ للهِ تَعالى ، لِيَكونوا يداً واحِدَةً على أَعْدائِهِمْ . قالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ تُخاطِبُ الآياتُ المُؤْمنينَ بِهذا النِّداءِ المُحَبَّبِ إلى نُفوسِهِمْ لإلْهابِ مَشاعِرِهِمْ ، ولِيَلْتَزِموا بِما يأمُرُهُمْ بِهِ سُبْحانَهُ ، فَيَقولُ لَهُمْ سُبحانَهُ : ادخُلوا في الإسْلام ، والْتَزِموا بِأَحْكامِهِ كُلِّها ، الّتي أساسُها الاسْتِسْلامُ والخُضوعُ للهِ تَعالى ، والإخْلاصُ لَهُ ، ودوموا على الالْتِزام بالإسْلام ، ولا تَخْرجوا عَنْ شَيءٍ مِنْ شرائِعِهِ ، ولا تنازَعوا فيما بَيْنَكُمْ لِمُجَرَّدِ اخْتلافِكُمْ في شَيءٍ مِنَ الفُروع ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَكونوا مُتَحابِّينَ غَيْرَ مُتَباغِضينَ ومُجْتَمعينَ غَيْرَ مُتَفرِّقينَ ، وعَلَيْكُمْ أَنْ تُسالِموا مَنْ سالَمَكُمْ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمينَ ، وتُحارِبوا مَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ ، فإنَّ الدِّينَ الإِسْلامِيَّ ما جاءَ لإِعلانِ الحَرْبِ ، والمُنازَعاتِ والخِصام ، إنّما هُوَ دينُ هِدايَةٍ . وقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « لا تَرْجِعوا بَعْدي كُفّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ أَعْناقَ بَعْضٍ »[1] . ولَكِنَّ المُسْلِمينَ اليَوْمَ قَدْ خالَفوا أَمْرَ اللهِ تَعالى وتَنازعوا وتَفَرَّقوا ، واخْتَلَفوا في أُمورِ دينِهِمْ ، لَيْسَ في الفَرْعِيّاتِ فَحَسْبُ ، ولكِنْ ـ والعِياذُ باللهِ ـ في الأُصولِ ، فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاّ باللهِ .

ونَرى المذاهِبَ والأَحْزابَ الكَثيرَةَ في وَقْتِنا ، وكُلٌّ يَتَعَصَّبُ لِمَذْهَبِهِ أو حِزْبِهِ ويُعادي بَقِيَّةَ المُسْلِمينَ ، وقَدْ يُكفِّرُ مَذْهَبٌ مَذْهباً ، ويُكَفِّرُ النّاسُ بَعْضَهُمْ بعْضاً ، وهذا لَيْسَ مِنَ الدّينِ .

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ بِعَدَمِ اتِّباعِ الشَّيْطانِ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أيْ : لا تَتَّبِعوا سُبُلَ الشَّيْطانِ الكَثيرَةَ الّتي تُغويكُمْ فَتَجْعَلُكُمْ تَتفرَّقونَ وتَخْتَلِفونَ فيما بيْنَكُمْ ، وتَتنازَعونَ .

وَسُبُلَ الشَّيْطانِ هِيَ كُلُّ ما يُخالِفُ طَريقَ الخَيْرِ والمَصْلَحَةِ ، فَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

إنَّ خُطُواتِ الشَّيْطانِ كَثيرةٌ ، فَهُوَ يُسَوِّلُ للنّاسِ المَنافِعَ والمَصالِحَ في التَّفَرُّقِ والخِلافِ ، ومِنْ خُطواتِهِ طُرُقُ الفواحِشِ والمُنْكَراتِ كُلِّها ، كَالتَّفريقِ بَيْنَ الأَزْواجِ ، والآباءِ والأَبْناءِ والإِخْوَةِ .

وَوَصَفَ القُرآنُ الشَّيْطانَ بِأَنَّهُ عَدوٌّ مُبينٌ ، لأَنَّهُ ظاهِرُ العَداوةِ ، فإِنَّ جَميعَ ما يَدعو إليهِ ظاهِرُ البُطلانِ ، بَيِّنُ الضَّرَرِ لِمَنْ تَأَمَّلَ فيهِ وتَفَكَّرَ ، فَقَدْ أَقْسَمَ لأنْ يَقْعُدَ في طريقِ النّاسِ ويُغويَهُمْ ، ويُضِلَّهُمْ عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، ويُمَنّيَهُمْ . وقَدْ لا يُدْرِكُ الإنْسانُ عَداوةَ الشَّيْطانِ في أوَّلِ الأَمْرِ ، ولَكِنَّهُ عِنْدَما يَقَعُ في الضَّلالِ ويَهيمُ فيهِ يُدْرِكُ ذلِكَ ، ومِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنا أَنْ بَيَّنَ لَنا وحَذَّرَنا مِنَ الشَّيْطانِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ١٢١ باب : الانصات للعلماء . ومسلم ، حديث رقم ٦٥ من كتاب الإيمان .

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ .

أيْ : إنِ ابْتَعَدْتُمْ عَنْ طريقِ الحَقِّ ، وعَدَلْتُمْ عَنْهُ إلى الباطِلِ ، بَعْدَ ما ظَهَرَتْ لَكُمُ الأَدِلَّةُ الّتي تُفَرِّقُ بَيْنَ الصّوابِ والخَطَأ ، والّتي تَدْعوكُمْ إلى طريقِ الحَقِّ ، فاعْلَموا أَنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُقْهَرُ ، ولا يَغْلِبُهُ أحدٌ ، ولا يُعْجِزُهُ الانْتِقامُ مِنْ كُلِّ مَنْ زَلَّ ، وهُوَ حَكيمٌ لا يَتْرُكُ ما تَقْتَضيهِ المَصْلَحَةُ ، وإنَّما يَضَعُ الأُمورَ في مَواضِعِها ، وهذا نِهايَةٌ في الوَعيدِ ، لأنَّهُ يَجْمَعُ مِنْ ضُروبِ الخَوْفِ ما لا يَجْمَعُهُ الوَعيدُ بِذِكْرِ العِقابِ ، وهذِهِ الآيَةُ كَما تَشْتَمِلُ على الوَعيدِ ، فَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ كَذَلِكَ على الوَعْدِ ، فَكَما يَحْسُنُ مِنَ الحَكيمِ إيصالُ العَذابِ إلى المُسيءِ ، فَكَذَلِكَ يَحْسُنُ منهُ إيصالُ الثّوابِ إلى المُحْسِنِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمنينَ بالدُّخولِ في الإسْلامِ كافَّةً ، ونَهاهُمْ عَنِ الزَّلَلِ عَنِ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ ، أَتْبَعَ ذلكَ بِتَهْديدِ أولئكَ الّذينَ يَمْتَنِعونَ عَنِ الدُّخولِ في الإسْلامِ ، فقالَ تعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ .

أيْ : هَلْ يَنْتَظِرُ المُكَذِّبونَ أنْ يَأتِيَ اللهُ بما تَوَعَّدَهُمْ بِهِ ، لامتِناعِهِمْ مِنَ الدُّخولِ في الإسْلامِ ، وذَلِكَ يَوْمَ القِيامَةِ عِنْدَما يَأتي اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ الكَثيفِ العَظيمِ ، حتّى يُحاسِبَهُمْ على أَعْمالِهِمْ ، وتَأْتِيَ الملائِكَةُ وتُنَفِّذُ ما قَضاهُ اللهُ تَعالى يَومَئِذٍ .

والحِكْمَةُ مِنْ نُزولِ العَذابِ في الغَمامِ ، إنْزالُهُ على النّاسِ فَجْأَةً دونَ سابِقِ إنْذارٍ ، ومَعَ أَنَّ الغَمامَ مَظَنَّةُ الرَّحْمَةِ ، إلاّ أنَّهُ إذا نَزَلَ منهُ العَذابُ كانَ أَفْظَعَ وأَشَدَّ هَوْلاً ، ولِذا عَلى الإنْسانِ أنْ يُبادِرَ بالتَّوْبَةِ إلى اللهِ ، حتّى لا يُفاجِئَهُ عذابُ اللهِ ووَعيدُهُ وهو غافِلٌ لاهٍ .

﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أَيْ : أنَّ اللهَ تَعالى أَتَمَّ أَمْرَ العِبادِ وَحِسابَهُمْ ، فَهُوَ حينئذٍ يُثيبُ الطّائِعَ ويُعاقِبُ العاصيَ ، ولَيْسَ للعاصي أيُّ فُرْصَةٍ للتَّوبَةِ وتَدارُكِ ما فاتَهُ ، وخُتِمتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ إليْهِ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ لا إلى غَيْرِهِ تُرْجَعُ الأُمورُ ، وسَيُجازي سُبْحانَهُ الّذين أساءوا بِما عَمِلوا ، ويُجازي الّذين أَحْسَنوا بالحُسْنى .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ عَدَمَ إيمانِ الكَثيرينَ ، لَيْسَ سَبَبُهُ نَقْصُ الأَدِلَّةِ ، وإنّما سَبَبُهُ الجُحودُ والحَسَدُ ، واتّباعُهُمْ لأهوائِهِمْ وشَهَواتِهِمْ ، وتَفْضيلُ ذَلِكَ على الهِدايَةِ ، ولَيْسَ أدلُّ على ذَلِكَ مِمّا كانَ مِنْ بَني إسْرائيلَ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾ .

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ ﴾ أيْ اسأَلْ يا مُحمَّدُ هؤلاءِ المُعاصِرينَ لَكَ مِنْ بني إسرائيلَ عَنِ الآياتِ الكَثيرَةِ ، الّتي آتاها اللهُ تعالى لأَسْلافِهِمْ ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أنْكَروها ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنوبِهِمْ ، وحَلَّ بِهِمُ العِقابُ ، فَهَلْ مِنْ مُعْتَبِرٍ ، وهَلْ مِنْ مُتَّعِظٍ ؟

﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وفي هَذا وعيدٌ وتَهْديدٌ لِمَنْ يُغَيِّرُ نِعْمَةَ اللهِ تَعالى بَعْدَ ما وصَلَتْ إليهِ ، فَيَكْفُرُ بِها مَعَ أنَّها تَدْعوهُ إلى الإيمانِ ، وتكونُ النِّعْمَةُ سَبَباً في ضَلالِهِ ، بَدَلاً مِنْ أَنْ تَكونَ مِنْ أَسْبابِ سَعادَتِهِ ، فَمَنْ كانَ كَذلِكَ فإنَّ اللهَ تَعالى سَيُعاقِبُهُ أشَدَّ العِقابِ ، وهَذا جزاءٌ لِكُلِّ مَنْ حادَ عَنْ سُنَّةِ اللهِ تَعالى ، وبَدَّلَ وغَيَّرَ في شَريعَتِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ طريقُ الحَقِّ واحِدٌ لا يَتَعدَّدُ ، وهُوَ الوِحْدَةُ والإسْلامُ ، وطُرُقِ الشَّيْطانِ تُثيرُ التَّفَرُّقَ والخِصامَ .

٢ـ الأُمَمُ لا يُمْكِنُ أَنْ تَقومَ لها قائِمَةٌ ، إلاّ إذا أقامَتِ العَدْلَ بَيْنَ أفْرادِها .

٣ـ إذا لَمْ يَتَحَلَّ النّاسُ بالأَخْلاقِ الفاضِلَةِ ، ولَمْ يَنْهَجوا النَّهْجَ السَويَّ ، فَلَنْ يُوَفَّقُوا في دُنياهُمْ وأُخْراهُمْ .

٤ـ على الإنْسانِ أَنْ يُبادِرَ ويُسارِعَ بالتَّوْبَةِ إلى اللهِ قَبْلَ أَنْ يُفاجِئَهُ وعيدُ اللهِ وعَذابُهُ ، أوْ يُفاجِئَهُ المَوْتُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ خاطَبَتِ الآياتُ الكَريمَةُ المُؤْمنينَ آمِرَةً لَهُمْ أَنْ يَدْخلوا في أَمْرٍ ما ، ما هذا الأَمْرُ ؟

٢ـ ما المَقْصودُ بالسِّلْمِ ؟ وكَيْفَ يَدْخُلُ فيهِ المؤْمنونَ ؟

٣ـ كَيْفَ تَرى حالَ المُسْلِمينَ اليَوْمَ ؟ هَلْ هُمْ مُلْتَزِمونَ بِأُمورِ الإسْلامِ ؟ بيِّنْ ذَلِكَ .

٤ـ ما معْنى ﴿خُطُواتِ ٱلشَّيطَانِ﴾ ؟ وما تِلْكَ الخُطواتُ ؟

٥ـ لِماذا وَصفَ القُرْآنُ الكَريمُ إبْليسَ بأَنَّهُ عَدوٌّ مُبينٌ ؟

٦ـ ما عُقوبَةُ مَنِ ابْتَعَدَ عَنْ طريقِ الحَقِّ ؟ وما المَقْصودُ بالزَّلَلِ ؟

٧ـ هدَّدَتِ الآياتُ الّذينَ يَمتَنِعونَ عَنِ الدُّخولِ في الإسْلامِ ويَسيرونَ في طريقِ الزَّلَلِ ، اذْكُرْ نَصَّ الآيةِ القُرْآنيَّةِ الدّالَّةِ على هذا التَّهديدِ .

٨ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ نُزولِ العَذابِ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ عُقوبَةً للكافِرينَ ؟

٩ـ بيِّنِ السَّبَبَ الّذي يَجْعَلُ كَثيرينَ يَمْتَنِعونَ عَنِ الدُّخولِ في الإسْلامِ .

١٠ـ اسْتَنْتِجْ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ .

نَشاطٌ :

ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ طَريقَيْنِ مِنْ طُرُقِ الشَّيْطانِ لإفسادِ النّاسِ .

الدَّرْسُ السَّابِعَ عَشَرَ

سورَةُ الْبَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّالثُ والسّتونَ

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ
وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا
ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ
ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

زُيِّنَ : التَّزيينُ : جَعْلُ الشَّيءِ شديدُ الحُسْنِ .

يَسْخَرونَ : يَسْتَهْزِئونَ .

أُمَّةً : قوْماً .

بَغْياً : ظُلْماً وحَسَداً .

التَّفسيرُ :

هذِهِ الآياتُ جاءَتْ لِتَتَحدَّثَ عَنْ طَبيعَةِ الكافِرينَ الجاحِدينَ ، وتَذْكُرَ الأَسْبابَ الّتي حَمَلَتْهُمْ على البَقاءِ على الكُفْرِ ، والابْتِعادِ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى الحَقِّ .

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ ﴾ .

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي : إنَّ الحياةَ الدُّنيا قَدْ زُيِّنَتْ للكافِرينَ ، فَأَحبّوها ، وتَهالَكوا

عَلَيْها ، واسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمْ مُتَعُ الدُّنيا وشَهَواتُها حتّى مَلَكَتْ عَلَيْهِمْ تَفْكيرَهُمْ ، والفِعْلُ (زُيِّنَ) مَبْنِيٌّ لِلمَجْهولِ ؛ إذْ قَدْ يَكونُ المُزَيِّنَ هُوَ اللهُ تَعالى ، وقَدْ يَكونُ الشَّيْطانُ بِوَسْوَسَتِهِ وإغْوائِهِ ، وقَدْ يَكونُ شَياطينُ الإنْسِ . وقَدْ خُصَّ الّذينَ كَفَروا بالذِّكْرِ ، مَعَ أنَّ مُتَعُ الدُّنيا وشَهَواتِها تُزَيَّنُ لِغَيْرِهِمْ كَذلِكَ مِنَ المُسْلِمينَ ، وذَلِكَ لأنَّ الكافِرينَ يَقْبَلونَ هَذا التَّزيينَ غالِباً ويُقْبِلونَ على الدُّنيا ، مَعَ إعْراضِهِمْ عَنِ الآخِرَةِ ، فَهؤلاءِ الكُفّارُ تَمَلَّكَتْهُمُ الزِّينَةُ في هذهِ الدُّنْيا لأَنَّهُمْ لا يَعْتَقِدونَ صِحَّةَ غَيْرِها ، فَقَدْ صَرَفوا قُلوبَهُمْ وعُقولَهُمْ عَنِ التَّفَكُّرِ في آياتِ اللهِ تَعالى سواءٌ أكانَتْ مَرْئِيَّةً في الكَوْنِ أمْ مَقْروءَةً في الكِتابِ الكَريمِ ، وبِسَبَبِ تَزيينِ الحياةِ الدُّنْيا لَهُمْ ، تَجِدُ هَؤلاءِ مُتَفرِّقينَ دائِماً ، لا يَجْتَمِعونَ على شَيْءٍ .

﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أيْ : يَسْتَهْزِىءُ الكافِرونَ مِنَ المُؤْمِنينَ ، وذَلِكَ لِزُهْدِهِمْ أي : المُؤْمِنينَ ، في الحياةِ الدُّنْيا ، وعَدَمِ تَمَتُّعِهِمْ بِمَلَذّاتِها وشَهَواتِها . وهُمْ يَعْتَقِدونَ أَنَّ هَؤلاءِ المُؤْمِنينَ يُضَيِّعونَ أنْفُسَهُمْ ويُتْعِبونَها بِتِلكَ العِباداتِ الّتي يَقومونَ بِها ، وذَلِكَ الحِرْمانِ لأَجْسادِهِمْ مِنْ مُتَعِ الحياةِ.

إنّ الفِعْلَ (زُيِّنَ) جاءَ ماضِياً ، وذَلِكَ لأَنَّ التَّزيينَ قَدْ وَقَعَ وفُرِغَ مِنْهُ ، أمّا الفِعْلُ (يَسْخَرونَ) فجاءَ مُضارِعاً ، وذَلِكَ لِتجدُّدِ هذا الأَمْرِ وحُدوثِهِ مِنْهُمْ دائِماً ، كُلَّما تَسنّى لَهُمُ الأَمْرُ يَسْخَرونَ مِنَ المُؤْمنينَ . وقَدْ رَدَّتِ الآياتُ على أُولئِكَ السّاخِرينَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ إنَّ الّذينَ اتَّقوا اللهَ تَعالى ، فامْتَثَلوا أَوامِرَهُ ، وصانوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ كُلِّ سوءٍ ، وآثَروا الآخِرَةَ على الحياةِ الدُّنْيا الفانِيَةِ ، أولئِكَ فَوْقَ الكافِرينَ ، لأنَّ تَقواهُمْ جَعَلَتْهُمْ في عِلّيينَ ، أمّا الكافِرونَ فَكُفْرُهُمْ جَعَلَهُمْ أَسْفَلَ سافِلينَ .

وَقَدْ جاءَ الوَصْفُ (الّذينَ اتَّقوا) ولَمْ يَذْكُرِ (الّذينَ آمنوا) لِيُبَيِّنَ سُبْحانَهُ أنَّ الإيمانَ الّذي لا تَصْحَبُهُ تَقوى اللهِ تَعالى ، لا يُعْتَدُّ بِهِ .

﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ إنَّ اللهَ تَعالى يُعْطي بلا تَضْييقٍ ولا تَقْتيرٍ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَخافُ نَفادَ ما في خَزائِنِهِ ، ولا يَحْتاجُ إلى حِسابٍ لِما يُخْرِجُ مِنْها ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُعْطي ويَمْنَعُ ، والرِّزْقُ عِنْدَهُ بلا حِسابٍ ، فَنَحْنُ نَرى كَثيراً مِنَ الكافِرينَ والمُؤْمنينَ أغنياءَ موسِرينَ ، ونَرَى كَذَلِكَ مِنَ الفَريقَيْنِ فُقَراءَ مُعْسِرينَ ، وعَطاءُ اللهِ تَعالى لأَحَدٍ لَيْسَ تَفْضيلاً لَهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَبْتَلي مَنْ يَشاءُ بِما يَشاءُ ، ولا شَكَّ في أنَّ المتَّقي دائِماً أَحْسَنُ حالاً مِنَ الكافِرِ البَعيدِ عَنْ دينِ اللهِ ، فَهُوَ إنْ أَصابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيْراً لَهُ ، وإنْ أَصابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ فكانَ خيراً لَهُ .

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتُبَيِّنَ أنَّهُ لا بُدَّ للإنْسانِ العاقِلِ مِنْ أَنْ يَهْتَدِيَ بِهَدْيِ الأَنْبِياءِ عَلَيْهِمُ

الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فقَدْ كانَ ﴿ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي : كانوا أُمَّةً واحِدَةً مُتَّفِقينَ على كَلِمَةِ التَّوْحيدِ ، مُقِرّينَ بالعُبوديَةِ للهِ تَعالى ، مُرْتَبِطينَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وهُمْ كانوا كَذَلِكَ على سُنَّةِ الفِطْرَةِ يَأْخذونَ بما تَهْديهِمْ إليْهِ تِلْكَ الفِطْرَةُ ، وبما يُرْشِدهُمْ إليهِ عَقْلُهُمْ ، لكنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ اخْتَلَفوا ما بَيْنَ ضالٍّ ومُهْتَدٍ ، فَبَعَثَ اللهُ تَعالى النَّبيّينَ حينَ اخْتَلَفوا .

لَقَدْ بَعَثَ اللهُ تَعالى النَّبيّينَ للنّاسِ ، لأنَّ عُقولَ البَشَرِ وَحْدَها لا يُمْكِنُها الوُصولُ إلى كَثيرٍ مِنَ الأمورِ الّتي تُوَفِّرُ للنّاسِ مَصالِحَهُمْ ، وتَدْفَعُ عَنْهُمُ المضارَّ ، وذَلِكَ لتَفاوُتِ عُقولِ البَشَرِ ، ولأنَّ ما يَصِلُ إليهِ كَذلِكَ عقلُ البَشَرِأَمْرٌ نِسْبيٌّ ، فَما يُمْكِنُ أنْ يَصْلُحَ لِجماعةٍ ، قَدْ لا يَصْلُحُ لِجَماعَةٍ أُخْرى ، ولِذا كانَ مِنَ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أنْ بَعَثَ الأنْبياءَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ ، يُبَشِّرونَ مَنْ أَطاعَهُمْ بِنعيمِ اللهِ تَعالى والسَّعادَةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، ويُنْذِرونَ مَنْ عَصى اللهَ ، وعَصاهُمْ بِعِقابِ اللهِ تَعالى والشَّقاءِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

وَكَلِمَةُ (النَّبيينَ) تَدُلُّ على الكَثْرَةِ ، وهَذا دَليلٌ على كَثْرَةِ الأَنْبياءِ الّذينَ بَعَثَهُمُ اللهُ تَعالى للبَشَرِ رَحْمَةً بِهِمْ ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ وهَذا أَيْضاً مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بالبَشَرِ ، أنْ أَنْزَلَ مَعَ الأَنْبياءِ الكُتُبَ المُظْهِرَةَ للحَقِّ ، والّتي تَجْمَعُ كُلَّ ما يَحْتاجُ إليهِ النّاسُ مِنْ أُمورِ الدُّنيا والآخِرَةِ ، ولِيَفْصِلوا بواسِطَتِهِ بَيْنَ الّذينَ اخْتَلفوا ، وقَدْ أُسْنِدَ الحُكْمُ إلى الكِتابِ ، لِينَبِّهَ النّاسَ على أنَّ الواجِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْجِعوا إلى هذا الكِتابِ عِنْدَما يَخْتَلِفونَ ، لأَنَّهُمْ سَيَجِدونَهُ دائِماً حُكْماً فاصِلاً بَيْنَهُمْ ، قالَ تَعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ . [النّساء : ٦٥] وبَيَّنَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ الأَسْبابَ الّتي أَدَّتْ إلى اخْتِلافِ النّاسِ في هَذا الكِتابِ الّذي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى لإزالَةِ الاخْتِلافِ بَيْنَ النّاسِ ، ولِلْفَصْلِ بَيْنَهُمْ بالحَقِّ ، فما اخْتَلَفَ فيهِ إلاّ الّذينَ أُوتوا عِلْمَ الكِتابِ ، ومِنَ الاخْتِلافِ :

اخْتِلافُهُمْ في تَأويلِهِمْ وتَفْسيرِهِمْ لآياتِ الكِتابِ حَسَبَ ما يَشْتَهونَ ، فَتَجِدُ صاحِبَ مَذْهَبٍ يُؤَوِّلُ آيةً ما حَسَبَ ما يُحِبُّ ويَشْتَهي ، لِيَصِلَ إلى مُبْتَغاهُ في الدُّنْيا مِنْ مَنْصِبٍ أَوْ غَيْرِهِ ، ويَأْتي صاحِبُ مَذْهَبٍ آخَرَ ، فيُؤَوِّلُ الآياتِ كَذَلِكَ حَسَبَ ما يَشْتَهي لِيَصِلَ إلى ما وَصَلَ إلَيْهِ الأَوَّلُ .

ومِنَ اخْتِلافِهِمْ تَعَصُّبُ كُلِّ فَريقٍ مِنْهُمْ لِمَذْهَبِهِ لِيُخالِفَ مَذْهَبَ الآخَرَ في الأُصولِ ولَيْسَ في الفُروعِ فَقَط ، وزِيادَةً في التَّشْنيعِ على هَؤلاءِ المُخْتَلِفينَ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي : أَنَّهُمْ جاءَتْهُمُ الحُجَجُ الواضِحَةُ النّاصِعَةُ ، الّتي تَدُلُّ على الحَقِّ ، وتُفَرِّقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الباطِلِ ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدِ اخْتَلَفوا في هذا الحَقِّ الواضِحِ البَيِّنِ ، وإنَّ هَذا الاخْتِلافَ الّذي وَقَعَ بَيْنَهُمْ ، لم يَكُنْ إلاّ بَغْياً بَيْنَهُمْ وتَعَدِّياً لِحُدودِ الشَّريعَةِ الّتي أَقامَها اللهُ تَعالى ، لِتَكونَ حاجِزاً بَيْنَ النّاسِ والاخْتِلافِ ، إذْ إنَّ كُلَّ فريقٍ يُخَطِّىءُ الآخَرَ ويُبْطِلُ رَأْيَهُ بَغْياً وحَسَداً .

وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ أُولَئِكَ المُخْتَلِفينَ وشَنَّعَتْ ما هُمْ عَلَيْهِ ، رَفَعَتْ مِنْ مَقامِ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، الّذينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ أعلى عِلّيينَ .

﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَذِنَ اللهُ تَعالى للمُؤْمنينَ تَيْسيرَهُ وتَوْفيقَهُ لَهُمْ ، فَهُمْ يَهْتَدونَ لِما اخْتَلَفَ فيهِ النّاسُ مِنَ الحَقِّ ، أي : يَصِلونَ إلى الحَقِّ الّذي يَخْتَلِفُ فيهِ النّاسُ ، فَيَزْعُمُ كُلُّ واحِدٍ أنَّهُ على حَقٍّ ، وهُوَ بعيدٌ تماماً عَنْهُ ، فَبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ المُؤْمنينَ لا يَأْخُذونَ أيَّ أَمْرٍ دونَ أَنْ يُمَحِّصوهُ ، ويَبْحَثوا عَنْ دَليلِهِ ، حتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَيَأْخُذوهُ ويَدَعوا غَيْرَهُ .

وَقَدْ أَسْنَدَ الهِدايَةَ إليهِ سُبْحانَهُ ، لأنَّهُ هُوَ خالِقُها ، ولأنَّ قُلوبَ العِبادِ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَلِّبُها كَيْفَ يَشاءُ ، فالإنسانُ إذا اخْتارَ طريقَ الحَقِّ يَسَّرَهُ اللهُ لَهُ ، وإنِ اخْتارَ طَريقَ الضَّلالِ يَسَّرَهُ اللهُ لَهُ .

إنَّ اللهَ تَعالى يَهْدي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتقيمٍ ، فَمَنْ شاءَ الهِدايَةَ هَداهُ اللهُ ، ومَنْ شاءَ الضَّلالَةَ أَضَلَّهُ اللهُ . عَنْ عائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عنْها ـ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا قامَ مِنَ اللَّيلِ يُصَلّي ، يَقولُ : « اللّهُمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطِرَ السّماواتِ والأَرْضِ ، عالِمَ الغَيْبِ والشَّهادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فيما كانوا فيهِ يَخْتَلِفونَ ، اهْدِني لِما اخْتُلِفَ فيهِ مِنَ الحَقِّ بإذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدي مَنْ تَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ »[1] .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حُبُّ الدُّنْيا والغُرورُ بزينَتِها يَصْرِفُ البَعيدينَ عَنِ الحَقِّ ويَدْفَعُهُمْ إلى التَّهالُكِ عَلَيْها .

٢ـ العِزَّةُ والاسْتِعْلاءُ لِلمُؤْمِنينَ المُتَّقينَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

٣ـ كتابُ اللهِ تعالى هو الفَيْصَلُ بَيْنَ المُخْتَلِفينَ ، إذْ على النّاسِ الاحْتِكامُ إلى كتابِ اللهِ تَعالى فيما يَخْتَلِفونَ فيهِ مِنْ شُؤونِ الدُّنْيا والآخِرَةِ .

٤ـ المُؤْمِنونَ هُمُ الّذينَ يَتَّبِعونَ الحَقَّ ، ويَجْتَنِبونَ الباطِلَ .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في صلاة الليل ، حديث رقم ٧٧٠ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ كَيْفَ تُزَيَّنُ الحَياةُ الدُّنْيا للَّذينَ كَفَروا ؟

٢ـ لِمَ بُنِيَ الفِعْلُ (زُيِّنَ) لِلْمَجْهولِ ؟ولِمَ جاءَ بصيغَةِ الماضي ؟ ومَنْ هُوَ المُزَيِّنُ ؟

٣ـ كَيْفَ تَكونُ سُخْرِيَةُ الكافِرينَ مِنَ الّذينَ آمنوا ؟

٤ـ اعْقِدْ مُقارَنَةً بَيْنَ الكافِرينَ والمُتَّقينَ ، مِنْ خِلالِ الآيَةِ الكَريمَةِ .

٥ـ ما سِرُّ التّعبيرِ بـ : (الّذين اتقوا) بَدَلَ : (الّذينَ آمنوا) ؟

٦ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ .

٧ـ هَلْ هُناكَ عَلاقَةٌ بَيْنَ عطاءِ اللهِ للإنْسانِ ومَرْكَزِ هذا الإنْسانِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ؟

٨ـ كَيْفَ كانَ حالُ النّاسِ قَبْلَ بَعْثِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السّلامُ مِنْ حَيْثُ اعْتقادُهُمْ ؟

٩ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ بَعْثِ اللهِ تَعالى للنَّبيينَ ؟

١٠ـ لماذا أَسْنَدَتِ الآياتُ الحُكْمَ إلى الكِتابِ ؟

١١ـ ما الأَسْبابُ الّتي أَدَّتْ إلى اخْتِلافِ النّاسِ في الكِتابِ ؟

١٢ـ علامَ يَدلُّ قولُهُ تَعالى : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ ذَكَرَتْ آيةٌ مِنْ سُورَةِ الحَديدِ الأَشْياءَ الّتي زُيِّنَتْ للنّاسِ ، اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ بَيَّنَتْ آياتُ سورَةِ المُطَفِّفينَ سِجِلَّ كُلٍّ مِنَ الكافِرينَ والمُؤْمنينَ ، اكْتُبِ الآياتِ الدّالَّةَ على ذَلِكَ .

٣ـ ذَكَرَتْ بَعْضُ الآياتِ في كتابِ اللهِ تَعالى أَنّ النّاسَ كانوا أُمَّةً واحِدَةً على الحَقِّ ثُمَّ اخْتَلَفوا ، هاتِ آيتيْنِ تَدلاّنِ على ذَلِكَ واكْتُبْهُما في دَفْتَرِكَ .

٤ـ مِنَ الأَنْبياءُ الّذينَ وَرَدَ ذِكْرُهُمْ في القُرْآنِ الكَريمِ ، اكْتُبْ أَسْماءَ خمسةٍ مِنْهُمْ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثامنَ عشَرَ

سورَةُ الْبَقَرَةِ ـ القِسْمُ الرّابِعُ والسّتونَ

أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ
وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾
يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ
ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الّذينَ خَلَوْا : الأُمَمَ الّذينَ مَضَوا مِنْ قَبْلُ .

مَثَلُ : المَثَلُ : الوَصْفُ العَظيمُ الّذي لَهُ شَأْنٌ .

زُلْزِلوا : أُزْعِجوا إزْعاجاً شَديداً ، وخُوِّفوا واضْطَرَبوا .

التَّفسيرُ :

بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ أَحْوالَ النّاسِ ، وجاءَتْ هَذِهِ الآياتُ تَدْعو إلى الاقْتِداءِ بِمَنْ آمَنَ مِنَ الأُمَمِ الماضِيَةِ ، الّذينَ ابْتلاهُمْ اللهُ تَعالى بِصُنوفِ الأَذى والعَذابِ ولكِنَّهُمْ صَبَروا . قالَ تَعالى :

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ ﴾ .

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ ﴾ . أَمْ هُنا يُفْهَمُ مِنْها الاسْتِفْهامُ ، وهِيَ تُشْعِرُ بِوُجودِ مَحْذوفٍ دَلَّ علَيْهِ الكَلامُ ، كأَنَّهُ سُبْحانَهُ يَقولُ : قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ أُمَمٌ أُوتوا الكِتابَ ودَعوا إلى الحَقِّ ، فآذاهُمُ النّاسُ في ذَلِكَ ، فَصَبَروا وثَبَتوا ، أَفَتَصْبِرونَ مِثْلَهُمْ على

المَكارِهِ ، وتَثْبُتونَ ثَباتَهُمْ على الشّدائِدِ ؟ أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلوا الجَنَّةَ وتَنالوا رِضوانَ اللهِ تَعالى مِنْ غَيْرِ أَنْ تُفْتَنوا في سبيلِ اللهِ ، فَتَصْبِروا على الألَمِ ، وتُؤْذَوْا في سبيلِ اللهِ ، فَتَصْبِروا على الإيذاءِ ، وهَذِهِ هِيَ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في أنْصارِ الحَقِّ أنْ يَبْتَلِيَهُمْ ، لِيُمَحِّصَهُمْ ويُخْلِصَهُمْ لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى .

والمَثَلُ : الوَصْفُ العَظيمُ والحالَةُ الّتي لَها شَأْنٌ ، بِحَيْثُ يُضْرَبُ بِها المَثَلُ ، أيْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ هَذِهِ الحالُ الشَّديدَةُ أيُّها المُؤْمِنونَ الّتي كانَتْ لِمَنْ قَبْلَكُمْ ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ صَبَروا . انْظُرْ كيفَ أَنَّ اللهَ يَقولُ لِلْمُؤْمِنينَ بِأَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ تِلْكَ الحالُ الشَّديدَةُ مِنَ الأَذى والعَذابِ ، مَعَ أَنَّ المُؤْمِنينَ عُذِّبوا في مَكَّةَ وأوذوا وأُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ ، وأُصيبوا في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ ، ومُثِّلَ بِمَنْ مُثِّلَ بِهِ . إذا كانَ هَؤلاءِ لَمْ يَصِلوا إلى حالَةِ الّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، فماذا نقولُ فينا نَحْنُ ؟

﴿ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ كَأَنَّ سُؤالاً خَطَرَ في ذِهْنِ السّامِعِ ، ما الّذي أصابَ الّذينَ خَلَوا ومَضَوْا حَتّى يُضْرَبَ بِهِمُ المَثَلُ ؟ فجاءَ الجَوابُ : مَسَّتْهُمُ الباساءُ والضراءُ . والبَأْساءُ : ما يُصيبُ الإنْسانَ في غَيرِ نَفْسِهِ وبَدَنِهِ كالفَقْرِ ، والإخْراجِ مِنَ الدِّيارِ . والضَّرّاءُ : ما يُصيبُ الإنْسانَ في نَفْسِهِ ، كالجِراحِ والمَرَضِ والقَتْلِ ، وزُلْزِلوا ، أي : أُزْعِجوا إزْعاجاً شَديداً شَبيهاً بالزَّلْزَلَةِ بِما أصابَهُمْ مِنَ الأَهوالِ ، وما أَصابَ السّابِقينَ كانَ أَشدَّ زِلْزالاً مِنَ الّذي وَقَعَ لِلْمُسْلِمينَ في يومِ الأَحزابِ ، حيْثُ قالَ فيهِمْ سُبْحانَهُ : ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب :١١] حتَّى يَقولَ الرَّسولُ ، ويُقْصَدُ بِهِ جِنْسُ الرُّسُلِ لا واحِداً مُعَيَّناً و(حتى) للغايَةِ ، أيْ : حتّى وَصَلوا إلى غايَةٍ مِنَ الشّدائِدِ والأهوالِ ، لَمْ يَجِدوا مِنْ خِلالِهِ مَنْفَذاً للفَوْزِ ، لأَنَّ قُوَّةَ الأَعداءِ أحاطَتْ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، فاعْتَقَدوا أَنَّ هذا هُوَ وَقْتُ النّصْرِ الّذي وَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى بِهِ ، لأَنَّ اللهَ وَعَدَ أَهْلَ الحَقِّ بالنَّصْرِ ، فاسْتَعْجَلوهُ وقالوا : مَتى نَصْرُ اللهِ ؟ فَأجابَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ فقَدْ نَصَرَهُمُ اللهُ تَعالى ، وكَفَّ عَنْهُمْ أهْلَ البَغْيِ والشَّرِّ ، وأَيَّدَ دَعْوَتَهُمْ ، وجَعَلَ كَلِمَةَ اللهِ هِيَ العُلْيا ، وكَلِمَةَ الّذينَ كَفَروا السُّفْلى .

وَقَدْ جاءَتِ الجُمْلَةُ بِمُؤَكِّداتٍ مِنها الجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ ﴿ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ والجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ تَدُلُّ على التَّأكيدِ ، وابْتِداءُ الجُمْلَةِ بـ (ألا) وهي أداةُ اسْتِفْتاحٍ تَدُلُّ على تَحَقُّقِ مَضْمونِها وتَقْريرِهِ ، ثُمَّ مَجيءُ (إنَّ) وهي مِنْ أَقْوى أَدواتِ التَّأكيدِ ، وهذا كُلُّهُ لِيُبَيِّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ وَعْدَهُ بالنَّصْرِ لا بُدَّ وأَنْ يَتَحَقَّقَ لِمَنْ يَنْصُرُ دينَ اللهِ تَعالى ويُعلي كَلِمَتَهُ .

وفي قَوْلِهِ : ﴿حَتّى يَقُولَ﴾ جاءَ الفِعْلُ المُضارِعُ (يقول) لِيَدُلَّ على اسْتِحْضارِ الصُّورَةِ ، حتّى يَتَمَثَّلَ المُخاطَبُ هَوْلَ هَذِهِ الصُّورَةِ وشِدَّتَها ، ويَسْتَصْغِرَ كُلَّ شِدَّةٍ بَعْدَها ، وما مِنْ شِدَّةٍ تُصيبُ الأُمَمَ إلاّ وهِيَ أَخَفُّ مِنَ الشِّدَّةِ التّي أصابَتِ الرُّسُلَ ، حتّى اضْطَرَّتْهُمْ إلى اسْتِعجالِ نَصْرِ اللهِ تَعالى ، وهُمْ أَعْلَمُ النّاسِ باللهِ تَعالى وأَصْدَقُهُمْ تَوَكُّلاً عَلَيْهِ وتَسْليماً لَهُ .

وبَعْدَ أنْ حَثَّتِ الآياتُ المُؤمنينَ عَلى الصَّبْرِ واحْتِمالِ الأذى ، وابْتِغاءِ مَرْضاة اللهِ تَعالى ، رَغَّبَتِ الإنْسانَ في الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ تعالى ، إذْ إنَّ بَذْلَ المالِ كَبَذْلِ النَّفْسِ عنْدَ اللهِ تعالى ، وكِلاهُما دَليلٌ على صِدْقِ الإيمانِ .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ ﴾ أيْ : يسْأَلُكَ أَصْحابُكَ يا مُحَمَّدُ ، أيَّ شَيءٍ يُنْفِقونَ مِنْ أصنافِ الأَموالِ ، فَقُلْ لَهُمْ : ما أنْفَقْتُمْ مِنْ أَموالِكُمْ فاجْعَلوهُ للوالِدَيْنِ أوّلاً ، فَهُما أَحَقُّ النّاسِ بِذَلِكَ وفاءً لِبَعْضِ حُقوقِهِما عَلَيْكُمْ ، ثُمَّ الأَقْرَبينَ ومَنْ كانَ أَقْرَبَ كانَ أحَقَّ بالتَّقْديمِ ، فالأَولادُ مِنَ الأَقْرَبينَ ، والأُخْوَةُ فَهُمْ كَذلِكَ ، وهكَذا كُلُّ قَريبٍ لَهُ حَقُّ النَّفَقَةِ . ثُمَّ ذَكَرَ اليَتامى الّذينَ فَقَدوا الأَبَ الحاني الّذي يَسُدُّ عِوزَهُمْ ، والمساكينَ لِفَقْرِهِمْ واحْتِياجِهِمْ . وابْنُ السّبيلِ ، الّذي انْقَطَعَ عَنْ مالِهِ وَوَطَنِهِ ، فَهُوَ كالفَقيرِ تَماماً .

﴿مِنْ﴾ في قَوْلِهِ : ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ للتَّبْعيضِ ، و ﴿خَيْرٍ﴾ هُوَ المالُ ، فالنَّفَقَةُ تَعُمُّ قَليلَ المالِ وكَثيرَهُ .

وفي الآيَةِ مِنْ أَلوانِ البَديعِ ، ما يُسَمّى بِأُسْلوبِ الحَكيمِ ، فقَدْ سَأَلوا عمّا يُنْفِقونَ ، ولكِنَّ القُرْآنَ الكَريمَ أَجابَهُمْ عَنْ سُؤالٍ آخَرَ ، وهُوَ لِمَنْ يَنْبَغي أنْ تَكونَ النَّفَقَةُ ، وذَلِكَ لِحاجَتِهِم لِمَعْرِفَةِ هذا الأَمْرِ .

ثُمَّ قالَ تَعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ وهُوَ الإنْفاقُ ، وَوَضْعُهُ في مَوْضِعِهِ ، وكَذَلِكَ بِأَنْ يُقَدِّمَ الحَقَّ بالنَّفَقَةِ . وفي هذا حَضٌّ على فِعْلِ الخَيْرِ ، فَإِنَّ الإِنْسانَ عِنْدَما يَشْعُرُ بِأَنَّ اللهَ تَعالى مُجازيهِ عَلى نَفَقَتِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُشَجِّعُهُ على الإنْفاقِ في وُجوهِ البِرِّ ، والتّي أَفْضَلُها النَّفَقَةُ على الوالِدَيْنِ والأَوْلادِ والزَّوْجَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ واجِبُ المُؤْمنينَ الصَّبْرُ على الأذى والعَذابِ والاضْطِهادِ كَما كانَ مِنَ الأُمَمِ السّابِقَةِ الّتي ابْتُلِيَتْ أَشَدَّ البَلاءِ فَصَبَرَتْ .

٢ـ نَصْرُ اللهِ للمُؤْمِنينَ الّذينَ يُعلونَ كَلِمَتَهُ لا بُدَّ وأَنْ يَتَحَقَّقَ ، كَما نَصَرَ رُسُلَهُ مِنْ قَبْلُ .

٣ـ خَيْرُ النَّفَقَةِ ما كانَتْ للوالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ .



التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى ﴿أَمْ﴾ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ؟

٢ـ بيِّنِ المَثَلَ الّذي ضَرَبَتْهُ الآيَةُ الكَريمَةُ .

٣ـ اذْكُرْ مَعْنى : البَأْساءِ ، الضَّرَّاءِ ، الزَّلْزلةِ .

٤ـ مَنْ هُوَ الرَّسولُ في قَوْلِهِ : ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ ؟

٥ـ عَلامَ تَدُلُّ كَلِمَةُ ﴿حَتَّى﴾ والفِعْلُ المُضارِعُ ﴿يَقُولَ﴾ ؟

٦ـ بِماذا أَجابَ اللهُ تَعالى الرُّسُلَ الّذينَ اسْتَعْجَلوا نَصْرَ اللهِ ؟

٧ـ لِمَ جاءَ التَّأكيدُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَلا إِنَّ نَصرَ اللهَ قَرِيبٌ﴾ ؟ وما هيَ تِلْكَ المُؤَكِّداتُ ؟

٨ـ عَمَّ سَأَلَ الصَّحابَةُ رسولَ اللهِ ﷺ ؟ وبماذا أَجابَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ؟

٩ـ ما مَعْنى ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ ؟ وهَلْ يُقْصَدُ بالنَّفَقَةِ المالُ الكَثيرُ فقط ؟

١٠ـ قالَ تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ ، ما المقْصودُ بِهذهِ الجُمْلَةِ ؟ وعَلامَ تَدُلُّ ؟

نَشاطٌ :

١ـ ذَكَرَ لَنا النَّبيُّ ﷺ جانباً ممّا كانَ يُصيبُ الأُمَمَ السّابِقَةَ ، حَيْثُ كانَ يُنْشَرُ أَحَدُهُمْ بِمِنْشارٍ ، هاتِ حَديثَ الرَّسولِ ﷺ في ذَلِكَ واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيتيْنِ مِنْ كِتابِ اللهِ تَعالى تَحُثّانِ المُسْلِمَ عَلى الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعَ عَشَرَ

سورَةُ الْبَقَرَةِ - القِسْمُ الخامِسُ والسّتونَ

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ
لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ
يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كُتِبَ : فُرِضَ .

صَدٌّ : مَنْعٌ .

الفِتْنَةُ : صَدُّ المُسْلِمينَ عَنْ دِينِهِمْ بِإِلْقاءِ الشُّبُهاتِ .

يَرْتَدِدْ : يَرْجِعْ .

حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ : بَطَلَتْ .



تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنِ الإِنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ ، وهُوَ الجِهادُ بالمالِ ، وجاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ نَوْعٍ آخَرَ مِنَ الجِهادِ بالنَّفْسِ . يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ أَيْ : فُرِضَ عَلَيْكُمُ القِتالُ . وحُكْمُ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ

فَرْضُ كِفايةٍ ، إذا قامَ بِهِ جَماعَةٌ تَحْصُلُ بِهِمُ الكِفايَةُ ، سَقَطَ عَنِ الباقينَ ، هَذا إذا كانَ قِتالُ العَدوِّ خارِجَ بَلَدِ المُسْلِمينَ ، أَمّا إذا دَخَلَ العَدُوُّ أَرْضَ المُسْلِمينَ فَيكونُ القِتالُ فَرْضَ عَيْنٍ على كُلِّ فَرْدٍ مُسْلِمٍ .

ومَعْنى قَوْلِه : كُرْهٌ لَكُمْ : أيْ تَكْرَهُهُ نُفوسُكُمْ ، وذَلِكَ لِشِدَّتِهِ ووَيلاتِهِ ، وما فيهِ مِنْ إزْهاقِ الأَرْواحِ ، وبَذْلِ المالِ ، والبُعْدِ عَنِ الأَهْلِ والدِّيارِ ، وهَذِهِ الكَراهَةُ أَمْرٌ طَبيعيٌّ ، لا تَتَنافى مَعَ الرِّضا بِما يُكَلَّفُ بِهِ الإنْسانُ ، ولا تَتَنافى مَعَ الإيمانِ ، فَلا يَعْني أَنَّ المُسْلِمينَ كَرِهوا فَرضِيَّتَهُ ، لأَنَّ امْتِثالَ الأَمْرِ قَدْ يَتَضَمَّنُ مَشَقَّةً ، وَلَكِنْ إذا عَرَفَ الإِنْسانُ ثَوابَ اللهِ تَعالى عَلى هَذِهِ المَشَقَّةِ هانَ عَلَيْهِ اقْتِحامُ الصِّعابِ ، وقَدْ جاءَ القُرْآنُ لِيُقَرِّرَ أَنَّ مِنَ الفرائِضِ ما هُوَ شاقٌّ ، ولكنَّ وراءَهُ حِكْمَةٌ تُهوِّنُ هَذِهِ المَشقَّةَ ، وتُسَهِّلُ صُعوبَتَهُ ، وتُحَقِّقُ الكَثيرَ مِنَ الخَيْرِ الّذي لا يَعْلَمُهُ إلاّ اللهُ ، ولا يَسْتَطيعُ الإنْسانُ أَنْ يَراهُ ، لأَنَّ نَظْرَهُ مَحْدودٌ ومَعْرِفَتَهُ قاصِرَةٌ ، واللهُ وحْدَهُ الّذي يَعْلَمُ عواقِبَ الأُمورِ ، وما يَتَرَتَّبُ عَلَيْها ، قالَ تَعالى :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ ﴾ إنَّ هُناكَ أَشْياءَ كَثيرَةً يَفْعَلُها الإنْسانُ ، مَعَ كُرْهِهِ لَها ، ولَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَرْجو مِنْها النَّفْعَ ، وهُناكَ أشياءُ يَسْتَلِذُّها الإنْسانُ ويُحِبُّها ، ولَكِنَّها قَدْ توقِعُهُ في مَضارَّ وأَذىً كَثيرٍ ، وذَلِكَ مِثْلُ تَرْكِ الجهادِ ، فَإنَّهُ يَصونُ النَّفْسَ الإنسانِيَّةَ عَنِ القَتْلِ ، ويَصونُ مالَهُ مِنَ الإنْفاقِ ، ولكنْ مَعَ ذَلِكَ فَفيهِ مَفاسِدُ ومَضارُّ ، كَدُخولِ العَدوِّ بلادَ المُسْلِمينَ ، وتَسلُّطِهِ عَلَيْها ، وتَحَكُّمِهِ بالمُسْلِمينَ .

وفي الحَقيقةِ أَنَّ الجهادَ الّذي تَكْرَهونَهُ فيهِ ظَفَرُكُمْ ونَصْرُكُمْ على عَدُوِّكُمْ ، واسْتيلاؤكُمْ على بلادِهِ ، وحِفْظُ حُرْمَةِ بِلادِكُمْ ، وإعلاءُ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، إضافَةً إلى ذَلِكَ فيهِ الثّوابُ العَظيمُ الّذي أَعَدَّهُ اللهُ للمُجاهدينَ يومَ القِيامَةِ

وقَدْ حَدَّثَنا التّاريخُ عَمّا حَلَّ بِبلادِ الأَنْدَلُسِ ، عِنْدَما تَرَكوا الجهادَ ، وتَخلَّوْا عَنِ القِتالِ ، فاسْتولى عَدوُّهُمْ على بِلادِهِمْ ، فَقَدْ بَعُدْنا عَنْ شَرْعِ اللهِ تَعالى ، وتَرَكْنا الجهادَ ، فصارَ عَدوُّنا يَتَحَكَّمُ فينا ، ولَمْ نَعُدْ نَسْتَطيعُ أبداً أَنْ نَحيدَ عَنْ قَراراتِ أَعْدائِنا ومَنْ والاهُمْ!! نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ يُبدِّلَ الحالَ بِأَحْسَنِ حالٍ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ يُخاطِبُ اللهُ المُؤْمِنينَ ، وقَدْ فُرِضَ عَلَيْهِمُ القِتالُ ، أَنَّهُمْ لا يُدركونَ أَمْرَ المُسْتَقْبَلِ ولا يَعْلَمونَ الغَيبَ ، فَرُبّما يَكْرَهونَ شيْئاً ، ويَكونُ فيهِ خيرُهُمْ ، ورُبّما يُحِبّونَ شَيْئاً ويَكونُ فيهِ شَرٌّ لَهُمْ ، وعواقِبُهُ وبالاً عَلَيْهِمْ ، إنَّ اللهَ وحْدَهُ هُوَ الّذي يَعْلَمُ ذَلِكَ ، وما دامَ كَذلِكَ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُبادِروا إلى ما يَأْمُرُكُمْ بِهِ ، لأَنَّهُ لا يَأْمُرُكُمْ سُبْحانَهُ إلاّ بما عَلِمَ فيهِ خيراً لَكُمْ ، وانْتَهوا عمّا نَهاكُمْ عَنْهُ ، لأَنَّهُ لا يَنْهاكُمْ إلاّ عَمّا هُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، والمَقْصودُ بِذَلِكَ التَّرغيبُ في الجِهادِ ، والامتِثالُ لِما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى .

وبَعْدَ أَنْ حَثَّ اللهُ تَعالى المُؤْمنينَ على الجِهادِ والقِتالِ ، بَيَّنَ حُكْمُ القتالِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ ، قالَ تَعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ ﴾ أيْ : يَسْأَلونَكَ عَنِ القِتالِ في الشَّهْرِ الحرام ، إذْ دارَ في خَلَدِهِمْ أنَّ اللهَ فَرَضَ القِتالَ في غَيْرِ الحَرَمِ ، وفي غَيْرِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ ، فَهَلْ يُباحُ لَهُمْ قِتالُ أَعْدائِهِم في الأَشْهُرِ الحُرُمِ ؟

وَقَدْ رُوِيَ في سَبَبِ نُزولِ هذهِ الآيَةِ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ عَبْدَ اللهِ بنَ جَحْشٍ ، ومَعَهُ اثنا عَشَرَ رَجُلاً كُلُّهُمْ مِنَ المُهاجِرينَ ، وأَعْطاهُ كِتاباً مَخْتوماً ، وأمَرَهُ ألاّ يَفْتَحَهُ إلاّ بَعْدَ أَنْ يَسيرَ يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ يَنْظُرَ فيهِ ، فَيَمْضي لِما أَمَرَهُ بهِ ، ولا يَسْتَكْرِهَ أحداً مِنْ أَصْحابِهِ ، فَسارَ عَبْدُ اللهِ يَوْمَيْنِ ثُمَّ فَتَحَ الكِتابَ ، فإذا فيهِ : « إذا نَظَرْتَ في كِتابي هَذا فامْضِ حتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ - مكانٌ بَيْنَ مَكَّةَ والطّائِفِ - فَتَرَصَّدْ بِها عيراً لِقُرَيْشٍ ، وتَعْلَمَ لَنا مِنْ أخْبارِهِمْ » ، فقالَ عبدُ اللهِ : سَمْعاً وطاعَةً ! ! وأَخْبَرَ أَصْحابَهُ بِذَلِكَ ، وأَنَّهُ لا يَسْتَكْرِهُهُمْ ، فَمَنْ أَحَبَّ الشَّهادَةَ فَلْيَنْهَضْ ومَنْ كَرِهَ المَوْتَ فَلْيَرْجِعْ ، فَأَمَّا أنا فَناهِضٌ ، فَنَهَضوا جَميعاً ، وكانَ ذَلِكَ في آخِرِ يَوْمٍ في رَجَبٍ ، فَقَتَلوا وأَسَروا مِنْ قُرَيْشٍ ، وقالَتْ قُرَيْشٌ : قَدِ اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ الشَّهْرَ الحرامَ ، وهُوَ الشَّهْرُ الّذي يَأْمَنُ فيهِ الخائِفُ ، واشْتَدَّ ذَلِكَ على المُسْلِمينَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى الآيَةَ .

سَأَلوا الرَّسولَ ﷺ عَنِ القِتالِ في الشَّهْرِ الحَرامِ ، فقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى : قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : القِتالُ فيهِ أَمْرٌ كَبيرٌ مُسْتَنْكَرٌ ، وذَنْبٌ عَظيمٌ مُسْتَقْبَحٌ ، وما فَعَلَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ جَحْشٍ ، وما يَفْعَلُهُ المُسْلِمونَ فيما بَعْدُ مِنَ القِتالِ فيهِ ، مَبْنِيٌّ على قاعِدَةِ ارْتِكابِ أخَفِّ الضَّرَرَيْنِ ، إذا لَمْ يَكُنْ مِنْ بُدٍّ ، فالقِتالُ في نَفْسِهِ كَبيرٌ وجُرْمٌ عَظيمٌ ، ولَكِنَّهُ ارْتِكابٌ لإزالَةِ ما هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ وهُوَ ما بَيَّنَهُ اللهُ تَعالى :

﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أيْ : قُلْ يا مُحَمَّدُ لِهَؤلاءِ المُشْرِكينَ الَّذينَ يَدَّعونَ بِأَنَّكُمْ اسْتَحْلَلْتُمُ الأَشْهُرَ الحُرُمَ ، نَحْنُ مَعَكُمْ في أنَّ القِتالَ في هَذِهِ الأَشْهُرِ عَظيمٌ مُسْتَنْكَرٌ ، ولَكِنْ ما فَعَلْتُموهُ مَعَ أَصْحابي ، مِنْ صَرْفِكُمْ لِلْمُسْلِمينَ عَنْ طاعَةِ اللهِ ، وعَنِ الوُصولِ إلى المَسْجِدِ الحرامِ لأَداءِ العُمْرَةِ ، وإِخْراجِ المُسْلِمينَ مِنْ بُيوتِهِمْ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، وهَكَذا ذَكَرَتْ هَذِهِ الآيَةُ جَرائِمَ هَؤُلاءِ المُشْرِكينَ الّتي هِيَ أَكْبَرُ وأَشْنَعُ مِنَ القِتالِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ والّتي تَتَمَثَّلُ فيما يلي :

١ـ صَدُّهُمُ النّاسَ عَنِ الدُّخولِ في دينِ اللهِ تَعالى .

٢ـ كُفْرُهُمْ باللهِ تَعالى .

٣ـ صَدُّ المُسْلمينَ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى وعَنِ المَسْجِدِ الحرامِ بِمَنْعِهِمُ الحَجَّ والعُمْرَةَ .

٤ـ إخْراجُ النَّبيِّ ﷺ وأَصْحابِهِ المُهاجرينَ مِنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، كُلُّ ذلِكَ أكْبَرُ جُرْماً عِنْدَ اللهِ تَعالى مِنَ القِتالِ في الشَّهْرِ الحَرامِ .

٥ـ ثُمَّ أضافَتِ الآياتُ جَريمَةً خامِسَةً لهم :

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أيْ : ما أَنْزَلَهُ المُشْركونَ مِنْ شَدائِدَ بالمُؤْمنينَ بِإلقاءِ الشُّبُهاتِ ، وتَعْذيبِ المُسْلمينَ لِحَمْلِهِمْ على تَرْكِ دينِهِمْ أَكْبَرُ إثْماً مِنَ القَتْلِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ .

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ أي : إنَّ هَؤُلاءِ المُشْرِكينَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إلاَّ مَنْعُ الدّينِ مِنَ الانْتِشارِ ، ولِذَلِكَ تَجِدُهُمْ لا يَزالونَ يُقاتِلونَ المُؤْمنينَ ، ويُضْمِرونَ لَهُمُ السّوءَ ، ويُؤْذونَهُمْ حَتّى يَرْجِعوا عَنْ دينِ الإِسْلامِ إلى الكُفْرِ إنِ اسْتَطاعوا ذَلِكَ وقَدِروا عَلَيْهِ .

وَقَدْ جاءَ التَّعْبيرُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلاَ يَزَالُونَ﴾ وهُوَ يُفيدُ الدَّوامَ والاسْتِمْرارَ ، إذْ إنَّ عَداوَةَ المُشْرِكينَ ، ومَنْ هُمْ عَلى شاكِلَتِهِمْ عَداوَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لا تَنْقَطِعُ ، فَهُمْ دائِماً يُحاوِلونَ إخْراجَ المُسْلِمينَ مِنْ دينِهِمْ ، ولِذَلِكَ تَجِدُ الحَرَكَةَ التَّبْشيريَةَ في وَقْتِنا الحاضِرِ في ازْديادٍ مُسْتَمِرٍّ ، إذْ هَمَّ النَّصارى إخْراجَ المُسْلِمينَ مِنْ دينِهِم ، وتَرْكِهِمْ هَكَذا بِلا دينٍ ولا هُوِيَّةٍ .

وجاءَ التَّعْبيرُ بـ (إنْ) في قَوْلِهِ ﴿إِنِ ٱسْتَطَاعُوا﴾ لِيَدُلَّ على أنَّ هَذا الأَمْرَ مُسْتَبْعَدٌ ، لأَنَّ كَلِمَةَ (إنْ) تَدُلُّ على الشَّكِّ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتُبَيِّنَ سوءَ عاقِبَةِ مَنْ يَرْتَدُّ عَنْ دينِ الإِسْلامِ ، ويَعودُ إلى الكُفْرِ والشِّرْكِ : ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ .

أيْ : مَنْ يَرْجِعْ مِنْكُمْ عَنِ الإِسْلامِ إلى الكُفْرِ ، ويَمُتْ عَلى حالِ الكُفْرِ ، فأُولئِكَ المرْتَدّونَ بَطَلَتْ جَميعُ أعْمالِهِمُ الصّالِحَةِ الّتي كانوا قَدْ عَمِلوها ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلوا صالِحاً قَطُّ ، وذَلِكَ أنَّهُمْ بِكُفْرِهِمْ ذَهَبَ كُلُّ أَثَرٍ للأَعْمالِ الصّالِحَةِ ، وخَسِروا دُنْياهُمْ وأُخْراهُمْ ، فَخَسارَةُ الدُّنْيا لأَنَّ المُرْتَدَّ لا بُدَّ وأنْ يُقْتَلَ بَعْدَ أن يُسْتَتابَ ثلاثَةَ أيام ، فَإنْ أَبى الرُّجوعَ إلى الإِسْلامِ قُتِلَ . وخَسارَةُ الآخِرَةِ ، لأَنَّهُمْ صاروا مِنْ أَصْحابِ الجَحيمِ ، واللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَنْ يشاءُ .

وَقَدْ عَبَّرَتِ الآياتُ بِكَلِمَةِ ﴿يَرْتَدِد﴾ وهِيَ تُؤْذِنُ بالتَّكَلُّفِ ، لِلإِشارَةِ إلى أنَّ مَنْ دَخَلَ في دينِ

الإسْلام ، وامْتَلأَ قَلْبُهُ بنورِ الحَقِّ ، وخالَطَتْ بَشاشَةُ الإيمانِ قَلْبَهُ ، كانَ مِنَ المُسْتَبْعَدِ عَلَيْهِ أنْ يَرْجِعَ عَنْهُ ، فَهذا المُرْتَدُّ لَمْ يَكُنْ مُسْتَقِرّاً على هذا الدّينِ الحَقِّ ، وإنّما كانَ قَلِقاً مُضْطَرِباً غَيْرَ مُسْتَقِرٍّ ، حتّى انْتهى بِهِ الأَمْرُ بِمَوْتِهِ على الكُفْرِ ، لِكَوْنِهِ دَخَلَ الإسْلامَ وهُوَ غَيْرُ راضٍ بِهِ ديناً .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حُرْمَةُ القِتالِ في الشَّهْرِ الحَرام ، إلاّ إذا ابْتَدَأَ العَدوُّ القِتالَ فَوَجَبَ رَدُّهُ .

٢ـ الرِّدَّةُ عَنْ دينِ اللهِ تُحْبِطُ العَمَلَ في الدُّنْيا ، وتُوجِبُ العَذابَ في الآخِرَةِ .

٣ـ أَعْداءُ الدّينِ في كُلِّ زمانٍ ومَكانٍ يَحْرِصونَ على إخْراجِ المُسْلِمينَ مِنْ دينِهِم ، وإبْعادِهِمْ عَنْهُ ، لِيَكونوا أُناساً بِلا هُوِيَّةٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما حُكْمُ القِتالِ ؟

٢ـ ما المَقْصودِ بِقَوْلِهِ تعالى : ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ ؟

٣ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ ؟

٤ـ ما الخَيْرُ الّذي يَكونُ في الجِهادِ وقِتالِ الأَعْداءِ ؟

٥ـ بيِّنِ الحِكْمَةَ مِنْ خَتْمِ الآيةِ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

٦ـ ما حُكْمُ القِتالِ في الأَشْهُرِ الحُرُم ؟

٧ـ بيِّنْ سَبَبَ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾

٨ـ ذَكَرَتِ الآياتُ جَرائِمَ واعْتِداءاتٍ لِلْمُشْرِكينَ تجاهَ المُسْلِمينَ ، عَدِّدْ هَذِهِ الجَرائِمَ .

٩ـ ما غَايَةُ المُشْرِكينَ مِنْ قِتالِ المُسْلِمينَ ؟ وعَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَلاَ يَزَالُونَ﴾ ؟

١٠ـ لِمَ عَبَّرَ بـ (إنْ) في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ ؟

١١ـ ما نَتيجَةُ المُرْتَدِّينَ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى ؟

١٢ـ ما سِرُّ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿يَرْتَدِدْ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اذْكُرْ قِصَّتَيْنِ مِنْ قِصَصِ تَعْذيبِ المُشْرِكينَ لِلْمُسْلِمينَ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ لِيَحْمِلوهُمْ على تَرْكِ دِينِهِمْ ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكتبِ الآيَةَ الدّالَّةَ على أنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دونَ ذلِكَ .

٣ـ ما الأَحْكامُ المُتعلِّقَةُ بالمُرْتَدِّ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنْ حَيْثُ دَفْنُهُ ، والصّلاةُ عَلَيْهِ ، وتَوريثُ أَهْلِهِ ؟ اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ العِشْرونَ

سورَةُ الْبَقَرَةِ ـ القِسْمُ السّادِسُ والسّتونَ

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ
وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ
ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ
وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

هَاجَروا : فَارقوا الأَهْلَ والوَطَنَ ، وانْتَقَلوا مِنْ مَوْطِنِهِمْ إلى وَطَنٍ آخَرَ .

يَرْجونَ : يَتَوَقَّعونَ المَنْفَعَةَ .

رَحْمَةَ اللهِ : ثَوابَهُ .

الخَمْرِ : سُمِّيَتْ كَذلِكَ ، مِنْ خَمَرَ الشَّيْءَ أي سَتَرَهُ ، فالخَمْرُ تَسْتُرُ العَقْلَ وتُغَطّيهِ .

المَيْسِرِ : القِمارِ .

العَفوَ : الفَضْلَ والزِّيادَةَ على الحاجَةِ .

لَأَعْنَتَكُمْ : العَنَتُ : المَشَقَّةُ وما يَصْعُبُ احْتِمالُهُ .



تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ مَصيرِ الكافِرينَ المُرْتَدِّينَ عَنْ دينِهِمْ ، وانْتَقَلَتْ هُنا لِتَتَحَدَّثَ عَنْ فَريقِ المُؤْمِنينَ ، يَقولُ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي آمَنوا باللهِ تَعالى ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، واسْتَقاموا عَلى طَريقِ الحَقِّ ، وثَبَتوا على الإيمانِ . ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ إلى اللهِ تَعالى ، فَتَرَكوا البَلَدَ الّذي اضْطُهِدوا فيهِ ، وفُتِنوا في دينِهِمْ إلى بَلَدٍ يَأْمَنونَ فيهِ على دينِهِمْ ، ويستطيعونَ فيهِ نَصْرَ دينِهِمْ ، وإقامَةَ شَعائِرِهِ وإعْلاءَ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى . ﴿ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أيْ : بَذَلوا جُهْدَهُمْ وما في وُسْعِهِمْ وطاقَتِهِمْ ، لِمُقاوَمَةِ الكافِرينَ ، وتَقْوِيَةِ صَفِّ المُؤْمِنينَ ، وبِذا نَصَروا دينَ اللهِ تَعالى ، وأَعلَوْا كَلِمَتَهُ ، أُولئِكَ الّذينَ اتّصفوا بِهَذِهِ الصِّفاتِ الثّلاثِ السّابِقَةِ ؛ يَرْجونَ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى ، فَهُمْ يَأْمَلونَ أَنْ يَرْحَمَهُمُ اللهُ تَعالى ، ويُثيبَهُمْ عَلى أَعْمالِهِمْ .

وقَدْ جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿يَرْجُون﴾ وفيها مَدْحٌ لِهَذِهِ الفِئَةِ المُؤْمِنَةِ ، إذْ لا يَعْلَمُ أَحَدٌ في هَذِهِ الدُّنْيا أنّه سَيَكونُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، ولَوْ بَلَغَ في طاعَةِ اللهِ تَعالى مَبْلَغاً عَظيماً ، لأَنَّهُ لا يَدْري الإنْسانُ ماذا تَكونُ خاتِمَةُ أعْمالِهِ ، ولِكَيْ لا يَتّكِلَ أَحَدٌ على عَمَلِهِ ، إذْ لَنْ يَدْخُلَ أحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ ، وقَدْ سُئِلَ الرّسولُ ﷺ : « ولا أَنْتَ يا رَسولَ اللهِ » فقالَ : « لا ، إلاّ أَنْ يَتغمَّدَني اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ »[1] ، فالإنسانُ ـ إذَنْ ـ بحاجَةٍ إلى مَغْفِرَةِ اللهِ تَعالى ورَحْمَتِهِ ، ولِذا خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ إذْ هُوَ سُبْحانَهُ واسِعُ المَغْفِرَةِ للتّائِبينَ المُسْتَغْفِرينَ ، عَظيمُ الرَّحْمَةِ بالمُؤْمِنينَ ، يُحَقِّقُ لَهُمْ رَجاءَهُمْ إنْ شاءَ ، وقَدْ رُوِيَ عَنْ قَتادَةَ ـ رضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنّه قالَ : هَؤلاءِ خِيارُ هَذِهِ الأُمَّةِ ـ أيْ : أَصحابُ الأَوْصافِ المَذْكورَةِ ـ قَدْ جَعَلَهُمُ اللهُ أَهْلَ رَجاءٍ ، ومَنْ رجا طَلَبَ ، ومَنْ خافَ هَرَبَ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتَسوقَ لَنا بَعْضَ الأَسْئِلَةِ الّتي سَأَلَها الصَّحابَةُ رِضوانُ اللهِ عَلَيْهِم للنَّبيِّ ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاري / كتاب : المرضى ، باب : من ذهب بالصبي ليدعى له .
ومسلم حديث رقم (٧٠٤٧) كتاب : صفات المنافقين ، باب : تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس .

﴿ ۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) ﴾ .

﴿ ۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ الّذينَ سَألوا هُمُ المُؤْمِنونَ ، وقَدْ سألوا عَنْ حُكْمِ الخَمْرِ مِنْ حَيْثُ الحِلِّ والتَّحريمُ ، ولَيْسَ عَنْ حَقيقَتِها وذاتِها .

وَقَدْ تَدَرَّجَ القُرْآنُ في تَحريمِ الخَمْرِ ، لأنَّها كانَتْ مِنَ العاداتِ المُتَأَصِّلَةِ في النُّفوسِ ، ولِذا بَدَأَ في التَّنفيرِ مِنْها بِتَحْريكِ الوُجْدانِ الدّينيِّ في نُفوسِ المُسْلِمينَ ، وذَلِكَ بِأنْ بَيَّنَ لَهُمْ بِأَنَّ إِثْمَ الخَمْرِ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِها ، ثُمَّ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أنْ يَقْرَبوا الصَّلاةَ وهُمْ سُكارى ، ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْنا خَمْسَ صَلواتٍ مُعْظَمُها مُتقاربَةٌ ، فلا يَكْفي الوَقْتُ ما بَيْنَ الصَّلاةِ والصَّلاةِ للسُّكْرِ والإفاقَةِ مِنْهُ ، وبالتّالي بَدَأَ الصَّحابَةُ يَبْتَعِدُونَ كَثيراً عَنِ الخَمْرِ ، حتّى إذا ما حُرِّمَتْ تَحريماً قاطِعاً ، وجَدْناهُمْ يَلْتَزِمونَ مُباشَرَةً بِمُجَرَّدِ أَنْ سَمِعوا أَنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ ، ويُريقونَ هذهِ الخُمورَ في شوارِعِ المدينةِ المُنوَّرَةِ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : يَسْأَلُكَ أَصْحابُكَ يا مُحَمَّدُ عَنْ حُكْمِ شُرْبِ الخَمْرِ ، ولَعِبِ المَيْسِرِ ، فَقُلْ لَهُمْ مُرْشِداً : إنَّ في تَعاطيهما ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أيْ : ذَنْبٌ عَظيمٌ وضَرَرٌ شَديدٌ ؛ وذَلِكَ لِما فيهِما مِنَ القَبائِحِ ، فَمِنْ مَضارِّ الخَمْرِ الفَرْدِيَّةِ ما هُوَ مُرْتَبِطٌ بِصِحَّةِ الإِنْسانِ وعَقْلِهِ ومالِهِ .

وَمِنْها مَضارٌّ اجْتِماعِيَّةٌ : حَيْثُ يَقَعُ النِّزاعُ والخِصامُ بَيْنَ السّكارى ، وهَذا ما بَيَّنَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة : ٩١] .

وَكَثيراً ما نَسْمَعُ عَنْ جَرائِمِ قَتْلٍ ، وحَوادِثِ سَيْرٍ ، سَبَبُها السُّكْرُ ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَضارِّ الكَثيرَةِ ، أَمّا المَيْسِرُ وهُوَ كَسْبُ المالِ عَنْ طريقِ القِمارِ فَمِنْ مَضارِّهِ :

١ـ أَنَّهُ يُوَرِّثُ العَداوةَ والبَغْضاءَ بَيْنَ اللّاعِبينَ .

٢ـ أنّه يَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ .

٣ـ أَنَّهُ يُفْسِدُ الأَخْلاقَ بِتَعْويدِ النّاسِ على الكَسَلِ ، وتَرْكِهِمْ لِلأَعْمالِ الجالِبَةِ لِلرِّزْقِ .

٤ـ خرابُ البيوتِ وضَياعُ الأَمْوالِ .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ إِثْمَهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما ، فَهَلْ مَعْنى ذَلِكَ أَنَّ فيهِما مَنافِعُ ؟ ونَقولُ : قَدْ تَكونُ هُنا بَعْضُ المَنافِعِ الدُّنْيويَّةِ ، وذَلِكَ مِثْلُ الاتّجارِ بالخُمورِ مَثَلاً ، أَمّا المَيْسِرُ فَقَدْ تَكونُ مَنْفَعَتُهُ أَنَّ بَعْضَ النّاسِ يَصيرُ غَنيّاً دونَ تَعَبٍ ، وهِيَ مَنافِعُ قاصِرَةٌ لا تَدومُ .

ومَعَ ذَلِكَ فَهَذِهِ المَنافِعُ الدُّنْيوِيَّةُ لا تُساوي شَيْئاً بِجانِبِ المَضارِّ الجَسِيمَةِ ، الّتي تَعودُ على أفْرادِ الأُمَّةِ في دِينِهِمْ وعُقولِهِمْ وأجْسامِهِمْ وأمْوالِهِمْ وتَرابُطِهِمْ كَما قُلْنا .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ إلى السُّؤالِ الثّاني :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ والعَفوُ : الزِّيادَةُ ، ويُقْصَدُ بِهِ : ما تَيَسَّرَ مِمّا يَكونُ فاضِلاً عَنْ كِفايَةِ الإنْسانِ ، أيْ : ما زادَ عَنْ حاجَةِ الإنْسانِ وسَهُلَ عَلَيْهِ إخْراجُهُ .

وَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ مُرْشِدَةً النّاسَ إلى وُجوبِ التَّعاوُنِ والتَّراحُمِ بَيْنَ الأفْرادِ .

عَنْ جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْها ، فإنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلأَهْلِكَ ، فإنْ فَضَلَ عَنْ أهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذي قَرابَتِكَ ، فإنْ فَضَلَ عَنْ ذي قَرابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذا وهَكَذا »(1) .

وَقَدْ أَطْلَقَ القُرْآنُ كَلِمَةَ (العَفْوِ) لِيَتْرُكَ أمْرَ تَقْديرِ الزِّيادَةِ للنَّاسِ ، فَكُلُّ جَماعَةٍ تُقَدِّرُهُ حَسَبَ عَصْرِهِمْ ، وكُلُّ إنْسانٍ يُقَدِّرُهُ حَسَبَ حالِهِ .

وَقَدْ حَثَّ الإسْلامُ مُنْذُ مَجيئِهِ النّاسَ على الإنْفاقِ ، وذَلِكَ أنَّ المُسْلِمينَ كانوا فِئَةً قَليلَةً بَيْنَ أُمَمٍ وشُعوبٍ تُناصِبُهُمُ العَداوَةَ ، وتَبْذُلُ في سَبيلِ ذَلِكَ الأمْوالَ والأرْواحَ ، وهُمْ لَنْ يَسْتَقيمَ لَهُمْ حالٌ إلاّ إذا اتَّحَدوا ، وكانوا كَجَسَدٍ واحِدٍ .

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ أي : مِثْلُ هذا البيانِ الحَكيمِ الّذي بَيَّنَهُ اللهُ لَكُمْ فيما سَأَلْتُمْ عَنْهُ ، يُبَيِّنُ لَكُمْ آياتِهِ وأَحْكامِهِ الّتي فيها مَصالِحُكُمْ ومَنافِعُكُمْ ويُوجِّهُ عُقولَكُمْ إلى المَنافِعِ والمَضارِّ .

﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۗ ﴾ أي : تَتَفكرونَ في شؤونِ الدُّنْيا والآخِرَةِ مَعاً ، فَتَعْمَلوا لِدُنْياكُمْ وآخِرَتِكُمْ ، إذ الدُّنْيا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ ، فلا بُدَّ مِنَ العَمَلِ الصّالِحِ في الدُّنْيا ، لِيَظْفَرَ الإنْسانُ بِرضا اللهِ في الآخِرَةِ .

أمّا السُّؤالُ الثّالِثُ فَهُوَ قولُهُ تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ ﴾ يسألُكَ أَصْحابُكَ يا مُحَمَّدُ عَنِ القِيامِ بِأَمْرِ اليتامى ، والتَّصَرُّفِ بِأَموالِهِمْ ، فَعَنِ ابنِ عباسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ قالَ : لَمّا نَزَلَ قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠] ، انْطَلَقَ مَنْ كانَ عِنْدَهُ يَتيمٌ فَعَزَلَ طَعامَهُ عَنْ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الزكاة ، حديث رقم ٩٩٧ .

طَعامِهِ ، وشَرابَهُ عَنْ شرابِهِ ، فَجَعَلَ يَفْصِلُ لَهُ الشَّيْءَ مِنْ طعامِهِ وشرابِهِ ، فَيَحْبِسَ لَهُ حَتّى يَأْكُلَهُ أو يَفْسُدَ ، فاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَذَكَروا ذَلِكَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ الآيةَ[1] . وقَدْ أرادوا بِسُؤالِهِمْ أَنْ يَجْمَعوا بَيْنَ مَصْلَحَةِ اليتيمِ لِيَعيشَ في بَيْتِ كافِلِهِ عَزيزاً ، وبَيْنَ مَصْلَحَتِهِمْ هُم ، لِكَيْ لا يَأْكُلوا شَيْئاً مِنْ مالِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ .

فَقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ أيْ : إنَّ كُلَّ ما فيهِ صلاحٌ لليَتامى فَهُوَ خَيْرٌ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُصْلِحوا نُفوسَ اليتامى بالتَّهْذيبِ والتَّرْبيةِ السَّليمَةِ ، وأَنْ تُصْلِحوا أَموالَهُمْ بالمُحافَظَةِ عَلَيْها ، وذَلِكَ بِتَنْميتِها وتَثْميرِها ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعُدّوهُمْ إِخْوانَكُمْ في العَقيدَةِ والإنْسانِيَّةِ وأَنْ تُعامِلوهُمْ بِمُقْتَضى ما تَفْرِضُهُ هَذِهِ الأُخُوَّةُ عَلَيْكُمْ ، فَمِنْ شَأْنِ الإخوةِ أَنْ يَكونوا خُلَطاءَ في المَأْكَلِ والمَشْرَبِ والمِلْكِ والمَعاشِ ، وفي ذَلِكَ مَنْفَعَةٌ لَهُمْ . والمُخالَطَةُ مَبْنِيَّةٌ على المُسامَحَةِ .

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ أَعْلَمُ بِما تُضْمِرُهُ النُّفوسُ ، وتَميلُ إِلَيْهِ مِنْ قَصْدِ الإفْسادِ أَوِ الإصْلاحِ في هَذِهِ المُخالَطَةِ ، وهُوَ مُحاسِبُكُمْ على ما في نُفوسِكُمْ . وقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى هَذِهِ الجُمْلَةَ ، لأَنَّ كَثيرينَ تَعْميهِمْ شَهْوَةُ الطَّمَعِ ، فَتُسَوِّلُ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَكْلَ مالِ اليَتيمِ .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ أي لَوْ شاءَ اللهُ أَنْ يُكَلِّفَكُمْ مالا تُطيقونَهُ مِنَ القِيامِ بِشَأْنِ اليَتامى وحِفْظِ أَمْوالِهِمْ دونَ أَنْ يَأْذَنَ لَكُمْ في مُخالَطَتِهِمْ لَفَعَلَ ، ولَكِنَّهُ سُبْحانَهُ واسِعُ الرَّحْمَةِ بِكُمْ ، فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُوقِعَكُمْ في مَشَقَّةٍ وحَرَجٍ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ عَزيزٌ لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ولا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ أو أَمْرٌ ، فَلَوْ شاءَ إِعْناتَكُمْ فَلَنْ يَمْنَعَهُ سُبْحانَهُ أَحَدٌ ، وهُوَ حَكيمٌ سُبْحانَهُ في أَفْعالِهِ ، فَأَفْعالُهُ كُلُّها حِكْمَةٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنُ يُجاهِدُ بِلِسانِهِ وقَلْبِهِ ، والمُجاهِدُ والمُهاجِرُ في سَبيلِ اللهِ أَعَدَّ اللهُ تَعالى لَهُمُ الثَّوابَ العَظيمَ يَوْمَ القِيامَةِ .

٢ـ حافَظَ الدّينُ على الكِيانِ الإنْسانيِّ : مالِهِ وعِرْضِهِ ودينِهِ وعَقْلِهِ ، ونَفْسِهِ ، فَصانَ هَذِهِ الأُمورَ الضَّروريَّةَ وحَرَّمَ الاعْتِداءَ عَلَيْها .

---

(١) وقد أخرج الحديث الحاكم في المستدرك حديث رقم ٢٤٩٩ والبيهقي في السنن حديث رقم ١٢٤٥١ وأبو داود في السنن حديث رقم ٢٨٧١ .

٣ـ حَقَّقَ الدِّينُ مَبْدَأَ التَّكافُلِ الاجْتِماعيِّ ، وذَلِكَ بِحَثِّهِ على النَّفَقَةِ على مَنْ يَسْتَحِقُّها مِنْ أَفْرادِ المُجتمَعِ .

٤ـ الحَثُّ على رِعايَةِ اليَتيمِ والمُحافَظَةِ على تَرْبيَةِ أمْوالِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ابْتَدَأَتِ الآياتُ بِذِكْرِ ثَلاثِ صِفاتٍ مُحَبَّبَةٍ للنَّفْسِ ، هاتِ هَذِهِ الصِّفاتِ .

٢ـ ما غايَةُ هَذا الفَريقِ مِنَ اتِّصافِهِ بِهَذِهِ الصِّفاتِ ؟ وما الّذي يَأْمَلونَهُ مِنَ اللهِ تَعالى ؟

٣ـ بِمَ يَدْخُلُ الإنْسانُ الجَنَّةَ ؟

٤ـ تَدَرَّجَ القُرْآنُ الكريمُ في تَحْريمِ الخَمْرِ ، ولَمْ يُحَرِّمْها مَرَّةً واحِدَةً ، وضِّحْ ذَلِكَ بِذِكْرِ الآياتِ الّتي نَزَلَتْ بِهذا الشَّأْنِ .

٥ـ ما الحِكْمَةُ مِنَ التَّدَرُّجِ في تَحْريمِ الخَمْرِ ؟

٦ـ بماذا أجابَتِ الآيَةُ السّائلينَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ ؟

٧ـ بَيِّنِ المضارَّ النّاتِجَةَ عَنْ شُرْبِ الخَمْرِ ، ولَعِبِ المَيْسِرِ .

٨ـ هَلْ للْخَمْرِ والمَيْسِرِ منافِعُ ؟ بَيِّنْ ذَلِكَ .

٩ـ عَمَّ سَأَلَ الصَّحابَةُ رسولَ اللهِ ﷺ ؟ وبِماذا أجابَهُمْ ؟

١٠ـ ما الحِكْمَةُ مِنَ التَّعْبيرِ بِكَلِمَةِ (العَفْوِ) ؟ وما مَعْناها ؟

١١ـ ما المَقْصودُ بالسُّؤالِ عَنِ اليتامى ؟ وما سَبَبُ نُزولِ الآيةِ ؟

١٢ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ .

١٣ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ تَدَرَّجَتِ الآياتُ الكَريمَةُ في قَضِيَّةِ تَحْريمِ الخَمْرِ ، اكْتُبِ الآياتِ الدّالّةَ على ذَلِكَ مُرَتَّبَةً .

٢ـ ما هِيَ الضَّروراتُ الخَمْسُ الّتي حافَظَ عَلَيْها الإسْلامُ بالنِّسْبَةِ للإنْسانِ ، وكَيْفَ حافَظَ عَلَيْها ، اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ هاتِ حَديثاً آخَرَ غيرَ الواردِ في تَفْسيرِ الآيةِ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ يُبيِّنُ فَضْلَ النَّفَقَةِ ، ومَنْ أَوْلى بِها ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ هاتِ حَديثَيْنِ عَن رسولِ اللهِ ﷺ يَحُثُّ فيهما على رِعايَةِ اليَتيمِ ، واكْتُبْهُما في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الحادي والعِشْرونَ

سُورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السّابِعُ والسّتونَ

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟
ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ
يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ
فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ
فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

المَحيضِ : لُغَةً السَّيَلانُ ، وشَرْعاً : ما يَقْذِفُهُ رَحِمُ المَرْأَةِ مِنْ دَمٍ في أوقاتٍ مَخْصوصَةٍ على وَجْهٍ مَخْصوصٍ .

اعْتَزِلوا : تباعَدوا ، وهو كنايَةٌ عَنْ تَرْكِ الجماعِ والمُباشَرَةِ .

يَطْهُرْنَ : مِنَ الطُّهْرِ ، وهُوَ النَّقاءُ مِنْ دَمِ الحَيْضِ .

تَطَهَّرْنَ : اغْتَسَلْنَ بَعْدَ انْقِطاعِ الدَّمِ .

حَرْثٌ : الحَرْثُ : تَهْيئَةُ الأَرْضِ بالحِراثَةِ لإلقاءِ البِذْرِ فيها .

التَّفسيرُ :

الآياتُ القُرْآنِيَةُ في سورَةِ البَقَرَةِ تَتحدَّثُ عَنْ كَثيرٍ مِنَ الأَحْكامِ التَّشريعيَّةِ ، ومِنْها هَذِهِ الآياتُ الّتي تَتَحَدَّثُ عَنْ بَعْضِ أَحْكامِ الزّواجِ والمُعاشَرَةِ وآدابِها ، وما يَخْتَصُّ بالنِّساءِ مِنْ أَحْكامِ الحَيْضِ .

ابْتَدَأَتِ الآياتُ الحديثَ عَنِ الزَّواجِ الّذي هُوَ أَعْمَقُ الرَّوابِطِ وأَقواها ، وهَذا الزَّواجُ لا بُدَّ وأنْ يَقومَ على أساسٍ صَحيحٍ ، وهُوَ الاخْتيارُ الّذي يَقومُ على الدّينِ والخُلُقِ القَويم ، فإذا كانَ كُلٌّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ على خُلُقٍ ودينٍ ، فإنَّ الأُسْرَةَ تَكونُ قائِمَةً على السَّعادَةِ والأَمْنِ ، أمّا إنْ أساءَ كُلٌّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الاخْتيارَ ، فإنَّ تِلْكَ الأُسْرَةَ مُعَرَّضَةٌ للضَّياعِ ، ولِذا جاءَتِ الآيَةُ لِتَتحدَّثَ عَنِ الأساسِ الصَّحيحِ .

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ .

قالَ تَعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ ﴾ لا تَتَزَوَّجوا المُشْرِكاتِ اللاّتي لَيْسَ لَهُنَّ كِتابٌ ، ما دُمْنَ على شِرْكِهِنَّ ، حتَّى يَتْرُكْنَ هَذا الشِّرْكَ ويُؤْمِنَّ باللهِ تَعالى ، ويُصَدِّقْنَ بالرَّسولِ ﷺ ، فالزَّواجُ بالمُشْرِكَةِ مُحَرَّمٌ .

هذا بالنِّسْبَةِ لِلْمُشْرِكَةِ ، أمّا الكِتابِيَّةُ فالزَّواجُ مِنْها مُباحٌ ولَيْسَ بمُحَرَّم ، ودَليلُ ذَلِكَ ما وَرَدَ في كِتابِ اللهِ تَعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ .

﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ ﴾ تُفيدُ الآيَةُ أنَّ الأَمَةَ المُؤْمِنَةَ على ما بِها مِنَ الرِّقِّ وقِلَّةِ الجاهِ ، خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ حُرَّةٍ على مالِها مِنْ شَرَفِ الحُرِّيَةِ ، ولَوْ أعْجَبَتْكُمْ بِمالِها وجَمالِها ، ونَسَبِها وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ منافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ ، لأَنَّ المَرْأَةَ يَكونُ كَمالُ دينِها بالإيمانِ ، وبالمالِ والجاهِ يكونُ كَمالُ دُنْياها ، واخْتيارُ المَرْأَةِ لِدينِها أَفْضَلُ مِنَ اخْتيارِها لأُمورِ دُنياها ، والزَّواجُ ارْتِباطٌ روحِيٌّ بَيْنَ قَلْبَيْنِ ، ومِنَ العَسيرِ جِدّاً أَنْ يَكونَ هَذا التَّرابُطُ بَيْنَ قَلْبٍ مُخْلِصٍ للهِ تَعالى في عِبادَتِهِ ، وقَلْبٍ لا يَدينُ أَبَداً للهِ تَعالى ، ثُمَّ إنَّ المنافِعَ الدُّنْيَوِيَّةَ تَتحقَّقُ بالعِشْرَةِ ، فَيَكونُ هُناكَ حُسْنُ مُعاشَرَةٍ ، وضَبْطٌ للأَموالِ والقِيامُ عَلى شُؤونِ الأَولادِ .

وَقَدْ ابْتَدَأَتِ الجُمْلَةُ بلامِ الابْتِداءِ الشَّبيهَةِ بلامِ القَسَمِ في إفادَةِ التَّأْكيدِ ، للمُبالَغَةِ في زَجْرِ الصَّحابَةِ وغَيْرِهِمْ مِنَ المُسْلِمينَ مِنَ الزَّواجِ بالمُشْرِكَةِ . عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ : لِمالِها ولِحَسَبِها ، ولِجمالِها ولِدينِها ، فاظْفَرْ بذاتِ الدّينِ تَرِبَتْ يداكَ »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، حديث رقم ٤٨٠٢ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لا تَتَزوَّجوا النِّساءَ لِحُسْنِهِنَّ ، فَعَسى حُسْنَهُنَّ أَنْ يُرْدِيهِنَّ ، ولا تَتزوجوهُنَّ لأَمْوالِهِنَّ ، فَعَسى أَمْوالَهُنَّ أَنْ يَطْغيهِنَّ ، ولَكِنْ تَزوجوهُنَّ على الدّين ، ولأَمَةٌ سَوْداءُ ذاتُ دِينٍ أَفْضَلُ لله »[1] .

﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي : لا تُزوِّجوهُمُ النِّساءَ المُؤْمِناتِ إلاّ إذا آمنوا ، وتَركوا ما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ ، فإذا فَعَلوا ذَلِكَ حَلَّ لَكُمْ أَنْ تُزَوِّجوهُمُ النِّساءَ المُسْلِماتِ ، فالمَرْأَةُ لا يَجوزُ لَها أَنْ تَتَزوَّجَ مِنْ مُشْرِكٍ ولا مِنْ كِتابيٍّ كَذَلِكَ ، وهَذا مُحَرَّمٌ بِنَصِّ سُنَّةِ الرّسولِ وإِجْماعِ المُسْلِمينَ ، وذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ بِما لَهُ مِنْ سُلْطانٍ على المَرْأَةِ ، يَخْشى أَنْ يَجْعَلَها تَزيغُ عَنْ عَقيدَتِها ويُفْسِدُ أَخْلاقَها .

﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ بيانٌ لِفَضْلِ الإيمانِ ، أي أَنَّ المَملوكَ المُؤْمِنَ على ما بِهِ مِنْ ذِلَّةٍ ومَهانَةٍ خَيْرٌ مِنَ المُشْرِكِ الّذي يَكونُ عَزيزَ الجانِبِ ، مُهاباً في قَوْمِهِ .

وانْتَقَلَتِ الآيةُ لِتُبَيِّنَ عِلَّةَ تَحْريمِ النِّكاحِ بَيْنَ المُشْرِكينَ والمُؤْمِنينَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي : أَنَّ هَؤلاءِ المُشْرِكينَ والمُشْرِكاتِ ، يَدْعونَ لِكَسْبِ كُلِّ ما يَكون سبَباً في دُخولِ النّارِ مِنَ الأَقوالِ والأَفْعالِ . والرَّابِطَةُ الزَّوْجِيَّةُ مِنْ أَقْوى العَوامِلِ في التَّأْثيرِ ، فَكُلٌّ مِنْهُما يُؤَثِّرُ في الآخَرِ .

لِذا سَيَكونُ نَتيجَةُ هَذا الزَّواجِ بَيْنَ المُشْرِكِ والمُؤْمِنِ ، أَنَّهُ على مَرِّ الزَّمَنِ ، سَيَتَقَبَّلُ أَحَدُهُما ما عَلَيْهِ الآخَرُ ويَسْتَحْسِنُهُ ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ إنَّ دَعْوَةَ اللهِ وما عَلَيْهِ المُؤْمِنونَ هِيَ الّتي توصِلُ إلى الجَنَّةِ والمَغْفِرَةِ بِإِذْنِ اللهِ تَعالى وتَوْفيقِهِ وهِدايَتِهِ ، فَهِيَ ـ إِذَنْ ـ مُناقِضَةٌ لِدَعْوَةِ المُشْرِكينَ ، فَفي الآيةِ مقابَلَةٌ بَيْنَ المُشْرِكينَ والمُؤْمنينَ ، وهُما عَلى غايَةِ التَّبايُنِ .

﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ ﴾ أي : يُوَضِّحُها سُبْحانَهُ ، ويَأْتي بالدَّلائِلِ على أَحْكامِ شَريعَتِهِ سُبْحانَهُ ، فلا يَذْكُرُ حُكْماً إلاّ وبَيَّنَ للنّاسِ حِكْمَتَهُ وفائِدَتَهُ بِما يُظْهِرُ لَهُمْ فيهِ مِنَ المَصْلَحَةِ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يَتَّعِظونَ فَيَسْتَقيمونَ عَلى طَريقِ اللهِ الصَّحيحِ .

السُّؤالُ عَنِ الحَيْضِ :

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتورِدَ سُؤالاً مِنَ الأَسْئِلَةِ الّتي وُجِّهَتْ لِرَسولِ اللهِ ﷺ ، حَوْلَ الأَحْكامِ التَّشْريعيَّةِ .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن ، حديث رقم ١٣٢٤٧ وجوّد البوصيري في الزجاجة إسناده ٢/ ٩٧ وسكت عنه الحافظ في الفتح ٩/ ١٣٥ .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾ .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ لَقَدْ كانَ اليَهودُ يُشَدِّدونَ في أُمورِ الحَيْضِ ، فَقَدْ وَرَدَ في كُتُبِهِمْ أَنَّ مَنْ مَسَّ الحائِضَ في أيامِ طَمْثِها يَكونُ نَجِساً ، وكُلُّ مَنْ مَسَّ فِراشَها يَغْسِلُ ثِيابَهُ ويَسْتَحِمُّ بماءٍ ، ويَكونُ نَجِساً ، وكُلُّ مَنْ مَسَّ مَتاعاً تَجْلِسُ عَلَيْهِ يَغْسِلُ ثِيابَهُ ويَسْتَحِمُّ بماءٍ ويَكونُ نَجِساً إلى المساءِ ، وإذا اضْطَجَعَ زَوْجُها مَعَها يَكونُ نَجِساً لِمُدّةِ أُسْبوعٍ ، أَمّا النَّصارى فَكانوا يَتَساهَلونَ في هذا الأَمْرِ .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ سَأَلَ الصَّحابَةُ النَّبيَّ عنْ حُكْمِ الحَيْضِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « اصْنَعوا كلُّ شَيْءٍ إلاّ النِّكاحَ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ اليَهودَ ، فَقالوا : ما يُريدُ هَذا الرَّجُلَ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنا شَيْئاً إلاّ خالَفَنا فيهِ ، فجاءَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ وعُبادُ بنُ بِشْرٍ ، فقالا : يا رَسولَ اللهِ ، إنّ اليَهودَ تَقولُ كَذا وكَذا ، أَفَلا نُجامِعُهُنَّ ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ الرَّسولِ ﷺ ، حتّى ظَنَنّا أنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِما ـ أَيْ غَضِبَ ـ فاسْتَقْبَلَتْهُما هَديّةٌ مِنْ لَبَنٍ إلى النّبي ﷺ ، فَأَرْسَلَ في آثارِهِما فَسَقاهُما ، فَعَرَفا أنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِما »(١) .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى يَسْأَلُكَ أَصْحابُكَ يا مُحَمَّدُ عَنْ مُباشَرَةِ النِّساءِ في وَقْتِ الحَيْضِ ، فَقُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّد أنْ يَتْرُكوا ذَلِكَ وَقْتَ الحَيْضِ ؛ لأَنَّ إتيانَ النِّساءِ في هَذا الوَقْتِ سَبَبٌ للأَذى والضَّرَرِ ، لِكلا الطَّرَفَيْنِ ، الرَّجلِ والمرأةِ ، وقَدْ بَيَّنَتِ الآيَةُ أَنَّ المُحرَّمَ هُوَ الجِماعُ ولَيْسَ كَما هُوَ عِنْدَ يهودَ أَنْ لا يَقْرَبَ مِنْها أبَداً .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى الوَقْتَ الّذي يَحِلُّ للرَّجُلِ أَنْ يُجامِعَ زَوْجَهُ فيهِ ، وهُوَ إذا طَهُرَتْ مِنْ حَيْضِها وتَطَّهَرَتْ ؛ بمعنى اغْتَسلَتْ بَعْدَ انْقِطاعِ الدَّمِ ، وفي هاتَيْنِ الجُمْلَتَيْنِ (فاعْتَزِلوا. . . . يَطْهُرْنَ) مِنْ سُموِّ التَّعبيرِ ، وبَديعِ الكِنايَةِ ، ما يَغْرِسُ في نَفْسِ السّامِعِ حُسْنَ الأَدَبِ ، ويَصونُ سَمْعَهُ عَنِ الأَلْفاظِ الّتي يُجافي سَماعُها الأذواقَ السَّليمَةَ ، وما أَحْوَجَ المُسْلِمينَ إلى التَّأَسّي بِهذا الأَدَبِ الّذي يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ مُروءَتَهُمْ .

فإذا تَطَهَّرنَ ؛ أي : اغْتَسَلْنَ مِنَ الحَيْضِ فَجامِعوهُنَّ في المكانِ الّذي أَمَرَكُمُ اللهُ تَعالى ، وهُوَ القُبُلُ ، ولا تَتعدّوهُ إلى غَيْرِهِ ، وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ أي : الّذين يَرْجِعونَ إِلَيْهِ تائِبينَ غَيْرَ مُصِرّينَ على سَيِّءِ أَفْعالِهِمْ ، وذَلِكَ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم/ كتاب الحيض ، حديث رقم ٣٠٢ .

بإتْيانِهِمُ النِّساءَ وقْتَ الحَيْضِ ، أو في غَيْرِ المَكانِ الّذي أَباحَ الشَّرْعُ لَهُمْ إتْيانَهُنَّ فيهِ . ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أيْ : أنَّهُ تعالى يُحِبُّ كُلَّ مَنْ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الأقْذارِ وابْتَعَدَ عَنِ المُنْكَراتِ .

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ إنَّ نِساءَكُمْ هُنَّ مَكانُ زَرْعٍ ومَنْبَتٌ لِلْوَلَدِ ، أَعَدَّهُنَّ اللهُ تَعالى لِذَلِكَ كَما أَعَدَّ الأَرْضَ للزِّراعَةِ والإنْباتِ ، فَأْتوهُنَّ إذا تَطَهَّرْنَ مِنَ الحَيْضِ في مَوْضِعِ الحَرْثِ في القُبُلِ كَيْفَ شِئْتُمْ . وفي هَذا دَلالَةٌ على أنَّ مِنْ مَقاصِدِ الزَّواجِ النَّسْلُ والذُّرِّيَّةُ ، والآيَةُ فيها تَمْثيلٌ ، حيثُ أنَّهُ سُبْحانَهُ شَبَّهَ ما يُلْقى في الأَرْحامِ مِنَ النُّطَفِ بالبَذْرِ الّتي تُلْقى في الأَرْضِ ، حيثُ إنَّ كُلاًّ مِنْهُما يَنْمو في مُسْتَوْدَعِهِ ، ويَكونُ فيهِ البَقاءُ والتَّكاثُرُ .

وَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ كالبَيانِ لِما سَبَقَها ، مُبَيِّنَةً وجْهَ الحِكْمَةِ مِنْ إتْيانِ النِّساءِ .

﴿ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ما يُقَدَّمُ للنَّفْسِ هُوَ ما يَنْفَعُها في حَياتِها ، ولا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلإنْسانِ في مُسْتَقْبَلِهِ مِنْ ابنٍ بارٍ يَنْفَعُهُ في دِينِهِ ودُنْياهُ ، وهَذا يَتَطَلَّبُ مِنْكُمُ اخْتيارَ الزَّوْجَةِ الصّالِحَةِ الّتي تُعينُكُمْ على تَرْبِيَةِ أولادِكُمْ بِحُسْنِ خُلُقِها وتَكونُ قُدْوَةً حَسَنَةً لَهُمْ .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي : احْذَروهُ سُبْحانَهُ ، وذَلِكَ بِصِيانَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ عَنْ كُلِّ ما يَنْهاكُمْ سُبحانَهُ وتَعالى عَنْهُ ، واحْذَروا أنْ تُخْرِجوا النِّساءَ عَنْ كَوْنِهِنَّ حَرْثاً ، واحْذَروا مِنَ اخْتيارِ المرأةِ السَّيِّئَةِ الّتي تُفْسِدُ أَخْلاقَ أَبْنائِكُمْ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بَشِّرِ المُؤْمِنينَ الّذينَ يَقِفونَ عِنْدَ حُدودِ دِينِ اللهِ ، ويَتَّبِعونَ شَريعَتَهُ ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ ﴾ إنْذارٌ لِمَنْ يُخالِفُ أَمْرَ اللهِ تَعالى بأَنَّ مَصيرَهُمْ إلَيْهِ ، وسَوْفَ يُلاقونَ جَزاءَ أَعْمالِهِم في الآخِرَةِ ، كَما يُلاقونَها في الدُّنْيا ، بِفَقْدِ مَنافِعِ الطّاعَةِ ، وتَجَرُّعِ مَرارَةِ عاقِبَةِ المُخالَفَةِ والعِصْيانِ ، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الّذينَ يَقِفونَ عِنْدَ حُدودِ دِينِ اللهِ تَعالى ويَتَّبِعونَ هَدْيَ اللهِ تَعالى في النِّساءِ والأَوْلادِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حُرْمَةُ زَواجِ المُشْرِكِ مِنَ المُؤْمِنَةِ ، أَو المُؤْمِنِ مِنَ المُشْرِكَةِ ، أَوْ المُؤْمِنَةِ مِنَ الكِتابِيِّ .

٢ـ دَعْوَةُ المُسْلِمينَ إلى التَّمَسُّكِ بِتَعاليمِ الدِّينِ ، والتَّنْفيرُ مِنَ الاقْتِرانِ بِغَيْرِ مَنْ يَكونُ على شاكِلَتِهِمْ .

٣ـ حَثَّ الإسْلامُ على الزَّواجِ ورَغَّبَ فيهِ ، وحَرَّمَ الرَّهبانِيَّةَ الّتي ابْتَدَعَها النَّصارى .

٤ـ إتْيانُ النِّساءِ وجِماعُهُنَّ وَقْتَ الحَيْضِ فيهِ أذىً للرَّجُلِ والمَرْأةِ على حَدٍّ سواءٍ .

٥ـ على المُسْلِمِ أنْ يُحْسِنَ اخْتيارَ زَوْجِهِ ، فَيَخْتارُ المَرْأةَ الوَلودَ الّتي تُعينُ على تَرْبِيَةِ الوَلَدِ بِحُسْنِ خُلُقِها ودينِها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَوْضوعُ الرَّئيسيُّ الّذي تَحَدَّثَتْ عنهُ الآياتُ الكَريمَةُ ؟

٢ـ ما حُكْمُ زواجِ المُشْرِكِ مِنَ المُؤْمِنَةِ أو العَكْسِ ؟

٣ـ ما حُكْمُ التّزاوُجِ بَيْنَ المُسْلِمينَ وأَهْلِ الكِتابِ ؟

٤ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ تَحْريمِ التَّزاوُجِ بَيْنَ المُؤْمنينَ والمُشْرِكينَ ؟

٥ـ بَيِّنِ الأُسُسَ الّتي يَنْبَغي أنْ يَقومَ عَلَيْها الزَّواجُ .

٦ـ لِمَ ابْتَدَأَتِ الآياتُ باللّامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلَأَمَةٌ﴾ ؟ وما هَذِهِ اللّامُ ؟

٧ـ إلامَ يَدْعو المُشْرِكونَ ؟ وإلامَ تَدْعو آياتُ اللهِ تَعالى ؟

٨ـ ما مَوْقِفُ اليَهودِ والنَّصارى مِنَ الحائِضِ ؟

٩ـ بَيِّنْ سَبَبَ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ .

١٠ـ ما المَقْصودُ بِسُؤالِهِمْ عَنِ المَحيضِ هُنا ؟

١١ـ بَيِّنْ مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿يَطْهُرْنَ﴾ و﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ .

١٢ـ بِمَ شَبَّهَ اللهُ تَعالى النِّساءَ ؟ بَيِّنْ بَلاغَةَ التَّشْبيهِ هُنا .

١٣ـ ما الّذي يُقَدِّمُهُ الإنْسانُ لِنَفْسِهِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ بَيِّنْ حِكْمَةَ إباحَةِ زَواجِ المَرْأَةِ الكِتابِيَّةِ ، وحُرْمَةَ زواجِ المرأةِ المُسْلِمَةِ مِنَ الكِتابِيِّ واكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَعْنى تَرِبَتْ يَداكَ .

الدَّرْسُ الثَّاني والعِشْرونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والسِّتون

وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ
ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

عُرْضَةً لأَيْمانِكُمْ : مانِعاً عَنِ الخَيْرِ لِحَلْفِكُمْ بِهِ عَلى تَرْكِهِ .

أيْمانِكُمْ : الأَيْمانُ : جَمْعُ يَمينٍ ، وهِيَ بِمَعْنى الحَلْفِ والقَسَمِ .

اللَّغْوِ : ما يَسْبِقُ إِلَيْهِ اللِّسانُ مِمّا لا يُقْصَدُ بِهِ اليَمينُ .

يُؤْلونَ : يَحْلِفونَ عَلى تَرْكِ جِماعِ نِسائِهِمْ .

تَرَبُّصُ : انْتِظارُ .

فاءوا : رَجَعوا في المُدَّةِ عَمّا حَلَفوا عَلَيْهِ .

التَّفْسيرُ :

لَقَدْ أَمَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ بِتَقْوى اللهِ تَعالى ، وَمِنْ تَقوى اللهِ تَعالى أَنْ لا يَجْعَلَ الإِنْسانُ اللهَ تَعالى عُرْضَةً لأَيْمانِهِ ، يَقولُ تَعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ .

أي لا تَجْعَلوا الحَلْفَ باللهِ تَعالى حاجِزاً ومانِعاً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَمَلِ الخَيْرِ ، وذَلِكَ بِأَنْ تَحْلِفوا باللهِ

تَعالى على تَرْكِ فِعْلِ الخَيْرِ ، فَتَتْرُكوا هَذا العَمَلَ تَعْظيماً لاسْمِ اللهِ تَعالى .

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَوْلُهُ : « مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ فَرَأى غَيْرَها خَيْراً مِنْها فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمينِهِ وَلِيَفْعَلِ الَّذي هُوَ خَيْرٌ »(١) .

إنَّ الإنْسانَ قَدْ يُسْرِعُ إلى لِسانِهِ الحَلْفُ ، أَنْ لا يَفْعَلَ أَمْراً وَيَكونُ فيهِ خَيْرٌ ، أَو أَنْ يَفْعَلَ أَمْراً وَيَكونُ فيهِ شَرٌّ ، فَنَهى اللهُ تَعالى عَنْ ذَلِكَ ، وأَمَرَ بِأَنْ يَتَحَرّى الإنْسانُ الخَيْرَ وإِنْ حَلَفَ على أَمْرٍ ، وَكانَ غَيْرُهُ خَيْراً مِنْهُ ، فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمينِهِ وَيَأْتِ الَّذي هُوَ خَيْرٌ .

والمقصودُ بـ﴿عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ كثرةُ الحَلْفِ باللهِ تعالىٰ .

﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أيْ : لا تَجْعَلوا أَيْمانَكُمْ مانِعاً مِنْ فِعْلِ البِرِّ والتَّقوى ، والإِصْلاحِ بَيْنَ النّاسِ ، وَمَنْ حَلَفَ على ذَلِكَ ـ كَما قُلْنا ـ فَلْيَأْتِ الَّذي هُوَ خَيْرٌ ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمينِهِ ، ويُمكِنُ أَنْ يَكونَ المَعْنى : لا تُكْثِروا مِنَ الحَلْفِ بِاللهِ تَعالى لأَجْلِ التَّقوى والإصْلاحِ ، فَإنَّ كَثيرَ الحَلْفِ لا يَكونُ أَهْلاً للتَّقوى والإصْلاحِ بَيْنَ النّاسِ ، إذْ لا يَكونُ مَوْثوقاً بِهِ .

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سَميعٌ لِما تَلَفَّظونَ بِهِ مِنْ أَيْمانٍ ، عَليمٌ بِنَواياكُمْ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُراقِبوا اللهَ في السِّرِّ والعَلَنِ ، وَتُراقِبوا حُدودَ اللهِ لِتَكونوا مِنَ المُفْلِحينَ .

هَذا اسْتِئْنافٌ بَيانِيٌّ فيهِ إِجابَةٌ عَنْ سُؤالٍ مُقَدَّرٍ في ذِهْنِ السّامِعِ ، فَقَدْ نَهَتِ الآيَةُ السّابِقَةُ عَنِ التَّسَرُّعِ في الحَلْفِ أَوِ اتِّخاذِ اليَمينِ حاجِزاً عَنْ عَمَلِ الخَيْرِ ، فَكَأَنَّ سُؤالاً خَطَرَ في ذِهْنِ القارِئِ ، فَما حُكْمُ اليَمينِ الَّذي يَجْري عَلى أَلْسِنَتِنا دُونَ قَصْدٍ مِنّا ؟ فَجاءَ الجَوابُ :

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ .

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وَيَمينُ اللَّغْوِ هِيَ الَّتي لا يَقْصِدُها الحالِفُ ، ولَكِنَّها تَجْري عَلى لِسانِهِ عادَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ .

رَوَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْها ـ قَوْلَها : « اللَّغْوُ في اليَمينِ هُوَ كَلامُ الرَّجُلِ في بَيْتِهِ ، كَلاَّ وَاللهِ ، وَبَلى وَاللهِ » . وفي رِوايَةٍ : « اللَّغْوُ في اليَمينِ هُوَ ما يَكونُ بَيْنَ القَوْمِ يَتَدارَءُونَ في الأَمْرِ ـ أَيْ يَتَناقَشونَ وَيَتَذاكَرونَ فيهِ ـ فَيَقولُ هَذا : لا وَاللهِ ، وَبَلى وَاللهِ ، وَكَلاَّ وَاللهِ ، لا تَعْقِدُ عَلَيْهِ قُلوبُهُمْ »(٢) .

يَمينُ اللَّغْوِ ـ إِذَنْ ـ لا يُؤاخِذُنا اللهُ عَلَيْهِ ، ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُؤاخِذُكُمْ عَلى ما تَعَمَّدَتْ قُلوبُكُمْ وقَصَدَتْهُ مِنَ اليَمينِ ، فَمَنْ حَنَثَ في يَمينِهِ فَعَلَيْهِ بِالْكَفّارَةِ في الدُّنْيا ، أَو

(١) أخرجه الإمام مسلم حديث رقم ١٦٥٠ .

(٢) أخرجه الطبراني في التفسير ٢/ ٤٠٥ طبعة دار الفكر ، بيروت ١٤٠٥هـ .

العُقوبةُ في الآخِرَةِ ؛ وَلِذا عَلَيْكُمْ أَنْ لا تَجْعَلوا اسْمَ اللهِ تَعالى عُرْضَةً لِلأَيْمانِ ، أَوْ مانِعاً مِنْ صالِحِ الأَعْمالِ .

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، يَغْفِرُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِعَبْدِهِ ما يَفْعَلُهُ مِنَ السَّيِّئاتِ ، وهُوَ سُبْحانَهُ لا يَتَعَجَّلُ بِالعُقوبَةِ على هَذا السُّوءِ ، الّذي يَضْعُفُ العَبْدُ عَنِ التَوَقِّي مِنْهُ ، ولِذَلِكَ فَهُوَ سُبْحانَهُ لَمْ يُكَلِّفِ البَشَرَ بِما لا يُطيقونَ وَما يَشُقُّ عَلَيْهِمْ ، فَما لَمْ تَقْصِدْهُ قُلوبُهُمْ يَغْفِرُهُ اللهُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَإِنْ فَعَلوا شَيْئاً يَقْصِدونَهُ ثُمَّ تابوا واسْتَغْفَروا غَفَرَهُ اللهُ لَهُمْ .

وبَعْدَ أَنْ تَحدَّثَتِ الآياتُ عَنِ الأَيْمانِ العامَّةِ ، أَتْبَعَها بِالحَديثِ عَنْ يَمينٍ خاصَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِالزَّوْجَيْنِ ، وهي ما يُسَمَّى بِالإيلاءِ ، قالَ تعالى :

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ .

والإيلاءُ هُوَ الحَلْفُ عَلى تَرْكِ مُعاشَرَةِ الزَّوْجَةِ ، وَقَدْ كانوا في الجاهِلِيَّةِ يَحْلِفونَ أَلاَّ يَقْرَبوا نِساءَهُمْ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ إِضْراراً بِهِنَّ .

وهَذا الحَلْفُ لا يُرْضي اللهَ تَعالى ، لِما فيهِ مِنْ تَرْكِ التَّوادِّ والتَّراحُمِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَلِما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ المَفاسِدِ في أَنْفُسِهِما وفي عِيالِهِما ، وَلِما فيهِ مِنَ امْتِهانٍ لِلمَرْأَةِ وَتَعَدٍّ عَلى حُقوقِها .

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى لِهَؤُلاءِ الَّذينَ يَحْلِفونَ عَلى تَرْكِ مُعاشَرَةِ أَزْواجِهِمْ مُدَّةً يُراجِعونَ فِيها أَنْفُسَهُمْ ، وَيَنْتَظِرونَ فِيها ما يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ أَمْرُهُمْ . وَهَذِهِ المُدَّةُ ـ كَما ذَكَرَتِ الآياتُ ـ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ رَجَعوا بَعْدَ ذَلِكَ عَمَّا حَلَفوا عَلَيْهِ ، وَرَأَوْا المَصْلَحَةَ في الرُّجوعِ ، وحَنَثوا في أَيْمانِهِمْ الَّتي حَلَفوها ، وَكَفَّروا عَنْ هَذه اليَمينِ ، وَتابوا إلى رَبِّهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى غَفورٌ رَحيمٌ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ غَفورٌ لِمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ ، رَحيمٌ بِعَبادِهِ فِيما يَأْمُرُهُمْ بِهِ وَيُكَلِّفُهُمْ ، وَبِهَذا تَبْقى الحَياةُ الزَّوْجِيَّةُ قائِمَةً بَيْنَهُما .

أَمَّا إِنْ صَمَّموا عَلى ما حَلَفوا عَلَيْهِ ، وعَزَموا عَلى أَنْ لا يَعودوا إِلى مُلامَسَةِ نِسائِهِمْ وَمُعاشَرَتِهِنَّ ، وَمَضَتِ المُدَّةُ الَّتي حَدَّدَها لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، فَإِنَّ اللهَ سَميعٌ لإِيلائِهِمْ وَطَلاقِهِمْ ، عَليمٌ بِنِيّاتِهِمْ ، فَلْيُراقِبوهُ فِيما يَفْعَلونَهُ ، فَإِنْ كانوا يُريدونَ إيذاءَ النِّساءِ وَمُضارَّتَهُنَّ ـ كَما كانَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَفْعَلونَ ـ فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى يَتَوَلّى عِقابَهُمْ ، وَإِنْ كانَ لَهُمْ عُذْرٌ شَرْعِيٌّ لِهذا الإِيلاءِ ، بِأَنْ يُريدوا مَثَلاً تَرْبِيَةَ الْمَرْأَةِ لِتُقيمَ حُدودَ اللهِ ، فاللهُ يَغْفِرُ لِهُمْ .

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ ﴾ شَرْطٌ جَوابُهُ مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ إِنْ عَزَموا الطَّلاقَ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْهِمْ مَا عَزَموا عَلَيْهِ ، وَبِذَلِكَ تُصْبِحُ المَرْأَةُ مُطَلَّقَةً وتُحَلُّ عُقْدَةُ الزَّوْجِيَّةِ بَيْنَهُما .

وَهَذِهِ المُدَّةُ الَّتي جَعَلَها اللهُ تَعالى كافِيَةً ، لِكَيْ يَخْتَبِرَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ ومُيولَهُ ، فَإِمّا أَنْ يَعودَ إِلى مُعاشَرَةِ زَوْجِهِ بِالطَّريقَةِ الَّتي شَرَعَها اللهُ ، وَإِمّا أَنْ يُطَلِّقَها ، لِيَبْدَأَ كِلاهُما حَياةً زَوْجِيَّةً جَديدةً مَعَ شَخْصٍ آخَرَ ، وَذَلِكَ أَكْرَمُ لِلْمَرْأَةِ وَأَعَفُّ لَها ، وَأَنْفَعُ لِلرَّجُلِ كَذَلِكَ ، وَإِذا انْتَهَتْ هَذِهِ المُدَّةُ يَأْمُرُ القاضي الرَّجُلَ بِطلاقِ زَوْجِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلى الإِنْسانِ أَنْ لا يَحْلِفَ عَلى تَرْكِ فِعْلِ خَيْرٍ ، أَوْ عَلى فِعْلِ مَعْصِيَةٍ ، وَإِنْ فَعَلَ فَعَلَيْهِ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ يَمينِهِ وَيَأْتِيَ الَّذي هُوَ خَيْرٌ .

٢ـ عَلى المُسْلِمِ أَنْ لا يُكْثِرَ الحَلْفَ بِاللهِ تَعالى عَلى كُلِّ أَمْرٍ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الحَلْفِ تَجْعَلُ الإِنْسانَ مُهاناً كَثيرَ الكَذِبِ .

٣ـ عَلى المُسْلِمِ أَنْ يُعاشِرَ زَوْجَهُ بِالمَعروفِ ، فَلا يَتْرُكُها لا هِيَ زَوْجَةٌ ولا هِيَ مُطَلَّقَةٌ ، ولْيَتَّقِ اللهَ تَعالى فيها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ معانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

الأَيْمانُ ، اللَّغْوُ ، يُؤْلونَ ، تَرَبُّصُ ، فاءوا .

٢ـ ما المَعْنى المرادُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ﴾ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ ؟

٤ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ؟

٥ـ ما حُكْمُ يَمينِ اللَّغْوِ ؟

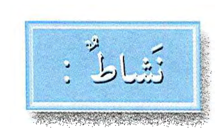
٦ـ مَتى يُؤاخِذُ اللهُ تَعالى الإِنْسانَ على يَمينِهِ ؟

٧ـ كَيْفَ يَكونُ الإيلاءُ ؟ وما هُوَ حُكْمُهُ ؟

٨ـ ما حُكْمُ مَنْ أَرادَ مُعاشَرَةَ زَوْجِهِ بَعْدَ أَنْ حَلَفَ عَلى عدمِ مُعاشَرَتِها خِلالَ مُدَّةِ الأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ؟

٩ـ ما الَّذي يَتَرَتَّبُ عَلى مَنِ امْتَنَعَ عَنْ مُعاشَرَةِ زَوْجِهِ وَمَضَتْ تِلْكَ المُدَّةُ الَّتي حَدَّدَها القُرْآنُ ؟

١٠ـ أَيْنَ جَوابُ الشَّرْطِ في قولِهِ تَعالى : ﴿وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلَاقَ﴾ ؟



١ـ في حادِثَةِ الإِفْكِ في سورَةِ النُّورِ المُتَّعلِّقَةِ بالسَّيدَةِ عائِشَةَ ، أَقْسَمَ أَبو بَكرٍ الصِّدّيقُ أَنْ لا يُنْفِقَ على مِسْطَحٍ ، هاتِ الآيَةَ الّتي تَحَدَّثَتْ عَنْ هَذِهِ القِصَّةِ وأُكتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما نَوْعُ الطَّلاقِ الَّذي يَكونُ بَعْدَ الإيلاءِ ، هَل هُوَ طلاقٌ رَجْعِيٌّ أَمْ ماذا ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ والعِشْرونَ

سورَةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ التّاسِعُ والسّتونَ

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن
كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ
بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ
بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ
خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ
حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَتَرَبَّصْنَ	:	يَنْتَظِرْنَ .
قُروءٍ	:	القُرْءُ مِنَ الأَضْدادِ ، فَهُوَ يَعْني الطُّهْرَ أَوِ الحَيْضَ .
بُعولَتُهُنَّ	:	أَزْواجُهُنَّ
دَرَجَةٌ	:	مَنْزِلَةٌ وَفَضيلَةٌ بِسَبَبِ الرِّعايَةِ وَالإِنْفاقِ .
الطَّلاقُ مَرَّتانِ	:	الطَّلاقُ الذي تَصِحُّ فيهِ المُراجَعَةُ ما دامَتِ المَرْأَةُ في عِدَّتِها لا يَزيدُ عَلى مَرَّتَيْنِ .
فَإِمْساكٌ	:	أَيْ مُراجَعَةُ الزَّوْجَةِ .
تَسْريحٌ	:	التَّسْريحُ : تَرْكُها دونَ مُراجَعَةٍ حَتّى تَنْتَهي عِدَّتُها لِتُصْبِحَ بائِناً .
بِإِحْسانٍ	:	مَعَ أَداءِ الحُقوقِ وَعَدَمِ مُضارَّةِ المَرْأَةِ .



التَّفسيرُ :

تَتَحدَّثُ الآياتُ هُنا عَنْ حُكمٍ شَرْعِيٍّ مُهِمّ مِنْ أَحْكامِ الأُسْرَةِ في الإِسْلام ، وَهُوَ ما يَتَعلَّقُ بالطَّلاقِ ، وَقَدْ كانَ مَوْقِفُ النّاسِ مِنَ الطَّلاقِ قَبْلَ الإِسْلام مُتَناقِضاً ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُبيحُهُ وَيَفْتَحُ الباب عَلى مِصْراعَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكونَ لَهُ قواعِدُ وَضوابِطُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَشَدَّدَ فيهِ وجَعَلَهُ أَمْراً مَمْنوعاً مُحَرَّماً مَهْما كانَ في ذَلِكَ مِنْ شَقاءٍ وَضَنَكٍ وَضيقٍ يَعيشُهُ الزَّوْجانِ وذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ العُضالِ ، والنَّتائِجِ السَّيِئَةِ وَالخُروجِ مِنْ حِصْنِ الفَضيلَةِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ السَّلْبيّاتِ ما لا يُحصى .

ولَكِنَّ الإِسْلامَ جاءَ وَضَبَطَ هَذا الأَمْرَ ، وَوَضَعَ لَهُ بَعْضَ القواعِدِ التَّشْريعيَّةِ ، فَجَعَلَ الطَّلاقَ بِلا سَبَبٍ صَحيحٍ مَكْروهاً ، لِما فيهِ مِنْ قَطْعِ العَلاقَةِ الزَّوْجيَّةِ الّتي هِيَ مِنَ النِّعَمِ العَظيمَةِ ، ولِما فيهِ مِنْ ضَياعِ الأَوْلادِ ، أَمّا إذا كانَ هُناكَ تباغُضٌ وتقاطُعٌ بَيْنَ الزَّوْجينِ ، ولَمْ يُمْكِنِ الإِصْلاحُ بَيْنَهُما ، وَغَلَبَ عَلى الظَّنِ عَدَمُ إقامَةِ حُدودِ اللهِ ، فَالدَّواءُ هُوَ الطَّلاقُ ، يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ .

يَأْمُرُ سُبْحانَهُ المَرْأَةَ الّتي طَلَّقَها زَوْجُها ، شَرْطَ أَنْ تَكونَ ما زالَتْ تَحيضُ ، أيْ لَيْسَتْ صَغيرةَ السِّنِّ لَمْ تَحِضْ بَعْدُ ، وَلَيْسَتْ كَبيرةً في السِّنِّ بِحَيْثُ وَصَلَتْ سِنَّ اليَأْسِ ، ولَيْسَتْ مِنْ ذَواتِ الحَمْلِ ، يَأْمُرُها سُبْحانَهُ أيْ تَنْتَظِرَ في بَيْتِ زَوْجِها ثَلاثَةَ قُروءٍ .

وقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ لَفْظاً ، إنْشائِيّةٌ مَعْنىً ، والمَعْنى ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ بِصيغَةِ الأَمْرِ ، وقَدْ جاءَتِ الجُمْلَةُ كَذَلِكَ تَأْكيداً لِلأَمْرِ وَإِشْعاراً بِأَنَّهُ مِمّا يَجِبُ أن يُتَلَقّى بِالمُسارَعَةِ إِلى امْتِثالِهِ ، فَكَأَنَّ النِساءَ امْتَثَلْنَ الأَمْرَ بِالتَّرَبُّصِ . وَفي الجُمْلَةِ كَذَلِكَ إِبْداعٌ عَظيمٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ المَرْأَةَ بَعْدَ أَنْ يُطَلِّقَها زَوْجُها ، تَكونُ في حاجَةٍ لأَنْ تُثْبِتَ لِلنّاسِ بِأَنَّ طَلاقَها لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِها ، وَلِذَلِكَ هِيَ تَوَدُّ أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنْ آخَرَ . وتُنْشِىءَ حَياةً زَوْجيَّةً أُخْرى لإِثْباتِ ذلِكَ ، فَيَقولُ لَها سُبْحانَهُ وَتَعالى : إِنَّ تَطَلُّعَكِ لإنْشاءِ حياةٍ زَوْجِيَّةٍ أُخْرى لَيْسَ عَيْباً ، وَلَكِنَّ الكَرامَةَ تُوجِبُ عَلَيْكِ أَنْ تَنْتَظِري وتَتَرَيَّثي : فلا يَليقُ بِالمَرْأَةِ أَنْ تَنْتَقِلَ تَنَقُّلاً سَريعاً بَيْنَ الأَزْواجِ ، ثُمَّ إِنَّ الفِطْرَةَ تُوجِبُ عَلَيْها الانْتِظارَ مُدَّةَ ثلاثَةِ قُروءٍ لاسْتِبْراءِ رَحِمِها ، ولِتَتَأَكَّدَ أَنَّها لَيْسَتْ حامِلاً ، وهَذِهِ المُدَّةُ فُرْصَةٌ لِلْمُراجَعَةِ ، وَإِعادَةِ الزَّوْجَةِ إِلى حَظيرَةِ الزَّوْجيَّةِ .

وَالقُروءُ يَرى بَعْضُ الفُقَهاءِ أَنَّ المَقْصودَ بِهِ الحَيْضاتُ ، أَيْ : تَنْتَظِرُ المُطَلَّقَةُ في بَيْتِ زَوْجِها

ثَلاثَ حَيْضاتٍ ، وَيَرى بَعْضُهُمْ أَنَّ المَقْصودَ بِهِ الإطْهارُ ، والطُّهْرُ يَكونُ ما بَيْنَ الحَيْضَتَيْنِ ، فَتَنْتَظِرُ المَرْأَةُ ثَلاثَةَ أَطْهارٍ ، وهِيَ عِدَّتُها ، وكِلا المعْنَيينِ صَحيحٌ ، لأَنَّ المقصودَ مِنَ المُدَّةِ بَراءةُ رَحِمِ المرأةِ مِنْ زَوْجِها ، وهذا الأمرُ يَحْصُلُ بثلاثِ حَيْضاتٍ ، ويَحْصُلُ كذلكَ بثلاثةِ أطهارٍ .

﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ أَيْ : لا يَحِلُّ لِهَذِهِ الْمَرْأَةِ المُطَلَّقَةِ ، إذا ثَبَتَ أَنَّها حامِلٌ أَنْ تَكْتُمَ هَذا الأَمْرَ ، حَتّى يُنْسَبُ الوَلَدُ إِلى أَبيهِ ، كَما لا يَحِلُّ لَها أَنْ تَكْتُمَ وَقْتَ حَيْضِها أَوْ طُهْرِها ، إذ إِنَّ بَعْضَ النِّساءِ تُطيلُ وَقْتَ العِدَّةِ ، حَتّى يَسْتَمِرَّ الزَّوْجُ بالإنْفاقِ عَلَيْهِنَّ ، وَهَذا الكِتْمانُ كَذِبٌ عَلى اللهِ تَعالى ، وَخِيانَةٌ للأَمانَةِ الّتي أَوْدَعَها اللهُ تَعالى لِلْمَرْأَةِ ، وَقَدْ ذَكَّرَ اللهُ تَعالى الْمَرْأَةَ بِصِفَةٍ لا يُمْكِنُ أَنْ تَكْتُمَ بِسَبَبِها ما في رَحِمِها ، فَقالَ تَعالى : ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ وفي ذَلِكَ حَثٌّ لِلنِّساءِ أَنْ لا يَكْتُمْنَ ، فَمَنْ كانَ عِنْدَها إيمانٌ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، لا يُمْكِنُ أَنْ تَكْتُمَ وتَخونَ الأَمانَةَ .

وَقَدْ قَرَّرَ الفقهاءُ أَنَّ القَوْلَ فِيما يَتَعَلَّقُ بِعِدَّةِ المَرْأَةِ مِنْ حَيْثُ ابْتِداؤُها وَانْتِهاؤُها مَرْجِعُهُ إلى المَرْأَةِ وَحْدَها ، لأَنَّ هَذا الأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِها ، وَلا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُها ، وَلكِنْ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكونَ قَوْلُها مُطابِقاً لِلواقِعِ ، فَمَنِ ادَّعَتْ أَنَّ عِدَّتَها انْتَهَتْ بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ طَلاقِها ، لا يُقْبَلُ قَوْلُها .

﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ أَيْ : أَزْواجُ هَؤُلاءِ المُطَلَّقاتِ أَحَقُّ بِمُراجَعَتِهِنَّ في وَقْتِ تَرَبُّصِها وَعِدَّتِها ، وَذَلِكَ قَبْلَ انْقِضاءِ العِدَّةِ ، شَرْطَ أَنْ تَكونَ غايَتُهُمْ مِنَ المُراجَعَةِ الإِصْلاحُ ، وَلَيْسَ الإِضْرارُ بِالْمَرْأَةِ ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى هَذِهِ المُدَّةَ ، ثَلاثَةَ قُروءٍ ، لإِعْطاءِ فُرْصَةٍ لِلرَّجُلِ حَتّى يُراجِعَ نَفْسَهُ ، ويَتَدَّبَرَ أَمْرَهُ ، لَعَلَّهُ يُدْرِكُ أَنَّ الخَيْرَ لَهُ إِنَّما هُوَ في بَقاءِ زَوْجَتِهِ مَعَهُ ، فَيُراجِعُها رِعايَةً لِرابِطَةِ المَوَدَّةِ والرَّحْمَةِ الَّتي جَعَلَها اللهُ بَيْنَهُما . وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : لِلْنِّساءِ عَلى الرِّجالِ مِثْلُ ما لِلرِّجالِ عَلى النِّساءِ ، وَلِذا عَلى كُلِّ واحِدٍ أَنْ يُؤَدِّيَ حُقوقَ الآخَرِ بِالمَعْروفِ ؛ إذ إِنَّ الحُقوقَ وَالواجِباتِ مُتَبادَلَةٌ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وهُما مُتماثِلانِ في أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما عَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّيَ حَقَّ صاحِبِهِ بِالمَعروفِ . وَالمَعْروفُ ما عَرَفَتْهُ الطِّباعُ السَّليمَةُ ، ولَمْ تُنْكِرْهُ وَوافَقَ عَلَيْهِ الشَّرْعُ .

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحاديثُ كَثيرَةٌ تَدُلُّ عَلى حُقوقِ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ عَلى الآخَرِ ، فَمِنْ ذَلِكَ ما وَرَدَ عَنِ الرَّسولِ ﷺ في خُطْبَةِ حِجَّةِ الوَداعِ : « اتَّقوا اللهَ في النِّساءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُموهُنَّ بِأَمانَةِ اللهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُروجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرِحٍ ، ولَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْروفِ »[1] .

المِثْلِيَّةُ ـ إِذَنْ ـ لا تَعْني المُساواةُ مِنْ كُلِّ الوجوهِ في جِنْسِ الفِعْلِ ، فَإِذا غَسَلَتِ المَرْأَةُ ثِيابَهُ يَجِبُ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم ١٢١٨ .

عَلَيْهِ أَنْ يَغْسِلَ ثِيابَها ، ولَكِنَّ المِثْلِيَّةَ ما يَكونُ مِنْ حُقوقٍ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما على الآخَرِ .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ هَذِهِ المِثْلِيَّةَ لا تَعْني المُساواةَ مِنْ كُلِّ الوجوهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أَيْ لِلرِّجالِ مِزْيَةٌ وَزِيادَةٌ في الحَقِّ ، وذَلِكَ بِسَبَبِ حِمايَتِهِمْ لِنِسائِهِمْ وقِيامِهِمْ بِشُئونِهِنَّ ، وَنَفَقَتِهِنَّ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الواجِباتِ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ اللهُ سُبْحانَهُ لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَنْتَقِمُ مِمَّنْ يَعْصيهِ ، وهُوَ سُبْحانَهُ حَكيمٌ في ما يُشَرِّعُهُ ويُكَلِّفُ بِهِ عِبادَهُ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ ما ذَكَرَتْهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ أَحَقُّ بِمُراجَعَةِ زَوْجَتِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ .

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ﴾ إنَّ مِنْ حِكْمَةِ التَّشْريعِ أَنْ يَكونَ الطَّلاقُ مُفَرَّقاً ، وَأَنْ لا يَقَعَ دَفْعَةً واحِدَةً . إنَّ هاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ لا تَقَعانِ مَرَّةً واحِدَةً ، بَلْ تَكونُ التَّطْليقَةُ الأُولى أَوَّلاً ، وَهِيَ طَلْقَةٌ رَجْعِيَّةٌ يَجوزُ لِلزَّوْجِ أَنْ يُراجِعَ زَوْجَهُ في أَثْناءِ العِدَّةِ ، الَّتي هِيَ ثَلاثَةُ قُروءٍ ، فَإِنْ راجَعَها وَلَكِنَّهُما لَمْ يَسْتَطيعا المَسيرَةَ الهَنيئَةَ الهادِئَةَ ، وَطَلَّقَها مَرَّةً ثانِيَةً ، فَإِنَّهُ يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يُراجِعَها بَعْدَ هَذِهِ التَّطْليقَةِ كَذَلِكَ في أَثْناءِ العِدَّةِ ، فَهِيَ طَلْقَةٌ رَجْعِيَّةٌ كَذَلِكَ .

وَمَعْنى : ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أَيْ : أَنْ يُراجِعَها على نِيَّةِ الإبْقاءِ على العَلاقَةِ الزَّوْجِيَّةِ وَ المُعامَلَةِ الحَسَنَةِ ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ﴾ أَنْ يَتْرُكَها حَتَّى تَنْتَهِيَ عِدَّتُها وتَبينَ ، فَيُطْلِقُ سَراحَها دونَ ظُلْمٍ أَوْ إساءَةٍ إِلَيْها ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ ﴾ .

يُخاطِبُ سُبْحانَهُ وتَعالى الأَزْواجَ الَّذينَ طَلَّقوا زَوْجاتِهِمْ ، وَيَقولُ لَهُمْ : لا يَجوزُ لَكُمْ أَيُّها الأَزْواجُ أَنْ تَأْخُذوا مِنْ زَوْجاتِكُمْ في مُقابِلِ الطَّلاقِ شَيْئاً مِمَّا أَعْطَيْتُموهُنَّ ، سَواءٌ أَكانَ مَهْرَهُنَّ أَمْ بَعْضَ العَطِيّاتِ وَالهَدايا الَّتي جَلَبْتُموها لَهُنَّ ، لأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مِنْ بابِ الظُّلْمِ الَّذي نَهى اللهُ تَعالى عَنْهُ ، وَ اسْتَثْنى سُبْحانَهُ مِنْ ذَلِكَ صُورَةً يَجوزُ فِيها الأَخْذُ ، وَهِيَ : ﴿ إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ ﴾ أَيْ : لا يَجوزُ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذوا مِنْ أَمْوالِهِنَّ في أَيِّ حالَةٍ إلاّ في حالَةِ أَنْ يَخافَ الزَّوْجانِ أَلاَّ يُقيما حُدودَ اللهِ تَعالى . وَحُدودُ اللهِ هِيَ ما أَوْجَبَهُ اللهُ تَعالى عَلى كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ تُجاهَ الآخَرِ .

وخاطَبَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ أُولي الأَمْرِ : القاضي أَوْ الحاكِمَ أَوِ الحَكَمَ الَّذي يُصْلِحُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ إنْ خِفْتُمْ أَيُّها الحُكّامُ أَوِ القُضاةُ أَلاَّ يُقيمَ الزَّوْجانِ حُدودَ اللهِ تعالى الَّتي حَدَّها لَهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِاتِّباعِها في حَياتِهِمُ الزَّوْجِيَّةِ ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا

ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ أَيْ : لا إِثْمَ عَلى الرَّجُلِ في أَخْذِ ما تُعْطيهِ لَهُ زَوْجَتُهُ مِنْ مالٍ مُقابِلَ انْفِصالِها عَنْهُ ، وَلا إثم عَلَيْها هِيَ كَذَلِكَ في هذا الإعْطاءِ ، ما داما قَدْ وَصَلا إلى هَذِهِ الحالَةِ الَّتي تُفَضِّلُ فيها المَرْأَةُ التَّخَلِّي عَنْ مالِها في مُقابِلِ حُرِّيتِها والتَّخَلُّصِ مِنْ هذا الزَّوْجِ .

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ، أَنَّ امْرَأَةَ ثابتِ بنْ قَيْسٍ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقالَتْ : « يا رَسُولَ اللهِ : زَوْجي ثابتُ بنُ قَيْسٍ ، ما أَعْتِبُ عَلَيْهِ في خُلُقٍ وَلا دينٍ ، وَلَكِنْ أَكْرَهُ الكُفْرَ في الإسْلامِ - أَيْ أَكْرَهُ عَدَمَ الوَفاءِ بِحَقِّهِ لِبُغْضي لَهُ - فقالَ لَها رسولُ اللهِ ﷺ : أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَديقَتَهُ ؟ - هِيَ ما قَدَّمَهُ لَها مِنْ مَهْرٍ - قالَتْ : نَعَمْ ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِثابِتٍ : اقْبَلْ حَديقَتَكَ ، وَطَلِّقْها تطليقة »[1] . وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أَيْ : تِلْكَ الأَوامِرُ وَالنَّواهي المُتَقَدِّمَةُ هِيَ حُدودُ اللهِ الَّتي حَدَّها في المُعامَلاتِ الزَّوْجِيَّةِ ، فَلا تَتَجاوَزوا أَيُّها الأَزْواجُ ما أَحَلَّهُ اللهُ لَكُمْ إلى ما حَرَّمَهُ عَلَيْكُمْ ، وذَلِكَ أَنَّ مَنْ يَتَعَدَّى حُدودَ اللهِ تَعالى فَهُوَ مِنَ الظَّالِمينَ ، والظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَفِعْلُ ما لا يَنْبَغي فِعْلُهُ ، وَالظُّلْمُ مَخَرِّبٌ ، مُفْنٍ لِكَثيرٍ مِنَ الأُمَمِ ، وَمِنْ ذَلِكَ ظُلْمُ الأَزْواجِ لِلأَزْواجِ .

الطَّلاقُ بَعْدَ المَرَّتَيْنِ :

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنِ الطَّلاقِ الَّذي يَكونُ بَعْدَ المَرَّتَيْنِ ، وهِيَ التَّطْليقَةُ الثَّالِثَةُ ، فَإِذا طَلَّقَها الزَّوْجُ طَلْقَةً ثالِثَةً ، فَإِنَّها حِينَئِذٍ تُحَرَّمُ عَلَيْهِ ، ولا يَمْلِكُ مُراجَعَتَها إلاّ بَعْدَ أَنْ تَتَزَوَّجَ زَوْجاً غَيْرَهُ زَواجاً صَحيحاً ، بِمَعْنى أَنْ لا يَتَزَوَّجَها الزَّوْجُ الثَّاني لِمُدَّةٍ مُؤَقَّتَةٍ بِقَصْدِ تَحْليلِها لِزَوْجِها الأَوَّلِ ، فَهَذِهِ مَعْصِيَةٌ . فَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « أَلا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ المُسْتَعارِ ؟ قالوا بَلى يا رَسولَ اللهِ ، قالَ : هُوَ المُحَلِّلُ ، لَعَنَ اللهُ المُحَلِّلَ والمُحَلَّلَ لَهُ » .

فَمَنْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ الطَّلْقَةَ الثَّالِثَةَ لا يَمْلِكُ مُراجَعَتَها حَتّى تُزَوَّجَ مِنْ آخَرَ زَواجاً صَحيحاً ، ويُعاشِرَها مُعاشَرَةَ الزَّوْجِ لِزَوْجَتِهِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ إِنْ طَلَّقَها هَذا الزَّوْجُ الثَّاني دُونَ اتِّفاقٍ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، فَلا إِثْمَ عَلَيْها وَلا عَلى زَوْجِها الأَوَّلِ في أَنْ يَرْجِعَ كُلٌّ مِنْهُما إلى صاحِبِهِ ، بَعْدَ انْقِضاءِ عِدَّتِها مِنْ طَلاقِها الثَّاني ، إذا غَلَبَ عَلى ظَنِّهِما أَنَّهُما سَيُقيمانِ حُدودَ اللهِ تَعالى ، وَيُؤَدِّي كُلٌّ مِنْهُما ما يَجِبُ عَلَيْهِ نَحْوَ الآخَرِ ، وَتَكونُ المُراجَعَةُ بِعَقْدٍ ومَهْرٍ جديدَيْنِ .

وَقَدْ قَالَ تَعالى : ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : (إنْ عَلِما) ، وذَلِكَ أَنَّ العِلْمَ اليَقينِيَّ في

---

(١) أخرجه البخاري في باب الخلع وكيفية الطلاق ، حديث رقم ٤٩٧١ .

ذَلِكَ أَمْرٌ غَيْبِيٌّ لا يَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ تَعالى ، وَلِذَلِكَ رَحْمَةً بِالزَّوجَيْنِ اكْتَفى سُبْحانَهُ وتَعالى بِأَنْ يَغْلِبَ عَلى ظَنِّهِما أَنَّهُما الآنَ سَيُؤَدِّيانِ حُقوقَ بَعْضِهِما بَعْضاً .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تِلْكَ الأَحْكامُ المَذْكورَةُ الَّتي بَيَّنَها سُبْحانَهُ وتَعالى في كِتابِهِ لأَهْلِ العِلْمِ الَّذينَ يَعرِفونَ فائِدَةَ هَذِهِ الأَحْكام ، ويَعْرِفونَ ما فيها مِنْ مَصْلَحَةٍ ، لِيَعْملوا بِها عَلى الوَجْهِ الَّذي تَتَحَقَّقُ بِهِ المَنْفَعَةُ والفائِدَةُ وَلَيْسَ لِمَنْ يَجْهَلونَ ذلِكَ فَلا يَجْعَلونَ لِحُسْنِ النِّيَّةِ وإِخْلاصِ القَلْبِ مَدْخَلاً في العَمَلِ ، فَيُرْجِعُ أَحَدُهُمُ المَرْأَةَ ، وَهُوَ يُضْمِرُ لَها السُّوءَ ، ويُريدُ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْها .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الطَّلاقُ تَشْريعٌ رَبّانِيٌّ ، ولكنْ لا يُلْجَأُ إِلَيهِ إِلاَّ إذا تَعَسَّرَتِ الحَياةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ .

٢ـ جَعَلَ اللهُ تَعالى القِوامَةَ بِيَدِ الرَّجُلِ ، لِما عَلَيْهِ مِنْ واجِباتٍ وَنَفَقاتٍ نَحْوَ المَرْأَةِ .

٣ـ جَعَلَ اللهُ تَعالى الطَّلاقَ مُفَرَّقاً ، وهُوَ مَرَّتانِ ، يَمْلِكُ الزَّوْجُ مُراجَعَةَ زَوْجَتِهِ بَعْدَ كُلٍّ مِنْ هاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ .

٤ـ عَلى كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ إِقامَةُ حُدودِ اللهِ تَعالى ، وتَقوى اللهِ تَعالى في تَعامُلِ كُلٍّ مِنْهُما مَعَ الآخَرِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَوْقِفَ النَّاسِ قَبْلَ الإِسْلامِ مِنَ الطَّلاقِ .

٢ـ هَلْ وَافَقَ الإِسْلامُ السَّابِقينَ عَلَى مَوْقِفِهِمْ مِنَ الطَّلاقِ ؟ بَيِّنْ ذَلِكَ .

٣ـ أ ـ مَنِ المُطَلَّقاتُ ؟

ب ـ ما مَعْنى يَتَرَبَّصْنَ ؟

ج ـ وَعلامَ تَدُلُّ هَذِهِ الجُمْلَةُ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِالقُرْءِ ؟

٥ـ قال تعالىٰ : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ ما الأَمْرُ الَّذي لا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ كِتْمانُهُ؟

٦ـ مَنِ الَّذي يُقَرِّرُ ابْتِداءَ عِدَّةِ المَرْأَةِ وانْتِهاءَها في نَظَرِ الفُقَهاءِ ؟

٧ـ لِمَ قَيَّدَ سُبْحانَهُ وتَعالى إِرْجاعَ الرَّجُلِ لِزَوْجَتِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلاَحاً﴾ ؟

٨ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِ اللهِ ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ؟ وَكَيْفَ تَتَحَقَّقُ تِلْكَ المِثْلِيَّةُ ؟

٩ـ كَيْفَ جَعَلَ الإِسْلامُ الطَّلاقَ ؟ وَما الَّذي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ ؟

١٠ـ مَتى يَحِلُّ لِمَنْ طَلَّقَ الطَّلْقَةَ الثَّالِثَةَ أَنْ يُراجِعَ زَوْجَهُ المُطَلَّقَةَ ؟

١١ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنْ أَعْطى المَرْأَةَ الحَقَّ بِطَلَبِ الطَّلاقِ . مَتى يَكونُ ذَلِكَ ؟ وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ ؟

١٢ـ ماذا يُسَمَّى الطَّلاقُ الواقِعُ مُقابِلَ مالٍ تَدْفَعُهُ المَرْأَةُ ؟

١٣ـ لِمَ وَصَفَتِ الآياتُ المُتَعَدِّينَ عَلى حُدودِ اللهِ بِالظُّلْمِ ؟ وما العَلاقَةُ بَيْنَهُما ؟

١٤ـ مَنِ التَّيْسُ المُسْتَعارُ ؟

١٥ـ كَيْفَ تَتِمُّ مُراجَعَةُ الزَّوْجَةِ المُطَلَّقَةِ في كُلٍّ مِنَ الحالاتِ التَّالِيَةِ :

أـ بَعْدَ الطلْقَةِ الأُولى وَ المَرْأَةُ في عِدَّتِها .

ب ـ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ انْتِهاءِ العِدَّةِ .

ج ـ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الثَّانِيَةِ وَالمَرْأَةُ في عِدَّتِها .

د ـ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الأُولى بَعْدَ انْتِهاءِ العِدَّةِ .

هـ ـ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الثَّالِثَةِ .

نَشاطٌ :

١ـ يُسَمَّى الطَّلاقُ رَجْعِيّاً ، اُكْتُبْ في دَفْتَرِكَ سَبَبَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ .

٢ـ هاتِ حَديثَيْنِ عَنِ الرَّسولِ ﷺ فيهِما حُقوقُ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ عَلى الآخَرِ ، وَاُكْتُبْهُما في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اسْتَنْتِجِ الحِكْمَةَ مِنْ جَعْلِ اللهِ القِوامَةَ بِيَدِ الرَّجُلِ ، وَلَيْسَ بِيَدِ المَرْأَةِ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ ارْجِعْ إِلى أَحَدِ كُتُبِ الفِقْهِ ، وَ اسْتَخْرِجْ رَأْيَ الفُقَهاءِ ، فِيمَنْ يُطَلِّقُ زَوْجَهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً ثَلاثَ طَلْقاتٍ ، فَيَقولُ لَها : أَنْتِ طالِقٌ ثَلاثاً ، وَاكْتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ والعِشْرونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السَّبْعونَ

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

طَلَّقْتُمُ النِّساءَ : الطَّلاقُ الرَّجْعِيُّ .

هُزُواً : سُخْرِيَةً بِالتَّهاوُنِ في المُحافَظَةِ عَلى آياتِ اللهِ .

تَعْضلوهُنَّ : تُضَيِّقوا عَلَيْهِنَّ وتَمْنَعونَهُنَّ .

التَّفْسيرُ :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾ .

ما زالَتِ الآياتُ الكَريمَةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ أَحْكامِ الطَّلاقِ ، فَهَذِهِ الآياتُ تُبَيِّنُ لِلأَزْواجِ أَنَّهُمْ إذا طَلَّقوا نِساءَهُمْ طَلاقاً رَجْعِيّاً ، وَقارَبْنَ عَلى انْتِهاءِ العِدَّةِ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعْزِموا عَلى أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمّا أَنْ

تُمسكوا زَوْجاتِكُمْ ، بِمَعْنى : تُرْجِعوهُنَّ بِما هُوَ مَعْروفٌ في شَرْعِ اللهِ تَعالى ، وَبِما تُقِرُّهُ الأَخْلاقُ الحَسَنَةُ والعُقولُ السَّليمَةُ ، وَإِمَّا أَنْ تُسَرِّحوهُنَّ إذا لَمْ تَكُنْ لَكُمْ رَغْبَةٌ فيهِنَّ ، بِأَنْ تُؤَدّوا حُقوقَهُنَّ ، وَلا تَذْكروهُنَّ بِسوءٍ ، فَالعاقِلُ الَّذي لا يَذْكُرُ ما يَكونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ .

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ أَيْ : لا تُراجِعوا زَوْجاتِكُمْ مُريدينَ بِذَلِكَ مُضارَّتَهُنَّ وَإيذاءَهُنَّ لِتَعْتَدوا عَلَيْهِنَّ ، وَفي الآيَةِ زَجْرٌ لِمَنْ يُطَلِّقُ زَوْجَهُ ، حَتَّى إِذا قارَبَتْ عِدَّتُها عَلى الانْتِهاءِ وَلَمْ يَبْقَ لَها إِلاَّ أَيّامٌ ، أَرْجَعَ زَوْجَتَهُ ، وَهُوَ لا يَقْصِدُ الإِبْقاءَ عَلى الحَياةِ الزَّوْجِيَّةِ ، بَلْ يَقْصِدُ الإِضْرارَ بِها وَالتَّضْييقَ عَلَيْها حَتّى تَفْدِيَ نَفْسَها بِدَفْعِ شَيْءٍ مِنَ المالِ .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ وَهَذا وَعيدٌ شَديدٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِمَنْ يَفْعَلُ ما نَهى عَنْهُ ، مِنْ إِمْساكِ الزَّوْجَةِ بِقَصْدِ إِيقاعِ الضَّرَرِ بِها ، فَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ظَلَمَ نَفْسَهُ في الدُّنْيا بِسُلوكِ طَريقِ الشَّرِّ . وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى ظُلْمَ النِّساءِ ظُلْماً لأَنْفُسِهِمْ ، لأَنَّ هَذا الأَمْرَ سَيُؤَدّي إِلى اخْتِلافِ المُعاشَرَةِ الزَّوْجِيَّةِ واضْطِرابِها ، وَشُيوعِ العَداوَةِ والبَغْضاءِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَأَهْلِهِما . وَأَكَّدَ سُبْحانَهُ هَذا التَّحْذيرَ لِلأَزْواجِ بِقَوْلِهِ :

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ وَآياتُ اللهِ هِيَ الأَحْكامُ الَّتي شَرَعَها اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى في شَأْنِ الطَّلاقِ وَغَيْرِهِ ، فَلا تَتَهاوَنوا أَيُّها النَّاسُ بِتِلْكَ الحُدودِ الَّتي حَدَّها اللهُ لَكُمْ ، لأَنَّ التَّهاوُنَ فِيها يُعَدُّ اسْتِهْزاءً بِآياتِ اللهِ تَعالى ، وَفي هَذا وَعيدٌ شَديدٌ لِمَنْ يَتَعَدَّى حُدودَ اللهِ تَعالى ، وَفيهِ كَذَلِكَ حَثٌّ على احْتِرامِ رَوابِطِ الزَّوْجِيَّةِ ، وَالبُعْدِ عَمَّا كانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ مِنَ العَبَثِ بِالصِّلَةِ الزَّوْجِيَّةِ ، حَيْثُ كانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ وَيَقولُ عَنْ ذَلِكَ : لَعِبْتُ وَلَهَوْتُ .

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعالى الأَزْواجَ أَنْ يَذْكُروا ما أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الرَّحْمَةِ الَّتي جَعَلَها بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَجَعَلَ النِّكاحَ وَالطَّلاقَ وَالرَّجْعَةَ بِأَيْديهِمْ ، وَلَمْ يُضَيِّقْ عَلَيْهِمْ في الزَّواجِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَذْكُروا ما أَنْزَلَ اللهُ تَعالى مِنْ آياتٍ تَتَعَلَّقُ بِأَحْكامِ الزَّوْجِيَّةِ الَّتي تَجْعَلُ كُلاًّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ في هَناءٍ وَسَعادَةٍ .

وَقَدْ ذَكَّرَنا سُبْحانَهُ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْنا في تِلْكَ التَّشْريعاتِ العَظيمَةِ ، لِتَكونَ عِظَةً لَنا ، قالَ تَعالى : ﴿ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : يَعِظُكُمْ بِالكِتابِ وَالحِكْمَةِ ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فَلا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يُعْلِنُهُ الإِنْسانُ أَوْ يُخْفيهِ ، وَلا يَرْضى سُبْحانَهُ مِنَ العَبْدِ إِلاَّ الالْتِزامَ بِالحُدودِ الَّتي حَدَّها ، وَالعَمَلَ بِأَحْكامِهِ وَإِخْلاصَ النِّيَّةِ لَهُ سُبْحانَهُ .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتُبَيِّنَ ما يَنْبَغي أَنْ يَكونَ بَعْدَ إِمْضاءِ الطَّلاقِ :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ يُخاطِبُ سُبحانَهُ المُؤْمنينَ ويَقولُ لَهُمْ : إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ، وَانْتَهَتْ عِدَّتُهُنَّ وانْقَضَتْ ، وَأَرادَ بَعْدَ ذَلِكَ أَزْواجُهُنَّ أَنْ يَنْكِحوهُنَّ مَرَّةً أُخْرى وَأَرَدْنَ هُنَّ ذَلِكَ فَلا تَمْنَعوهُنَّ ، إذا رَضِيَ كُلٌّ مِنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ بِالآخَرِ زَوْجاً .

عَنْ مَعْقَلِ بن يَسارٍ قالَ : « كانَتْ لي أُخْتٌ ، فَأَتاني ابْنُ عَمٍّ لي فَأَنْكَحْتُها إيّاهُ ، وَكانَتْ عِنْدَهُ ما كانَتْ ، ثُمَّ طَلَّقَها ، وَلَمْ يُراجِعْها حَتّى انْقَضَتِ العِدَّةُ ، فَهَوِيَها وَهَوِيَتْهُ ، ثُمَّ خَطَبَها مَعَ الخُطّابِ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَكْرَمْتُكَ بِها ، وَزَوَّجْتُكَها فَطَلَّقْتَها ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُها ، واللهِ لا تَرْجِعُ إِلَيْها أَبَداً ، وَكانَ رَجُلاً لا بَأْسَ بِهِ ، وَكانَتِ المَرْأَةُ تُريدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ ، فَعَلِمَ اللهُ تَعالى حاجَتَهُ إِلَيْها وَحاجَتَها إِلى بَعْلِها فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ ، فَفِيَّ نَزَلَتْ ، فَكَفَّرْتُ عَنْ يَميني ، وَأَنْكَحْتُها إِيّاهُ »(١) .

وَفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿بَيْنَهُم﴾ دَليلٌ عَلى أَنَّهُ يَجوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَخْطِبَ مَنْ كانَتْ امْرَأَتَهُ مِنْ قَبْلُ إِلى نَفْسِها ، وَيَتَّفِقَ مَعَها عَلى التَّزَوُّجِ بِها ، وَيَحْرُمُ عَلى وَلِيِّها أَنْ يَمْنَعَها ، وَفي قَوْلِهِ : ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ دَليلٌ على أَنَّ الوَلِيَّ إذا مَنَعَها مِنَ الزَّواجِ بِغَيْرِ كُفْءٍ فَهُوَ أَمْرٌ غَيْرُ مُحَرَّمٍ ، كَأَنْ تَتَزَوَّجَ الشَّريفَةُ في قَوْمِها رَجُلاً خَسيساً يَلْحَقُها مِنْهُ عارٌ ، وَيَمَسُّ كَرامَةَ قَوْمِها مِنْهُ أَذىً .

وَالخِطابُ في الآيَةِ لِلأُمَّةِ جَميعاً ، فَهِيَ مُتَكامِلَةٌ في مَصالِحِها ، ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ ذَلِكَ اسْمُ إِشارَةٍ لِما تَقَدَّمَ مِنَ الأَحْكامِ ، يُوعَظُ بِهِ أَهْلُ الإيمانِ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذينَ يَقْبَلونَ الأَحْكامَ عَنِ اللهِ تَعالى ، وَتَخْشَعُ لَهُ قُلوبُهُمْ وَيَتَحَرَّوْنَ طاعَةَ اللهِ تَعالى وَعَدَمَ مَعْصِيَتِهِ .

﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ذَلِكُمُ الَّذي تَقَدَّمَ مِنَ النَّهْيِ عَنْ عَضْلِ المَرْأَةِ فيهِ بَرَكَةٌ وَصَلاحٌ لِحالِكُمْ ، وَفيهِ طُهْرٌ لأَعْراضِكُمْ وَأَنْسابِكُمْ ، وَحِفْظٌ لأَحْسابِكُمْ وَشَرَفِكُمْ ، فَإِنَّ المَرْأَةَ إِذا ما عُومِلَتْ مُعامَلَةً كَريمَةً ، وَلَمْ تُظْلَمْ في رَغَباتِها المَشْروعَةِ ، التَزَمَتْ في سُلوكِها العَفافَ وَالخُلُقَ الشَّريفَ ، أَمّا إِذا شَعَرَتْ بِالظُّلْمِ وَالامْتِهانِ ، فَقَدْ يَدْفَعُها ذَلِكَ إِلى ارْتِكابِ ما نَهى اللهُ تَعالى عَنْهُ .

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ اللهُ يَعْلَمُ ما لَكُمْ في ذَلِكَ التَّشْريعِ مِنَ النَّفْعِ والصَّلاحِ ، فَهُوَ العَليمُ بِوُجوهِ الفائِدَةِ في أَحْكامِهِ ، وَالسِّرُّ فيما يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهى عَنْهُ ، وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمونَ ذَلِكَ عِلْماً صَحيحاً .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، حديث رقم ٤٢٥٥ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الرَّابِطَةُ الزَّوْجيَّةُ مِنْ أَقوى الرَّوابِطِ وَأَقْدَسِها فَيَنْبَغي على كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ المُحافَظَةُ عَلَيْها لِتُؤْتيَ ثِمارَها مِنَ التَّوادِّ والتَّراحُمِ .

٢ـ الطَّلاقُ مِنَ الأَحْكامِ الَّتي شَرَعَها الله تَعالى ، فَلا يَنْبَغي التَّهاوُنُ في هَذا الحُكْمِ والتَّلاعُبُ بِهِ .

٣ـ المُؤْمِنُ حَقّاً هُوَ الَّذي يَتَّعِظُ بِآياتِ اللهِ تَعالى ، وَمَنْ لا يَعْمَلُ بِآياتِ اللهِ وَيَتَّعِظُ بِها فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَتى يَحِلُّ لِلْرَّجُلِ إِرْجاعُ زَوْجِهِ بَعْدَ طَلاقِها رَجْعِيّاً ، بِغَيْرِ عَقْدٍ جَديدٍ ؟

٢ـ خَيَّرَ الإِسْلامُ المُطَلِّقَ رَجْعِيّاً بَيْنَ أَمْرَيْنِ ، اذْكُرْهُما .

٣ـ ما مَعْنى ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا﴾؟ وَكَيْفَ يَعْتَدي الرَّجُلُ على زَوْجِهِ في قَضِيَّةِ الرَّجْعَةِ؟

٤ـ لِمَ جَعَلَ اللهُ تَعالى الإِنْسانَ الظّالِمَ لِلْمَرْأَةِ ظالِماً لِنَفْسِهِ ؟

٥ـ ما العَلاقَةُ بَيْنَ الآياتِ المُتَحدِّثَةِ عَنِ الطَّلاقِ ، وَاتِّخاذِ الآياتِ هُزُواً ؟

٦ـ ما مَعْنى عَدَمُ اتِّخاذِ آياتِ اللهِ هُزُواً ؟

٧ـ ثَلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وهَزْلُهُنَّ جِدٌّ ، اذْكُرْهُنَّ بوضوحٍ .

٨ـ ما تِلْكَ النِّعْمَةُ الَّتي امْتَنَّ اللهُ بِها عَلى الأَزْواجِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ؟

٩ـ بَيِّنْ مَعْنى : ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ في أَوَّلِ الآياتِ ، وَ ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ في آخِرِ الآيَةِ .

١٠ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾ ؟ وَمَنِ المُخاطَبُ ؟

١١ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿إِذَا تَرَاضَو بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ؟

١٢ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يُبيِّنُ أَنَّهُ لا مُزاحَ في الطَّلاقِ .

الدَّرْسُ الخامِسُ والعِشْرونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الحادي وَالسَّبْعونَ

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى
ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟
أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حَوْلَيْنِ : سَنَتَيْنِ .

المَوْلودِ لَهُ : الأَبُ .

وُسْعَها : طاقَتَها وَقَدْرَ إِمْكانِها .

فِصالاً : فِطاماً لِلطِّفْلِ .

تَسْتَرْضِعوا : تَخْتاروا لأَوْلادِكُمْ مُرْضِعاً .

يَذَرونَ : يَتْرُكونَ .

يَتَرَبَّصْنَ : يَنْتَظِرْنَ .

التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنْ أَحْكامِ الطَّلاقِ ، وَتَتَحَدَّثُ هَذِهِ الآياتُ عَنْ حُكْمٍ آخَرَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالأُسْرَةِ وَهُوَ الرَّضاعُ . قالَ تَعالى :

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ .

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ الوَالِداتُ هُنَّ الأُمَّهاتُ ، وقَدْ جاءَ هَذا اللَّفْظُ لِلإشارَةِ إلى أَنَّهُنَّ اللّائي وَلَدْنَ هؤُلاءِ الأَوْلادِ . وَهؤُلاءِ الأُمَّهاتُ ، سَواءٌ كُنَّ ما زِلْنَ في عِصْمَةِ الأَزْواجِ ، أَمْ كُنَّ مُطَلَّقاتٍ ، عَلَيْهِنَّ أَنْ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ مُدَّةَ عامَيْنِ ، وَهَذا الأَمْرُ المَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿يُرْضِعْنَ﴾ إذ الجُمْلَةُ خَبَرِيَّةٌ لَفْظاً ، إِنْشائِيَّةٌ مَعْنىً ؛ هَذا الأَمْرُ يُفيدُ الوُجوبَ ؛ إِذْ يَجِبُ عَلى المَرْأَةِ إِرْضاعُ وَلَدِها إذا فُقِدَ أَحَدُ الشُّروطِ التَّالِيَةِ :

١ـ قُدْرَةُ الأَبِ عَلى اسْتِئْجارِ المُرْضِعِ .

٢ـ وُجودُ مُرْضِعٍ غَيْرِ الأُمِّ .

٣ـ قَبولُ الوَلَدِ لِلبَنِ مُرْضِعٍ أُخْرى غَيْرِ أُمِّهِ .

فَإِذا تَوافَرَتْ هَذِهِ الشُّروطُ يَكونُ الأَمْرُ لِلنَّدْبِ ، لأَنَّ الأَصْلَ في الأُمِّ أَنْ تُرْضِعَ وَلَدَها ، لأَنَّهُ أَفْضَلَ لَبَنٍ لِلطِّفْلِ بِاتِّفاقِ أَهْلِ الطِّبِّ ، فَالوَلَدُ قَدْ تَكَوَّنَ مِنْ دَمِ أُمِّهِ ، وَلَمَّا خَرَجَ مِنْ بَطْنِها تَحَوَّلَ دَمُها إلى لَبَنٍ لِيَتَغَذّى مِنْه ، وَهُوَ مُنْفَصِلٌ مِنْها .

وَتَحْديدُ الرَّضاعَةِ بِالحَوْلَيْنِ لَيْسَ لِلْوُجوبِ ، فَيَجوزُ لِلأُمِّ أَنْ تَفْطِمَ ابْنَها قَبْلَ ذَلِكَ ، وَما يَدُلُّ عَلى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾ وَالحِكْمَةُ في تَحْديدِ هَذِهِ المُدَّةِ في الرَّضاعِ العِنايَةُ بِشُؤونِ الطِّفْلِ ، فَحَليبُ الأُمِّ هُوَ الغِذاءُ النَّافِعُ لِلطِّفْلِ في هَذِهِ السِّنِّ ، وَهُوَ كَذَلِكَ مُحْتاجٌ إلى شَفَقَةٍ وَعِنايَةٍ تامَّةٍ لا تَتَوافَرانِ عِنْدَ غَيْرِ الأُمِّ ، وَإِذا رَأى الوالِدانِ المَصْلَحَةَ في إِرْضاعِ الطِّفْلِ أَقَلَّ مِنْ حَوْلَيْنِ فَلَهُما ذَلِكَ ، إذ هُما اللَّذانِ يَرْعَيانِ صِحَّةَ الطِّفْلِ ، وَكَثيرٌ مِنَ الأَطْفالِ يَسْتَغْنونَ عَنْ حَليبِ الأُمِّ ، بِأَنواعٍ مِنَ الطَّعامِ . وَكَما يَتَعَيَّنُ عَلى المَرْأَةِ أَنْ تُرْضِعَ وَلَدَها وَهذا حَقٌّ مِنْ حُقوقِها ، فَيَجِبُ عَلى الرَّجُلِ أَنْ يُمَكِّنَ مُطَلَّقَتَهُ مِنْ إِرْضاعِ وَلَدِها المُدَّةَ التَّامَةَ لِلرَّضاعِ ، فَما المُطَلَّقاتُ إِلاّ والِداتٌ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ فَجاءَتْ ﴿كَامِلَيْنِ﴾ تَأْكيداً عَلى أَنَّ المَقْصودَ حَوْلَيْنِ بِطولِهِما ، وَلَيْسَ حَوْلاً وَبَعْضَ الحَوْلِ ، أَيْ : سَنَةً وَشَهْرَيْنِ مَثَلاً أَوْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ .

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾ أي : عَلى الوالِدِ ، وَقَدْ قالَ تَعالى : المَوْلودِ لَهُ ، وَ لَمْ يَقُلِ الوالِدَ ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الوالِداتِ إِنَّما وَلَدْنَ الأَوْلادَ لَهُمْ ، فَالأَوْلادُ لِلآباءِ ، وَلِذَلِكَ يَنْسِبونَهُمْ إِلَيْهِمْ لا إلى غَيْرِهِمْ ، وَما دُمْنَ قَدْ حَمَلْنَ لَهُمْ ، فَعَلى الآباءِ أَنْ يُنْفِقوا عَلى الأُمَّهاتِ ما فيهِ كِفايَتُهُنَّ مِنْ

طَعامٍ وشَرابٍ ، لِيَقُمْنَ بِخِدْمَةِ الوَلَدِ ، ويَحْفَظْنَهُ ، ويَرْعَيْنَ شُؤونَهُ ، وَأَنْ يَكونَ هَذا الإنْفاقُ بِحَسَبِ المَعروفِ الَّذي يَليقُ بحالِ المَرْأَةِ في البيئَةِ الَّتي تَعيشُ فيها .

﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ تَعْليلٌ لِما أَوْجَبَهُ اللهُ عَلى الوالِدِ مِنْ نَفَقَةٍ بالمَعْروفِ لِمَنْ أَرْضَعْنَ الطِّفلَ ، وَذلِكَ أَنَّ اللهَ تَعالى لا يُكَلِّفُ عِبادَهُ ما لا يسْتَطيعونَ ، فلا يُلْزَمُ الوالِدُ بالنَّفَقَةِ إلاّ حَسَبَ قُدْرَتِهِ ، وَتِلْكَ هِيَ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في تَشْريعاتِهِ .

﴿ لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ هَذِهِ هِيَ العِلَّةُ لِتَشْريعِ ما سَبَقَ ، إِذْ لا يَجوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُوقِعَ الضَّرَرَ بالمَرْأَةِ بِسَبَبِ الوَلَدِ ، أَوْ أَنْ تُوقِعَ المَرْأَةُ الضَّرَرَ بالرَّجُلِ بِسَبَبِهِ ، فَلا يَجوزُ أَنْ تَمْتَنِعَ المَرْأَةُ عَنْ إرْضاعِ وَلَدِها تَعجيزاً لِلوالِدِ بالتِماسِ الظِّئْرِ ، أَوْ تكَلُّفَهُ مِنَ النَّفَقَةِ فَوْقَ وُسْعِهِ ، أَوْ تُقَصِّرَ في تَرْبِيَةِ الوَلَدِ لِتَغيظَ وَالِدَهُ ، وهُوَ كَذَلِكَ لا يَجوزُ أَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْها في النَّفَقَةِ مَعَ الإرْضاعِ ، أَوْ يَمْنَعَها مِنْ رُؤْيَتِهِ ، وَلَوْ بَعْدَ مُدَّةِ الرَّضاعِ وَالحَضانَةِ .

﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ مَعْطوفٌ عَلى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ والوارِثُ هُوَ مَنْ يَصيرُ إِلَيْهِ مالُ المَيِّتِ بَعْدَ المَوْتِ . وَاسْمُ الإشارَةِ (ذَلِكَ) يَعودُ عَلى الرِّزْقِ وَالكِسْوَةِ وَتَرْكِ المُضارَّةِ ، وَمَعْنى الآيَةِ : عَلى وارِثِ الأَبِ أَو وَارِثِ الصَّبِيِّ ، أَي : مَنْ سَيَرِثُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، عَلَيْهِ مِثْلُ ما يَجِبُ عَلى الأَبِ مِنَ النَّفَقَةِ ، وَتَرْكِ الإضْرارِ بالأُمِّ المُرْضِعِ . فَهَذِهِ الآيَةُ قَدْ بَيَّنَتْ أَنَّ مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ نَفَقَةُ الصَّبِيِّ إذا فُقِدَ الأَبُ ، أَوْ إذا كانَ الأَبُ مَوْجوداً ، وَلَكِنَّهُ عاجِزٌ عَنِ الإنْفاقِ ، هُوَ القَريبُ الَّذي يَرِثُ الصَّبِيَّ أَوْ أَباهُ .

﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ الجُمْلَةُ مَعْطوفَةٌ عَلى قَوْلِهِ : ﴿ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ وَمَعْنى الآيَةِ : إِنْ أَرادَ الوالِدانِ فِطاماً لِوَلَدِهِما قَبْلَ الحَوْلَيْنِ ، وَكانَتْ هَذِهِ الإرادَةُ عَنْ تَراضٍ مِنْهُما ، وَتَشاوُرٍ في شَأْنِ الوَلَدِ ، وَخَلَصا إلى أَنَّ الفِطامَ قَبْلَ الحَوْلَيْنِ لَنْ يَضُرَّهُ وَيؤْذيَهُ فَلا بَأْسَ في ذَلِكَ ، وَلابُدَّ مِنْ رِضا الوالِدَيْنِ ، وَلَيْسَ الأَمْرُ لأَحَدِهِما فَقَط ، لأَنَّ رِضا واحِدٍ مِنْهُما قَدْ يُضِرُّ بِهِ ، فَلا بُدَّ مِنْ رِعايَةِ مَصْلَحَةِ الوَلَدِ ، ولا يَكونُ هَذا إلاّ بِرِضاهُما معاً .

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أَي : إذا أَرَدْتُمْ أَيُّها الآباءُ أَنْ تَأْتوا بِغَيْرِ الأُمِّ لِتُرْضِعَ أَوْلادَكُمْ ، وَرَضِيَتِ الأُمُّ بذَلِكَ ، واتَّفَقْتُمْ على هَذا الأَمْرِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ إِثْمٌ ما دُمْتُمْ تَبْغونَ مَصْلَحَةَ أَوْلادِكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تُسَلِّموا هَؤُلاءِ المَراضِعَ أُجورَهُنَّ بِالطَّريقَةِ الَّتي يُقِرُّها الشَّرْعُ ، وَما هُوَ مُتعارَفٌ عَلَيْهِ ، أَيْ : ما يُسَمّى بِأَجْرِ المِثْلِ ، وَفي هَذا الشَّرْطِ مَصْلَحَةُ المُرْضِعِ والوَلَدِ وَالوالِدِ ، لأَنَّ المُرْضِعَ إذا لَمْ تُعامَلِ المُعامَلَةَ الحَسَنَةَ المُرْضِيَةِ بِأَخْذِ أَجْرِها تامّاً ، لا تَهْتَمُ بِمُراعاةِ الطِّفْلِ ، وَلا تُعْنى بِإرْضاعِهِ وَنَظافَتِهِ وَسائِرِ شُؤونِهِ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الْتَزِموا بما ذُكِرَ لَكُمْ مِنَ الأَحْكامِ ،

وَاتَّقوا اللهَ في ذَلِكَ ، وَلا تُقَصِّروا في شَيءٍ مِنْها ، واعْلَموا عِلْمَ اليَقينِ أَنَّ اللهَ بَصيرٌ بِما تَعْمَلونَ ، فَهُوَ يُحْصي لَكُمْ عَمَلَكُمْ وَيُجازيكُمْ عَلَيْهِ .

عِدَّةُ المُتَوَفَّى عَنها زَوْجُها :

وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ عِدَّةِ المُطَلَّقَةِ ، وَبَيَّنَتْ حُكْمَ إِرْضاعِ الطِّفْلِ ، انْتَقَلَتْ لِلحَديثِ عَنْ عِدَّةِ المُتَوفَّى عَنْها زَوْجُها :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ ﴾ خِطابٌ لِلأَزْواجِ ، أَي : الَّذينَ يَتوفَّاهُمُ اللهُ بِأَنْ يَقْبِضَ أَرْواحَهُمْ وَيُميتَهُمْ ، وَيَتْرُكونَ خَلْفَهُمْ نِساءَهُم ، فَعلى هَذِهِ المَرْأَةِ الَّتي يُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها أَنْ تَنْتَظِرَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيّامٍ ، وهَذِهِ هِيَ عِدَّتُها ، وَفاءً لِحَقِّ الزَّوْجِ وَاسْتِبْراءً لِلرَّحِمِ ، وَإِحْداداً عَلى المَيِّتِ .

وَهَذِهِ العِدَّةُ لِلْمَرْأَةِ المُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها سَواءٌ دَخَلَ بِها زَوْجُها أَمْ لَمْ يَدْخُلْ ، وَسَواءٌ كانَتْ صَغيرَةً أَمْ كَبيرةً ، وَلِذا كانَتِ العِدَّةُ بِالأَشْهُرِ وَلَيْسَتْ بِالقُروءِ ـ كَما هُوَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُطَلَّقَةِ ، فَهَؤُلاءِ جَميعُهُنَّ لاَ بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يَشْتَرِكْنَ بِهِ ، فَكانَتِ العِدَّةُ بِالأَشْهُرِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ الصَّغيرَةَ مَثَلاً لَمْ تَحِضْ بَعْدُ ، والكَبيرَةُ قَدْ يَئِسَتْ وَلَمْ تَعُدْ تَحيضُ ، ثُمَّ إِنَّ العِدَّةَ لِلْمُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها لَوْ قُدِّرَتْ بِالقُرْءِ ، وَهُوَ أَمْرٌ لا يَعْلَمُهُ إِلاّ صاحِبَةُ الشَّأْنِ ، وَهِيَ المَرْأَةُ ، فَرُبَّما تَدْفَعُها الرَّغْبَةُ في الزَّواجِ إِلى الكَذِبِ ، فَتَدَّعي أَنَّ عِدَّتَها قَدِ انْتَهَتْ ، وَقَدْ عَرَفْنا أَنَّ العِدَّةَ بِالنِسْبَةِ لِلمُطَلَّقَةِ حَقٌّ لِلزَوْجِ المُطَلِّقِ ، أَمّا عِدَّةُ المُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها فَهُوَ حَقٌّ خالِصٌ للهِ ، وَلِكَيْ لا يَكونَ هُنا مُساغٌ لِلْكَذِبِ جُعِلَتِ العِدَّةُ بِالأَيّامِ وَالأَشْهُرِ ، وَهَذا أَمْرٌ يَسْتَطيعُ مَعرِفَتَهُ الجَميعُ .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ﴾ إذا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَفعَلْنَ ما كانَ مَحْظوراً عَلَيْهِنَّ مِنَ التَّزَيُّنِ ـ ضِمْنَ ما حَدَّهُ الشَّرْعُ ـ أَوِ الخُروجَ مِنَ المَنْزِلِ ، أَوْ التَّعَرُّضَ لِلْخُطّابِ .

وَقَدْ أَلْغَتْ هَذِهِ الآيَةُ ما كانَ مَعروفاً في الجاهِلِيَّةِ ، حَيْثُ كانَتْ تَحُدُّ المَرْأَةُ على زَوْجِها مُدَّةَ سَنَةٍ كامِلَةٍ تَقْضيها في مَكانٍ ضَيِّقٍ في بَيْتِها وَتُغْلِقُ على نَفْسِها .

عِنْ زَيْنَبَ بِنتِ أَبي سَلَمَةَ أَنَّها أَخْبَرَتْ حُمَيْدَ بنَ نافِعٍ هَذِهِ الأَحاديثَ الثَّلاثَةَ قالَتْ : دَخَلَتُ على أُمِّ حَبيبَةَ زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ حينَ تُوُفِّيَ أَبوها أَبو سُفْيانَ بنُ حَرْبٍ ، فَدَعَتْ أُمُّ حَبيبَةَ بِطيبٍ فِيهِ صُفْرَةُ خَلوقٍ أَوْ غَيْرِهِ ، فَدَهَنَتْ مِنْهُ جارِيَةً ثُمَّ مَسَّتْ بِعارِضَيْها ، ثُمَّ قالَتْ : وَاللهِ مالي بِالطِّيبِ مِنْ حاجَةٍ ، غَيْرَ أَنِّي

سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ أَنْ تَحُدَّ على مَيِّتٍ فَوْقَ ثلاثِ لَيالٍ إلاّ عَلى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَي : مُحيطٌ بِدَقائِقِ أَعْمالِكُمْ ، فَلا يَخْفى عَلَيْهِ سُبْحانَهُ شَيْءٌ مِنْها ، فَإِذا الْتَزَمْتُمْ أَنْتُمْ وَنِساؤُكُمْ بِأَحْكامِ اللهِ تَعالى ، وَوَقَفْتُمْ عِنْدَ حُدودِهِ تَعالى ، أَصْلَحَ أَحْوالَكُمْ ، وَوَسَّعَ مَعيشَتَكُمْ في الدُّنْيا ، وَأَحْسَنَ جَزاءَكُمْ في الآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ غَرْسُ مَعاني الإخاءِ وَالتَّراحُمِ وَالتَّكافُلِ بَيْنَ أَبْناءِ الأُسْرَةِ ، فَالقادِرُ يُنْفِقُ على العاجِزِ ، وَالغَنِيُّ يَمُدُّ الفَقيرَ بِحاجَتِهِ .

٢ـ حَثَّتِ الآياتُ عَلى اسْتِخْدامِ المَشورَةِ في أَقَلِّ الأَعْمالِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَرْبِيَةِ الأَوْلادِ ، فَمِنْ بابٍ أَوْلى اسْتِعْمالُها في أَجَلِّ الأَعْمالِ وَأَعْظَمِها وَأَخْطَرِها .

٣ـ القِيامُ بِحُقوقِ الأَوْلادِ بِالتَّراضي وَالتَّشاوُرِ بَيْنَ الأُمِّ والأَبِ ، وَعَدَمُ مُضارَّةِ أَحَدِهِما لِلآخَرِ بِسَبَبِ الأَوْلادِ .

٤ـ حِدادُ المَرْأَةِ عَلى المَيِّتِ لا يَحِلُّ أَنْ يَتَعَدَّى ثَلاثَةَ أَيّامٍ إلاّ عَلى الزَّوْجِ ، فَتَحِدُّ المَرْأَةُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيّام .

٥ـ لا صَلاحَ لِلْمُجْتَمَعِ وَ لِلأُسْرَةِ إلاَّ بِالاعْتِصامِ بِهَدْيِ اللهِ تَعالى وسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ معانِيَ المُفْرداتِ والتّراكيبِ التّاليَةِ :

حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ ، أَرادا فِصالاً ، لا جُناحَ ، أَنْ تَسْتَرْضِعوا .

٢ـ مَنِ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ ؟

٣ـ الجُمْلَةُ الخَبَرِيَّةُ ﴿يُرْضِعْنَ﴾ تُفيدُ الأَمْرَ ، هَلِ الأَمْرُ هُنا لِلوُجوبِ أَمْ لِلنَّدْبِ ؟

٤ـ مَتى يَكونُ الأَمْرُ لِلْوُجوبِ في الجُمْلَةِ السَّابِقَةِ ؟

٥ـ ما فائِدَةُ قَوْلِهِ تعالى : ﴿كَامِلَيْنِ﴾ ؟

٦ـ كَيْفَ تكونُ مُضارَّةُ الوالِدِ بالأُمِّ المُرْضِعِ ؟ وَمَضارَّةُ المَرْأَةِ لِلوالِدِ ؟

٧ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ ؟ وَعَلامَ تَدُلُّ هَذِهِ الآيَةُ ؟

٨ـ ما المَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ؟

٩ـ لِمَنِ الخِطابُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ ؟

١٠ـ لِماذا كانَتْ عِدَّةُ المُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها بالأَشْهُرِ ؟

١١ـ ما عِدَّةُ المُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها ؟

١٢ـ ما الواجِبُ عَلى المَرْأَةِ أَنْ تَفْعَلَهُ في أَثْناءِ عِدَّتِها ؟

نَشاطٌ :

ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ الحَديثَ الشَّريفَ الَّذي يُبَيِّنُ مُدَّةَ حِدادِ المَرْأَةِ عَلى مَنْ تُوفِّيَ مِنْ أَقارِبِها .

* * *

الدَّرْسُ السَّادِسُ والعِشْرونَ

سُورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّاني والسَّبْعونَ

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ
سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ
ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ
وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن
طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ
أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

عَرَّضْتُمْ : التَّعريضُ أَنْ تُفْهِمَ المُخاطَبَ ما تُريدُ بالإشارَةِ والتَّلميح دونَ التَّصْريح .

أَكْنَنْتُمْ : الإكْنانُ : ما يُضْمِرُهُ مَنْ يُريدُ الزَّواجَ في نَفْسِهِ ، ويَعْزِمُ عَلَيْهِ مِنَ التَّزَوُّجِ بالمَرْأَةِ .

خِطْبَةِ النِّساءِ : طَلَبُ الرَّجُلِ المَرْأَةَ للزَّواجِ .

تَعْزِموا : العَزْمُ عَلى الشَّيْءِ : التَّصْميمُ على تَنْفيذِهِ .

الكِتابُ : المَفروضُ .

أَجَلَهُ : نِهايَتَهُ .

تَمَسّوهُنَّ : تُجامِعوهُنَّ .

فَريضَةً : مَهْراً .

المُوسِعِ : يُقالُ أَوْسَعَ الرَّجُلُ إذا صارَ ذا سَعَةٍ في المالِ وبَسْطَةٍ .

المُقْتِرِ : يُقالُ أَقْتَرَ الرَّجُلُ إذا قَلَّ مالُهُ .

مَتاعاً : حَقّاً ثابِتاً .



التَّفسيرُ :

تناوَلَتِ الآياتُ السَّابقةُ الحديثَ عَنِ المُطَلَّقَةِ والمُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها ، وَجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَتَحدَّثَ عَنْ حُكْمِ خِطْبَةِ النِّساءِ وَمُتْعَةِ المُطَلَّقاتِ قَبْلَ الدُّخولِ . قالَ تَعالى :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ لا إِثْمَ عَلى الرَّجُلِ أَنْ يُعَرِّضَ وَيُلَوِّحَ بِأَنَّهُ يُريدُ التَّزَوُّجَ مِنْ فُلانَةٍ وَهِيَ ما تَزالُ في عِدَّةِ الزَّواجِ البائِنِ ، أَوْ عِدَّةِ الوَفاةِ ، أَمّا في عِدَّةِ الطَّلاقِ الرَّجْعِيِّ فلا يَجوزُ لَهُ ذَلِكَ ، لأَنَّ المَرْأَةَ ما تَزالُ في عِصْمَةِ زَوْجِها ، وَذَلِكَ كَأَنْ يَقولَ لِلمَرْأَةِ : وَدَدْتُ لَوْ أَنَّ اللهَ وَفَّقَني لِلزواجِ مِنْ مِثْلِكِ ، أَوْ يَقولَ لَها : إِنِّي راغِبٌ بِالزَّواجِ ، أَوْ يَقولَ لِوَلِيِّها : لا تَجْعَلْ أَحداً يَسْبِقَني بِها .

فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ أَنْ يَلوِّحَ بِأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَخْطِبَ المَرْأَةَ وَهِيَ في عِدَّتِها ، وَلا إِثْمَ عَلَيْهِ في الرَّغْبَةِ في الزَّواجِ بِها مَعَ إِخْفاءِ ذَلِكَ وَسَتْرِهِ مِنْ غَيْرِ كَشْفٍ وَإِعْلانٍ . وَقَوْلُهُ تَعالى :

﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ أَي : سَتَذْكُرونَ هَؤُلاءِ المُطَلَّقاتِ في أَنْفُسِكُمْ ، وَخَطَراتُ قُلوبِكُمْ لَيْسَتْ بِأَيْديكُمْ ، وَلِذا أَباحَ لَكُمْ سُبْحانَهُ رَحْمَةً بِكُمْ التَّعْريضَ بِالْخِطْبَةِ دُونَ التَّصْريحِ بِها .

﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ أَي : رَخَصَّ اللهُ تَعالى لَكُمْ في التَّعْريضِ ، لأَنَّ التَّعْريضَ أَمامَ النَّاسِ لا عارَ فيهِ وَلا قُبْحَ ، أَمّا ما يَكونُ في السِّرِّ فَهُوَ مَظَنَّةٌ لِلْفِتْنَةِ . وَالسِّرُّ هُنا كِنايَةٌ عَنِ النِّكاحِ ، والمواعَدَةُ سِرّاً أَنْ يَقولَ لَها : إِنِّي عاشِقٌ لَكِ ، عاهِديني أَنْ لا تَتَزَوَّجي غَيْري .

﴿ إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ اسْتِثْناءٌ ، أَي : لا تُواعِدوهُنَّ مُواعَدَةً إِلاّ مُواعَدَةً مَعْروفَةً غَيْرَ مُنْكَرَةٍ شَرْعاً ، وَهِيَ ما تَكونُ بِطَريقِ التَّلْويحِ والتَّعْريضِ . وَالنَّهْيُ هُنا عامٌّ يَتَناوَلُ كُلَّ مُواعَدَةٍ سِرِّيَّةٍ يُقالُ فيها ما يُنْهى عَنْهُ أَوْ يُسْتَحْيا مِنْهُ في العَلَنِ لِقُبْحِهِ ، أَوْ لأَنَّ أَوانَهُ لَمْ يَحِنْ بَعْدُ .

﴿ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَعْزِموا عَلى الزَّواجِ مِنَ النِّساءِ اللاّتي فارَقَهُنَّ أَزْواجُهُنَّ في أَثْناءِ العِدَّةِ . المَقْصودُ هُنا العَزْمُ المُتَّصِلُ بِالعَقْدِ ، أَي : لا تَعْقِدوا عَلَيْهِنَّ حَتّى تَنْتَهِيَ عِدَّتُهُنَّ الَّتي فَرَضَها اللهُ تَعالى ، فَلا يُسَوَّغُ لَكُمْ عَقْدُ الزَّواجِ إِلا بَعْدَ انْتِهاءِ العِدَّةِ . وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أَيْ يَعْلَمُ سُبْحانَهُ وَتعالى ما تُضمِرونَهُ في قُلوبِكُمْ مِنَ العَزْمِ ، فَاحْذَروا أَنْ تَعْزِموا ما حَظَرَهُ اللهُ تَعالى عَلَيْكُمْ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ . وَهَذا التَّحْذيرُ راجِعٌ إِلى الأَحْكامِ السَّابِقَةِ وَهِيَ :

١ـ النَّهْيُ عَنِ التَّصْريحِ بِخِطْبَةِ النِّساءِ المُعْتَدّاتِ وَإِباحَةُ التَّعْريضِ بِذَلِكَ ، أَوْ إِخْفاءِ هَذا الأَمْرِ في النَّفْسِ .

٢ـ النَّهْيُ عَنْ مُواعَدَةِ النِّساءِ سِرّاً .

٣ـ النَّهْيُ عَنْ عَزْمِ عُقْدَةِ النِّكاحِ في أَثْناءَ العِدَّةِ .

وَمِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنْ يَقْرِنَ بَيْنَ الأَحْكامِ التَّشْريعيَةِ ، بِالمَوْعِظَةِ تَرْغيباً وتَرْهيباً ، وَتَأْكيداً لِلْمُحافَظَةِ عَلَيْها ، فَفي قَوْلِهِ : ﴿ فَٱحۡذَرُوهُۚ ﴾ تَرْهيبٌ وَوَعيدٌ شَديدٌ ، وَفي قَوْلِهِ : ﴿ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ تَرْغيبٌ ، وَفَتْحٌ لأَبوابِ التَّوْبَةِ إِذا ما أَخْطَأَ الإِنْسانُ وَتَعَدَّى حُدودَ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ غَفورٌ لِلذَّنْبِ ، حَليمٌ لا يُعاجِلُ الإِنْسانَ بِالعُقوبَةِ ، ولَكِنَّهُ يُمْهِلُهُ ، حَتّى يُصْلِحَ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ ما أَفْسَدَهُ .

المُطَلَّقَةُ قَبْلَ الدُّخولِ بِها :

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنِ المُطَلَّقَةِ قَبْلَ الدُّخولِ بِها ، فقالَ تَعالى :

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦ ﴾ .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ وفي الآيَةِ كِنايَةٌ ، هِيَ مِنْ أَلْطَفِ الكِناياتِ الَّتي تُرَبّي في الإِنسانِ حُسْنَ الأَدَبِ ، وَتُجَنِّبُهُ النُّطْقَ بِالأَلْفاظِ الفاحِشَةِ ، وَمَعْنى الآيَةِ : لا إِثْمَ عَلَيْكُمْ أَيُّها الرِّجالُ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ لِسَبَبٍ مَشْروعٍ قَبْلَ الدُّخولِ بِهِنَّ ، وَقَبْلَ أَنْ تُقَدِّروا لَهُنَّ مَهْراً مُعَيَّناً ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُعْطوهُنَّ شَيْئاً يَتَمَتَّعْنَ بِهِ ، وَلْتَكُنْ هَذِهِ المُتْعَةُ عَلى حَسَبِ حالِكُمْ في الثَّرْوَةِ وَالغِنى . وَلَمْ يُحَدِّدْها اللهُ تَعالى ، بَلْ وَكَّلَ تَحْديدَها إِلى اجْتِهادِ المَرْءِ ، لأَنَّهُ أَدْرى بِثَرْوَتِهِ ، إِلاَّ أَنَّ اللهَ تَعالى حَبَّبَ في بَسْطِ اليَدِ وَالسَّخاءِ لِهَذِهِ المُطَلَّقَةِ تَطْييباً لِنَفْسِها ، وَعِوَضاً عَمّا لَحِقَها مِنَ الضَّرَرِ ، وَلِذَلِكَ ابْتَدَأَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ ﴾ أَي : أَعْطوهُنَّ ما يَتَمَتَّعْنَ بِهِ ، وَيَنْتَفِعْنَ بِالقَدْرِ المُتَعارَفِ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّاسِ ، فلا يُعْطي الغَنِيُّ مالا يَتَناسَبُ مَعَ غِناهُ وَلا مَعَ حالِ المَرْأَةِ الَّتي طَلَّقَها ، وَلا يُعْطي الفَقيرُ شَيْئاً تافِهاً لا يُسَمَّى مَتاعاً في عُرْفِ النَّاسِ ، وَقَوْلُهُ تَعالى :

﴿ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ جَعَلَ اللهُ هَذا الأَمْرَ وَهُوَ هَذِهِ المُتْعَةُ ، حَقّاً ثابِتاً عَلى الَّذينَ يُحْسِنونَ إِلى أَنْفُسِهِمْ بِامْتِثالِهِمْ لأَوامِرِ اللهِ تَعالى . والحِكْمَةُ في مَشْروعِيَّتِها أَنَّ في الطَّلاقِ قَبْلَ الدُّخولِ مَهانَةٌ لِلْمَرْأَةِ وَسُوءُ سُمْعَةٍ ، فَفيهِ إِيهامٌ لِلنّاسِ بِأَنَّ الزَّوْجَ قَدْ طَلَّقَها ، لِما رَأَى مِنْ سُوءِ خُلُقٍ ، فَإِذا مَتَّعَها

بِذاكَ المَتاعِ حَسَبَ حالِهِ تَزولُ هَذِهِ المَهانَةُ ، ويَكونُ في ذَلِكَ شَهادَةٌ لَها بِأَنَّ الطَّلاقَ كانَ مِنْ قِبَلِهِ هُوَ وَلَيْسَ مِنْ قِبَلِها هِيَ ، وَلا لِعِلَّةٍ فيها ، وَيَكونُ كَذَلِكَ تَعويضاً عَمَّا أَصابَها بِسَبَبِ هَذا الفِراقِ ، وَتَلْطيفاً لِجَوِّ الطَّلاقِ وَما يُصاحِبُهُ مِنْ جَفاءٍ وَبَغْضاءٍ ، واسْتِبْقاءً لِلمَوَدَّةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ .

وَهَذِهِ المُتْعَةُ ـ كَما تَدلُّ عَلَيْهِ الآيَةُ ـ واجِبَةٌ إذا تَوافَرَ شَرْطانِ هُما :

١ ـ مُفارَقَةُ الزَّوْجِ لِلْمَرْأَةِ قَبْلَ الدُّخولِ بها .

٢ ـ مُفارَقَتُهُ لَها ولَمْ يَكُنْ قَدْ سَمَّى لَها مَهْراً .

والصَّالِحونَ مِنَ النَّاسِ هُمُ الَّذينَ يَبْذُلونَ لِلْمُطَلَّقَةِ بِسَخاءٍ وَمَوَدَّةٍ .

ثُمَّ بَيَّنَتِ الآياتُ حَقَّ المَرْأَةِ المُطَلَّقَةِ قَبْلَ الدُّخولِ ، وَقَدْ سَمَّى لَها مَهْراً ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ الواجِبُ عَلَيْكُمْ في حالَةِ طَلاقِكُمْ لِلنِّساءِ اللاَّتي فَرَضْتُمْ لَهُنَّ مَهْراً ، قَبْلَ الدُّخولِ بِهِنَّ ، الواجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَدْفَعوا لَهُنَّ نِصْفَ ما قَدَّرْتُمْ لَهُنَّ مِنْ مَهْرٍ ، وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ ﴾ أي : لَهُنَّ نِصْفُ المَهْرِ الَّذي فَرَضْتُموهُ لَهُنَّ في كُلِّ حالٍ ، إلاَّ في حالِ عَفْوِ المُطَلَّقاتِ وَتَنازُلِهِنَّ عَنْ هَذا الحَقِّ ، أَوْ في حالِ عَفْوِ الَّذي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ ، وَهُوَ الزَّوْجُ المُطَلِّقُ ، لأَنَّهُ هُوَ المالِكُ لِعُقْدَةِ النِّكاحِ وَحَلِّهِ ، وَالمُرادُ بِعَفْوِهِ : أَنْ يَزيدَ عَلى نِصْفِ المَهْرِ المُقَرَّرِ ، وَقَدْ عُبِّرَ بهذا : ﴿ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ ﴾ لِلتَّنْبيهِ عَلى أَنَّ الَّذي رَبَطَ المَرْأَةَ وَأَمْسَكَ العُقْدَةَ بِيَدِهِ لا يَليقُ بِهِ أَنْ يَحُلَّها وَيَدَعَها مِنْ دونِ شَيْءٍ ، بَلْ يُسْتَحَبُّ لَهُ العَفْوُ والسَّماحُ بِكُلِّ ما كانَ قَدْ أَعْطى ، وَإِنْ كانَ الواجِبُ عَلَيْهِ نِصْفُهُ .

وَقَدْ حَبَّبَ سُبْحانَهُ وَتَعالى التَّسامُحَ فَقالَ :

﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مَنْ عَفا مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ هُوَ المُتَّقي ، فَقَدْ تَكونُ المَصْلَحَةُ في عَفْوِ الرَّجُلِ عَنِ النِّصْفِ الآخَرِ ، وَأَحْياناً في عَفْوِ المَرْأَةِ عَنِ النِّصْفِ الواجِبِ لَها ، فَقَدْ يَكونُ الطَّلاقُ مِنْ قِبَلِهِ بِلا سَبَبٍ ، وَقَدْ يَكونُ العَكْسُ .

وَالمَقْصودُ مِنَ التَّقْوى هُنا إتِّقاءُ الرِّيْبَةِ وما يَتَرَتَّبُ عَلى الطَّلاقِ مِنَ التَّباغُضِ . والتَّسامُحُ في المالِ

يُذْهِبُ أَثَرَ البَغْضاءِ ، وَيُعيدُ الصَّفاءَ إلى القُلوبِ ، وهَذا ما بَيَّنَهُ سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أَيْ : مَنْ تَزَوَّجَ مِنْ أُسْرَةٍ ثُمَّ طَلَّقَ فَعَلَيْهِ أَنْ لا يَنْسى مَوَدَّةَ أَهْلِ هَذا البَيْتِ وَصِلَتَهُمْ ، وإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَاللهُ بَصيرٌ بِأَعْمالِكُمْ وَسَيُحاسِبُكُمْ عَلَيْها ، وسَيُجازي كُلَّ نَفْسٍ بِما عَمِلَتْ .

ذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ في تَفْسيرِهِ أَنَّ جُبَيْرَ بنَ مَطْعَمٍ دَخَلَ عَلى سَعْدِ بنِ أَبي وَقّاصٍ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ بِنْتاً لَهُ فَتَزَوَّجَها ؟ ثُمَّ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِها ، وَبَعَثَ لَها المَهْرَ كامِلاً ، فقيلَ لَهُ : لِمَ تَزَوَّجْتَها ؟ فَقالَ : عَرَضَها عَلَيَّ فَكَرِهْتُ رَدَّهُ ، فقيلَ لَهُ : فَلِمَ بَعَثْتَ بِالصَّداقِ كامِلاً ؟ فقالَ : فَأَيْنَ الفَضْلُ ؟ .

وَرُوِيَ أَنَّ أَحَدَ الصَّحابَةِ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَطَلَّقَها قَبْلَ الدُّخولِ بِها ، فَأَعْطاها الصَّداقَ كامِلاً ، فقيلَ لَهُ في ذَلِكَ ، فَقالَ : أَنا أَحَقُّ بِالعَفْوِ مِنْها .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يُباحُ التَّعْريضُ بِخِطْبَةِ المُتَوَفّى عَنْها زَوْجُها ، ولا يُباحُ التَّصْريحُ بِذَلِكَ .

٢ـ الرَّجُلَ الصّالِحُ المُحْسِنُ هُوَ الَّذي يُمَتِّعُ المُطَلَّقَةَ قَبْلَ الدُّخولِ ، إذا لَمْ يَكُنْ قَدْ سَمّى لَها مَهْراً ، مُراعاةً لِشُعورِها ، ونَفْسِيَّتِها .

٣ـ الحِكْمَةُ في تَشْريعِ اللهِ تَعالى ، فَقَدْ فَرَضَ لِلمَرْأَةِ المُطَلَّقَةِ قَبْلَ الدُّخولِ نِصْفَ المَهْرِ ، مُراعاةً لِشُعورِها ، ونَفْسِيَّتِها .

٤ـ على كُلٍّ مِنَ الرَّجُلِ والمَرْأَةِ تَقوى اللهِ تَعالى فيما يَكونُ بَيْنَهُما ، واتِّقاءُ الرِّيبَةِ وما يَتَرَتَّبُ على الطَّلاقِ مِنَ التَّباغُضِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بالتَّعريضِ بِخِطْبَةِ النِّساءِ ؟

٢ـ هَلْ يَجوزُ التَّعْريضُ بِخِطْبَةِ المَرْأَةِ المُطَلَّقَةِ رَجْعِيّاً ؟ وَلِمَ ؟

٣ـ علامَ يَدُلُّ قولُهُ تَعالى : ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بالمُواعَدَةِ سِرّاً ؟ وما نَوْعُ البَلاغَةِ هُنا ؟

٥ـ قالَ تَعالى : ﴿إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ ما القَوْلُ المعَروفُ ؟

٦ـ في الآيةِ الأُولى تَرْغيبٌ وتَرْهيبٌ . وَضِّحْ ذَلِك .

٧ـ مَتى يُسْتَحَبُّ للرَّجُلِ أنْ يُعْطِيَ المَرْأَةَ مالاً تَتَمَتَّعُ بِهِ ؟

٨ـ تَظْهَرُ حِكْمَةُ اللهِ تَعالى في التَيْسيرِ على النّاسِ وَعَدَمِ تَكْليفِهِمْ فَوْقَ طاقَتِهِمْ ، وَضِّحْ هَذا الأَمْرَ كَما جاءَ في الآياتِ .

٩ـ ما الواجِبُ على الرَّجُلِ نحوَ المَرْأَةِ إذا طَلّقَها قَبْلَ الدُّخولِ بها ، وكانَ قَدْ سَمّى لَها مَهْراً ؟

١٠ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ .

١١ـ اسْتَنْتِجْ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَلاَ تَنسَوا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ والعِشْرونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ والسَّبْعونَ

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ
رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ
يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ
خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الصَّلاةِ الوُسْطى : صَلاةُ العَصْرِ .

قانِتينَ : مُطيعينَ خاشِعينَ .

فَرِجالاً : ماشينَ عَلى أَرْجُلِكُمْ .

رُكْباناً : راكِبينَ عَلى دوابِّكُمْ .

مَتاعاً إِلى الحَوْلِ : ما يُتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ سَكَنٍ وَنَفَقَةٍ إِلى نِهايَةِ السَّنَةِ .

التَّفْسيرُ :

بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَحْكامَ العِدَّةِ والطَّلاقِ ، وَفي هَذِهِ الآياتِ اسْتِكْمالٌ لِما بَقِيَ مِنْ أَحْكامِ هَذِهِ القَضِيَّةِ ، وَبَدَأَتْ بِالحَثِّ عَلى الصَّلاةِ ، قالَ تَعالى :

﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ .

﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ داوِموا عَلى أَداءِ الصَّلواتِ جَميعِها في أَوْقاتِها في

خُشوعٍ وَخُضوعٍ للهِ تَعالى ، وحافِظوا بِصِفَةٍ خاصَّةٍ عَلى الصَّلاةِ الوُسْطى لِما لَها مِنْ مَنْزِلَةٍ عالِيَةٍ ، فَقَدْ أُفْرِدَتِ الصَّلاةُ الوُسْطى تَفْخيماً لِشأْنِها ، وَفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿حَافِظُوا﴾ تَنْبيهٌ إِلى أَنَّ الصَّلاةَ شَيءٌ ثَمينٌ يَجِبُ عَلى الإِنْسانِ أَنْ يَصونَهُ وَيَضْبِطَهُ . والمُحافَظَةُ صيغَةُ مُفاعَلَةٍ تَكونُ بَيْنَ اثْنَيْنِ لِتَدُلَّ عَلى أَنَّ هَذِهِ المُحافَظَةَ تَكونُ بَيْنَ العَبْدِ والرَّبِّ ؛ أَي : احْفَظِ الصَّلاةَ لِيَحْفَظَكَ اللهُ مِنَ ارتِكابِ المَعاصي ، وَتَشْفَعَ لَكَ عِنْدَ اللهِ تَعالى يَوْمَ القِيامَةِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ العُلَماءُ في تَحْديدِ الصَّلاةِ الوُسْطى ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَرى أَنَّها صَلاةُ العَصْرِ ، لأَنَّها تَقَعُ بَيْنَ صَلاتَيِّ النَّهارِ وَصَلاتَيِّ اللَّيْلِ ، وَلِما رُوِيَ عَنْ عَلي بنِ أَبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : « قالَ رسولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ : حَبَسونا عَنِ الصَّلاةِ الوُسْطى حَتَّى غابَتِ الشَّمْسُ ، ، مَلأَ اللهُ قُلوبَهُمْ وَبُيوتَهُمْ ناراً »[(١)] .

﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ أَي : قوموا خاشِعينَ للهِ ، مُسْتَشْعِرينَ هَيْبَتَهُ ، وَعَظَمَتَهُ . وَالصَّلاةُ لا تَكونُ كامِلَةً تَتَحَقَّقُ فائِدَتُها إِلاَّ إِذا تَفَرَّغَ الإِنْسانُ مِنْ كُلِّ فِكْرٍ وَعَمَلٍ يَشْغَلُ عَنْ حُضورِ قَلْبِهِ وَخُشوعِهِ . عَنْ زَيْدِ بنِ أَرْقَمٍ قالَ : كُنّا نَتَكَلَّمُ في الصَّلاةِ ، يُكَلِّمُ أَحَدُنا أَخاهُ في حاجَتِهِ ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ ، فَأُمِرْنا بِالسُّكوتِ[(٢)] .

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ .

وَيُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَلى الأَمْرِ بِالمُحافَظَةِ عَلى الصَّلاةِ فَيَقولُ :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ ﴾ إِنْ خِفْتُمْ أَيَّ ضَرَرٍ عِنْدَ قِيامِكُمْ قانِتينَ فَصَلّوا كَيْفَما تَيَسَّرَ لَكُمْ ، راجِلينَ أَوْ راكِبينَ ، وَهَذا دَليلٌ عَلى شِدَّةِ عِنايَةِ الإِسْلامِ بِشَأْنِ الصَّلاةِ ، وَبَيانٌ أَنَّها لا تَسْقُطُ بِأَيِّ حالٍ لأَنَّ حالَ الخَوْفِ عَلى النَّفْسِ أَوْ العِرْضِ أَوْ المالِ هُوَ مَظَنَّةُ العُذْرِ في تَرْكِ الصَّلاةِ ، كَما يَكونُ السَّفَرُ عُذْراً في تَرْكِ الصَّلاةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّها في هَذِهِ الحالِ لا تَسْقُطُ ؛ لأَنَّ الصَّلاةَ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ ، وَإِنَّما فُرِضَتْ تِلْكَ الأَعْمالُ الظَّاهِرَةُ لأَنَّها تُساعِدُ عَلى العَمَلِ القَلْبِيِّ المَقْصودِ بِالذَّاتِ ، وَهُوَ تَذَكُّرُ سُلْطانِ اللهِ تَعالى المُسْتَوْلي عَلَيْنا وَعلى العالَمِ كُلِّهِ ، وَالإِنْسانُ إِذا أَرادَ عَمَلاً قَلْبِيّاً اسْتَعانَ عَلَيْهِ بِبَعْضِ ما يُناسِبُهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَهَذِهِ الهَيْئَةُ والطَّريقَةُ الَّتي اخْتارَها اللهُ تَعالى لِلْصَّلاةِ هِيَ أَفْضَلُ ما يُعينُ عَلى اسْتِحْضارِ سُلْطانِ اللهِ تَعالى ، فَفي قَوْلِ الإِنْسانِ (اللهُ أَكْبَرُ) في بِدايَةِ الصَّلاةِ وَعِنْدَ الانْتِقالِ مِنْ عَمَلٍ إِلى عَمَلٍ يُعْطي المُصَلِّي مِنَ الشُّعورِ بِأَنَّ اللهَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ ، وَإِذا تَعَذَّرَ عَلى الإِنْسانِ الإِتيانُ بِبَعْضِ الأَعْمالِ البَدَنِيَّةِ ، فَالصَّلاةُ لا تَسْقُطُ لأَنَّها عِبادَةٌ قَلْبِيَّةٌ .

---

(١) أخرجه الإمام البخاري ، كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، حديث رقم ٦٠٣٣ .
(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب : (وقوموا لله قانتين) حديث رقم ٤٢٦٠ .

﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ إذا زالَ الخَوْفُ وَأَمِنْتُمْ فاشْكُروا اللهَ تَعالى عَلى هَذا الأَمْنِ ، وَاذْكُروهُ بِالعِبادَةِ ، كَما أَحْسَنَ إِلَيْكُمْ بِما عَلَّمَكُمْ مِنَ الشَّرائِعِ عَلى لِسانِ نَبِيِّهِ ، كَيْفَ تُصَلُّونَ في حَالِ الأَمْنِ ، وَكَيْفَ تُصَلُّونَ في حَالِ الخَوْفِ .

وانْتَقَلَتِ الآيَةُ لِتَتَحَدَّثَ عَنِ الأَحْكامِ المُتَمِّمَةِ لأَحْكامِ الزَّواجِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (٢٤٠) ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ ﴾ أَي : الَّذينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ ، وَيَتْرُكونَ زَوْجاتِهِمْ بَعْدَهُمْ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُوصوا لَهُنَّ وَصِيَّةً ، وَهِيَ شَيءٌ مِنَ المالِ تَتَمَتَّعُ بِهِ المَرْأَةُ ، وَتُنْفِقُ مِنْهُ عَلى نَفْسِها مُدَّةَ الحَوْلِ ، وَلا يَخْرُجْنَ مِنَ البُيوتِ مُدَّةَ سَنَةٍ كامِلَةٍ ، تَمُرُّ فِيها الفُصولُ الأَرْبَعَةُ ، تَتَذَكَّرُ فيها المَرْأَةُ زَوْجَها الَّذي تُوُفِّيَ .

﴿ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ ﴾ أَي : إِنْ خَرَجْنَ مِنْ مَنْزِلِ الزَّوْجِيَّةِ مِنْ تِلْقاءِ أَنْفُسِهِنَّ ، وَبِرِضاهِنَّ وَرَغْبَتِهِنَّ ، فَلا إِثْمَ عَلَيْكُمْ أَيُّها المُخاطَبونَ بِالوَصِيَّةِ ، فيما فَعَلَتِ النِّساءُ في أَنْفُسِهِنَّ مِنْ أُمورٍ لا يُنْكِرُها الشَّرْعُ ، مِثْلَ التَّعَرُّضِ لِلْخُطّابِ بَعْدَ العِدَّةِ ، وَالتَّزَيُّنِ وَالتَّطَيُّبِ وَالتَّزَوُّجِ ، ما دامَتِ العِدَّةُ قَدِ انْتَهَتْ ، إِذ لا وِلايَةَ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ فَهُنَّ حَرائِرُ لا يُمْنَعْنَ مِنْ ذَلِكَ .

﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ اللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ يُعاقِبُ مَنْ خالَفَهُ ، حَكيمٌ يُراعي في أَحْكامِهِ مَصالِحَ عِبادِهِ ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ خَفَّفَ عَلى المَرْأَةِ المُتَوَفّى عَنْها زَوْجُها ، فَبَعْدَ أَنْ كانَتْ عِدَّتُها حَوْلاً كامِلاً صارَتْ عِدَّتُها أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً .

﴿ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ (٢٤١) ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ بِأَنَّ المُتْعَةَ شُرِعَتْ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ ، وَالمُتْعَةُ ـ كَما عَرَفْنا ـ شَيءٌ مِنَ المالِ يَدْفَعُهُ الزَّوْجُ تَنْتَفِعُ بِهِ المَرْأَةُ مُدَّةً مِنَ الوَقْتِ ، وَهَذا المَتاعُ يُقَدَّرُ بِقَدَرِهِ حَسَبَ الزَّمَنِ وَحَسَبَ حَالِ المُطَلِّقِ ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ تَعالى حَقّاً عَلى المُتَّقينَ الَّذينَ يَصونونَ أَنْفُسَهُمْ عَمَّا يُبْغِضُهُ اللهُ تَعالى ، وَيَخافونَ عِقابَهُ ، فَهُمُ الَّذينَ يَجودونَ بِالمالِ تَطْييباً لِلْقُلوبِ ، وَهَذا الحَقُّ جُعِلَ عَلى المُطَلِّقِ ، جَبْراً لِوَحْشَةِ الفِراقِ ، وَإِزالَةً لِما قَدْ يَكونُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مِنْ شِقاقٍ ، وَتَخفيفاً لِما قَدْ يُحيطُ جَوَّ الطَّلاقِ مِنْ تَنافُرٍ وَتَخاصُمٍ وَعَدَمِ وِفاقٍ .

هَذا المَتاعُ كَما بَيَّنَتِ الآياتُ هُوَ ما يُعْطيهِ الرَّجُلُ لِلْمَرْأَةِ المُطَلَّقَةِ زِيادَةً عَلى الحُقوقِ المُقَرَّرَةِ لَها

شَرْعاً مِنْ نَفَقَةٍ وَغَيْرِها . وَالمُطَلَّقاتُ أَصْنافٌ أَرْبَعَةٌ ، كَما عَرَفْنا مِنَ الآياتِ :

١ـ مُطَلَّقَةٌ مَدْخولٌ بِها وَقَدْ فُرِضَ لَها مَهْرٌ .

٢ـ مُطَلَّقَةٌ غَيْرُ مَدْخولٍ بِها وَلا مَفْروضٌ لَها .

٣ـ مُطَلَّقَةٌ غَيْرُ مَفْروضٍ لَها وَ مَدْخولٌ بِها .

٤ـ مُطَلَّقَةٌ مَفْروضٌ لَها وَغَيرُ مَدْخولٍ بِها .

وَخُتِمَتِ الآياتُ المُتَحَدِّثَةُ عَنْ أَحْكامِ الأُسْرَةِ بِقَولِهِ تَعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ .

أَي : مِثْلَ هَذا البَيانِ الحَكيمِ الواضِحِ الَّذي بَيَّنَهُ لَكُمْ مِنَ الأَحْكامِ السَّابِقَةِ ، يُبَيِّنُ لَكُمْ جَميعَ آياتِهِ وَأَحْكامِهِ الَّتي أَنْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ بحاجَةٍ إِلَيْها ، حَتَّى تَفْهَموا ما فيها وَتَعْقِلوهُ ، وَتَعْمَلوا بِهِ فَتَنالوا السَّعادَةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ . وَمَعْنى ﴿تَعْقِلُونَ﴾ أَي : تَتَدَبَّرونَ الأَشْياءَ وَتُذْعِنونَ لِما أُودِعَ فِيها مِنَ الحِكَمِ إِذْعاناً يَكونُ لَهُ الأَثَرُ في الأَعْمالِ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُحافَظَةُ عَلى الصَّلاةِ وَالمُداوَمَةُ عَلَيْها يَغْرِسُ في النَّفْسِ مُراقَبَةَ اللهِ ، وَخَشْيَةَ عِقابِهِ ، وَالإعانَةَ عَلى العَدْلِ وَالإِحْسانِ ، وَتَصْرِفُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ .

٢ـ رَحْمَةُ اللهِ تَعالى في التَّخْفيفِ عَلى النّاسِ ، وَعَدَمِ تَكْليفِهِمْ ما لا يُطيقونَهُ .

٣ـ ضَرورَةُ المُحافَظَةِ عَلى الصَّلاةِ في كُلِّ حالٍ ؛ حالِ الأَمْنِ والخَوْفِ ، وَحالِ الصِّحَةِ والمَرَضِ وَحالِ القُدْرَةِ والعَجْزِ .

٤ـ مَنْ أَدَّى حقَّ اللهِ تَعالى في نفسِهِ وفي غيرِهِ لا يَضُرُّهُ فسادُ النَّاسِ .

٥ـ لا يُؤاخَذُ الإنسانُ بجريرةِ غيرِهِ ما دامَ قَدْ أَدَّى الَّذي عليهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنِ الصِّلَةَ بَيْنَ ما ذُكِرَ سابقاً مِنَ الأَحْكامِ التَّشْريعيَّةِ وَبَيْنَ الأَمْرِ بالحِفاظِ عَلى الصَّلاةِ .

٢ـ ما سِرُّ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ : ﴿حَافِظُوا﴾ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بـ : ﴿ٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ ؟ اذْكُرِ الدَّليلَ .

٤ـ اذْكُرْ سَبَبَ نُزولِ هَذِهِ الآيَةِ ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ .

٥ـ اسْتَنْتِجْ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ .

٦ـ ما الأَحْكامُ الَّتي عَلَّمَتْنا إِيّاها هَذِهِ الآياتُ ؟

٧ـ ما حُكْمُ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم ﴾ ؟ هَلْ هِيَ مَنْسوخَةٌ ؟ بيِّنْ ذلِكَ .

٨ـ اذْكُرْ أَصْنافَ المُطَلَّقاتِ ، مُبَيِّناً حَقَّ كُلِّ مُطَلَّقَةٍ .

٩ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ إِعْطاءِ المَرْأَةِ مُتْعَةً بَعْدَ الطَّلاقِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبِ الآيَةَ الدّالَّةَ عَلى أَنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ .

٢ـ هُناكَ صَلاةٌ تُسَمَّى صَلاةَ الخَوْفِ ، ما المَقْصودُ بِها ؟ وَكَيْفَ يُؤَدِّيها المُصَلِّي ؟

٣ـ ذَكَرْنا لَكَ أَنواعَ المُطَلَّقاتِ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُبَيِّنَ حُقوقَ كُلِّ مُطَلَّقَةٍ . اكْتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ ارْجِعْ إِلى أَحَدِ كُتُبِ التَّفْسيرِ ، وَاكْتُبْ في دَفْتَرِكَ بَقِيَّةَ آراءِ المُفَسِّرينَ في المَقْصودِ مِنَ الصَّلاةِ الوُسْطى وَدَليلَهُمْ ، وَفي القَوْلِ بِنَسْخِ مُدَّةِ الحَوْلِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنُ وَالعِشْرونَ

سُورَةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ الرَّابِعُ والسَّبْعونَ

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ
أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حَذَرَ : خَشْيَةَ .

يُقْرِضُ : القَرْضُ : يُقالُ أَقْرَضْتُهُ ؛ أَيْ : قَطَعْتُ لَهُ مِنْ مالي قِطْعَةً .

حَسَناً : مِنْ مالٍ حَلالٍ ، وَمِنْ طيبِ نَفْسٍ .

يَقْبِضُ : القَبْضُ الإِمْساكُ وَالتَّضْييقُ وَهُوَ ضِدُّ البَسْطِ .

يَبْسُطُ : يَمُدُّ وَيُوَسِّعُ .

التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنِ الأَحْكامِ الَّتي تَتَعَلَّقُ بِالأُسْرَةِ ، وَهَذِهِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ بَعْضِ الأَحْكامِ الَّتي تَتَعَلَّقُ بِالأُمَمِ ، مِنْ ناحِيَةِ دِفاعِها وَحِفْظِ كَيانِها بِمُقاتَلَةِ المُعْتَدينَ عَلَيْها ، وَبَذْلِ المالِ وَالرُّوحِ في سَبيلِ ذَلِكَ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ
أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ .

قالَ تَعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ ﴾ الخِطابُ لِكُلِّ مَنْ يَتْلو القُرْآنَ وَيَتَدَبَّرُهُ ، وَيَدْخُلُ فيهِ دُخولاً

أَوَلِيّاً النَّبِيُّ ﷺ ، وَالاسْتِفْهامُ لِلتَّعَجُّبِ وَالاعْتِبارِ ، وَالرُّؤْيَةُ في قَوْلِهِ ﴿تر﴾ بِمَعْنى العِلْمِ ، أَيْ أَلَمْ تَعْلَمْ . وَمَعْنى الآيَةِ : قَدْ عَلِمْتَ أَيُّها الرَّسولُ ﷺ وَيا قارِئَ القُرْآنِ حالَ أُولَئِكَ القَوْمِ ، الَّتي بَلَغَتْ مَبْلَغاً عَظيماً مِنَ العَجَبِ ، فَهُمْ قَوْمٌ بَلَغوا حَدّاً كَبيراً مِنَ الكَثْرَةِ ﴿أُلُوف﴾ وَهِيَ جَمْعُ أَلْفٍ تَدُلُّ عَلى الكَثْرَةِ ، أَيْ أُلوفاً مُؤَلَّفَةً ، وَالأُمَّةُ الَّتي وَصَلَ عَدَدُ أَفْرادِها هَذا الحَدَّ ، يَنْبَغي أَنْ تَدْفَعَها كَثْرَتُها إِلى الشَّجاعَةِ ، والاطْمِئْنانِ ، وَعَدَمِ خَوْفِها مِنَ المَوْتِ وَمُلاقاةِ العَدُوِّ إِلى الهَرَبِ مِنَ الوَطَنِ . لَقَدْ تَخَيَّلَ أَفْرادُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَنَّ الهَرَبَ وَالفِرارَ مِنَ القِتالِ هُوَ الَّذي سَيَقيهِمْ مِنَ المَوْتِ .

وَلَكِنْ مَنْ هِيَ هَذِهِ الأُمَّةُ ، أَيْنَ كانَتْ ، ومَتى ؟! إِنَّ هَذِهِ الأُمورَ لَمْ تُحَدِّثْنا عَنْها الآياتُ القُرْآنِيَّةُ ، فَقَدْ أَبْهَمَها القُرْآنُ وَسَكَتَ عَنْها ، وَلِذا يَجِبُ عَلَيْنا كَذَلِكَ أَنْ نَسْكُتَ عَمَّا سَكَتَ عَنْهُ القُرْآنُ الكَريمُ .

هَؤُلاءِ ـ إِذَنْ ـ خَرَجوا حَذَرَ المَوْتِ ، وَكَلِمَةُ : حَذَرَ ، مَفْعولٌ لأَجْلِهِ مَنْصوبٌ ، وَخُروجُهُمْ هَذا حَمَلَهُمْ عَلَيْهِ حِرْصُهُمْ عَلى الحَياةِ أَيّاً كانَتْ ، وَلَوْ كانَتْ حَياةَ ذُلٍّ وَمَهانَةٍ ، وَكانَتْ عُقوبَتُهُمْ أَنْ أَماتَهُمُ اللهُ تَعالى فَقالَ لَهُمْ : ﴿مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ لَقَدْ أَماتَهُمُ اللهُ تَعالى . وَقَدْ يَكونُ هَذا المَوْتُ عَلى الحَقيقَةِ ، أَي : أَماتَهُمْ حَقيقَةً بِسَبَبِ تَسَلُّطِ العَدُوِّ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ يَكونُ مَوْتُهُمْ مَجازاً ، وَذَلِكَ بِأَنْ مَكَّنَ اللهُ تَعالى عَدُوَّهُمْ مِنْهُمْ ، فَنَكَّلَ بِهِمْ وَأَفْنى قُوَّتَهُمْ وَأَزالَ مُلْكَهُمْ ، فَتَفَرَّقَ شَمْلُهُمْ ، وَمَنْ كانَ كَذَلِكَ فَهُوَ وَالمَيِّتُ سَواءٌ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَحْياهُمُ اللهُ تَعالى بِأَنْ أَعادَ إِلَيْهِمْ قُوَّتَهُمْ واسْتِقْلالَهُم ، فَجَمَعوا كَلِمَتَهُمْ وَوَثَّقوا رابِطَتَهُمْ .

لَقَدْ بَيَّنَتِ الآيَةُ لِهَؤُلاءِ أَنَّ الفَزَعَ والجَزَعَ وَالخُروجَ مِنَ الدِّيارِ وَالحَذَرَ ، لَمْ يُغَيِّرْ مَصيرَهُمْ ، وَلَمْ يَمْنَعْ عَنْهُمُ المَوْتَ ، وَلَمْ يَرُدَّ عَنْهُمْ قَضاءَهُ ، وَكانَ الأَوْلى بِهِمْ أَنْ يَثْبُتوا ويَصْبِروا .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ إِنَّ اللهَ تَعالى هُوَ صاحِبُ الفَضْلِ عَلى الخَلْقِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وَتَعالى المُتَفَضِّلُ بِمَنْحِ الحَياةِ لِلْنَّاسِ ، وَهُوَ القادِرُ عَلى اسْتِرْدادِ هَذِهِ الحَياةِ ، وَللهِ حِكْمَةٌ في كُلِّ شَيءٍ ، وَالقِلَّةُ القَليلَةُ مِنَ النَّاسِ الَّتي تُدْرِكُ حِكْمَةَ اللهِ تَعالى في الإِحْياءِ وفي الإِماتَةِ فَتَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بالشُّكْرِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَأْمُرَ المُؤْمِنينَ بِالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ :

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ .

قاتِلوا أَيُّها المُسْلِمونَ في سَبيلِ اللهِ ، فَالمَوْتُ وَالحَياةُ بِيَدِ اللهِ ، فَقاتِلوا في سَبيلِ إِعلاءِ كلمةِ اللهِ والدفاعِ عَن دينِ اللهِ ، فلا يَنبغي أَنْ يُقْعِدَكُمْ حُبُّ الحياةِ والحَذرُ مِنَ المَوْتِ عَنِ الجِهادِ في سبيلِ اللهِ لا في سَبيلِ غايَةٍ أُخْرى ، وَتَحْتَ رايَةِ الإِسْلامِ لا تَحْتَ رايَةٍ أُخْرى ، واعْلَموا أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ القَوْلَ

وَيَعْلَمُ ما وَراءَهُ ، يَسْمَعُ فَيَسْتَجيبُ ، وَيَعْلَمُ ما يُصْلِحُ الحَياةَ والقُلوبَ .

وَالجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى بَذْلٌ وَتَضْحِيَةٌ ، والبَذْلُ وَالإِنْفاقُ في القُرْآنِ يَأْتي غالِباً مُقْتَرِناً بِذِكْرِ الجِهادِ . وَهُنا جاءَ التَّوْجيهُ الإِلهِيُّ بِبَذْلِ المالِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ .

(مَّن) اسْمُ الاسْتِفْهامِ جاءَ لِلحَضِّ عَلى البَذْلِ والعَطاءِ ، وَحَمْلِ المُؤْمِنينَ عَلى تَقْديمِ المالِ وَعَدَمِ البُخْلِ بِهِ ، فَالمُؤْمِنُ الصّادِقُ هو الَّذي يُقَدِّمُ مالَهُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وَيُقَدِّمُ مالَهُ في وُجوهِ الخَيْرِ الكَثيرَةِ ، وَفي قَوْلِهِ : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ حَثٌّ عَلى إِخْلاصِ النِّيَّةِ وَتَحَرِّي الحَلالِ فِيما يُنْفِقُهُ الإِنْسانُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَتَقَبَّلُ العَمَلَ الصّالِحَ وَيُضاعِفُهُ لِمَنْ قَصَدَ بِهِ وَجْهَهُ سُبْحانَهُ ، وَلِمَنْ أَنْفَقَ طَيِّبَ مالِهِ ، فاللهُ تَعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ ما كانَ طَيِّباً .

لَقَدْ بَيَّنَتِ الآيَةُ أَنَّ المَوْتَ وَالحَياةَ بِيَدِ اللهِ ، فَالحَياةُ لا تَذْهَبُ بِالقِتالِ إِذا قَدَّرَ اللهُ لَها البَقاءَ . وَهَذِهِ الآيَةُ تُبَيِّنُ أَنَّ المالَ كَذَلِكَ لا يَذْهَبُ بِالإِنْفاقِ ، إِنَّما هُوَ قَرْضٌ حَسَنٌ للهِ ، مَضْمونٌ عِنْدَهُ ، يُضاعِفُهُ أَضْعافاً كَثيرَةً ، يُضاعِفُهُ في الدُّنْيا بِالبَرَكَةِ وَالزِّيادَةِ ، وَيَجْعَلُهُ سَبَبَ الرّاحَةِ والسَّعادَةِ ، وَيُضاعِفُهُ في الآخِرَةِ نَعيماً وَمَتاعاً وَرِضىً وَقُرْباً مِنَ اللهِ تَعالى .

إِنَّ مَوْضوعَ الغِنى والفَقْرِ يَرْجِعُ إِلى اللهِ تَعالى ، وَحْدَهُ ، فَهُوَ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ، وَيُعْطي وَيَمْنَعُ ، فَلِماذا يَبْخَلُ النّاسُ وَلا يَبْذُلونَ المالَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ؟! وَالمَرْجِعُ في النِّهايَةِ لَنْ يَكونَ إِلاَّ إِلى اللهِ تَعالى ، وَإِذا كانَ اللهُ سُبْحانَهُ يَقْبِضُ الرّوحَ وَيُطْلِقُها ، وَيَقْبِضُ المالَ ويَبْسُطُهُ ، فَلِماذا يَفْزَعُ النّاسُ مِنَ المَوْتِ ، وَلِماذا يَخافونَ الفَقْرَ ؟ فَلْيُجاهِدِ المُوقِنونَ في سَبيلِ اللهِ ، وَلْيُقَدِّموا أَرْواحَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ ، وَلْيَعْلَموا أَنَّ الآجالَ مَعْدودَةٌ ، وَأَنَّ الأَرْزاقَ مَقْدورَةٌ ، وَأَنَّ مِنَ الخَيْرِ لَهُمْ أَنْ يَعيشوا حياةً قَوِيَّةً شُجاعَةً كَريمَةً .

لَقَدْ جاءَتْ هذهِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ واقِعِ المُسْلِمينَ يَوْمَئِذٍ ، وَما أَصابَهُمْ مِنْ ظُلْمٍ واسْتِبْدادٍ ، وَانْتِهاكٍ لِلْحُرِّيّاتِ ، فَجَعَلَتْ تُحَرِّضُ المُسْلِمينَ عَلى القِتالِ ، لإِعادَةِ هَذا الحَقِّ المَسْلوبِ مِنْهُمْ ، وَحَذَّرَتْهُمْ مِنْ سوءِ عاقِبَةِ الجُبْنِ والخُنوعِ . وَما أَحْوَجَ المُسْلِمينَ اليَوْمَ إِلى تَدَبُّرِ هَذِهِ الآياتِ ، فَهِيَ تَصِفُ حالَهُمْ وَقَدْ أَصابَهُمُ الفَزَعُ والهَلَعُ والخُنوعُ مِمَّا جَعَلَ أُمَمَ الكُفْرِ وَالطُّغْيانِ تَسْتَبِدُّ بِهِمْ ، وَتَتَجَبَّرُ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ مُسْتَكينونَ راضونَ بِالذُّلِ !! فَإِلى مَتى ؟! .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الحَذَرُ مِنَ المَوْتِ لا يُجْدي ، وَالفَزَعُ وَالهَلَعُ لا يَزيدانِ حَياةً ولا يَمُدّانِ أجَلاً ، ولا يَرُدّانِ قَضاءً .

٢ـ الحضُّ عَلى الإِنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَبَذْلُ المالِ ، فَالرِّزْقُ بِيَدِ اللهِ تَعالى ، وَهُوَ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ .

٣ـ الإِخْلاصُ للهِ تَعالى ، وَتَحَرِّي الحَلالِ فِيما يُنْفِقُهُ الإِنْسانُ ، سَبَبانِ رَئيسِيّانِ في قُبولِ الأَعْمالِ وَمُضاعَفَةِ الأُجورِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ؟

٢ـ بَيِّنْ مَعْنى كَلِمَةِ ﴿تَرَ﴾ وما تَدُلُّ عَلَيْهِ .

٣ـ مَنِ الأُمَّةُ الَّتي تَحَدَّثَتْ عَنْها الآياتُ ؟ وَضِّحْ ذلكَ .

٤ـ ما المَقْصودُ بالإِماتَةِ وَالإِحْياءِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ ؟

٥ـ هَاتِ ما تَسْتَنْتِجُهُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ .

٦ـ بِماذا جاءَ الاسْتِفْهامُ ﴿مَّن﴾ في قَوْلِهِ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ﴾ ؟

٧ـ عَرِّفِ القَرْضَ .

٨ـ لِمَ قالَ سُبْحانَهُ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ ؟

٩ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ ﴿يَقْبِضُ وَيَبْسطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دفترِكَ تَوْضيحَ عِبارَةِ : اطلبوا الموتَ تُوهَبُ لَكُمُ الحَياةُ ، وَعَلى ماذا تَدُلُّ هَذهِ العِبارَةُ ؟

٢ـ مَتى يَكونُ قِتالُ المُسْلِمينَ في سَبيلِ اللهِ ؟ اكْتُبْ حَديثاً يَدُلُّ عَلى ذَلِكَ .

الدَّرْسُ التَّاسِعُ والعِشْرونَ

سورَةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ الخامِسُ والسَّبْعونَ

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا
نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ
طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً
مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى
مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **المَلأ** : الأَشْرافُ مِنَ النّاسِ .
- **هَلْ عَسَيْتُمْ** : الاسْتِفْهامُ لِلتَّقْريرِ والتَّحْذيرِ ، وَعَسى : كَلِمَةٌ تُفيدُ توقُّعَ حُصولِ الأَمْرِ ، وَقُرْبَ تَحَقُّقِهِ .
- **كُتِبَ** : فُرِضَ .
- **اصْطَفاهُ** : فَضَّلَهُ .
- **بَسْطَةً في العِلْمِ** : زِيادَةً في العِلْمِ .
- **بَسْطَةً في الجِسْمِ** : قُوَّةً في الجِسْمِ .



التَّفسيرُ :

تَتَحَدَّثُ الآياتُ عَنْ قِصَّةِ قَوْمٍ مِنْ بَني إسْرائيلَ بَعْدَ نَبيِّ اللهِ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ ، أُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَبْنائِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ ضَعُفوا عَنِ الدِّفاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَتَوَلَّوْا وَأَعْرَضوا عَنِ القِتالِ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ الاسْتِفْهامُ جاءَ لِلتَّعَجُّبِ والاعْتِبارِ ، وَ ﴿ تَرَ ﴾ بِمَعْنى العِلْمِ ، أَي : أَلَمْ تَعْلَمْ ، وَقَدْ عُبِّرَ بِالمُضارِعِ لاسْتِحْضارِ المَشاهِدِ ، كَأَنَّها حادِثٌ واقِعٌ وَمَشْهَدٌ مَنْظورٌ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : أَلَمْ يَنْتَهِ إِلى عِلْمِكَ حالُ أُولَئِكَ القَوْمِ مِنْ بَني إسْرائيلَ الَّذينَ كانوا بَعْدَ مَوْتِ مُوسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقْتَ أَنْ (قالوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ : ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ في سَبيلِ اللهِ) وَقَدْ جاءَتْ كَلِمَةُ نَبِيٍّ مُنَكَّرَةً ، لِيُبَيِّنَ لَنا سُبْحانَهُ أَنَّ العِبْرَةَ لَيْسَتْ في اسْمِ هَذا النَّبِيِّ ، وَإِنَّما المَقْصودُ مَعْرِفَةُ حالِ هَؤُلاءِ القَوْمِ . وَذِكْرُ اسْمِ النَّبِيِّ لا يَزيدُ في إيحاءاتِ القِصَّةِ شَيْئاً يُذْكَرُ .

لَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرافُ القَوْمِ إِلى نَبِيٍّ لَهُمْ ، وَطَلَبوا مِنْهُ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ مَلِكاً كَيْ يُقاتِلوا تَحْتَ إِمْرَتِهِ في سَبيلِ اللهِ ، هَكَذا حَدَّدوا هَدَفَهُمْ ، فَهُمْ أَصْحابُ دينٍ وَعَقيدَةٍ صَحيحَةٍ ، وَأَعْداؤُهُمْ عَلى ضَلالَةٍ وَكُفْرٍ وَباطِلٍ ، فَعَلَيْهِمْ ـ إِذَنْ ـ أَنْ يُقاتِلوا الباطِلَ والكُفْرَ لِيَنْتَصِرَ الحَقُّ والإيمانُ .

وَقَدْ أَرادَ نَبِيُّهُمْ أَنْ يَتَوَثَّقَ مِنْ صِدْقِهِمْ ، وَثَباتِهِمْ ، وَتَصْميمِهِمْ عَلى القِتالِ في سَبيلِ اللهِ فَقالَ لَهُمْ : ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ﴾ و ﴿ هَلْ ﴾ اسْتِفْهامٌ لِلتَّقْريرِ وَالتَّحْذيرِ ، أَي : إِنِّي أَتَوَقَّعُ عَدَمَ قِتالِكُمْ إِذا فُرِضَ عَلَيْكُمُ القِتالُ ، فَأَنْتُمُ الآنَ في سَعَةٍ مِنَ الأَمْرِ ، وَتَطْلُبونَ القِتالَ ، وَأَخافُ إِذا فُرِضَ عَلَيْكُمُ القِتالُ أَنْ تَتَخَلَّوْا عَنْهُ وَتَهْرُبوا مِنْهُ .

هَكَذا قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ، الَّذي أَطْلَعَهُ الوَحْيُ عَلى ما في نُفوسِهِمْ ، وَهُنا تَرْتَفِعُ أَصْواتُ المَلأِ بِحَماسٍ وَقُوَّةٍ ، ذاكِرينَ سَبَبَ طَلَبِهِمْ لِلْقِتالِ ، فَيَقولونَ ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ أَيُّ صارِفٍ يَصْرِفُنا عَنِ القِتالِ ، وَحالُنا أَنَّنا أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا ، وَفُرِّقَ بَيْنَنا وَبَيْنَ أَبْنائِنا ، فَالطَّريقُ الوَحيدُ أَمامَنا هُوَ قِتالُ أَعْدائِنا . وَلَكِنَّ هَذِهِ الحَماسَةَ لَمْ تَدُمْ ، فَهِيَ حَماسَةٌ في

ساعةِ رخاءٍ ، أمَّا وقتُ الشِّدَّةِ فيُحدِّثُنا القرآنُ عمَّا كانَ منهُم فيقولُ : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ وهَذِهِ هِيَ طَبيعةُ بَني إسْرائيلَ الَّتي حَدَّثَتْنا الآياتُ عَنْها كَثيراً مِنْ قَبْلُ ؛ نَقْضُ العَهْدِ ، والنُّكوصُ عَنِ التَّكاليفِ ، والتَّوَلِّي عَنِ الحَقِّ البَيِّنِ . فَلَّما فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمُ القتالُ وَهُمُ الَّذينَ طَلَبوهُ ، اعْرَضوا وَتَخَلَّوْا عَنِ الجِهادِ ، وَضَيَّعوا أَمْرَ اللهِ تَعالى ، بَعْدَ مُشاهَدَةِ العَدُوِّ وَقُوَّتِهِ ، إلاَّ قَليلاً مِنْهُمْ ثَبَتوا عَلى الحَقِّ ، أَمَّا الكَثيرونَ فَقَدْ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ ، فَهُمُ الَّذينَ تَوَلَّوا عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ ، قَبْلَ أَنْ يُواجِهوا عَدوَّهُمْ مُواجَهَةً عَمَلِيَّةً ، فَهُمْ ظالِمونَ لأَنْفُسِهِمْ ، وَظالِمونَ لِنَبِيِّهِمْ ، وَظالِمونَ لِلْحَقِّ الَّذي تَخَلَّوْا عَنْهُ .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ وَتَسْتَمِرُّ الآياتُ في بَيانِ صِفَةِ بَني إسْرائيلَ ، فَهُمْ لا يَثْبُتونَ عَلى رَأْيٍ وَيَكْثُرُ جِدالُهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، فَهُمُ الَّذينَ طَلَبوا مَلِكاً يُقاتِلونَ مَعَهُ في سَبيلِ اللهِ ، وَلَكِنْ هاهُمْ يُجادِلونَ في اخْتيارِ اللهِ لَهُمْ هَذا المَلِكَ ، وَيَسْتَنْكِرونَ أَنْ يَكونَ طالوتُ مَلِكاً عَلَيْهِمْ ﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ أي : كَيْفَ يَكونُ مَلِكاً عَلَيْنا ، والاسْتِفْهامُ لِلتَّعَجُّبِ ، تَعَجَّبوا مِنْ جَعْلِ طالوتَ مَلِكاً عَلَيْهِمْ ، وَالحالُ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالمُلْكِ لأَنَّهُمْ أَشْرَفُ نَسَباً ، وَأَكْثَرُ مالاً . إِنَّهُمْ قَوْمٌ طَغَتْ عَلَيْهِمُ المادَّةُ ، فَلا يَقيسونَ الأُمورَ إلاَّ بِالمِقْياسِ المادِّيِّ ، وَهَذِهِ أَيْضاً مِنْ سِماتِ بَني إِسْرائيلَ .

وَيُبَيِّنُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى المِقْياسَ الَّذي جَعَلَ طالوتَ أَحَقُّ بِالمُلْكِ ، فَالمِقْياسُ لَيْسَ مادِّيّاً ، وَإِنَّما اسْتَحَقَّ المُلْكَ لِلأُمورِ التَّالِيَةِ :

الأَوَّلُ : الاسْتِعْدادُ الفِطْرِيُّ لِلْمُلْكِ ، وَلِذا اصْطَفاهُ اللهُ ، واللهُ يَصْطَفي مَنْ يَشاءُ وَيَخْتارُ .

الثَّاني : السَّعَةُ في العِلْمِ الَّذي يَكونُ بِهِ مَعْرِفَةُ تَدْبيرِ أُمورِ الأُمَّةِ ، وَمَعْرِفَةُ مَواطِنِ ضَعْفِها وَقُوَّتِها .

الثَّالِثُ : البَسْطَةُ في الجِسْمِ ، والمَقْصودُ بِها كَمالُ قُوَّةِ الجِسْمِ وصِحَّتُهُ .

الرَّابِعُ : تَوْفيقُ اللهِ تَعالى لَهُ ، وَهَذا المَفْهومُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ واسِعُ التَّصَرُّفِ وَالقُدْرَةِ ، فَلَيْسَ لِعَطائِهِ سُبْحانَهُ أَيُّ حَدٍّ ، وَهُوَ يَعْلَمُ الخَيْرَ ، وَيَعْلَمُ كَيْفَ تُوضَعُ الأُمورُ في مَواضِعِها ، فَهُوَ يَضَعُ مِنَ السُّنَنِ والنُّظُمِ ما يَكونُ في غايَةِ الإِبْداعِ وَالحِكْمَةِ وَالإِتْقانِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الأُمَةُ الَّتي تَعْرِفُ أَنَّها عَلى الحَقِّ وَأَنَّ عَدُوَّها عَلى الباطِلِ ، وَلا تَنْهَضُ لِنُصْرَةِ هَذا الحَقِّ إِنَّما هِيَ مِنَ الظَّالِمينَ .

٢ـ المالُ لَيْسَ مِقْياساً ودليلاً عَلى صَلاحِ الإنْسانِ ، وَلَيْسَ رُكْناً مِنْ أَرْكانِ تَأسيسِ المُلْكِ ، وَلَكِنَّ المُلْكَ يُقامُ عَلى العِلْمِ وَالقُوَّةِ وَالأَمانَةِ إضافَةً إلى تَوفيقِ اللهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعْنى قَوْلِهِ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ .

٢ـ ما سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَرَ﴾ ؟

٣ـ ما الَّذي طَلَبَهُ بَنو إِسْرائيلَ مِنْ نَبِيِّهِمْ ؟

٤ـ مَنِ النَّبِيُّ الَّذي تَحَدَّثَتْ عَنْهُ الآياتُ ؟

٥ـ لَقَدْ كانَ النَّبِيُّ حَكيماً في مَعْرِفَةِ قَوْمِهِ وَمَعْرِفَةِ نَفْسِيَّاتِهِمْ . وَضِّحْ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ الآياتِ .

٦ـ قارِنْ بَيْنَ حالِ بَني إِسْرائيلَ قَبْلَ فَرْضِ القِتالِ وَبَعْدَهُ .

٧ـ اسْتَنْتِجْ مِنْ الآياتِ بَعْضَ صِفاتِ بني إِسْرائيلَ .

٨ـ مَنِ المَلِكُ الَّذي بَعَثَهُ اللهُ تَعالى لبني إِسرائيلَ ؟

٩ـ لِمَ اسْتَحَقَّ المَلِكُ المُلْكَ عَلى بَني إِسْرائيلَ ؟

* * *

الدَّرْسُ الثَّلاثونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ والسَّبْعونَ

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

آيَةَ : عَلامَةَ .

التَّابوتُ : صُنْدوقٌ وُضِعَتْ فيهِ بَعْضُ آثارِ مُوسى وَهارونَ عَلَيْهِما السَّلامُ .

سَكينَةٌ : ماتَسْكُنُ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَيَطْمَئِنُّ بِهِ القَلْبُ .

شَرِبَ : الشُّرْبُ : تَناوُلُ الماءِ بِالْفَمِ مِنْ مَوْضِعِهِ ، وَابْتِلاعُهُ دونَ أَنْ يَسْتَخْدِمَ أَداةً .

يَطْعَمْهُ : طَعِمَ : ذاقَ الشَّيءَ .

غُرْفَةً : الغُرْفَةَ : المِقْدارُ الَّذي يَكونُ في الكَفِّ عِنْدَ الاغْتِرافِ .

التَّفْسيرُ :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾ .

ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ نَبِيَّ بَني إِسْرائيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ بَيَّنَ لَهُمْ سَبَبَ اسْتِحْقاقِ طالوتَ لِلْمُلْكِ

عَلَيْهِمْ ، وَكَأَنَّ بَني إسْرائِيلَ لَمْ يَقْتَنِعوا بِما احْتَجَّ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحَقِّيَّةِ طالوتَ لِلْمُلْكِ ، فَأَرادَ نَبِيُّهُمْ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ بِأَنَّ الأَمْرَ خارِجٌ عَنْ إرادَتِهِ ، فَاللهُ هُوَ الَّذي بَعَثَهُ مَلِكاً ، وَسَيُؤَيِّدُهُ اللهُ بآياتِهِ لِتَكونَ عَلامَةً عَلى مُلْكِهِ ، لِيُذْعِنوا وَيُسَلِّموا تَسْليماً ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ العَلامَةَ الصَّادِقَةَ عَلى مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ التَّابوتُ ، وَهُوَ صُنْدوقٌ كانَ فيهِ بَعْضُ آثارِ مُوسى وَهارونَ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ كانَ هَذا التَّابوتُ عِنْدَهُمْ ، وَلَكِنَّ أَعْداءَهُمْ وَهُمُ العَمالِقَةُ (الفِلِسْطينِيُّونَ) قَدْ غَلَبوهُمْ وَشَرَّدوهُمْ ، وَسَلَبوا مِنْهُمْ مُقَدَّساتِهِمْ وَمِنْها التَّابوتُ . وَسَيَأْتيهِمُ التَّابوتُ لِتَسْكُنَ نُفوسُهُمْ وَتَطْمَئِنَّ ، وَلِيَكونَ عَلامَةً لَهُمْ عَلى اسْتِحقاقِ طالوتَ المُلْكَ ، عَلامَةً يَشْهَدونَها حَيْثُ جاءَتِ المَلائِكَةُ بِالتَّابوتِ وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ طالوتَ والنَّاسُ يَنْظُرونَ .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَي : في مَجيءِ التَّابوتِ لَكُمْ عَلامَةٌ عَلى عِنايَةِ اللهِ تَعالى بِكُمْ ، حَيْثُ اصْطَفى لَكُمْ هَذا المَلِكَ كَيْ يَقومَ عَلى شُؤونِكُمْ ، وَيُقاتِلَ عَدُوَّكُمْ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَرْضَوا بِمُلْكِهِ ، وَتُعاوِنوهُ كَيْ يَقودَكُمْ إلى السَّعادَةِ وَالفَلاحِ ، وَمِمَّا يُفْهَمُ مِنَ الآياتِ أَنَّ هَذِهِ العَلامَةَ قَد وَقَعَتْ ، وَحَصَلَ اليَقينُ مِنْ جِهَةِ بَني إسْرائِيلَ .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾ .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ ﴾ لَمَّا فَصَلَ طالوتُ بِالجُنودِ ، وَخَرَجَ بِهِمْ مِنَ البَلَدِ وَتَجاوَزَهُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ أَنَّ الَّذينَ مَعَهُ لا يَصْلُحونَ جَميعاً لِلْحَرْبِ ، بَلْ إِنَّ مِنْهُمُ المُثَبِّطينَ ، الَّذينَ لا يَزيدونَ المُحارِبينَ إِلاَّ خَبالاً ، فَلا بُدَّ إِذَنْ مِنْ أَنْ يُمَيِّزَ الخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، فَهُوَ مُقْدِمٌ عَلى مَعْرَكَةٍ ، وَمَعَهُ جَيْشٌ مِنْ أُمَّةٍ مَغْلوبَةٍ عَرَفَتِ الهَزيمَةَ وَالذُّلَّ في تَاريخِها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَلِيَتَمَيَّزَ الخَبيثُ مِنَ الطَّيِّبِ لا بُدَّ مِنَ الابْتِلاءِ ، لِاخْتِبارِ إِرادَةِ القَوْمِ ، الإِرادَةَ الَّتي تَضْبِطُ الشَّهواتِ والنَّزَواتِ ، وَتَصْمِدُ لِلْحِرمانِ وَالمَشاقِّ ، وَتَسْتَعْلي عَلى ضَرورِيَّاتِها وَاحْتِياجاتِها ، وَتُؤْثِرُ الطَّاعَةَ ، وَتَحْتَمِلُ التَّكاليفَ ، فَتَجْتازُ الابْتِلاءَ بَعْدَ الابْتِلاءِ ، لا بُدَّ لِلْقائِدِ مَنْ أَنْ يَمْتَحِنَ إرادَةَ جَيْشِهِ وَصُمودَهُ وَصَبْرَهُ ، وَلِذا اخْتارَ طالوتُ عَلَيْهِ السَّلامُ هَذا الابْتِلاءَ .

لَقَدْ بَيَّنَ لَهُمُ اللهُ تَعالى أَنَّهُ مُبْتَليهِم بِنَهَرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ حَرِيّاً بِالْقِتالِ ، وَلا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكونَ جُنْدِيّاً في المَعْرَكَةِ ، اللَّهُمَّ إِلاَّ إِذا اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، يَبُلُّ بِها شَفَتَيْهِ وَيُذْهِبُ بِها بَعْضَ ظَمَئِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ وَلَمْ يَذُقْهُ فَذَلِكَ في المَنْزِلَةِ الأُولى ، وَلَكِنْ ما الَّذي كانَ بَعْدَ ذَلِكَ ؟

لَقَدْ شَرِبوا مِنْهُ إلاّ قَليلاً مِنْهُمْ ، وَشَرِبوا وَارْتَوَوْا ، فَانْفَصلوا عَنْهُ ، لأَنَّهُمْ لا يَصْلُحونَ لِلْمُهِمَّةِ المُلْقاةِ عَلى عاتِقِهِمْ ، وَكانَ مِنَ الخَيْرِ وَالحَزْمِ أَنْ يَنْفَصِلوا عَنِ الجَيْشِ ، لأَنَّهُمْ بِذْرَةُ ضَعْفٍ وَخُذْلانٍ وَهَزيمَةٍ ، وَالنَّصْرُ لِلأُمَّةِ لا يَتَحَقَّقُ بِعَدَدِها ، وَلَكِنْ بِقُوَّةِ صُمودِها وَإِرادَتِها الحازِمَةِ وَإيمانِها الثّابِتِ .

وَلَمّا جاوَزَ طالوتُ النَّهْرَ هُوَ وَمَنْ آمَنَ وَقَدْ تَخَلَّفَتِ الكَثْرَةُ الكَثيرَةُ الَّذينَ شَرِبوا مِنَ النَّهْرِ ، انْقَسَمَتْ هَذِهِ الفِئَةُ القَليلَةُ الَّتي بَقِيَتْ مَعَ طالوتَ إلى فِئَتَيْنِ .

الأُولى : فِئَةٌ ضَعُفَتْ عِنْدَ مُشاهَدَةِ العَدُوِّ وَقُوَّةِ بَأْسِهِ ، فَقالَتْ : لا طاقَةَ لَنا اليَوْمَ بِجالوتَ وَجُنودِهِ . وَجالوتُ قائِدُ أَعْداءِ بَني إِسْرائيلَ .

الثّانِيَةُ : فِئَةٌ ثَبَتَتْ عَلى الحَقِّ ، وَهِيَ ذاتُ موازينَ رَبّانِيَّةٍ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لَقَدْ خالَطَتْ بَشاشَةُ الإيمانِ قُلوبَهُمْ ، وَخَشوا اللهَ تَعالى ، فَهُمْ يُؤْمِنونَ أَنَّ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ ، وَهاهُمْ يَرُدّونَ عَلى الفِئَةِ الأُولى بِقَوْلِهِمْ : وَيْحَكُمْ! مَتى كانَتِ الكَثْرَةُ سَبَباً في النَّصْرِ ؟! .

إنَّ الفِئَةَ المُؤْمِنَةَ قَليلَةٌ ، لأَنَّها هِيَ الَّتي تَرْتَقي الدَّرَجَ الشّاقَّ ، وَلَكِنَّها هِيَ الغالِبَةُ ، لأَنَّها تَتَّصِلُ بِالقُوَّةِ الغالِبَةِ ؛ قُوَّةِ اللهِ تَعالى الغالِبِ عَلى أَمْرِهِ ، القاهِرِ فَوْقَ عِبادِهِ . إِنَّنا كَثيراً ما رَأَيْنا الجَماعاتِ القَليلَةَ غَلَبَتِ الجَماعاتِ الكَثيرَةَ حينَ يَكْتُبُ اللهُ لَهُمُ التَّوْفيقَ بِمَشيئَتِهِ ، فَاللهُ لا يُذِلُّ مَنْ نَصَرَهُ وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهُ ، وَلا يُعِزُّ مَنْ خَذَلَهُ وَإِنْ كَثُرَتْ آلاتُهُ ، وَلِذَلِكَ نَجِدُهُمْ يَكِلونَ الأَمْرَ إِلى اللهِ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ .

وَهُمْ يَذْكُرونَ عِلَّةَ هَذا النَّصْرِ ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فَهُوَ يَنْصُرُهُمْ عَلى عَدُوِّهِمْ ، وَيُثَبِّتُهُمْ عِنْدَ لِقاءِ عَدُوِّهِمْ ، فَالصَّبْرُ هوَ الَّذي يُؤَدّي إِلى الغَلَبَةِ ، وَالثِّقَةُ بِاللهِ تَعالى عِنْدَ الشَّدائِدِ .

لَقَدْ رَكَّزَتِ الآياتُ القُرْآنِيَّةُ كَثيراً عَلى الصَّبْرِ وَحَثَّتْ عَلَيْهِ ، حَتّى لا تُصابَ الأُمَّةُ بِالضَّعْفِ وَالهَوانِ ، إِذِ الصَّبْرُ ضِدُّ الجَزَعِ ، وَالجَزَعُ صِفَةٌ يَكْرَهُها اللهُ وَرَسولُهُ ﷺ ، والجَزَعُ والعَجْزُ أَخَوانِ ، وَلَقَدْ نَهانا النَّبِيُّ ﷺ عَنِ العَجْزِ ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعيفِ »(١) . وَالعَجْزُ صِفَةٌ تَنْخُرُ كِيانَ الأُمَّةِ وَكِيانَ الإِنْسانِ كُلِّهِ ، وَتَحولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كُلِّ خَيْرٍ ، فَإِذا أَصْبَحَ العَجْزُ لِلإِنْسانِ خُلُقاً وَعادَةً ، فَإِنَّهُ يَحولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَلاوَةِ العِبادَةِ ، وَيَحْرِمُ الأُمَّةَ مِنْ نِعْمَةِ السَّعادَةِ ، وَيَسْلِبُها صِفاتِ القِيادَةِ وَالرِّيادَةِ .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٢٦٦٤ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ القائِدُ النَّاجِحُ هُوَ الَّذي يَتعَرَّفُ مَدى قُدْرَةِ رَعِيَّتِهِ وَشَعْبِهِ ، لِيَسْتَخْلِصَ مِنْهُمُ الجُنودَ المُخْلِصينَ .

٢ـ الأُمَّةُ المُتَّصِلَةُ بِاللهِ تَعالى ، الصَّابِرَةُ هِيَ الَّتي تنالُ نَصْرَ اللهِ تَعالى ، وَلَنْ تَنالَ نَصْرَهُ بِكَثْرَةِ عَدَدِها وَعُدَّتِها .

٣ـ الأُمَّةُ الَّتي يُصيبُها العَجْزُ تُحْرَمُ مِنْ نِعْمَةِ السِّيادَةِ عَلى الأُمَمِ ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَلِمَ زِمامَ القِيادَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلَةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ معانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليَةِ :

آيَةَ مُلْكِهِ ، اغْتَرَفَ غُرْفَةً ، التَّابوتُ ، يَطْعَمْهُ .

٢ـ لَقَدْ ذَكَرَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ آيَةً تَدُلُّ عَلى اسْتِحْقاقِ طالوتَ لِلْمُلْكِ ، هاتِ هَذِهِ العَلامَةَ مُوَضِّحاً لَها .

٣ـ أَرادَ طالوتُ أَنْ يَمْتَحِنَ الجُنودَ ، بِماذا امْتَحَنَهُمْ ؟

٤ـ ماذا كانَ مَوْقِفُ بَني إسْرائيلَ مِمَّا طَلَبَهُ مِنْهُمْ طَالوتُ عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٥ـ ما المَوْقِفُ الحازِمُ الَّذينَ اتَّخَذَهُ طالوتُ مَعَ المُخالِفينَ لأَمْرِهِ ؟

٦ـ انْقَسَمَ الجُنودُ الَّذينَ آمَنوا وَلازَموا طالوتَ إلى فِئَتَيْنِ ، بَيِّنْ مَوْقِفَ كُلِّ فِئَةٍ .

٧ـ اسْتَخْلِصِ الحِكْمَةَ مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعالى بالصَّبْرِ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دفْتَرِكَ اسْمَ النَّهْرِ الَّذي ذَكَرَتْهُ الآيَةُ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَعْرَكَتَيْنِ انْتَصَرَ فيهِما المُسْلِمونَ وَكانوا أَقَلَّ مِنْ أَعْدائِهِمْ .

٣ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ المعاجِمِ اللُّغَوِيَّةِ واسْتَخْرِجِ الفَرْقَ بَيْنَ الغَرْفَةِ والغُرْفَةِ .

* * *

الدَّرْسُ الحادي والثَّلاثونَ

سورَةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ السَّابِعُ والسَّبعونَ

وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ
وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ
ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

بَرَزوا : ظَهَروا .

أَفْرِغْ : الإِفْراغُ : الإِفاضَةُ .

الحِكْمَةَ : النُّبُوَّةَ .

التَّفسيرُ :

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾ .

لَقَدْ خَرَجَ الجُنودُ مَعَ طالوتَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِلْقِتالِ ، كَما جاءَ في الآياتِ السَّابِقَةِ ، وَلَمَّا بَرَزَ هُوَ وَمَن مَعَهُ مِنَ المُؤْمِنينَ لأَعْدائِهِمْ ، جالوتَ وَجُنودِهِ ، وَرَأَوْا ما عَلَيْهِ العَدُوُّ مِنْ كَثْرَةِ العَدَدِ والعُدَدِ ، عِنْدَ ذَلِكَ تَوَجَّهوا إِلى اللهِ تَعالى بِالدُّعاءِ ، سائِلينَ اللهَ تَعالى أُموراً ثَلاثَةً بِها يَتَحَقَّقُ النَّصْرُ مِنَ اللهِ تَعالى .

الأَوَّل : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا﴾ لأَنَّ الحَرْبَ لا بُدَّ لَها مِنَ الصَّبْرِ ، وَالمَعْنى : أَفْرِغْ عَلَيْنا أَتَمَّ صَبْرٍ وَأَبْلَغَهُ حَتَّى تَتَحَقَّقَ فينا صِفَةُ الصَّبْرِ كَأَحْسَنِ ما يَكونُ ، وَلِيَكونَ صَبْراً يَعُمُّنا جَميعاً .

الثَّاني : ﴿ وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ حَتَّى لا تَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبوتِها ، أَي : هَبْ لَنا مِنْ كَمالِ القُوَّةِ وَرَباطَةِ الجَأْشِ وَالرُّسوخِ عِنْدَ القِتالِ ما يَجْعَلُنا نَثْبُتُ أَمامَ أَعْدائِنا ، ونَتَمَكَّنُ مِنْ رِقابِهِمْ ، دُونَ أَنْ يَتَمَكَّنوا مِنَّا .

الثَّالِثُ : ﴿ وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ اجْعَلْ لَنا الغَلَبَةَ عَلَيْهِم ، وذَلِكَ لأَنَّنا نَحْنُ المُؤْمِنونَ بِكَ يا رَبُّ ، فَنَحْنُ عَلى حَقٍّ ، وَهُمْ عَلى باطِلٍ ، لأَنَّهُمْ يَكْفُرونَ بِكَ .

وَهَذِهِ الدَّعواتُ جَمَعَتْ أَسْمَى أَلْوانِ الأَدَبِ ، فَقَدْ بَدَأُوا دُعاءَهُمْ بِالتَّوَسُّلِ بِوَصْفِ الرُّبوبِيَّةِ ، أَي : يا خالِقَنا وَمُنْشِئَنا وَالمُنْعِمَ وَالمُتَفَضِّلَ عَلَيْنا ، فَهُمْ يَلْجأونَ إِلَيهِ وَحْدَهُ ، لأَنَّ النَّفْعَ والضَّرَّ ، والنَّصْرَ وَالهَزيمَةَ بِيَدِهِ ، وَسَأَلوا اللهَ الصَّبْرَ أَوْلاً ، لأَنَّهُ عُدَّةُ القِتالِ الأُولى ورُكْنُهُ الأَعْلى ، فَمَنْ صَبَرَ لا يُمْكِنْ أَنْ يَكونَ مِنْهُ جَزَعٌ أَوْ عَجْزٌ ، ثُمَّ طَلَبوا مِنَ اللهِ الثَّباتَ الَّذي هُوَ مَظْهَرٌ لِلْصَّبْرِ ، وَوسيلَةُ النَّصْرِ ، وخَتَموا دُعاءَهُمْ بِما هُوَ ثَمَرَةٌ وَنَتيجَةٌ لِلْصَّبْرِ والثَّباتِ ، وَهُوَ النَّصْرُ عَلى الأَعْداءِ .

وَقَدْ كانَتِ النَّتيجَةُ الَّتي تَرَقَّبوها واسْتَيْقَنوها ، قالَ تَعالى :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ .

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ هَذِهِ هِيَ الحَقيقَةُ الَّتي أَكَّدَها القُرْآنُ ، لِيَعْلَمَها المُؤْمِنونَ ، ولِيَزْدادوا بِها عِلْماً ، فَما مِنْ أَمْرٍ يَكونُ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ تَعالى ، وَهَكَذا تَحَقَّقَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى بِنَصْرِ أَوْلِيائِهِ الصالِحينَ الصَّابِرينَ .

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾ وَداودُ كانَ فَتىً صَغيراً مِنْ بَني إِسْرائِيلَ ، وجالوتُ كانَ مَلِكاً قَوِيّاً وقائِداً يَخافُهُ كُلُّ مَنْ يَراهُ ، وَلَكِنْ بِإِذْنِ اللهِ تَعالى وَمَشيئَتِهِ اسْتَطاعَ داودُ الفَتى الصَّغيرُ أَنْ يَقْتُلَ المَلِكَ القَوِيَّ ، لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ الأُمورَ لا تَجْري حَسَبَ الظَّواهِرِ ، وَلَكِنْ حَسَبَ مَشيئَتِهِ تَعالى ، فَهُوَ وَحْدَهُ يَعْلَمُ حَقائِقَ الأُمورِ ، ومَقاديرُها في يَدِهِ وَحْدَهُ ، لِذا عَلى النَّاسِ أَنْ يَقوموا بِما هُوَ مُلْقىً عَلى عاتِقِهِمْ ، مِنَ الإيمانِ بِاللهِ وَصِدْقِ التَّوَكُّلِ وَالاعْتِمادِ عَلَيْهِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يُريهِمْ سُبْحانَهُ أَنَّ الجَبابِرَةَ الَّذينَ يُرْهِبونَهُمْ ضِعافٌ يُمْكِنُ لِلصِبْيَةِ أَنْ يَتَغَلَّبوا عَلَيْهِم حِينَ يَشاءُ اللهُ ، وَقَدْ شاءَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يَتَسَلَّمَ المُلْكَ سَيِّدُنا داودُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، بَعْدَ طالوتَ فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وَقَدْ جَمَعَ اللهُ المُلْكَ والنُّبُوَّةَ لِنبيِّهِ داودَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَإِضافَةً إِلى ذَلِكَ عَلَّمَهُ اللهُ تَعالى ما يَشاءُ مِنْ فُنونِ العِلْمِ وَمِنْ أُمورِ الدِّينِ والدُّنْيا ، فَقَدْ عَلَّمَهُ سُبْحانَهُ صِناعَةَ آلاتِ الحَرْبِ ، وَمَنْطِقَ الطَّيْرِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنِ الغايَةِ مِنَ الصِّراعِ بَيْنَ القِوى في الأَرْضِ .

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَي : لَوْلا أَنَّ اللهَ يَدْفَعُ أَهْلَ البَغْيِ وَالسُّوءِ والباطِلِ بِأَهْلِ الحَقِّ ، وَلَوْلا أَنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى يُهَيِّئُ أَهْلَ الحَقِّ حَتَّى لا يَتَمادى أَهْلُ الباطِلِ بِبَغْيِهِمْ وَباطِلِهِمْ ، لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَغَلَبَ أَهْلُ الفَسادِ ، وَبَغَوْا عَلى الصَّالِحينَ ، وَصارَ لَهُمُ السُّلْطانُ في الأَرْضِ ، وَتَعَطَّلَتْ مَصالِحُ النَّاسِ . وَلَوْلا : حَرْفُ امْتِناعٍ لِوجودٍ ، أَي : امْتَنَعَ وُجودُ الفَسادِ في الأَرْضِ لِأَجْلِ وُجودِ هَذا الأَمْرِ ، وَهُوَ دَفْعُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ .

إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ تُوَجِّهُ النَّاسَ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ ، إِلى أَنْ يَقِفوا في وَجْهِ الباطِلِ وَالشَّرِّ ، وَأَنْ يُقاوِموا بِكُلِّ وَسيلَةٍ مِنَ الوَسائِلِ ، وَتُخْتَتَمُ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لِأَنَّهُ لَمْ يُمَكِّنِ الباطِلَ مِنْ أَنْ يَعيثَ في الأَرْضِ فَساداً ، فَأُذِنَ لِلصَّالِحينَ بِقِتالِ البُغاةِ المُفْسِدينَ ، وَجَعَلَ أَهْلَ الحَقِّ حَرْباً لِأَهْلِ الباطِلِ ، وَهُوَ ناصِرُهُمْ إِذا نَصَروا اللهَ ، وَأَصْلَحوا في الأَرْضِ .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾ .

تِلْكَ الآياتُ الَّتي حَدَّثْناكَ فيها عَنْ قِصَّةِ هَؤُلاءِ المَلَإِ مِنْ بَني إِسْرائيلَ ، وَما كانَ مِنْ طالوتَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَقَتْلِ داوُدَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِجالوتَ ، آياتُ اللهِ الَّتي لا يَأْتيها الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْها وَلا مِنْ خَلْفِها ، نَتْلوها عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ تِلاوَةً مُبَيِّنَةً لِلْحَقِّ الثَّابِتِ الَّذي لا يَحومُ حَوْلَهُ باطِلٌ ، وَإِنَّكَ يا مُحَمَّدُ لَمِنَ المُرْسَلينَ ، فَلَوْلا الرِّسالَةُ ما عَرَفْتَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ القِصَصِ ، فَإِنَّكَ لَمْ تَكُنْ في أَزْمِنَةِ وُقوعِها ، وَلا تَعَلَّمْتَ شَيْئاً مِنَ التَّاريخِ ، فَإِنَّكَ نَبِيُّ اللهِ ، وما جِئْتَ بِهِ فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرَةٍ ، مِنْها :

١ـ طاعَةُ الجُنْدِ لِلْقائِدِ في كُلِّ ما يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهى عَنْهُ أَمْرٌ أَساسِيٌّ لِلنَّصْرِ وَاسْتِقامَةِ أَمْرِ الأُمَّةِ .

٢ـ التَّوَجُّهُ إِلى اللهِ تَعالى بِالدُّعاءِ أَمْرٌ مُفيدٌ ، إِذْ إِنَّ الدُّعاءَ هُوَ آيَةٌ وَعَلامَةٌ عَلى إيمانِ الدَّاعي .

٣ـ مِنْ سُنَّةِ اللهِ في خَلْقِهِ أَنْ يَكونَ الصِّراعُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ صِراعاً دائِماً ، وَلَوْلا أَنَّ اللهَ يَدْفَعُ بَعْضَ الفاسِقينَ بِبَعْضِ الصَّالِحينَ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ تَوَجَّهَتِ الْفِئَةُ الْمُؤْمِنَةُ الَّتي قاتَلَتْ مَعَ طالوتَ بِالدُّعاءِ إِلى اللهِ ، ما الَّذي طَلَبوهُ مِنْ خالِقِهِمْ سُبْحانَهُ ؟

٢ـ اسْتَنْتِجْ فائِدَةَ الدُّعاءِ في المَعْرَكَةِ .

٣ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ هَذا التَّرْتيبِ في دُعاءِ القَوْمِ ؟

٤ـ بَيَّنَتِ الآياتُ النَّتيجَةَ الَّتي تَرَقَّبَها المُؤْمِنونَ في المَعْرَكَةِ . هاتِ ما ذَكَرَتْهُ الآياتُ .

٥ـ مَنْ داوُدُ ؟ ، وما الَّذي كانَ مِنْهُ في المَعْرَكَةِ ؟

٦ـ بِمَ أَنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلى سَيِّدِنا داوُدَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٧ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنِ الغايَةِ مِنَ القِتالِ وَالصِّراعِ بَيْنَ القِوى في الأَرْضِ . وَضِّحْ ما ذَكَرَتْهُ الآياتُ .

٨ـ ما المَقْصودُ بِفَضْلِ اللهِ في قَوْلِهِ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ فَرِّقْ مِنْ حَيْثُ المَعْنى بَيْنَ العَدَدِ بِفَتْحِ العَيْنِ والعُدَدِ بِضَمِّها ، وَاكتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ هاتِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتابِ اللهِ تُبَيِّنانِ ما عَلَّمَهُ اللهُ تَعالى لِداودَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني والثَّلاثونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّامِنُ والسَّبْعونَ

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

البَيِّناتِ : المُعْجِزاتِ الواضِحاتِ .

بروحِ القُدُسِ : جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ .

خُلَّةٌ : مَوَدَّةٌ وَصَداقَةٌ .

التَّفْسيرُ :

ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ مُحَمَّداً عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ المُرْسَلينَ ، الَّذينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ تَعالى لِإِخْراجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ ، وَأَيَّدَهُ بِالوَحْيِ ، وَجاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ تَفْضيلَ اللهِ تَعالى لِلرُّسُلِ بَعْضِهِمْ عَلى بَعْضٍ ، وَخَصائِصَ بَعْضِهِمْ ، وَرَفْعَ دَرَجاتِ بَعْضٍ .

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ .

قالَ تَعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ تِلْكَ الرُّسُلُ ، وَلَمْ يَقُلْ هؤلاءِ الرُّسُلُ بِهَذا

التَّعْبيرِ الخاصِّ ، فَهُمْ جَماعَةٌ خاصَّةٌ ذاتُ طَبيعَةٍ خاصَّةٍ ، وَإِنْ كانوا مِنَ البَشَرِ . لَقَدْ جاءَ التَّعْبيرُ بِاسْمِ الإِشارَةِ (تِلْكَ) الدَّالِّ عَلى البَعيدِ ، لِيُبَيِّنَ مَكانَةَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأَنَّهُمُ المُصْطَفَوْنَ الأَخيارُ . والتَّفْضيلُ الَّذي فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَ الأَنْبياءِ عَلى بَعْضٍ يَظْهَرُ فيما يَلي :

١ـ قَدْ يَتَعَلَّقُ بِالمُحيطِ المُتَعَلِّقِ المُقَدَّرِ لِلرَّسولِ وَالَّذي يَشْمَلُ دَعْوَتَهُ ، فَقَدْ يَكونُ رَسولاً لِقَبيلَةٍ ، أَوْ رَسولاً لأُمَّةٍ ، وَقَدْ يَكونُ رَسولاً لِجَميعِ الأُمَمِ .

٢ـ وَقَدْ يَتَعَلَّقُ التَّفْضيلُ بِالمزايا الَّتي يَجْعَلُها اللهُ تَعالى في رَسولٍ ما ، كَأَنْ يَخُصَّهُ اللهُ بِالكلامِ ، أَوْ يَخُصُّهُ اللهُ تَعالى بِالمَحَبَّةِ وَالخِلَّةِ .

٣ـ وَقَدْ يَتَعَلَّقُ التَّفْضيلُ بِبَعْضِ المَزايا الَّتي يَجْعَلُها اللهُ تَعالى في أُمَّةِ الرَّسولِ ، كَأَنْ تَكونَ أُمَّةً وَسَطاً ، أَوْ شَهيدَةً عَلى الأُمَمِ الأُخْرى .

٤ـ وَقَدْ يَتَعَلَّقُ بِطَبيعَةِ الرِّسالَةِ ، وَمَدى شُمولِها لِجَميعِ جَوانِبِ الحياةِ الإِنْسانِيَّةِ وَالكَوْنِيَّةِ ، وَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ هُنا أَمْثِلَةً لِهَذا التَّفْضيلِ :

الأَوَّلُ : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ فَضَّلَهُ اللهُ تَعالى بِتَكْليمِهِ إِيَّاهُ .

وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُ قَدِ اصْطَفى موسى عَلَيْهِ السَّلامُ بِرِسالَتِهِ وكَلامِهِ فَقالَ : ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

الثَّاني : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَهُ اللهُ تَعالى على سائِرِ الأَنْبياءِ . وَيَرى جُمْهورُ المُفَسِّرينَ أَنَّ المَقْصودَ هُنا سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ ، فَقَدْ أُوتِيَ ما لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ مِنَ العالَمينَ ، وَهُوَ صاحِبُ الدَّرَجاتِ الرَّفيعَةِ .

الثَّالِثُ : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ أَعْطَيْنا عيسى ابنَ مَرْيَمَ المُعْجِزاتِ الواضِحَةَ مِثْلَ إِبْراءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرصِ ، وَإِحْياءِ المَوْتى ، وَيَصْنَعُ مِنَ الطِّينِ عَلى هَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَيَنْفُخُ فِيهِ فَيَكونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ، وَأَنْ يُخْبِرَ قَوْمَهُ ما يَأْكُلونَ وَيَدَّخِرونَ في بُيُوتِهِمْ ، وَكَرَّمَهُ اللهُ تَعالى بِأَنْ أَيَّدَهُ بِروحِ القُدُسِ ، وَهُوَ جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ .

وَقَدْ خَصَّ موسى وعيسى عَلَيْهِما السَّلامُ بِالذِّكْرِ ، لأَنَّ السِّياقَ يَتَحَدَّثُ عَنْ بَني إِسْرائيلَ الَّذينَ آمَنوا بِأَنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ نَبِيٌّ أُرْسِلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ خالَفوهُ في كُلِّ ما جاءَ بِهِ ، وَهُمْ كَذَلِكَ أَنْكَروا نُبُوَّةَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَحاوَلوا قَتْلَهُ إِلاَّ أَنَّ اللهَ نَجَّاهُ وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ ، وَقَتَلوا الكَثيرينَ مِنْ أَتْباعِهِ ، فَبَيَّنَ لَهُمْ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُ عَبْدٌ للهِ اصْطَفاهُ وَاخْتارَهُ لِلرِّسالَةِ .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ لَوْ شاءَ اللهُ تَعالى عَدَمَ اقْتِتالِ الأُمَمِ مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ ، ما اقْتَتَلوا ، وَلَجَعَلَهُمُ اللهُ مُتَّفِقينَ ، مُتَّبِعينَ لِلرُّسُلِ الَّذينَ جاءوا بِالآياتِ الواضِحَةِ ، وَلَكِنَّها إِرادَةُ اللهِ وحِكْمَتُهُ أَنْ يَخْتَلِفَ النَّاسُ اخْتِلافاً كَبيراً ، فَيَكونَ

مِنْهُمُ المُؤْمِنُ ، ويَكونَ مِنْهُمُ الكافِرُ ، فَفي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ وَالمَدينَةِ المُنَوَّرَةِ زَعَمَ المُشْرِكونَ أَنَّهُمْ عَلى دِينِ إِبْراهيمَ ، وَزَعَمَ اليَهودُ أَنَّهُمْ عَلى دينِ موسى ، وَزَعَمَ النَّصارى أَنَّهُمْ عَلى دينِ عيسى ، وَلَكِنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ بَعُدَتْ عَنْ أَصْلِ دينِها بُعْداً كَبيراً وَعَنْ رِسالَةِ نَبِيِّها ، وَانْحَرَفَتْ إِلى الدِّينِ الَّذي يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ وَصْفُ الكُفْرِ ، وَلَيْسَ هَذا فقطْ ، بَلْ كُلُّ فِرْقَةٍ اخْتَلَفَتْ كَذَلِكَ ، فَاليَهودُ اخْتَلَفوا في دينِهِمْ فَاقْتَتَلوا ، وَالنَّصارى كَذَلِكَ كانوا فِرَقاً مُتَعَدِّدَةً كُلُّ فِرْقَةٍ تَتَرَبَصُّ بِالأُخْرى ، وَهاهُمُ المُسْلِمونَ اليَوْمَ كَذَلِكَ جَماعاتٌ مُتَفَرِّقَةٌ ، كُلُّ فِرْقَةٍ تُقاتِلُ الأُخْرى وَالعِياذُ بِاللهِ ، فَنَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ وَالمُعافاةَ .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ ﴾ لَوْ شاءَ اللهُ عَدَمَ اقْتِتالِهِمْ ، بِأَنْ يَجْعَلَ كُلَّ فَريقٍ يَعْذُرُ الآخَرَ لَفَعَلَ ، وَلَكِنَّها سُنَّةُ اللهِ في هَذا الكَونِ لِيَدْفَعَ الكُفْرَ بِالإيمانِ ، وَلِيُقِرَّ في الأَرْضِ حَقيقَةَ العَقيدَةِ الصَّحيحَةِ الواحِدَةِ الَّتي جاءَ بِها الرُّسُلُ جَميعاً ، فانْحَرَفَ عَنْها المُنْحَرِفونَ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ فَمَشيئَتُهُ مُطْلَقَةٌ ، فَقَدْ قَدَّرَ أَنْ يَكونَ النَّاسُ مُخْتَلِفينَ ، وَقَدَّرَ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ واحِدٍ يَخْتارُ طَريقَهُ بِنَفْسِهِ ، وَقَدَّرَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَهْتَدِ مِنْهُمْ في طَريقِ الحَقِّ فَقَدْ ضَلَّ ، وَقَدَّرَ أَنْ يَقَعَ القِتالُ بَيْنَ أَهْلِ الهُدى وَأَهْلِ الضَّلالِ . وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتُخاطِبَ الَّذينَ آمَنوا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ .

عَرَفْتَ مِنْ قَبْلُ سِرَّ هَذا النِّداءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فَقَدْ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعالى في الآيَةِ بِالإِنْفاقِ مِمَّا رَزَقَهُمْ ، فَهُوَ لا يَطْلُبُ إِلاَّ بَعْضَ ما أَعْطاهُمْ إِيَّاهُ سُبْحانَهُ ، وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَجَعَلَهُمْ مُسْتَخْلَفينَ فِيهِ ، وَلِذا قالَ : ﴿ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ وَالإِنْفاقُ يَشْمَلُ الزَّكاةَ الواجِبَةَ ، وَالصَّدَقاتِ المُسْتَحَبَّةَ .

وَيُحَذِّرُهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ يَوْمِ القِيامَةِ ، فَيَقولُ لَهُمْ : أَنْفِقوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَومُ الحِسابِ ، حَيْثُ لا يَنْفَعُ في هَذا اليَوْمِ شَيْءٌ ، فَلا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَفْدِيَ نَفْسَهُ ، وَلا يُنْجيهِ خَليلٌ ، وَلا صَديقٌ بِحَيْثُ يَتَحَمَّلُ عَنْهُ شَيْئاً مِنَ العَذابِ ، وَلا يَنْفَعُهُ شَفاعَةُ شَفيعٍ . يَنْبَغي عَلَيْهِمْ إِذَنْ أَنْ يَسْتَغِلُّوا تِلْكَ الفُرْصَةَ الَّتي أَعْطاهُمْ إِيَّاها سُبْحانَهُ وَتَعالى ، بِأَنْ يُنْفِقوا في الدُّنْيا ، حَيْثُ تَرْبَحُ أَمْوالُهُمْ وتَنْمو . وَتُخْتَتَمُ الآياتُ بِما يَدُلُّ عَلى نَوْعِ تِلْكَ النَّفَقَةِ الَّتي يَأْمُرُهُمْ بِها سُبْحانَهُ ، وَهِيَ النَّفَقَةُ في الجِهادِ ، لِدَفْعِ الكُفْرِ وَدَفْعِ الظُّلْمِ المُتَمَثِّلِ في هَذا الكُفْرِ ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فَهُمْ قَدْ ظَلَموا الحَقَّ فَأَنْكَروهُ ، وَظَلَموا أَنْفُسَهُمْ فَأَوْرَدوها مَوارِدَ الهَلاكِ ، وَظَلَموا النَّاسَ حَيْثُ صَدُّوهُمْ عَنِ الهُدى ، وَحَرَموهُمُ الخَيْرَ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الرُّسُلُ عِبادُ اللهِ المُصْطَفوْنَ الأخْيارُ ، جَعَلَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى مَكانَةً عَظيمَةً ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ في المَكانَةِ والرِّسالَةِ .

٢ـ الَّذينَ يُحاربونَ الإيمانَ حَتَّى لا يَسْتَقِرَّ في قَلوبِ النَّاسِ ، وَيُحارِبونَ مَنْهَجَ القُرْآنِ حَتَّى لا يَكونَ مَنْهَجَ الحَياةِ ، إنَّما هُمْ أَعْدى أَعْداءِ البَشَرِ ، وَهُمْ أَظْلَمُ الظَّالِمينَ .

٣ـ وَاجِبُ الجَماعَةِ المُسْلِمَةِ أَنْ تُحارِبَ الكُفْرَ وَالظُّلْمَ وَتُطَهِّرَ الأَرْضَ مِنْهُ ، بِالجِهادِ بالمالِ والنَّفْسِ وَالكَلِمَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما سِرُّ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ ؟

٢ـ بِمَ فَضَّلَ اللهُ تَعالى الرُّسُلَ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ؟

٣ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أَمْثِلَةً لِتَفْضيلِ بَعْضِ الرُّسُلِ ، هاتِ تِلْكَ الأَمْثِلَةَ .

٤ـ لِمَ خَصَّتِ الآياتُ سَيِّدَيْنا موسى وعيسى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ بِالذِّكْرِ ؟

٥ـ ما الحِكْمَةُ مِنَ اقْتِتالِ النَّاسِ واخْتِلافِهِمْ بَعْدَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٦ـ بَيِّنْ مَعْنى قَولِهِ تَعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا﴾ .

٧ـ اسْتَخْلِصْ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قولُهُ تعالى : ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ .

٨ـ لِمَ خُتِمَتِ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ اسْمَ النَّبِيِّ الَّذي وَهَبَهُ اللهُ المَزايا الآتِيَةِ : أ ـ كَليمُ اللهِ ، ب ـ مِنْ روحِ اللهِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما يَقولُهُ المُسْلِمُ بَعْدَ سَماعِ الأَذانِ .

٣ـ فَضَّلَ اللهُ الرَّسولَ ﷺ عَلى غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمورٍ ، بَيِّنْها مِنْ خِلالِ أَحاديثَ تَحْفَظُها عَنِ الرَّسولِ ﷺ .

الدَّرْسُ الثَّالِثُ وَالثَّلاثونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ التَّاسِعُ والسَّبْعونَ

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا
ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا
بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي
ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ
ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **الحَيُّ** : الدّائِمُ الحَياةِ .
- **القَيُّومُ** : القائِمُ بِنَفْسِهِ المُقيمُ لِغَيْرِهِ .
- **تَأْخُذُهُ** : تَغْلِبُهُ وَتَسْتَولي عَلَيْهِ .
- **سِنَةٌ** : نُعاسٌ وَفُتورٌ .
- **يَؤودُهُ** : يُثْقِلُهُ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ .
- **الرُّشْدُ** : طَريقُ الهُدى وَالإيمانِ .
- **الغَيِّ** : طَريقُ الضَّلالَةِ وَالكُفْرِ .
- **الطّاغوتِ** : كُلُّ مَعْبودٍ سِوى اللهِ تَعالى .
- **اسْتَمْسَكَ** : اشْتَدَّ تَمَسُّكُهُ .
- **العُرْوَةِ الوُثْقى** : العَقيدَةِ المُحْكَمَةِ .
- **انْفِصامَ** : انْقِطاعَ وزَوالَ .



التَّفسيرُ :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ .

لَقَدْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنِ اخْتِلافِ النَّاسِ ، وَمَجيءِ الكُفْرِ بَعْدَ الإيمانِ ، وَلِذا جاءَتِ الآيَةُ هُنا لِتُبَيِّنَ قواعِدَ التَّصَوّرِ الإيمانِيِّ ، وَتَذْكُرَ مِنْ صِفاتِ اللهِ تَعالى ما يُقَرِّرُ مَعْنى الوَحْدانِيَّةِ ، فَالآيَةُ تَضَمَّنَتْ صِفاتٍ للهِ تَعالى ، كُلُّ صِفَةٍ تُمَثِّلُ قاعِدَةً أَساسيَّةً مِنْ قَواعِدِ الإيمانِ .

١ـ ابْتَدَأَتِ الآيَةُ بِالصِّفَةِ الأُولى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وَهِيَ تَتَحَدَّثُ عَنْ صِفَةِ الوَحْدانِيَّةِ فاللهُ وَحْدَهُ المَعْبودُ الّذي يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ دونَ غَيْرِهِ ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ هِيَ الَّتي يَقومُ عَلَيْها الدّينُ ، فَلا يَكونُ الإنْسانُ إلاّ عَبْداً للهِ ، وَلا يَتَّجِهُ بِالعِبادَةِ إلاّ للهِ ، وَلا يَلْتَزِمُ بِطاعَةٍ إلاّ طاعَةَ اللهِ ، وَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ الحُكْمَ لا يَكونُ إلاّ للهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ المُشَرِّعُ .

٢ـ الحَيُّ القَيُّومُ : وَهَذِهِ صِفَةُ الحَياةِ الّتي يوصَفُ بِها الإلَهُ سُبْحانَهُ ، حَياةٌ ذاتِيَّةٌ ، لَمْ تَأْتِ مِنْ مَصْدَرٍ آخَرَ ، مِثْلَ حَياةِ الخلائِقِ ، حَيْثُ وَهَبَها الخالِقُ لَهُمْ ، وَصِفَةُ الحَياةِ للهِ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ ، وَهِيَ لَيْسَتْ كَالحَياةِ الَّتي عَرَفَها البَشَرُ ، إذْ إنهُ سُبْحانَهُ وَتعالى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .

أَمّا صِفَةُ القَيُّومِ ، فَتَعْني قِيامُهُ سُبْحانَهُ بِتَدْبيرِ أُمورِ كُلِّ مَوْجودٍ ، وَتَعْني قِيامَ كُلِّ مَوجودٍ بِهِ سُبْحانَهُ ، وَكُلُّ شَيءٍ قائِمٌ في وُجودِهِ عَلى إرادَةِ اللهِ تَعالى ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ حَياةَ المُسْلِمِ وَضَميرَهُ ووجودَهُ ووجودَ كُلِّ شَيءٍ حَوْلَهُ مُرْتَبِطٌ بِهِ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ الَّذي يُصَرِّفُ الأُمورَ وِفْقَ حِكْمَةٍ وَتَدْبيرٍ .

٣ـ ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ وَفي هَذِهِ الصِّفَةِ تَأْكيدٌ لِصِفَةِ حَياتِهِ وَقَيّومِيَّتِهِ ، فَالقائِمُ عَلى كُلِّ شَيءٍ في الوُجودِ بِكُلِّياتِهِ وَجُزْئِياتِهِ ، هَذِهِ الذَّراتُ الصَّغيرَةُ وَالخَلايا غَيْرُ المَرْئِيَّةِ ، وَالخَلائِقُ وَالأَشْياءُ ، وَالأَحْداثُ ، كُلُّها قائِمَةٌ بِهِ سُبْحانَهُ ، وَهَذِهِ تَسْتَلْزِمُ أَنْ لا يَأْخُذَهُ سُبْحانَهُ سِنَةٌ : نُعاسٌ خَفيفٌ ، وَلا نَوْمٌ كَذَلِكَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ هَذِهِ الأُمورِ كُلِّها .

٤ـ ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فَهُوَ المالِكُ لِهَذِهِ كُلِّها ، لَهُ المُلْكِيَّةُ المُطْلَقَةُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ المالِكُ الواحِدُ ، وَقَدْ فُهِمَ هَذا المَعْنى مِنْ تَقْديمِ الجارِ وَالمَجْرورِ (لَهُ) الَّذي يُفيدُ حَصْرَ المُلْكِ وَقَصْرَهُ عَلى اللهِ وَحْدَهُ ، وَمُجَرَّدُ شُعورِ الإنْسانِ بِأَنَّ كُلَّ ما في الكَوْنِ مُلْكٌ للهِ ، يَحْمِلُهُ عَلى عَدَمِ الطَّمَعِ وَالشُّحِّ والحِرْصِ ، وَيَجْعَلُهُ يَشْعُرُ بِالقناعَةِ وَالرِّضى بما يُحَصِّلُ مِنَ الرِّزْقِ .

٥ـ ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ وَهَذِهِ صِفَةٌ أُخْرى مِنْ صِفاتِ اللهِ تَعالى تُوَضِّحُ مَقامَ الأُلوهِيَّةِ ومَقامَ العُبودِيَّةِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مُتَفَرِّدٌ بالأُلوهِيَّةِ ، وَالخَلْقُ كَلُّهُمْ عَبيدٌ لَهُ تَعالى ، لا يَتَعَدُّونَ مَوْقِفَ العُبودِيَّةِ وَلا يَتَجاوَزونَهُ ، يَقِفونَ مَوْقِفَ الخاشِعِ الخاضِعِ ، الَّذي لا يَمْلِكُ طَلَبَ الشَّفاعَةِ عِنْدَهُ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ ، فَمَنْ أَذِنَ لَهُ رَبُّهُ بِالشَّفاعَةِ فَإِنَّهُ يَشْفَعُ لأَهْلِ الإِيمانِ ، أَمَّا أَهْلُ العَقائِدِ الباطِلَةِ وَالكُفْرِ فَلا تُقْبَلُ الشَّفاعَةُ فيهِمْ أَبداً .

٦ـ ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ وَهَذِهِ تَتَحَدَّثُ عَنْ صِفَةِ عِلْمِ اللهِ تَعالى ، العِلْمِ الشّامِلِ الكامِلِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ حاضِرَ الخَلْقِ ؛ وَهُوَ ما بَيْنَ أَيْديهِمْ ، وَيَعْلَمُ غَيْبَهُمُ الذي كانَ ومَضى ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقْبَلَهُمْ الَّذي سَيَكونُ . وَعِلْمُ اللهِ الشّامِلُ لِما بَيْنَ أَيْدي الخَلْقِ وَما خَلْفَهُمْ ، جَديرٌ بِأَنْ يَجْعَلَ الإِنْسانَ مُسْتَسْلِماً للهِ تَعالى الَّذي يَعْلَمُ ظاهِرَهُ وَباطِنَهُ ، مُتَدَبِّراً لأُمورِ الكَوْنِ ، حَيْثُ أَنَّهُ سُبْحانَهُ لا يُعْلِمُ النَّاسَ إِلاَّ بِما شاءَ لَهُمْ أَنْ يَعْلَموهُ .

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يَأْذَنُ ، فَيَكْشِفُ لِلْعِبادِ شَيْئاً مِنْ عِلْمِهِ ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] وَما زالَ سُبْحانَهُ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنِ الكَثيرِ تَحْقيقاً لِوَعْدِهِ ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَنْسَوْنَ هَذِهِ الحَقيقَةَ ، وَيُفْتَنونَ بِما أَذِنَ لَهُمْ سُبْحانَهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ اليَوْمَ ما وَصَلَ إِلَيْهِ الإِنْسانُ مِنَ الكَشْفِ العِلْمِيِّ ، وَنَرى كَيْفَ تَجَبَّرَ الإِنْسانُ بِهذا العِلْمِ وَتَعالى بِهِ عَلى رَبِّهِ .

وَبِقَدَرِ ما أَذِنَ اللهُ تَعالى لِلإِنْسانِ بِأَنْ يَعْلَمَ أُموراً كانَتْ خافِيَةً عَلَيْهِ ، بِقَدَرِ ما غَيَّبَ عَنْهُ أَسْراراً لا حاجَةَ لَهُ بِها ، وَلا حاجَةَ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ بِها .

٧ـ ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ ﴾ وَهَذِهِ تَتَحَدَّثُ عَنْ سِعَةِ مُلْكِهِ سُبْحانَهُ وَتعالى . وَالعُلَماءُ يَقولونَ : إِنَّ للهِ تَعالى كُرْسِيّاً عَلَيْنا أَنْ نُؤْمِنَ بِوُجودِهِ ، وَإِنْ كُنَّا لا نَعْرِفُ حَقيقَتَهُ ، لأَنَّ هَذا لَيْسَ في مَقْدورِ البَشَرِ ، وَإِذا وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ ، فَقَدْ وَسِعَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ سُلْطانُهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، فَهُوَ مُحيطٌ بِها قادِرٌ عَلَيْها .

٨ـ ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ ﴾ أَيْ : لا يُثْقِلُهُ ولا يَشُقُّ عَلَيْهِ سُبْحانَهُ حِفْظُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، وَرِعايَتِهِما ، فالكَلامُ كِنايَةٌ عَنِ القُدْرَةِ الكامِلَةِ للهِ تَعالى .

٩ـ ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ وَهَذِهِ هِيَ خاتِمَةُ الصِّفاتِ ، فَهِيَ تُفْرِدُهُ سُبْحانَهُ بِالعُلُوِّ ، وَتُفْرِدُهُ سُبْحانَهُ بِالعَظَمَةِ ، فَفي الآيَةِ قَصْرٌ ؛ قَصَرَتِ العَظَمَةَ عَلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، فَالعُلُوُّ لَهُ وَحْدَهُ ، وَإِنْ تَطاوَلَ

أَحدٌ مِنَ العَبيدِ عَلَيْهِ رَدَّهُ إلى الهَوانِ وَالذُلِّ ، فَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ تَعالى فِرْعَوْنَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ ، لأَنَّهُ كانَ مِنَ العالينَ ، وَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] وَمَهْما عَلا الإِنْسانُ وَعَظُمَ في عُيونِ الدُّنْيا ، فَإِنَّهُ لا يَتَجاوَزُ مَقامَ العُبودِيَّةِ للهِ تَعالى ، فَاللهُ هُوَ العَلِيُّ العَظيمُ ، وَهَذا كُلُّهُ يَنْبَغي أَنْ يَحْمِلَ الإِنْسانَ عَلى مَخافَةِ اللهِ تَعالى وَمَهابَتِهِ ، وَالشُّعورِ بِجَلالِهِ وَعَظَمَتِهِ سُبْحانَهُ .

هَذِهِ هِيَ صِفاتُ اللهِ تَعالى ، وَهَذا هُوَ التَّصَوُّرُ الإِسْلامِيُّ في تَوْحيدِ اللهِ وتَنْزيهِهِ ، فَعَلى المُؤْمِنينَ أَنْ يَقوموا بِهَذِهِ الدَّعوَةِ وَيَتَسَلَّموا القِيادَةَ البَشَرِيَّةَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُكْرِهوا النَّاسَ عَلى الدُّخولِ في دينِ اللهِ تَعالى ، قالَ تَعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ .

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ فَقَضِيَّةُ العَقيدَةِ لا بُدَّ لَها مِنَ اقْتِناعٍ ، بَعْدَ أَنْ بَيَّنَها اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى وَوَضَّحَها ، وَلَيْسَتْ قَضِيَّةَ إِكْراهٍ وَإِجْبارٍ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الآياتِ القُرْآنِيَّةَ جاءَتْ تُخاطِبُ عَقْلَ الإِنْسانِ وقَلْبَهُ ، وفِكْرَهُ وَوُجْدانَهُ ، وَلِذا مَنْ آمَنَ قُبِلَ مِنْهُ ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ لا يُجْبَرُ عَلى الدُّخولِ في الإِيمانِ ، وَفي هَذِهِ الآيَةِ رَدٌّ عَلى مَنْ يَزْعُمونَ أَنَّ الإِسْلامَ ما قامَ إِلاَّ بِالسَّيْفِ .

وَقَدْ أَكَّدَ سُبحانَهُ عَدَمَ إِكْراهِ النَّاسِ عَلى الإِيمانِ بِقَوْلِهِ :

﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ فَالإِيمانُ هُوَ الرُّشْدُ ، وَالكُفْرُ هُوَ الغَيُّ ، وحَقائِقُ الإِيمانِ كُلُّها تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ رُشْدٌ .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ ﴾ وَالطَّاغوتُ اسْمٌ لِكُلِّ ما يُطْغي الإِنْسانَ ، وَالطُّغْيانُ تَجاوزُ الحَدِّ الَّذي وَضعَهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، فَكُلُّ مَنْهَجٍ لَيْسَ مُسْتَمَدّاً مِنَ اللهِ ، وَكُلُّ حُكْمٍ أَوْ تَصَوُّرٍ مُسْتَمَدٌ مِنْ غَيْرِ اللهِ تَعالى فَهُوَ طاغوتٌ ، فَمَنْ كَفَرَ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، واسْتَمَدَّ مَنْهَجَهُ وعَقيدَتَهُ وَطَريقَهُ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ فَقَدْ نَجا ، وَكانَ مُسْتَمْسِكاً بِالعُرْوَةِ الوُثْقى ، أَيْ : يَثْبُتُ عَلى الطَّريقَةِ المُثْلى ، وَأَمْسَكَ مِنَ الدِّينِ بِأَقْوى أَسْبابِهِ .

﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فَهُوَ يَسْمَعُ الأَصْواتَ وَيَعْلَمُ ما تُخْفيهِ القُلوبُ ، فَالمُؤْمِنُ المُتَّصِلُ قَلْبُهُ بِاللهِ تَعالى لا يَبْخَسُهُ اللهُ حَقَّهُ وَلا يَظْلِمُهُ ، وَلا يُخَيِّبُ رَجاءَهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وَحْدانِيَّةُ اللهِ تعالى هِيَ القاعِدَةُ الأَساسِيَّةُ الَّتي يَقومُ عَلَيْها الإِسْلامُ ، فَالعُبودِيَّةُ المُطْلَقَةُ للهِ ، والحَاكِمِيَّةُ للهِ تَعالى وَحْدَهُ .

٢ـ قِيامُ اللهِ تَعالى بِتَدْبيرِ أُمورِ الخَلْقِ ، وَعِلْمُهُ الشَّامِلُ في الكَوْنِ ، يَنْبَغي أَنْ يَجْعَلَ الإِنْسانَ مُراقِباً للهِ تَعالى ، يَشْعُرُ بِأَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ ، فَيَسْتَحِيَ مِنْ أَنْ يَراهُ سُبْحانَهُ وَهُوَ في مَعْصِيَةٍ .

٣ـ اللهُ تَعالى مُتَفَرِّدٌ بِالعُلُوِّ وَالعَظَمَةِ ، فَمَهْما عَلا الإِنْسانُ في الأَرْضِ ، وَتَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ ، فَإِنَّ رُجوعَهُ إِلى اللهِ تَعالى ، فَيُعاقِبُهُ وَيُذِلُّهُ وَيُخْزيهِ .

٤ـ حُرِّيَّةُ الاعْتِقادِ هِيَ أَوَّلُ الحُقوقِ الَّتي أَعْطاها الإِسْلامُ لِلإِنْسانِ ، وَمَنْ سَلَبَ إِنْساناً حُرِّيَّةَ الاعْتِقادِ ، فَكَأَنَّما سَلَبَ مِنْهُ إِنْسانِيَّتَهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّالِيةِ :

الحَيُّ القَيُّومُ ، سِنَةٌ ، يُؤْودُهُ ، الرُّشْدُ ، العُرْوَةِ الوُثْقى .

٢ـ بَيَّنَتِ الآياتُ مِنْ صِفاتِ اللهِ الوَحْدانِيَّةَ وَكَوْنَهُ حَيّاً قَيُّوماً ، اسْتَخْلِصْ ما تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الصِّفاتُ .

٣ـ عَلامَ يَدُلُّ تَقْديمُ الجارِّ وَالمَجْرورِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ؟

٥ـ هَاتِ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ .

٦ـ ما الكُرْسِيُّ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ ؟

٧ـ العُلُوُّ وَالعَظَمَةُ مِنَ الصِفاتِ الَّتي يَتَفَرَّدُ بِها سُبْحانَهُ وَتَعالى ، هاتِ ما تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الصِّفاتُ .

٨ـ مِنَ الحُقوقِ الَّتي أَعْطاها الإِسْلامُ لِلإِنْسانِ حُرِّيَّةُ العَقيدَةِ ، بَيِّنْ هَذا الحَقَّ مِنْ خِلالِ الآياتِ الكَريمَةِ .



١ـ اكتبْ في دفترِكَ أَوائِلَ سُورَةِ العَلَقِ ، وَتَدَبَّرْ كَيْفَ يَطْغى الإِنْسانُ بِالعِلْمِ .

٢ـ اسْتَنْتِجْ أُموراً مِنَ الحَياةِ ما زالَتْ خافِيَةً عَلى الإِنْسانِ لا يَسْتَطيعُ عِلْمَها .

٣ـ هَاتِ أَمْثِلَةً تُبيِّنُ أَنَّ الإيمانَ رُشْدٌ وَالكُفْرَ غِيٌّ .

٤ـ آيَةُ الكُرْسيِّ أَعْظَمَ آياتِ القُرْآنِ الكَريمِ ، اكْتُبْ مَوْضوعاً في حُدودِ صَفْحَتَيْنِ مُبَيِّناً فَضْلَها ، وَتَوْجيهاتِ الرَّسولِ ﷺ لاسْتِخْدامِها وَالإِفادَةِ مِنْها ، مُدَعِّماً مَوْضوعَكَ بِالأَحاديثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّريفَةِ ، انْشُرِ المَوْضوعَ في مَجَلَّةِ المَدْرَسَةِ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّمانونَ

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ
ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ
رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ
ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَوْلياؤُهُمْ : أَنْصارُهُمْ ومعاونوهُمْ .

حاجَّ إِبْراهيمَ : جادَلَهُ .

فَبُهِتَ : دُهِشَ دَهْشَةً حَيَّرَتْهُ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الكَلامَ .

التَّفسيرُ :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ .

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وَتَعالى أَنَّ مَنِ اتَّبَعَ الإيمانَ فَقَدْ رَشَدَ ، وَمَنْ اتَّبَعَ طَريقَ الكُفْرِ فَقَدْ غَوى ، بَيَّنَ بِأَنَّهُ سُبْحانَهُ وَلِيُّ الَّذينَ آمَنوا ، فَهُوَ مُعينُهُمْ وَناصِرُهُمْ وَمُتَوَلّي أُمورِهِمْ ، يُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُماتِ الكُفْرِ وَضَلالاتِ الشِّرْكِ وَالفِسْقِ وَالعِصْيانِ إِلى نورِ الحَقِّ والهِدايَةِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يَهْديهِم إِلى اسْتِعمالِ حَواسِّهِمْ وَعُقولِهِمْ عَلى الوَجْهِ الصَّحيحِ ، أَمّا الَّذينَ كَفَروا فَلا سُلْطانَ عَلى نُفوسِهِمْ إِلاّ لِتِلْكَ

المَعْبوداتِ الباطِلَةِ المُتَمَثِّلَةِ بالشياطينِ ، سَواءٌ كانوا شَياطينَ الإِنْسِ أَمِ الجِنِّ وَالأَصْنامِ ، وَهَؤلاءِ يُخْرِجونَهُمْ مِنْ نورِ الهِدايَةِ إِلى ظُلُماتِ الكُفْرِ وَالضَّلالِ .

وَنَجِدُ أَنَّ الآيَةَ أَفْرَدَتِ النّورَ وَجَمَعَتِ الظُّلُماتِ ، وَذلِكَ أَنَّ النّورَ ، وَهُوَ الحَقُّ واحِدٌ لا يَتَعَدَّدُ ، وَأَمّا الظُّلُماتُ فَقَدْ تَعَدَّدَتْ فُنونُها وَأَلْوانُها وَأَسْبابُها .

أُولَئِكَ المَوْصوفونَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ أَصْحابُ النّارِ ، هُمْ فيها خالِدونَ .

وَتَذْكُرُ الآيَةُ مَثَلاً يُؤَكِّدُ هَذِهِ القَضِيَّةَ ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ وَلِيُّ الَّذينَ آمنوا يُؤَيِّدُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ عَلى عَدُوِّهِمْ فَيَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ الهَمْزَةُ اسْتِفْهامٌ لِلتَّعَجُّبِ وَالتَّقْريرِ ، وَ(تَرى) بِمَعْنى تَعْلَمُ وَهَذِهِ الآيَةُ تَدُلُّ عَلى رُشْدِ سَيِّدِنا إِبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ جاءَ الحَديثُ عَنْ هَذِهِ القَضِيَّةِ بِهذا الأُسْلوبِ الدّالِّ عَلى التَّعَجُّبِ ، وَهَذا الَّذي حاجَّ إِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في رَبِّهِ ، وَقَدْ آتاهُ اللهُ المُلْكَ ، فَكانَ حَرِيّاً بِهِ أَنْ يَشْكُرَ لا أَنْ يَكْفُرَ ، وَالقُرْآنُ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَهُ ، لأَنَّ القُرْآنَ ـ كَما قُلْنا ـ يُعْنى بِمواطِنِ العِبْرَةِ فَحَسْب ، ولِذا فَإِنَّنا نَسْكُتُ عَمّا سَكَتَ عَنْهُ القُرْآنُ الكَريمُ .

قالَ إِبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَهُوَ يَصْدَعُ بِالحَقِّ أَمامَ هذا الظّالِمِ ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أَي : رَبِّي هُوَ الَّذي يُحيي النّاسَ وَيُميتُهُمْ ، فَمِنَ الواجِبِ عَلَيْكَ أَنْ تَخُصَّهُ وَحْدَهُ بِالعِبادَةِ وَالخُضوعِ ، وَقَدْ عَبَّرَ بِالفِعْلِ المُضارِعِ لِيُفيدَ التَّجَدُّدَ وَالحُدوثَ .

وَلَكِنَّ ذَلِكَ المُتَغَطْرِسَ الأَحْمَقَ قالَ : أَنا أُحيي وَأُميتُ ، وَمِثْلُ هذا الكَلامِ لَيْسَ غَريباً عَلى أُولَئِكَ ، وَهُمْ يُعَذِّبونَهُمْ ، وَيَقولونَ لَهُمْ : أَيْنَ اللهُ الَّذي تُؤْمِنونَ بِهِ ؟ لِمَ لا يَأْتي لِيُنْقِذَكُمْ ؟ وَأَيْنَ نَبِيُّكُمْ ؟ ادْعوهُ لِيُخَفِّفَ عَنْكُمْ .

﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ ﴾ إِنّ مِمّا يَدُلُّ عَلى رُشْدِ إِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، هَذِهِ الحُجَّةُ الَّتي أَفْحَمَ بِها خَصْمَهُ ، فَهُوَ يَقولُ لَهُ : إِنَّ رَبِّي الَّذي يُعْطي الحَياةَ ، وَيَسْلُبُها بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، هُوَ الَّذي يُطْلِعُ الشَّمْسَ مِنَ المَشْرِقِ ، فَهُوَ المُكَوِّنُ لِهَذِهِ الكائِناتِ بِهذا النِّظامِ وَالسُّنَنِ الحَكيمَةِ الَّتي نُشاهِدُها ، فَإِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ كَما يَفْعَلُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، فَغَيِّرْ لَنا طُلوعَ الشَّمْسِ وَائْتِ بِها مِنَ الجِهَةِ المُقابِلَةِ لِلْجِهَةِ الَّتي جَرَتْ سُنَّتُهُ لِظُهورِها مِنْها . أَي : ائْتِ بِالشَّمْسِ مِنَ المَغْرِبِ ، إِنَّ هذا النِّظامَ في سَيْرِ الشَّمْسِ لا بُدَّ لَهُ مِنْ فاعِلٍ حَكيمٍ ، فَلا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ هذا الإِبْداعُ بِالمُصادَفَةِ ، وَإِنَّ رَبِّي الَّذي أَعْبُدُهُ هُوَ الفاعِلُ الحَكيمُ ، وماذا كانَ مِنَ الخَصْمِ ؟ قالَ تَعالى : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ ﴾ أَيْ : غُلِبَ وَقُهِرَ ،

وَتَحَيَّرَ وانْقَطَعَ عَنْ حِجاجِهِ ، إنَّ الكِبْرَ والعِنادَ يُمْسِكُ بهذا الَّذي كَفَرَ عَنِ الرُّجوعِ إلى الحَقِّ ، فَهُوَ يَتَحَيَّرُ وَيُمْسِكُ عَنِ الحِجاجِ ، وَلَكِنَّهُ لا يَهْتَدي إلى الحَقِّ ، لأَنَّهُ لا يَرْغَبُ فيهِ ، وَلِذَلِكَ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ .

لا يَهدي مَنْ أَعْرَضَ عَنْ قَبولِ الهِدايَةِ ، وَلَمْ يَنْظُرْ في الدَّلائِلِ الَّتي توصِلُ إلى مَعْرِفَةِ الحَقِّ ، بِسبَبِ ظُلْمِهِمْ وَطُغيانِهِمْ ، والظُّلْمُ هُوَ أساسُ الكُفْرِ ، وَقَدْ سَمّاهُمُ القُرْآنُ كَذَلِكَ لأَنَّهُمْ ظَلَموا الحَقَّ ، وَظَلَموا أَنْفُسَهُمْ ، وَظَلَموا النّاسَ ، الَّذينَ أَغْووهُمْ وَأَبْعَدوهُمْ عَنْ طَريقِ الحَقِّ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنونَ حَقَّ الإيمانِ يُؤَيِّدُهُمُ اللهُ تَعالى بِنَصْرِهِ ، وَيَلي أُمورَهُمْ ، أَمَّا غَيْرُهُمْ فَهُمْ مَحْرومونَ مِنْ وِلايَةِ اللهِ لَهُمْ .

٢ـ أَنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلَيْنا بِما يَحْمِلُنا عَلى الاهْتِداءِ إلى طَريقِ الحَقِّ : مِنْ حواسٍّ وَعَقْلٍ ، وَوَحْيٍ أَنْزَلَهُ عَلى أَنْبيائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

٣ـ المُؤْمِنُ الصّادِقُ يَنْبَغي أَنْ يكونَ قَوِيَّ الحُجَّةِ ، لَسِناً ، يَتَغَلَّبُ عَلى خَصْمِهِ إِذِ الباطِلُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَثْبُتَ أَمامَ الحُجَّةِ القَوِيَّةِ الواضِحَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بِالظُّلُماتِ والنّورِ ؟

٢ـ لِماذا أُفْرِدَتْ كَلِمَةُ النُّورِ وَجُمِعَتْ كَلِمَةُ الظُّلُماتِ ؟

٣ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَلَم﴾ ؟

٤ـ مَنِ الَّذي حاجّ إبراهيمَ في رَبِّهِ ؟

٥ـ ما الحُجَّةُ الأولى الَّتي أَقامَها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ عَلى خَصْمِهِ ؟ وَما مَوْقِفُهُ مِنْها ؟

٦ـ هاتِ الحُجَّةَ الثّانِيَةَ الَّتي أَقامَها إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مُبَيِّناً مَوْقِفَ الخَصْمِ مِنْها .

٧ـ لِمَ وَصَفَ سُبْحانَهُ غَيْرَ المُهْتَدينَ بِالظّالِمينَ ؟

الدَّرسُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

سورةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ الحادي وَالثَّمانونَ

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ
اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ
فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً
لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ
قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ
قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ
اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

خاوِيَةٌ على عُروشِها : خالِيَةٌ مِنَ السُّكانِ خَرِبَةُ البُنْيانِ .

يَتَسَنَّهْ : يَتغَيَّرْ بِمُرورِ الزَّمَنِ .

صُرْهُنَّ : ضُمَّهُنَّ .

سَعْياً : مُسْرِعاتٍ طَيَراناً وَمَشْياً .

التَّفسيرُ :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ .

ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ قِصَّةً تَدُلُّ على وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، وَذَكَرَتْ هُنا قِصَّةً أُخْرى تَدُلُّ على

قُدْرَةِ اللهِ عَلى البَعْثِ وَالنُّشورِ ، وَهَذِهِ القِصّةُ مَعْطوفَةٌ على القِصَّةِ السَّابِقَةِ ، وَلَكِنْ مَنْ هَذا الَّذي مَرَّ ؟ وَما هَذِهِ القَرْيَةُ الَّتي مَرَّ عَلَيْها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُروشِها ؟ ولكنَّ القُرْآنَ ـ كَما قُلْنا ـ يُوَجِّهُنا دائماً لِلْعِبْرَةِ وَالعِظَةِ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : أَرَأَيْتَ مِثْلَ الَّذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ سَقَطَتْ حيطانُها وَسُقوفُها ، وَصارَتْ فارِغَةً مِنْ سُكَّانِها ، فَهالَهُ المَشْهَدُ ، مَشْهَدُ الخَواءِ ، وَكانَ لَهُ وَقْعٌ عَنيفٌ عَلى نَفْسِهِ وَحِسِّهِ ، جَعَلَهُ يَحْتارُ وَيَتَعَجَّبُ : ﴿ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ ﴾ كَيْفَ تَدُبُّ الحَياةُ في هَذا المَواتِ ؟ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تُعَمَّرَ هَذِهِ القَرْيَةُ بِالبِناءِ وَالسُّكانِ ؟

إِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالى لَمْ يُجِبْهُ عَنْ سُؤالِهِ وَلَمْ يَقُلْ لَهُ كَيْفَ ؟ وَإِنَّما أَراهُ في عالَمِ الواقِعِ كَيْفَ يَكونُ الإِحْياءُ ، بِالتَّجْرِبَةِ المُشاهَدَةِ الَّتي يَطْمَئِنُّ بِها القَلْبُ دُونَ كَلامٍ ، لَقَدْ أَماتَهُ اللهُ تَعالى مائَةَ عامٍ ، ثُمَّ أَحْياهُ بِبَعْثِ الحَياةِ فيهِ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ وَتَعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ ولَمْ يَقُلْ (أَحْياهُ) ، لِلدَّلالَةِ عَلى أَنَّهُ عادَ كَهَيْأَتِهِ يَوْمَ ماتَ .

لَقَدْ أَحْياهُ اللهُ تَعالى ، وَهاهُوَ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ بِهِما إِلى صُنْعِ اللهِ فيهِ كَيْفَ يُحْيي بَدَنَهُ ، ثُمَّ قالَ لَهُ سُبْحانَهُ تعالى وَبِواسِطَةِ المَلَكِ : ﴿كَمۡ لَبِثۡتَۖ﴾ أَي : كَمْ يَوْماً لَبِثْتَ ؟ وَلَكِنْ ما يُدْريهِ كَمْ لَبِثَ ، وَالإِحْساسُ بِالزَّمَنِ لا يَكونُ إِلاَّ معَ الحَياةِ والوَعْيِ ؟ وَلَكِنَّ الإِحْساسَ الإِنْسانِيَّ لَيْسَ هُوَ المِقْياسُ الدَّقيقُ لِلحَقيقَةِ ، فَهُوَ يَخْدَعُ وَيُضِلُّ ، فَقَدْ يَحُسُّ الإِنْسانُ بِاللَّحَظاتِ القَصيرَةِ كَأَنَّها دَهْرٌ طَويلٌ ، وَقَدْ يَحُسُّ بِالوَقْتِ الطَّويلِ كَأَنَّهُ لَحَظاتٌ قَصيرَةٌ ، لَقَدْ سَأَلَهُ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ لِيَظْهَرَ لَهُ العَجْزُ عَنِ الإِحاطَةِ بِشُؤونِ اللهِ عَلى أَتَمِّ وَجْهٍ ، وَيُجيبُ : ﴿ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ ﴾ فَيُقالُ لَهُ : ﴿ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ ﴾ فَلَيْسَ الأَمْرُ كَما قُلْتَ ، بَلْ إِنَّكَ لَبِثْتَ مِئَةَ عامٍ ، وَلَكِنْ ما الدَّليلُ عَلى أَنَّهُ لَبِثَ مِئَةَ عامٍ ؟ إِنَّ طَعامَهُ وَشَرابَهُ لَمْ يَكونا آسِنَينِ ، أَيْ : لَمْ يَتَغَيَّرا أَوْ يَتَعَفَّنا .

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ ﴾ إِذَنْ ما الدَّليلُ عَلى ذَلِكَ ؟ قالَ : ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ ﴾ .

انْظُرْ إِلى هَذا الحِمارِ كَيْفَ أَماتَهُ اللهُ تَعالى ، وَكَيْفَ نَخِرَتْ عِظامُهُ ، وَتَفَرَّقَتْ يَميناً وشِمالاً ، وَقَدْ فَعَلْنا ما فَعَلْنا لِتَرى وَتُشاهِدَ بِنَفْسِكَ مَظاهِرَ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى ، وَلِنَجْعَلَكَ دَليلاً وَمُعْجِزَةً عَلى قُدْرَةِ اللهِ تَعالى عَلى البَعْثِ ، وَانْظُرْ إِلى قُدْرَتِنا كَيْفَ نَجْمَعُ عِظامَ الحِمارِ بَعْضَها إِلى بَعْضٍ ثُمَّ نَكْسوها لَحْماً ، وَهَذِهِ آيَةٌ عَلى قُدْرَتِنا الَّتي لا يُعْجِزُها شَيْءٌ ، لِتُدْرِكَ أَيُّها الرَّجُلُ كَيْفَ يُحْيي اللهُ هَذِهِ القَرْيَةَ بَعْدَ مَوْتِها .

هَذِهِ المُعْجِزَةُ الخارِقَةُ وَقَعَتْ كَما أَرادَها اللهُ تَعالى بِقُدْرَتِهِ .

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ وَظَهَرَ بِالأَدِلَّةِ القاطِعَةِ ،

والمُشاهَدَةِ الحِسِّيَّةِ قُدْرَةَ اللهِ عَلى الإِحْياءِ وَالإِماتَةِ وَالبَعْثِ وَالنُّشورِ ، قالَ : أَعْلَمُ وَأَسْتَيْقِنُ وَأُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعالى عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ .

وَتَذْكُرُ الآياتُ قِصَّةً أُخْرى تَدُلُّ عَلى قُدْرَةِ اللهِ تَعالى عَلى البَعْثِ والنُّشورِ وَالإِحياءِ .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ .

أذْكُرْ أَيُّها العاقِلُ لِتَتَّعِظَ وَتَعْتَبِرَ وَقْتَ أَنْ قالَ إِبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِرَبِّهِ :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وفي كَلامِهِ عَلَيْه السَّلامُ كَمالُ الأَدَبِ ، فَهُوَ يُقِرُّ وَيعْتَرِفُ بِرُبوبيَّةِ اللهِ تَعالى ، لَقَدْ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيي المَوْتى ، وَهُوَ لَمْ يسْأَلْ رَبَّهُ ذَلِكَ لِشَكِّهِ في رُبوبيَّةِ اللهِ تَعالى ، فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ قَدْ أَراهُ مَلَكوتَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ مِنْ قَبْلُ ، لَكِنَّهُ أَرادَ رُؤْيَةَ ذَلِكَ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ طُمأْنينَةَ معايِنَةٍ ومُشاهَدَةٍ ، وطُمأنينَةَ القلبِ لا الشَّكَ والارْتيابَ ، وَقَدْ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ رَداً عَلى الَّذينَ يَتَّهِمونَ إِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِالشَّكِ في قُدْرَةِ اللهِ تَعالى : « نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِ مِنْ إِبْراهيمَ إِذْ قالَ : « رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحيي المَوْتى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي »[(١)] .

﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ فَهُوَ يَنْشُدُ طُمَأْنينَةَ المُعايَنَةِ وَالمُشاهَدَةِ .

وَلَقَدِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى لإِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ عَلِمَ مَدى شَوْقِهِ لِرُؤْيَةِ قُدْرَتِهِ في إِحياءِ المَوْتى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لَمْ يُعاتِبْهُ ـ وَلَوْ كانَ شاكّاً لَعاتَبَهُ ـ وَلَكِنَّهُ أَكْرَمَهُ وَأَجابَهُ قائِلاً : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أَي : خُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ وَضُمَّهُنَّ وَاجْمَعْهُنَّ إِلَيْكَ ، وَقَدْ أُمِرَ بِذَلِكَ حَتَّى يَعْرِفَ أَشْكالَها وَأَحْجامَها وَصِفاتِها ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَجْعَلَ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً بَعْدَ أَنْ يَذْبَحَهُنَّ وَيُقَطِّعَهُنَّ .

﴿ ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : قُلْ لَهُنَّ تَعالَيْنَ ، فَسيُقْبِلْنَ مُسْرِعاتٍ إِلَيكَ بِإِذنِ اللهِ تَعالى .

وَتُخْتَتَمُ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ عَزيزٌ لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ، فَهُوَ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ ، حَكيمٌ في أَفْعالِهِ كُلِّها .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب : التفسير ، باب : وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، رقم الباب : ٤٨ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ قُدْرَةُ اللهِ تَعالى عَلى إحْياءِ المَوْتى .

٢ـ لِلْقِصَّةِ في القُرْآنِ الكَريمِ أَثَرُها في النَّفْسِ ؛ وَلِذا فَهِيَ تَقْتَصِرُ عَلى ما فِيهِ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ لِلنَّاسِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ في قَوْلِهِ ﴿أَوْ كَٱلَّذِي﴾ عَلى ماذا عُطِفَتِ الآيَةُ ؟

٢ـ مَنْ الَّذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ ؟ وَأَيُّ قَرْيَةٍ تِلْكَ ؟

٣ـ مِمَّ تَعَجَّبَ هَذا المَارُّ عَلى القَرْيَةِ ؟

٤ـ بِماذا أَجابَهُ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَلى سُؤالِهِ التَّعَجُّبِيِّ ؟

٥ـ ما الَّذي حَصَلَ مَعَ هَذا الرَّجُلِ ؟

٦ـ بَعْدَ أَنْ بَعَثَهُ اللهُ تَعالى ، أَراهُ دَليلاً واضِحاً عَلى البَعْثِ ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

٧ـ ما مَوْقِفُ هَذا الرَّجُلِ بَعْدَ رُؤْيَةِ آيَةِ اللهِ تَعالى ؟

٨ـ هَلْ كانَ سَيِّدُنا إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ شاكّاً في قُدْرَةِ اللهِ عَلى الإحْياءِ حَتَّى قَالَ لَهُ ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ .

٩ـ لِماذا طَلَبَ إبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ هَذا الطَّلَبَ مِنْ رَبِّهِ ؟

١٠ـ بِماذا أَجابَهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟ وَما الَّذي أَمَرَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتُبْ في دفترِكَ الآيَةَ مِنْ سورَةِ الكَهْفِ الدَّالَّةَ عَلى إحياءِ أَهْلِ الكَهْفِ وَما كانَ مِنْهُمْ .

٢ـ بَيِّنْ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ الرَّسولِ ﷺ . « نَحْنُ أحقُّ بالشَّكِ مِنْ إبراهيمَ . . . » .

* * *

الدَّرسُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ

سورةُ البَقَرَةِ - القِسمُ الثَّاني وَالثَّمانونَ

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ
مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ
لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ
يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

مَثَلُ : المَثَلُ : الشَّبيهُ وَالنَّظيرُ .

مَنّاً : المَنّ : أَنْ يَذْكُرَ المُحْسِنُ إِحْسانَهُ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَيُظْهِرَ تَفَضُّلَهُ عَلَيْهِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُقيمَ النِّظامَ الَّذي يَقومُ عَلَيْهِ المُجْتَمَعُ الإسلامِيُّ ، وَهُوَ نِظامٌ يَقومُ على التَّكافُلِ وَالتَّعاونِ المُمَثَّلِ في الزَّكاةِ المَفْروضَةِ وَالصَّدَقاتِ .

يَقول سُبْحانَهُ :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ .

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَي : في طاعَتِهِ وَرِضاهُ ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُلْقِيَتْ في الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ ، فَأَصابَها الغَيْثُ ، وَأَنْبَتَتْ هَذِهِ الحَبَّةُ سَبع سَنابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ ، فَقَدْ شَبَّهَ اللهُ سُبْحانَهُ حالَ الصَّدَقَةِ الَّتي يُنْفِقُها المُؤْمِنُ في سَبيلِ اللهِ ، فَيُجازيهِ عَلَيْها ثواباً عَظيماً ، بِحالِ الحَبَّةِ

الَّتي تُلْقى في الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ فَتُخْرِجُ فَسائِلَ مُتَعَدِّدَةً قَدْ تَصِلُ إلى سَبْعٍ في كُلٍّ مِنها سُنْبُلَةٌ وَفي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّةٍ . وَفي هَذا حَضٌّ وَحَثٌّ على الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ ، وَهَذا ما بَدَأَتْ بِهِ الآياتُ ، فَقَدْ بَدَأَتِ الحَديثَ عَنِ النَّفَقَةِ الَّتي يُنْفِقُها الإنْسانُ مُتَطَوِّعاً ، فَهِيَ تَسْتَثيرُ مَشاعِرَ الإنْسانِ وَعَواطِفَهُ في عَرْضِ هَذِهِ الصُّورَةِ لِمُضاعَفَةِ الأُجورِ ، فَالزَّرْعُ يُعْطي أَضْعافَ أَضْعافَ ما وُضِعَ في الأَرْضِ ، وَهَذا الَّذي يُنْفِقُ يَأْخُذُ أَضْعافَ أَضْعافَ ما أَعْطاهُ كَذَلِكَ .

﴿ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فَهُوَ يُضاعِفُ الثَّوابَ وَالجَزاءَ أَضْعافاً كَثيرَةً بِلا عُدَّةٍ وَلا حِسابٍ ، لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ واسِعٌ لا يَضيقُ عَطاؤُهُ وَلا يَنْضُبُ ، عَليمٌ ، يَعْلَمُ النَّوايا وَيُثيبُ عَلَيْها ، وَلا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ ، فَمَنْ أَنْفَقَ بِنِيَّةٍ خالِصَةٍ للهِ تَعالى فَهُوَ يَعْلَمُهُ ، وَمَنْ أَنْفَقَ رِياءً فَهُوَ يَعْلَمُهُ كَذَلِكَ .

وَلَكِنْ أَيُّ إنْفاقٍ هَذا الَّذي يُحِبُّهُ اللهُ تَعالى ، وَأَيُّ إنْفاقٍ هَذا الَّذي يُنَمّيهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟ تَأْتي الآياتُ لِتُجيبَ عَنْ هَذا السُّؤالِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الَّذينَ يُقْبَلُ مِنْهُمْ ، وَيُحِبُّهُمْ اللهُ تَعالى هُمُ الَّذينَ يُنْفِقونَ أَموالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ ، وَقَدْ عُبِّرَ بِالمُضارِعِ ﴿يُنفِقُونَ﴾ لِتَدُلَّ على التَّجَدُّدِ وَالحُدوثِ ، فَهُمْ دائِماً يُنْفِقونَ في طاعَةِ اللهِ وَرِضا اللهِ . ثُمَّ ماذا ؟ ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ والمَنُّ أَنْ يَتَطاوَلَ المُحْسِنُ بِإحْسانِهِ عَلى مَنْ أَحْسَنَ إلَيْهِ ، وَيَتَفاخَرَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ ما أَعْطاهُ إيّاهُ ، وَيُسْمِعَهُ دائِماً بِأَنَّهُ أَنْفَقَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَوْلاهُ ما وَجَدَ مالاً ، أَوْ لُقْمَةً يَسُدُّ بِها رَمَقَهُ ، وَلَوْلاهُ ما اسْتَطاعَ أَنْ يُنْفِقَ عَلى أَهْلِهِ .

وَالمَنُّ أَمْرٌ كَريهٌ ، لأَنَّ الإنْسانَ لا يَمُنُّ بِما أَعْطى ، إلاّ إذا رَغِبَ في الاسْتِعلاءِ عَلى النَّاسِ ، أَوْ رَغِبَ في إذْلالِ مَنْ يُعْطيهِ وَيُنْفِقُ عَلَيْهِ ، أَوْ يَرْغَبُ في لَفْتِ انْتِباهِ النَّاسِ إلى أَنَّهُ يُنْفِقُ وَيُعْطي ، وَهَذا كُلُّهُ يَعْني أَنَّهُ يَتَوَجَّهُ بِعَطائِهِ إلى النَّاسِ ، وَلَيْسَ إلى اللهِ ، وَهَذا الأَمْرُ لا يَكونُ مِنَ المُؤْمِنينَ ، إنَّ المَنَّ يَجْعَلُ الصَّدَقَةَ أَذىً لِلْمُعْطي وَالآخِذِ عَلى حَدٍّ سَواءٍ ، فَهِيَ أَذىً لِلْمُعْطي لأَنَّهُ يُثيرُ في نَفْسِهِ الكِبْرَ وَالخُيَلاءَ ، فَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَرى مَنْ أَعْطاهُ ذَليلاً مُنْكَسِراً ، وَهِيَ أَذىً لآخِذِ الصَّدَقَةِ ، لأَنَّها أَثارَتْ في نَفْسِهِ الذِّلَّةَ وَالمَهانَةَ وَالانْكِسارَ . وَقَدْ جاءَ العَطْفُ بِـ (ثُمَّ) هُنا لِيُبَيِّنَ سُبْحانَهُ التَّفاوتَ الشَّديدَ وَالكَبيرَ بَيْنَ الإنْفاقِ الَّذي يُحِبُّهُ اللهُ تَعالى ، وَبَيْنَ الإنْفاقِ الَّذي يُصاحِبُهُ المَنُّ والأَذى .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِبَيانِ جَزاءِ أُولَئِكَ الَّذينَ لَمْ يَمُنُّوا عَلى النّاسِ بِما أَنْفَقوا بِقَوْلِهِ : ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لَقَدْ شَرَعَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى هَذا الحُكْمَ لِيُبَيِّنَ لِلْبَشَرِ جَميعاً ، أَنَّهُمْ إذا أَعْطى أَحَدُهُمْ مِنْ مالِهِ شَيْئاً ، فَإنَّما هُوَ قَدْ أَعْطى مِنْ مالِ اللهِ ، وَإذا أَسْلَفَ مالاً

فإنَّما هُوَ قَرْضٌ للهِ يُضاعِفُهُ لَهُ أَضْعافاً كَثيرةً ، وَعَطاءُ الغَنِيِّ لِلفَقيرِ سَبَبٌ في مُضاعَفَةِ مالِهِ وَأَجْرِهِ وَثَوابِهِ عِنْدَ اللهِ ، وَلِذا فَقَدْ شُرِعَتْ هَذِهِ الأَحْكامُ حَتَّى لا يَسْتَعْلِيَ أَحَدٌ عَلى أَحَدٍ ، فَكُلٌّ مِنْهُما : المُعْطي وَالآخِذُ ، يَأكُلونَ مِنْ رِزْقِ اللهِ تَعالى ، وَلِلمُعْطينَ أَجْرُهُمُ العَظيمُ مِنَ اللهِ تَعالى ، لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ فَقْرٍ ، ولا مِنْ حِقْدٍ وَلا غُبْنٍ وَلا خِداعٍ ، وَلا هُمْ يَحْزَنونَ عَلى ما أَنْفَقوا في الدُّنيا ، أَوْ عَلى مَصيرِهِمْ في الآخِرَةِ .

وتُؤَكِّدُ الآياتُ عَلى هَذِهِ القَضِيَّةِ ، وَهِيَ عَدَمُ المَنِّ وَإِيذاءِ الآخَرينَ ، لأَنَّ الحِكْمَةَ مِنَ النَّفَقَةِ تَهْذيبُ النُّفوسِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ .

القَوْلُ المَعْروفُ ، هُوَ أَنْ تَقولَ لِلسَّائِلِ كَلاماً جَميلاً طَيِّباً ، يُجْبَرُ بِهِ خاطِرُهُ ، وَتُحْفَظُ كَرامَتُهُ ، وَتُضَمَّدُ جِراحُهُ ، وَمَغْفِرَةٌ لِما وَقَعَ مِنَ السَّائِلِ مِنْ إِلْحاحٍ وَسَتْرٍ لِحالِهِ وَصَفْحٍ عَنْهُ ، فَتُغْسَلُ أَحْقادُ النُّفوسِ لِتَحِلَّ مَحَلَّها الصَّداقَةُ وَالإِخاءُ وَالمَوَدَّةُ ، خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْ تِلْكَ الصَّدَقَةِ الَّتي يُتْبِعُها المُتَصَدِّقُ بِالمَنِّ والأَذى ، فَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ ، والوَجْهُ الباشُّ ، خَيْرٌ مِنْ تِلْكَ الصَّدَقَةِ .

وَالصَّدَقَةُ لَيْسَتْ تَفَضُّلاً مِنَ المُعْطي ، وَإِنَّما حَقٌّ لِلْفَقيرِ في مالِهِ ، وَلِذا خَتَمَ سُبْحانَهُ الآيَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ فَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الصَّدَقَةِ المُؤْذِيَةِ ، وَهُوَ حَليمٌ حَيْثُ لا يُعاجِلُ هَذا الَّذي يَمُنُّ عَلى النَّاسِ بِالعُقوبَةِ ، وَلَكِنَّهُ يُمْهِلُهُ سُبْحانَهُ لَعَلَّهُ يَتوبُ وَيَرْجِعُ عَنْ إيذائِهِ لِلآخَرينَ ، وَيُنْفِقُ مِنْ قَلْبٍ خالِصٍ للهِ تَعالى .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى مُضاعَفَةُ الحَسَناتِ لِلإِنْسانِ إِلى عَشْرِ حَسَناتٍ حَتَّى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ ، وَعَدَمُ مُضاعَفَةِ السّيِّئاتِ .

٢ـ العَمَلُ المَقْبولُ عِنْدَ اللهِ تَعالى ما كان بِنِيَّةٍ خالِصَةٍ للهِ تَعالى صادِرَةٍ مِنْ قَلْبٍ صادِقٍ .

٣ـ المالُ مالُ اللهِ تَعالى ، وَلِلفُقَراءِ حَقٌّ في هَذا المالِ الَّذي جَعَلَهُ اللهُ في أَيْدي الأَغْنياءِ .

٤ـ المَنُّ صِفَةٌ كَريهَةٌ لا يُحِبُّها اللهُ تَعالى ، وَهُوَ يُلْحِقُ الأَذى بِالمُعْطي لِلمالِ وَالآخِذِ لَهُ ، عَلى حَدٍّ سَواءٍ .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَوْضوعُ الرَّئيسيُّ الَّذي جاءَتْ تتَحدَّثُ عَنْهُ الآياتُ ؟

٢ـ ذَكَرَتِ الآيَةُ مَثَلاً لأَمْرٍ ما ، وَضِّحْ هَذا المَثَلَ .

٣ـ ما مَعْنى : ﴿وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ ؟

٤ـ إنَّ اللهَ تَعالى قَدْ حَثَّ المُؤْمِنينَ عَلى النَّفَقَةِ ، وَلَكِنْ أَيُّ نَوْعٍ مِنَ النَّفَقَةِ يُحِبُّ اللهُ تَعالى ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بِالمَنِّ وَالأذى ؟

٦ـ لِماذا كانَ المَنُّ أَذىً ؟ وَعَلى مَنْ يَعودُ هَذا الأَذى ؟

٧ـ بَيِّنْ جَزاءَ أُولَئِكَ الَّذينَ يُنْفِقونَ بِغَيْرِ مَنٍّ أَوْ أذىً .

٨ـ ما المَقْصودُ بِالقَوْلِ المَعْروفِ وَالمَغْفِرَةِ ؟ وَكَيْفَ كانا خَيْراً مِنَ الصَّدَقَةِ الَّتي يَتْبَعُها أَذىً ؟

٩ـ لِماذا خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِه تَعالى : ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يُبَيِّنُ مُضاعَفَةَ أَجْرِ المُتَصَدِّقِ في سَبيلِ اللهِ .

٢ـ اكْتُبْ حَديثاً شَريفاً يَدُلُّ عَلى فَضْلِ البَشاشَةِ عِنْدَ اللِّقاءِ .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثالِثُ والثَّمانونَ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ
بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا
يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ
أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٌ ٢٦٥

مَعاني المُفْرَداتِ :

صَفْوانٍ : حَجَرٍ قاسٍ أَمْلَسَ .

وابلٌ : مَطَرٌ شَديدٌ .

صَلْداً : صُلْباً أَجْرَدَ خالِياً مِنَ التُّرابِ لا يَنْبُتُ عَلَيْهِ شَيْءٌ .

تَثْبيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ : تَيَقُّناً مِنْ ثَوابِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى .

جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ : بُسْتانٍ في مُرْتَفَعٍ مِنَ الأَرْضِ .

أُكُلَها : ثَمَرَها .

فَطَلٌّ : مَطَرٌ خَفيفٌ .

التَّفْسيرُ :

ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ مِثالاً لِلَّذينَ يُنْفِقونَ أَمْوالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ دونَ أَنْ يُتْبِعوا صَدَقاتِهِمْ مَنّاً ولا أَذىً ، وَهَذِهِ الآياتُ تُوَجِّهُ الخِطابَ إلى الَّذينَ آمنوا أَنْ لا يُبْطِلوا صَدَقاتِهِمْ بِالمَنِّ وَالأَذى ،

وَتذكُرُ مَثَلَيْنِ يَدُلاّنِ على أَثَرِ النَّفَقَةِ في سَبيلِ اللهِ ، وَالَّتي تَكونُ لِلرِّياءِ والسُّمْعَةِ .

وَقَدْ بَدَأَتِ الآياتُ بالصُّورَةِ المُنَفِّرَةِ ، وَهِيَ صورةُ الإِنْفاقِ المَشوبِ بِالمَنِّ وَالأَذى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ .

فَهِيَ تُخاطِبُ المُؤْمنينَ قائلَةً : لا تُبْطِلوا أَيُّها المُؤْمنونَ صَدَقاتِكُمْ بِأَنْ تُتْبِعوها بِالمَنِّ والأَذى ، وَتُحْبِطوا أَجْرَها ، فتكونونَ بِذلِكَ مِثْلَ المُنافِقِ الَّذي يُنْفِقُ مالَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرى النَّاسُ مِنهُ ذٰلِكَ ، ولا يَبْتغي بهِ رِضى اللهِ تَعالى ، لأَنَّهُ كَفَرَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، فَهُوَ لَمْ يَذُقْ حَلاوةَ الإِيمانِ ، وَلَمْ يَسْتَشْعِرْها في قَلْبِهِ ، فَقَدْ غَطَّتْ تِلكَ الغِشاوَةُ قَلْبَهُ .

إِنَّ هَذا القَلْبَ المَغْشِيَّ عَلَيْهِ بِالرِّياءِ ، مِثْلُهُ كَمِثْلِ صِفوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ ، وَالصَّفوانُ الحَجَرُ الأَمْلَسُ الَّذي عَلَيْهِ قَليلٌ مِنْ تُرابٍ ، فَيَحْسَبُ الرَّائي أَنَّ هَذا الحَجَرَ صَالِحٌ لِلزِّراعَةِ فَيَأْتي بِالحُبوبِ وَيَبْذُرُها عَلى هَذا الحَجَرِ ، فإِذا أَنْزَلَ اللهُ المَطَرَ الغَزيرَ ، ذَهَبَ بِالتُّرابِ القَليلِ ، وانْكَشَفَ الحَجَرُ ، وَظَهَرَتْ حَقيقَتُهُ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ حَجَرٌ أَمْلَسُ لا يَصْلُحُ لإِنْباتِ أَيِّ شَيءٍ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ سُبْحانَهُ يُشَبِّهُ النَّفَقَةَ الَّتي تَكونُ رِئاءَ النَّاسِ بِهذا الحَجَرِ الأَمْلَسِ الَّذي يُغَطِّيهِ التُّرابُ الخَفيفُ ، وَكَذٰلِكَ قُلوبُهُمْ غَشِيَها الرِّياءُ ، وَغَطَّاها ، بِحَيْثُ صَارَتْ خالِيَةً مِنَ الإِيمانِ ، وَهَذا الحَجَرُ الَّذي لَمْ يُنْبِتْ زَرْعاً وَلَمْ يُثْمِرْ ثَمَرَةً ، كَذٰلِكَ القَلْبُ الَّذي أَنْفَقَ صاحِبُهُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ لَمْ يُثْمِرْ خَيْراً وَلَمْ يَنَلْ مَثوبَةً مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى . ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ ﴾ أَي : أَنَّ الَّذينَ أَبْطَلوا صَدَقاتِهِمْ بِالمَنِّ وَالأَذى ، والرِّياءِ ، لا يَنْتَفِعونَ بما فَعَلوا ، فَهُمْ لا يَحْصُلونَ على ثَمْرَةٍ في الدُّنيا وَلا في الآخِرَةِ ، لأَنَّ المَنَّانَ يَبْغُضُهُ النَّاسُ في الدُّنْيا ، وَفي الآخِرَةِ لا أَجْرَ لَهُ وَلا ثَوابَ عِنْدَ اللهِ تَعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ لا يَهديهِمْ إِلى ما فيهِ خَيْرُهُمْ ، فَهُمْ آثَروا الكُفْرَ عَلى الإِيمانِ ، وَالإِيمانُ هُوَ الَّذي يَهْدي قَلْبَ صاحِبِهِ بِتَوْفيقٍ مِنَ اللهِ تَعالى إِلى الإِخْلاصِ في العَمَلِ ، وَتَرْكِ المُراءاةِ .

لَقَدْ نَهَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ عَنْ إِتباعِ النَّفَقَةِ بِالمَنِّ وَالأَذى ، وَهَذا ما جاءَتْ تُؤَكِّدُهُ الأَحاديثُ عَنِ الرَّسولِ ﷺ ، فَعَنْ أَبي ذَرٍّ الغِفاري قَالَ : قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ : المَنَّانُ بِما أَعْطى ، وَالمُسْبِلُ إِزارَهُ ، وَالمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلْفِ الكاذِبِ »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ، حديث رقم ١٠٦ .

وَانتَقَلَتِ الآياتُ لِبيانِ المَثَلِ الآخرِ ؛ مَثَلِ مَنْ أَنْفَقَ مالَهُ ابْتغاءَ مَرْضاةِ اللهِ تعالى ، تَرْغيباً لِلإِنْسانِ بِأَنْ يَكونَ مِنْهُمْ ، قالَ اللهُ تعالى :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ .

يُشَبِّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى نَفَقَةَ أُولئِكَ الَّذينَ يُنْفِقونَ أَمْوالَهُمْ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ تَعالى وَتَثْبيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، أَيْ : يُنْفِقونَهُ عَنْ ثِقَةٍ ثابِتَةٍ في الخَيْرِ وَفي أَنَّ اللهَ تَعالى سَيُنَمّي لَهُمْ هذا المالَ ، يُشَبِّهُهُمْ بِجَنَّةٍ في مَكانٍ مُرْتَفِعٍ أَصابَها مَطَرٌ شَديدٌ ، فَتَضاعَفَ مَحْصولُها ، وَهذِهِ إِنْ لَمْ يُصِبْها مَطَرٌ شَديدٌ ، فَإِنَّ الطَّلَّ وَهُوَ النَّدى يَكْفيها لِتَنْموَ ثِمارُها ، وَذلِكَ أَنَّها أَرْضٌ خِصْبَةٌ .

انْظُرْ هَداكَ اللهُ إِلى عِظَمِ الفَرْقِ بَيْنَ الصّورَتَيْنِ :

١ـ ذاكَ قَلْبٌ غَشِيَهُ الرِّياءُ ، وَهذا قَلْبٌ مُؤْمِنٌ مُتَّصِلٌ بِاللهِ تَعالى .

٢ـ ذاكَ القَلْبُ يُشْبِهُ الحَجَرَ الأَمْلَسَ عَلَيْهِ قَليلٌ مِنَ التُّرابِ ، وَلكِنَّ قَلْبَ المُؤْمِنِ مَثَلُهُ كَحَبَّةٍ خِصْبَةٍ عَميقَةِ التُّرْبَةِ ، تَقومُ عَلى تَلٍّ مُرْتَفِعٍ .

٣ـ إِذا جاءَ المَطَرُ ذَهَبَ بِغِشاءِ التُّرابِ ، وَظَهَرَ حَجَرٌ لا يُنْبِتُ زَرْعاً ولا ثَمَراً ، أَمّا الجَنَّةُ فَإِنَّ المَطَرَ الغَزيرَ يُحْييها ، وَيُخْصِبُها وَيُنَمّيها ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَطَرٌ غَزيرٌ فَإِنَّ الرَّذاذَ الخَفيفَ يَكْفي التُّرْبَةَ الخِصْبَةَ لِتُنْبِتَ زَرْعَها . وَتُخْتَمُ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُبْصِرُ عَمَلَ كُلِّ إِنْسانٍ ، فَهُوَ يُبْصِرُ إِخْلاصَ المُخْلِصِ ، وَيُجازيهِ عَلَيْهِ خَيْراً ، وَيُبْصِرُ المُرائي وَيَعْلَمُ بِمُراءاتِهِ وَيُجازيهِ عَلَيْها شَرّاً ، فَنَسْأَلُ اللهَ تَعالى الإِخْلاصَ في القَوْلِ وَالعَمَلِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإِخْلاصُ في العَمَلِ للهِ تَعالى ، وَتَرْكُ المُراءاةِ المُحْبِطَةِ لِلعَمَلِ ، لأَنَّها تُؤَدّي إِلى الإِشْراكِ بِاللهِ تَعالى .

٢ـ الصَّدَقَةُ تُحْيي قَلْبَ المُؤْمِنِ فَيَزْكو فَيَزْدادُ صِلَةً بِاللهِ وَيَزْكو مالُهُ ، وَيُضاعِفُ اللهُ لَهُ ما يَشاءُ .

٣ـ المُجْتَمَعُ الإِسْلامِيُّ لا يَصْلُحُ وَلا يَنمو إِلاّ بِتَعاوُنِ أَفْرادِهِ وَتَكافُلِهِمْ ، وَهذا يَكونُ بِإِنْفاقِ الغَنِيِّ عَلى الفَقيرِ .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّن معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليَةِ :

المَنُّ والأذى ، رِئاءَ النَّاسِ ، صَفْوانٌ عَلَيْهِ تُرابٌ ، وابِلٌ ، صَلْدا .

٢ـ ضَرَبَتِ الآياتُ مَثَلَينِ ، اذْكُرْهُما ، وَماذا تَسْتَنْتِجُ مِنْهُما ؟

٣ـ وَضِّح المَثَلَ الَّذي ضَرَبَهُ اللهُ لِمَنْ يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ .

٤ـ ما مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ ؟

٥ـ وَضِّح المَثَلَ الَّذي ضَرَبَهُ اللهُ لِمَنْ أَنْفَقَ مالَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ .

٦ـ قارِنْ بَيْنَ المَثَلَيْنِ .

نَشاطٌ :

١ـ سَمَّى الرَّسولُ ﷺ الرِّياءَ بِالشِّرْكِ الأَصْغَرِ ، اسْتَنْتِجْ سَبَبَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ ، واكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ لَقَدْ كانَتْ لِلقُرآنِ عِنايَتُهُ بِالنَّفَقَةِ ، وَلِذا تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْها كَثيراً ، ارْجِعْ إلى القُرْآنِ الكَريمِ مُسْتَعيناً بِالمُعْجَمِ المُفَهْرَسِ لأَلْفاظِ القُرْآنِ الكَريمِ ، وَاجْمَعِ الآياتِ الَّتي تَحُثُّ عَلى الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ

سورةُ البَقَرةِ - القِسْمُ الرَّابِعُ والثَّمانونَ

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن
كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ
إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَيَوَدُّ : أَيُحِبُّ .

جَنَّةٌ : بُسْتانٌ .

إِعْصارٌ : ريحٌ عاصِفَةٌ .

تَيَمَّموا الخَبيثَ : تَقْصُدوا المالَ الرَّديءَ .

تُغْمِضوا فيهِ : تَتَساهَلوا فيهِ .

التَّفْسيرُ :

إنَّ المَنَّ والأَذى يَمْحَقُ الصَّدقاتِ وَيُذْهِبُ أُجورَها ، وَقَدْ أَظْهَرَتِ الآياتُ الكَريمَةُ السَّابقَةُ هَذهِ القَضيَّةَ ، وَجاءَتْ هَذهِ الآياتُ لِتُمَثِّلَ تِلْكَ النِّهايَةَ البائِسَةَ لِهذا الَّذي أَبْطَلَ صَدَقَتهُ بِالمَنِّ والأَذى . قالَ تَعالى :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ .

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴾ وَالهَمْزَةُ للإِنْكارِ ، أَيْ : أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَيُّها المَنّانونَ المُراؤونَ أَنْ تَكونَ لَهُ جَنَّةٌ ، أَشْجارُها مِنَ النَّخيلِ وَالأَعْنابِ ، إِنَّها جَنَّةٌ ظَليلَةٌ وارِفَةٌ مُخْصِبَةٌ مُثْمِرَةٌ ، وَهكذا يَنْبَغي أَنْ تَكونَ الصَّدَقَةُ مُثَمِّرَةً للمالِ مُنَمِّيَةً لَهُ ، هَذِهِ الجَنَّةُ ذاتُ ظِلٍّ وَخَيْرٍ وَبَرَكَةٍ وذاتُ غِذاءٍ وَثَمَرٍ ، تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، وَفيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ، هَذِهِ الجَنَّةُ أَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ رِيحٌ عاصِفَةٌ ، تُصيبُ الأَشْجارَ الوارِفَةَ فَتَحْرِقُها ، وَلا تُبْقي مِنْها شَيْئاً ، وَمَتى كانَ هَذا ؟ كانَ في أَشَدِّ الأَوْقاتِ حاجَةً لِهَذِهِ الجَنَّةِ ، وَفي أَشَدِّ ساعاتِ عَجْزِ مالِكِها عَنْ إِنْقاذِها مِنْ هَذا الإِعْصارِ ، إِنَّهُ وَقْتُ شَيْخوخَتِهِ .

﴿ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ ﴾ ، فَهُوَ كَبيرٌ في السِّنِّ لا يَسْتَطيعُ إِنْقاذَ جَنَّتِهِ ، وَهُوَ في أَمَسِّ الحاجَةِ إِلى خَيْراتِها ، وَأَوْلادُهُ مازالوا صِغاراً ضِعافاً لا يَقْدِرونَ عَلى العَمَلِ .

لَقَدْ فَقَدَ صاحِبُ الجَنَّةِ جَنَّتَهُ وَهُوَ أَحْوَجُ ما يَكونُ إِلَيْها ، وَيَظَلُّ هُوَ وَأَوْلادُهُ الضِّعافُ في حالَةٍ شَديدَةٍ مِنَ البُؤْسِ وَالحَيْرَةِ ، أُولَئِكَ الّذينَ يُبْطِلونَ أَعْمالَهُمْ وَصَدَقاتِهِمْ ، فَقَدْ شُبِّهَ حالُ مَنْ يَعْمَلُ الأَعْمالَ الصَّالِحَةَ ثُمَّ يُتْبِعُها بِما يُفْسِدُها ، فَإِذا جاءَ يَوْمُ القِيامَةِ وَاشْتَدَّتْ حاجَتُهُ لأَعْمالِهِ الصَّالِحَةِ لِتُنْجيهِ مِنْ عَذابِ النّارِ ، وَجَدَها مُحْبَطَةً ذاهِبَةً لا تَنْفَعُهُ بِشَيْءٍ ، لأَنَّهُ لَمْ يَبْتَغِ بِها وَجْهَ اللهِ ، شُبِّهَ هَذا الإِنْسانُ في حَسْرَتِهِ وَأَلَمِهِ وَحُزْنِهِ ، بِحالِ ذَلِكَ الشَّيْخِ الكَبيرِ العاجِزِ الّذي عِنْدَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعافٌ ، وَلا يَمْلِكُ سِوى حَديقَةٍ يَعْتَمِدُ عَلَيْها في مَعاشِهِ هُوَ وَأَوْلادُهُ ، فَنَزَلَ بِها إِعْصارٌ فَأَحْرَقَها ، ودَمَّرَها فَلَمْ يَسْتَفِدْ مِنْها ، فَالمُشَبَّهُ بِهِ مَذْكورٌ ، وَالمُشَبَّهُ مَحْذوفٌ عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحيَّةِ .

عَنِ ابنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قالَ : قالَ عُمَرُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يَوْماً لأَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فِيما تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ قالوا : اللهُ أَعْلَمُ ، فَغَضِبَ عُمَرُ ، فَقالَ : قولوا : نَعْلَمُ أَوْ لا نَعْلَمُ ، فَقالَ ابنُ عَبّاسٍ : في نَفْسي مِنْها شَيْءٌ ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ، قالَ عُمَرُ : يا ابْنَ أَخي قُلْ ولا تُحَقِّرْ نَفْسَكَ ، قالَ ابنُ عَبّاسٍ : ضُرِبَتْ مَثَلاً لِعَمَلٍ ، قالَ عُمَرُ : أَيُّ عَمَلٍ ؟ قالَ ابنُ عَبّاسٍ : لِعَمَلٍ ، قالَ عُمَرُ : لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ لِطاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ بُعِثَ لَهُ الشَّيْطانُ فَعَمِلَ بِالمَعاصي حَتّى أَغْرَقَ أَعْمالَهُ[1] .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَي : كَما يُبَيِّنُ لَكُمُ اللهُ في هَذِهِ الآيَةِ

---

(١) أَخرَجَه البُخاري في كتاب : التفسير ، البقرة ، باب : قوله : (أيود أحدكم أن تكون له جنة) رقم الباب : ٤٩ .

ما يَهْديكُمْ وَيَنْفَعُكُمْ ، يُبيِّنُ لَكُمْ آياتِهِ الّتي تَهْديكُمْ إلى الحَقِّ ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرونَ فِيما يُصْلِحُكُمْ ، وَيُرْضي خالِقَكُمْ ، فَتَعْمَلوا بِهِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَوْجيهِ المُؤْمِنينَ إلى تَحرِّي الحَلالِ في النَّفَقَةِ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ .

نِداءٌ عامٌّ لِلمُؤْمِنينَ في كُلِّ عَصْرٍ ، يَشْمَلُ جَميعَ الأَمْوالِ الّتي يَمْلِكونَها ، وَتَشْمَلُ ما اكْتَسَبَتْهُ أَيْديهِمْ مِنْ حَلالٍ طَيِّبٍ ، وَما أَخْرَجَهُ اللهُ لَهُمْ مِنْ زُروعٍ وَغَيْرِها مِنْ مَعادِنَ وَكُنوزٍ .

سَبَبُ النُّزولِ :

عَنْ البَراءِ بنِ عازِبٍ قالَ : نَزَلَتْ في الأَنْصارِ . كانَتِ الأَنْصارُ إذا كانَتْ أَيّامُ جَذاذِ ـ أَيْ قَطْعُ الثِّمارِ ـ النَّخْلِ أَخْرَجَتْ مِنْ حيطانِها ـ أَيْ بَساتينِها ـ البُرَّ ـ التَّمْرَ إذا تَلَوَّنَ وَلَمْ يَنْضُجْ ـ فَعَلَّقوهُ على حَبْلٍ بَيْنَ الأُسْطوانَتَيْنِ ـ العَمودَيْنِ ـ في مَسْجِدِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَيَأْكُلُ فُقَراءُ المُهاجِرينَ مِنْهُ ، فَيَعْمِدُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إلى الحَشَفِ ـ فَيُدْخِلُهُ مَعَ قِناءِ البُرِّ ، يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ جائِزٌ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾(١) .

إنَّ الآيَةَ تَأْمُرُ المُؤْمِنينَ بِأَنْ يَلْتَزِموا في نَفَقَتِهِمُ المالَ الطَّيِّبَ الحَلالَ ، وَأَنْ لا يَقْصِدوا أَنْ يَكونَ إِنْفاقُهُمْ مِنَ الخَبيثِ الرَّديءِ ؛ إذ كَيْفَ تَقْصِدونَ الخَبيثَ وَتَتَصَدَّقونَ بِهِ وَحْدَهُ ، وَلَسْتُمْ تَرْضَوْنَ مِثْلَهُ لأَنْفُسِكُمْ ، إذا أُعْطِيَ لَكُمْ هِبَةً أَوْ شِراءً ، إلاّ أَنْ تَتَساهَلوا فِيهِ تَساهُلَ مَنْ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ عَنْهُ ، فَلَمْ يَرَ العَيْبَ فِيهِ ، وَلَنْ يَرْضى ذَلِكَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ ، فَلَنْ يَقْبَلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ ما هُوَ رَديءٌ إلاّ إذا خُدِعَ فِيهِ ، فَإذا كانَ هَذا مَوْقِفُكُمْ مِنَ الرَّديءِ ، فَكَيْفَ تُقَدِّمونَهُ لِغَيْرِكُمْ ؟ فَمِنْ شَأْنِ المُؤْمِنِ الصّادِقِ في إيمانِهِ أَنْ يُحِبَّ لِنَفْسِهِ ما يُحِبُّ لأَخيهِ .

إنَّ اللهَ تَعالى غَنِيٌّ عَنْ هَذا الخَبيثِ الّذي تَقْصِدونَ إلَيْهِ ، فَتُخْرِجونَ مِنْهُ صَدَقاتِكُمْ ، كَيْفَ وَهُوَ سُبْحانَهُ يُنْعِمُ عَلَيْكُمْ بِما هُوَ طَيِّبٌ ، وَيُثيبُكُمْ على الكَسْبِ الطَّيِّبِ وَيَجْزيكُمْ جَزاءً حَسَناً عَلَيْهِ ، وَلِذا تُخْتَمُ الآيَةُ الكَريمَةُ بِهَذِهِ الخاتِمَةِ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ غَنِيٌّ عَنِ الخَبيثِ ، حَميدٌ حَيْثُ يَجْزيكُمْ أَفْضَلَ الجَزاءِ عَلى إحْسانِكُمْ في كَسْبِ المالِ الطَّيِّبِ ، وَفى إنْفاقِ هَذا المالِ بِالوُجوهِ الحَسَنَةِ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال : على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ العَمَلُ الصَّالِحُ المَقْبولُ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، هُوَ الّذي يُبْتَغى بِهِ وَجْهُ اللهِ تَعالى ، وَلا يُتْبِعُهُ الإِنْسانُ بِمَعْصِيَةٍ تُحْبِطُهُ .

٢ـ تَحَرِّي إِنْفاقِ المالِ الحَلالِ الطَّيِّبِ ، وَعَدمُ قَصْدِ المالِ الخَبيثِ .

٣ـ مِنْ كَمالِ الإِيمانِ أَنْ يُحِبَّ المَرْءُ لأَخيهِ ما يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَيَوَدُّ﴾ ؟

٢ـ لِمَنْ ضَربَتِ الآيَةُ الأُولى المَثَلَ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ؟

٣ـ وَضِّحْ هَذا المَثَلَ الّذي ذَكَرَتْهُ الآيَةُ (٢٦٦) .

٤ـ ما سَبَبُ نُزولِ الآيَةِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ؟

٥ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ ؟

٦ـ لِماذا خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ؟

٧ـ بَيِّنْ مَعْنى قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الّتي تُبَيِّنُ حالَ المُؤْمِنينَ المُتَصَدِّقينَ كَما وردت في سورَةِ الدَّهْرِ .

* * *

الدَّرْسُ التاسِعُ والثّلاثونَ

سورَةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والثّمانونَ

ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ
وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا
يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا
وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَعِدُكُمْ : يُخوِّفُكُمْ .

بالفَحشاءِ : بِكُلِّ مَعصيةٍ للهِ ، ومِنْها البُخْلُ الشَّديدُ .

مَغْفِرَةً : الصَّفْحَ عَنِ الذَّنْبِ .

الألبابِ : العُقولِ .

نَذَرْتُمْ : التِزامُ الطاعَةِ تَقرُّباً إلى اللهِ تَعالى .

التَّفسيرُ :

ما زالتِ الآياتُ تَتحدَّثُ عَنِ النَّفقَةِ وتَحثُّ عَلَيْها ، وكَما حَذَّرَتِ الآياتُ السّابقَةُ مِنَ المَنِّ والأَذى والرِّياءِ ، فهذهِ الآياتُ تُحَذِّرُ مِنْ أَصلِ ذَلِكَ الشَّيءِ كُلِّهِ ، وهُوَ الشَّيْطانُ الّذي يُوَسْوِسُ للإنْسانِ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ .

إنَّ الشَّيْطانَ أيُّها النّاسُ يُخوِّفُكُمُ الفَقْرَ ، ويُثيرُ في نُفوسِكُمُ الحِرْصَ عَلى المالِ ويُحبِّبُ لَكُمُ الشُّحَّ ، والتَّكالُبَ عَلى الدُّنيا ، فَهُوَ يُوَسْوِسُ لَكُمْ مُحذِّراً إيّاكُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ ، بإقْناعِكُمْ بأنَّها تُذْهِبُ مالَكُمْ ، وهوَ يُغريكُمْ بارْتِكابِ المعاصي والفواحِشِ ، الّتي مِنْ أقْبَحِها البُخْلُ الشَّديدُ ، والشُّحُّ المُهْلِكُ . وكَما نَعْلَمُ فإنَّ خَوْفَ الفَقْرِ كانَ يَدْعوهُمْ لِوَأْدِ البَناتِ ، وحِرْصُهُمْ عَلى جَمْعِ المالِ كانَ يَجْعَلُهُمْ يَأْكُلونَ الرِّبا ، وهَذا كُلُّهُ مِنَ الفَواحِشِ وهِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ .

وإذا كانَ الشَّيْطانُ يَعِدُ بالفَقْرِ ويَأْمُرُ بالفَحْشاءِ ، فَبماذا وَعَدَ اللهُ تَعالى عِبادَهُ ؟ إنَّ اللهَ يَعِدُ عِبادَهُ ﴿ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾ فَهُوَ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً لِذُنوبِكُمْ ، وزِيادَةً عَلى ذَلِكَ يَعِدُكُمْ فَضْلاً مِنْهُ ، وهُوَ يَشْمَلُ عَطاءَ الرِّزْقِ جَزاءً لِما تَبْذُلونَهُ مِنْ مالٍ في سَبيلِ اللهِ ، فالصَّدَقَةُ تَزيدُ البَرَكَةَ في الرِّزْقِ ، وَيَمْحو اللهُ بِها الخَطايا والذُّنوبَ .

﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، إنَّهُ سُبْحانَهُ يُعْطي عَنْ سَعَةٍ ، ويَعْلَمُ ما يُوَسْوِسُ بِهِ الشَّيْطانُ في صُدورِكُمْ ، وما يَدورُ في خَواطِرِكُمْ .

عَنْ عَبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ للشَّيْطانِ لَمَّةً بابنِ آدَمَ ، ولِلْمَلَكِ لَمَّةٌ - أيْ خَطْرَةٌ وهاجِسٌ يَقَعُ في قَلْبِ الإنْسانِ - فأمّا لَمّةُ الشَّيْطانِ فإيْعادٌ بالشَّرِّ ، وتَكْذيبٌ بِالحَقِّ ، وَأَمّا لَمّةُ المَلَكِ فَإيعادٌ بِالخَيْرِ ، وَتَصْديقٌ بالحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أنَّهُ مِنَ اللهِ ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرى ، فَلْيَتَعوَّذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ ، ثُمَّ قَرَأَ (الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بالفَحْشاءِ . . .)»[1] .

إنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لا يُعْطي عِبادَهُ المَغْفِرَةَ وَحْدَها ، وَلَكِنَّهُ يُعْطي الحِكْمَةَ كَذَلِكَ :

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ .

إنَّ الشَّيْطانَ يَعِدُ بالفَقْرِ وَالفَحْشاءِ ، وَاللهُ يَعِدُ بالمَغْفِرَةِ وَالفَضْلِ ، وَوَعْدُ اللهِ تُرَجِّحُهُ الحِكْمَةُ وَالعَقْلُ ، وَوَعْدُ الشَّيْطانِ تَرَجِّحُهُ الشَّهْوَةُ وَالنَّفْسُ ، وَلا شَكَّ أنَّ حُكْمَ الشَّهْوَةِ وَالنَّفْسِ يُوقِعُ الإنْسانَ في البَلاءِ ، وَحُكْمُ العَقْلِ وَالشَّرْعِ هُوَ الحُكْمُ الصّادِقُ المُبْرَّأُ عَنِ الزَّيْغِ وَالخَلَلِ فَهُوَ أَوْلَى بِالقَبولِ . إنَّهُ سُبْحانَهُ يُؤْتي الإنْسانَ الحِكْمَةَ ؛ أَي : القَصْدَ وَالاعْتِدالَ فَيَمْنَعُهُ عَقْلُهُ مِنَ الوُقوعِ في الفَاحِشَةِ ، وَمِنْ تَعَدِّي الحُدودِ ، فَالحِكْمَةُ إصابَةُ الحَقِّ في القَوْلِ وَالعَمَلِ .

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعالى لِلعَمَلِ الصّالِحِ الإيمانِ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن ، حديث رقم ٢٩٨٨ ، وابن حيان في الصحيح ، حديث رقم ٩٩٧ .

الصَّحيح ، وَوَفَّقَهُ لِتَرْكِ كُلِّ شَرٍّ وَفاحِشَةٍ ، فَإِنَّهُ يَكونُ سَعيداً في الدُّنيا وَالآخِرَةِ . ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إِنَّ صَاحِبَ العَقْلِ هُوَ الَّذي يَتَذَكَّرُ فَلا يَنْسى ، وَإِذا نَبَّهَهُ لا يَغْفَلْ ، وَيَرى في كُلِّ ما حَوْلَهُ عِبْرَةً لَهُ . إِنَّ صاحِبَ العَقْلِ يَدْعوهُ عَقْلُهُ إِلى الاهْتِداءِ وَالإِيمانِ بِخالِقِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَعَدَمِ اتِّباعِ وَساوِسِ الشَّيْطانِ . وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتُبَيِّنَ عِلْمَ اللهِ الشّامِلَ بما يُنْفِقُهُ الإِنْسانُ .

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ .

النَّفَقَةُ تَشْمَلُ كُلَّ ما يُخْرِجُهُ الإِنْسانُ مِنْ مالِهِ ، سَواءٌ أَكانَتْ زَكاةً أَمْ صَدَقَةً ، أَمْ تَطَوُّعاً بِالمالِ لِلْجِهادِ وَغَيْرِهِ ، فَهَذِهِ كُلُّها يَعْلَمُها اللهُ ، وَيَعْلَمُ أَيْضاً ما تُلْزِمونَ أَنْفُسَكُمْ بِهِ مِنْ نَفَقَةٍ طاعةً وتَقَرُّباً إِلى اللهِ تَعالى ، وَالنَّذْرُ لا يَكونُ إِلاّ للهِ تَعالى ، كَأَنْ يَنْذِرَ إِنْسانٌ بِأَنْ يَذْبَحَ شاةً ، أَوْ يَتَصَدَّقَ بِمائَةِ دينارٍ تَقَرُّباً للهِ .

هَذا كُلُّهُ يَعْلَمُهُ اللهُ تَعالى وَيُجازيكُمْ عَلَيْه ، وَلاشَكَّ في أَنَّ الإِنْسانَ إِذا شَعَرَ بِأَنَّ اللهَ تَعالى يُراقِبُهُ ، حَمَلَهُ هَذا عَلى التَّقْوى الَّتي هِيَ تَطْهيرُ باطِنِهِ مِنْ هَواجِسِ الشَّرِّ والرِّياءِ وَالشُّحِّ وَالبُخْلِ ، وَجَعَلَهُ يَشْعُرُ بِطُمَأْنينَةٍ وَراحَةٍ نَفْسِيَّةٍ ، وَبِالتّالي فَإِنَّهُ يَشْكُرُ اللهَ تَعالى الَّذي أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَجَعَلَهُ مِنَ المُتَّقينَ الَّذينَ يُنْفِقونَ في سَبيلِهِ سُبْحانَهُ ، وَلا يَخافونَ فَقْراً وَلا شُحّاً ولا نَفادَ مالٍ .

هَؤُلاءِ هُمُ الَّذينَ يَقومونَ بِشُكْرِ اللهِ تَعالى عَلى نِعَمِهِ ، أَمّا الَّذينَ لا يُؤَدُّونَ حَقَّ اللهِ تَعالى ، وَلا يُنْفِقونَ مِمّا أَعْطاهُمُ اللهُ تَعالى ، فَهُمْ ظالِمونَ ، ظالِمونَ لِلنّاسِ ، ظالِمونَ لأَنْفُسِهِمْ ، هَؤُلاءِ الظّالِمونَ لَيْسَ لَهُمْ نَصيرٌ أَوْ مُعينٌ يَمْنَعُ عُقوبَةَ اللهِ تَعالى عَنْهُمْ .

وَيُبَيِّنُ اللهُ تَعالى لِعِبادِهِ المُؤْمِنينَ أَنَّ إِخْراجَ الصَّدَقَةِ عَلانِيَةً أَمْرٌ مُباحٌ ، وَإِخْراجُها خِفْيَةً مُباحٌ كَذَلِكَ وَلَكِنَّهُ خَيْرٌ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ .

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ إِنَّ إِخْفاءَ الصَّدَقاتِ حينَما تَكونُ تَطَوُّعاً أَوْلى عِنْدَ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى وَأَحَبُّ إِلَيْهِ ، لأَنّها تَكونُ بَعيدَةً عَنْ أَنْ تَشوبَها شائِبَةُ رِياءٍ ، أَمّا إِذا كانَتْ أَداءَ فَريضَةٍ كَالزَّكاةِ أَوْ النَّذْرِ فَيَحْسُنُ إِظْهارُها ، لأَنَّ ذَلِكَ يُحَقِّقُ نَشْرَ الخَيْرِ بَيْنَ النّاسِ ، فَمَنْ يَدْفَعُ زَكاةَ مالِهِ لِلنّاسِ بِنِيَّةٍ خالِصَةٍ ، كانَ مَحْموداً عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وَعِنْدَ النّاسِ الَّذينَ شاهَدوا عَمَلَهُ الصّالِحَ ، وَلَعَلَّهُمْ يَقْتَدونَ بِهِ . ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾ إِنَّهُ سُبْحانَهُ يَقْبَلُ مِنْكُمْ صَدَقاتِكُمْ ، وَيَسْتُرُ سَيِّئاتِكُمْ ، وَلا يُظْهِرُها ، وَذَلِكَ لأَنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ، كَما قالَ

تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ١١٤] ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى يَعْلَمُ عِلْماً دَقيقاً كُلَّ ما تَعْمَلونَهُ أَيُّها المُؤْمِنونَ ، وَهُوَ عَليمٌ بِنِيّاتِكُمْ ، لِذا عَلَيْكُمْ أَنْ تُخْلِصوا لَهُ أَعْمالَكُمْ وَأَنْ تُراقِبوهُ في السِّرِّ وَالعَلَنِ .

وَمِنَ المُلاحَظِ أَنَّ الآياتِ القُرآنِيَّةَ أَطالَتِ الحَديثَ عَنْ قَضيَّةِ النَّفَقَةِ ، وَسِرُّ ذَلِكَ واللهُ أَعْلَمُ :

أَوّلاً : إِنَّ اللهَ تَعالى أَعْلَمُ بِالطَّبيعَةِ البَشَرِيَّةِ ، وَما يُساوِرُها مِنَ الشُّحِّ ، وَالحِرْصِ عَلى المالِ ، وَلِذا نَجِدُ القُرآنَ يَتَحَدَّثُ كَثيراً عَنْ هَذِهِ القَضِيَّةِ ، لِيَحُثَّ النّاسَ عَلى الاسْتِعلاءِ عَلى هذِهِ الصِّفَةِ (الشُّحِّ) ، وَيَسْتَثيرَ مَشَاعِرَهُمْ لِذَلِكَ .

ثانِياً : لَقَدْ اشْتُهِرَ عَنِ العَرَبِ وَقْتَ نُزولِ القُرآنِ الكَريمِ الكَرَمُ والجودُ والسَّخاءُ ، وَلكِنَّهُ كَرَمٌ وَسَخاءٌ يُقْصَدُ بِهِ الذِّكْرُ ، وَالصِّيتُ بَيْنَ النّاسِ ، فَجاءَ القُرآنُ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَنْبَغي أَنْ يُنْفِقوا دُونَ أَنْ يَنْتَظِروا ثَناءً مِنَ النّاسِ ، وَأَنْ يَتَّجِهوا إِلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وَهَذِهِ القَضِيَّةُ بِحاجَةٍ إِلى تَرْبِيَةٍ طَويلَةٍ وَجُهْدٍ كَثيرٍ ، لِذا كانَ التَّرْكيزُ عَلى قَضيَّةِ النَّفَقَةِ .

ثالِثاً : الحاجَةُ إِلى النَّفَقَةِ لِشِدَّةِ الفَقْرِ وشُحِّ المَوارِدِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإِنْسانُ أَمامَ طَريقَيْنِ : طَريقِ اللهِ وَطَريقِ الشَّيْطانِ ، فَمَنْ لَمْ يَسِرْ عَلى طَريقِ اللهِ تَعالى وَيَتَّبِعْ شَرْعَهُ ، فَهُوَ سائِرٌ في طَريقِ الشَّيْطانِ وَمُتَّبِعٌ هَواهُ .

٢ـ صاحِبُ العَقْلِ الرَّشيدِ هُوَ الّذي يَحْمِلُهُ عَقْلُهُ عَلى اتِّباعِ طَريقِ الحَقِّ ، وَيَحْجِزُهُ عَنِ اتِّباعِ طَريقِ الشَّيْطانِ .

٣ـ المُؤْمِنُ الّذي يَشْعُرُ بِمُراقَبَةِ اللهِ تَعالى لأَعْمالِهِ وَحَرَكاتِهِ ، يَحْمِلُهُ هَذا عَلى التَّقوى الّتي هِيَ تَطْهيرُ باطِنِهِ للهِ تَعالى ، وَتَطْهيرُ ظاهِرِهِ كَذَلِكَ ، والالتِزامُ بِكُلِّ ما أَمَرَهُ اللهُ تَعالى .

٤ـ مِنَ الذينَ يُظِلُّهُمْ اللهُ بِظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ ، رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفاها حَتّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يَمينُهُ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما أَصْلُ الشُّرورِ كُلِّها ؟

٢ـ كَيْفَ يَعِدُ الشَّيْطانُ بِالفَقْرِ ؟

٣ـ بِمَ وَعَدَ اللهُ تَعالى عِبادَهُ ؟

٤ـ وَضِّحْ مَعْنى : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ .

٥ـ مَنْ أُولو الأَلْبابِ ؟

٦ـ ما المَقْصودُ بِالنَّفَقَةِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ ؟ وَما النَّذْرُ ؟

٧ـ بِمَ وَصَفَ اللهُ الّذينَ لا يُؤَدّونَ حَقَّ اللهِ تَعالى ؟

٨ـ مَتَى يُسْتَحَبُّ إِخْفاءُ الصَّدَقَةِ ؟ وَمَتى يُسْتَحَبُّ إِبْداؤُها ؟

٩ـ ما الجَزاءُ الّذي حَدَّدَتْهُ الآيَةُ لِمَنْ يُنْفِقُ في سَبيلِ اللهِ ؟

١٠ـ ما الحِكْمَةُ مِنَ الحَديثِ عَنِ النَّفَقةِ بِهذا الإِسْهابِ في الآياتِ الكَريمةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ ما حُكْمُ النَّذْرِ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اذْكُرْ قِصَّةً مِنْ قِصَصِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِمّا تَحْفَظُهُ ، تَدُلُّ عَلى أَنَّهُمْ كانوا يُنْفِقونَ أَمْوالَهُمْ وَهُمْ لا يَخْشَوْنَ نَفادَ المالِ أَوْ الفَقْرِ .

* * *

الدَّرْسُ الأَرْبَعونَ

سورَةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ السّادِسُ والثّمانونَ

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا
يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **أُحْصِروا** : مُنِعوا وَحُبِسوا .
- **ضَرْباً** : سَيْراً في الأَرْضِ لِلكَسْبِ وَالتِّجارَةِ .
- **التَّعَفُّفِ** : إظهارِ العِفَّةِ ، وَهُوَ التَنَزُّهُ عَنْ سُؤالِ النّاسِ .
- **إلْحافاً** : إلْحاحاً ، وَهِيَ أَنْ يُلازِمَ السّائِلُ المَسْؤولَ حَتى يُعْطِيَهُ .

التَّفسيرُ :

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ .

لَقَدْ أَرْشَدَتِ الآياتُ السّابِقَةُ المُسْلِمينَ إلى إيتاءِ الصَّدَقاتِ لِلفُقَراءِ عامَّةً ، وَجاءَتِ الآياتُ هُنا

لِتُبَيِّنَ لِلمُسْلِمينَ أَنَّهُ يَنْبَغي أَنْ لا يَتَحَرَّجوا مِنْ إِعْطاءِ الفَقيرِ غَيْرِ المُسْلِمِ الصَّدَقَةَ لِيَسُدَّ حاجَتَهُ ، وَأَمّا أَمْرُ القُلوبِ وَهُداها وَضَلالُها فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعالى وَلَوْ كانَ رَسولَ اللهِ ﷺ ، إِنَّما هُوَ مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعالى ، فَهَذِهِ القُلوبُ بِيَدِ اللهِ تَعالى ، لا يُصَرِّفُها سِواهُ ، وَلا سُلطانَ لأَحَدٍ عَلَيْها إِلاّ للهِ تَعالى ، وَلِذَلِكَ ما عَلى الرَّسولِ إِلاّ البَلاغُ ، أَمّا الهُدى فَهُوَ بِيَدِ اللهِ يُعْطيهِ مَنْ يَشاءُ الهِدايَةَ مِنْ عِبادِهِ ؛ وما دامَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فَعَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ أَنْتَ وَأُمَّتَكَ أَنْ تُنْفِقوا عَلى مَنْ يَحْتاجُ النَّفَقَةَ مِمَّنْ هُمْ عَلى غَيْرِ دينِكُمْ .

وَلَقَدْ جَاءَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ تُقَرِّرُ حُرِّيَةَ الدِّينِ وَالعَقيدَةِ (لا إِكْراهَ في الدّينِ) ، وَلَيْسَ هَذا فقط ، بَلْ جَاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُقَرِّرَ تِلْكَ السَّماحَةَ الدِّينِيَّةَ ، فَهُوَ يُقَرِّرُ حَقَّ المُحتاجينَ جَميعاً ، سواءٌ أَكانوا مُسْلِمينَ أَمْ غَيْرَ مُسْلِمينَ ، ما داموا في غَيْرِ حالَةِ حَرْبٍ مَعَ المُسْلِمينَ .

إِنَّ ثَوابَ هَؤُلاءِ المُنْفِقينَ مَحفوظٌ عِندَ اللهِ تَعالى ، ما دامَ هَذا الإِنْفاقُ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ تَعالى .

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ أَي : ما تُقَدِّمونَهُ مِنْ مالٍ في وَجْهِ الخَيْرِ وَالبِرِّ ، فَإِنَّ نَفْعَهُ يَعودُ عَلَيْكُمْ وَحْدَكُمْ سَعادَةً في الدُّنيا وَثَواباً جَزيلاً في الآخِرَةِ .

﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ أَي : لَسْتُمْ في صَدَقَتِكُمْ عَلى الفُقَراءِ عامَّةً تَقْصِدونَ إِلاّ وَجْهَ اللهِ تَعالى ، فَقَدْ عَلِمَ هذا مِنْكُمْ ، فَأَنْفِقوا عَلَيْهِمْ إِذا كُنْتُمْ تَبْتَغونَ وَجْهَ اللهِ في صِلَةِ رَحِمٍ أَوْ سَدِّ حاجَةِ مَضطَرٍّ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ اهْتِداؤُهُمْ ، وَلا يَمْنَعْكُمْ عَدَمُ اهْتِدائِهِمْ مِنَ الإِنْفاقِ عَلَيْهِمْ .

إِنَّ هذا هُوَ شَأْنُ المُؤْمِنِ ، فَلا يُنْفِقُ إِلاّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ تَعالى ، لا يُنْفِقُ رِياءً وَلا نِفاقاً ، لا يَنْتَظِرُ جَزاءً مِنْ أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ ، وَانْظُرْ هَداكَ اللهُ كَيْفَ حَثَّ القُرْآنُ عَلى النَّفَقَةِ في هَذِهِ الآيَةِ ، حَيْثُ وَرَدَ لَفْظُ النَّفَقَةِ ثَلاثَ مَرّاتٍ ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ ، ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ .

وَتُبَيِّنُ الآياتُ مَصْرِفاً مِنْ مَصارِفِ هَذِهِ النَّفَقَةِ .

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ .

لَقَدْ صَوَّرَ القُرْآنُ هَذِهِ الطّائِفَةَ مِنَ النّاسِ تَصْويراً يُحَرِّكُ المَشاعِرَ في القُلوبِ ، لِتَحُثَّها عَلى الإِنْفاقِ عَلى هَذِهِ الطّائِفَةِ . إِنَّهُمْ فُقَراءُ في حاجَةٍ إِلى المُساعَدَةِ وَالعَوْنِ ، وَقَفوا أَنْفُسَهُمْ وَحَصَروها عَلى الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، أَوْ مُنِعوا مِنَ الكَسْبِ بِسَبَبِ مَرَضٍ أَوْ كِبَرِ سِنٍّ ، لا يَسْتَطيعونَ ضَرْباً في الأَرْضِ ، أَي : لا يَسْتَطيعونَ عَمَلاً لِيَكْسَبوا مِنَ وَرائِهِ مالاً يَكْفيهِمْ حاجَتَهُمْ ، بِسَبَبِ انْشِغالِهِمْ بِالجِهادِ ، أَوْ بِسَبَبِ ضَعْفِهِمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَتَعَفَّفونَ فَلا يَسْأَلونَ النّاسَ شَيْئاً ، وَالجاهِلُ بِحالِهِمْ ،

وَالّذي لا فِراسَةَ عِنْدَهُ يَظُنُّهُمْ أَغْنياءَ ، وذَلِكَ لأَنَّهُمْ يَتَحَمَّلونَ الفَقْرَ ، ويَتَعَفَّفونَ عَنِ السُّؤالِ ، أَمّا صاحِبُ الفِراسَةِ الصّادِقَةِ والبَصيرَةِ النّافِذَةِ فَإِنَّهُ يَعْرِفُ عَنْهُمْ ما لا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ . وَهَؤُلاءِ تَعْرِفُهُمْ بِسيماهُمْ ، أَي : تَعْرِفُ حاجَتَهُمْ أَيُّها الرَّسولُ ، وَأَيُّها المُؤْمِنُ العاقِلُ بِما تَرى في هَيْأَتِهِمْ مِنْ آثارٍ تَدُلُّ عَلى قِلَّةِ ذاتِ اليَدِ .

إِنَّ هَذِهِ الأَوْصافَ الّتي ذَكَرَتْها الآياتُ ، تَنْطَبِقُ عَلى جَماعَةٍ مِنَ المُهاجِرينَ ، الّذينَ تَرَكوا أَمْوالَهُمْ وأَهْليهِمْ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، وَهاجَروا إِلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَوَقَفوا أَنْفُسَهُمْ عَلى الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ ، وَحِراسَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، كَأَهْلِ الصُّفَّةِ ، وَهَؤُلاءِ لا يَسْتَطيعونَ ضَرْباً في الأَرْضِ لِلْكَسْبِ وَالتِّجارَةِ ، وَلا يَسْأَلونَ النّاسَ شَيْئاً ، وَمَعَ ذَلِكَ فَالنَّصُّ عامٌّ يَنْطَبِقُ عَلى كُلِّ فَقيرٍ ، لا يَسْتَطيعُ كَسْباً ، ولا يَسْأَلُ النّاسَ ، وَلا يُلِحُّ في المَسْأَلَةِ ، وَيَتَعَفَّفُ عَنْ سُؤالِهِمْ .

وانْظُرْ إِلى هَذا القَيْدِ (في سبيلِ اللهِ) ، فَهُوَ بَيانٌ لِما نَزَلَ بِهِمْ مِنْ فَقْرٍ واحْتياجٍ ، إِنَّما كانَ بِسَبَبِ إِيثارِهِمْ إِعلاءَ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى عَلى أَيِّ شَيءٍ آخَرَ ، وَفي هَذا تَكْريمٌ وَتَشْريفٌ لَهُمْ .

هَؤُلاءِ إِذَنْ وَالمُتَّصِفونَ بِهَذِهِ الصِّفاتِ هُمْ أَحَقُّ النّاسِ بِالنَّفَقَةِ . عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قالَ : « لَيْسَ المِسْكينُ الّذي يَطوفُ عَلى النّاسِ ، تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمتانِ ، وَالتَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ ، وَلَكِنَّ المِسْكينَ الّذي لا يَجِدُ غِنَىً يُغْنيهُ ، ولا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ، وَلا يَقومُ فَيَسْأَلُ النّاسَ »(١) .

هَؤُلاءِ الفُقَراءُ الّذين يَكْتُمونَ فَقْرَهُمْ ، لابُدَّ وأَنْ يَكونَ إِعْطاؤُهُمْ وَالتَّصَدُّقُ عَلَيْهِمْ سِرّاً ، حَتّى لا تُجْرَحَ كَرامَتُهُمْ ، وَلِذا جاءَ التَّعْقيبُ في الآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فاللهُ تَعالى وَحْدَهُ الّذي يَعْلَمُ السِّرَّ والعَلَنَ ، وَلا يَخْفى عَلَيْهِ حُسْنُ النِّيَّةِ ، والإِخْلاصُ لَهُ في العَمَلِ ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ ، يَعْلَمُ ما تُقَدِّمونَهُ مِنْ نَفَقَةٍ .

وَتُخْتَمُ الآياتُ المُتَحَدِّثَةُ عَنْ النَّفَقَةِ بِأَمْرٍ عامٍ يَشْمَلُ طُرُقَ الإِنْفاقِ كُلَّها ، وَكُلَّ أَوْقاتِ الإِنْفاقِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ .

الّذين يُنْفِقونَ أَمْوالَهُمْ ـ مَهْما كانَ نَوْعُ هَذِهِ الأَمْوالِ ـ في جَميعِ الأَزْمِنَةِ ، وفي سائِرِ الأَحْوالِ ، فَهُمْ يَتَصَدَّقونَ باللَّيْلِ والنَّهارِ ، سِرّاً وعَلانِيَةً ، إِنَّهُمْ لِقُوَّةِ إِيمانِهِمْ وَصَفاءِ نُفوسِهِمْ يَحْرِصونَ كُلَّ الحِرْصِ عَلى كُلِّ ما يُرْضي اللهَ تَعالى ، وَقَدْ أَثابَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِما يَليقُ بِهِمْ ، فَهُمْ :

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ، حديث رقم ١٠٣٩ .

أولاً : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ لَهُمْ وَحدَهُمْ الأَجْرُ الجَزيلُ مِنَ اللهِ : مِنْ مُضاعَفَةِ المالِ وَبَرَكَةِ العُمْرِ وجَزاءِ الآخِرَةِ وَرُضْوانِ اللهِ .

ثانياً : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذابِ اللهِ بِسَبَبِ ما قَدَّموا مِنْ عَمَلٍ صالِحٍ ، وَلا خَوفٌ عَلَيْهِم مِنْ أَنْ يُصيبَهُمْ فَقْرٌ وَحاجَةٌ .

ثالثاً : ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لا يَحْزَنونَ عَلى ما فاتَهُمْ مِنْ صالِحِ العَمَلِ الّذي يَرْجونَ بِهِ ثَوابَ اللهِ ، وَهُمْ دائِماً في اطْمِئنانٍ وَثِقَةٍ بِاللهِ تَعالى .

فَلْيَحْرِصِ المُسْلِمُ عَلى الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَلَوْ كانَ بِالقَليلِ مِمّا يملِكُهُ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلَهُ : « سَبَقَ دِرْهَمٌ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، قالوا يا رَسولَ اللهِ : كَيْفَ يَسْبِقُ دِرْهَمٌ مائَةَ أَلْفٍ ، قالَ : رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُما فَتَصَدَّقَ بِهِ ، وَآخَرُ لَهُ مالٌ كَثيرٌ فَأَخَذَ مِنْ عَرَضِهِ مائَةَ أَلْفٍ »[1] .

إنَّ الأَوَّلَ قَدْ أَنْفَقَ نِصْفَ مالِهِ ، وَلَكِنَّ الثّاني : الّذي يَمْلِكُ أُلوفاً مُؤَلَّفَةً ، وَأَنْفَقَ مائَةَ أَلْفٍ ، فكانَتْ هَذِهِ شَيْئاً قَليلاً مِنْ مالِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَليمٌ بِنيّاتِ البَشَرِ ، فَهُوَ يَطَّلِعُ عَلى مَنْ أَنْفَقَ ابْتِغاءَ وَجْهِهِ ، وَمَنْ أَنْفَقَ رِياءً وَنِفاقاً ، فَلْيَحْرِصِ المُسْلِمُ عَلى الإنْفاقِ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ .

٢ـ وُجوبُ الإِنْفاقِ عَلى المُحتاجِ في السَّرّاءِ الضَّرّاءِ ، وفي العُسْرِ واليُسْرِ ، وفي المُنْشَطِ والمَكْرَهِ .

٣ـ الصَّدَقَةُ تَكونُ عَلى كُلِّ مُحتاجٍ سَواءٌ أَكانَ مُسْلماً أَمْ غَيرَ مُسْلِمٍ .

٤ـ أَحَقُّ النّاسِ بِالصَّدَقَةِ الفُقَراءُ الّذين لا يَسْأَلونَ النّاسَ ولا يُلِحّونَ بِالطَّلَبِ ، وَيَتَعَفَّفونَ عَنْ ذَلِكَ .

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ، حديث رقم ٢٤٤٣ ، وابن حبان في الصحيح ، حديث رقم ٣٣٤٧ .

الدَّرسُ الحادي والأربعونَ

سورةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السَّابعُ والثَّمانونَ

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ
فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **يَأْكُلونَ** : يَأْخُذونَ وَيَتَصرَّفونَ فيهِ .
- **الرِّبا** : لُغَةً : الزِّيادَةُ ، وَهُنا الزِّيادَةُ عَلى المالِ مِنْ دونِ عِوَضٍ أَوْ مُقابِلَ الأَجَلِ .
- **يَتَخَبَّطُهُ** : يَصْرَعُهُ وَيَضْرِبُ بِهِ الأَرْضَ ضَرْباً شَديداً .
- **المَسِّ** : الجُنونِ .
- **يَمْحَقُ** : المَحْقُ : نَقْصُ الشَّيءِ حالاً بَعْدَ حالٍ .
- **يُربي** : يَزيدُ ويُضاعِفُ .
- **كَفّارٍ** : مُقيمٍ عَلى الكُفرِ المُعْتادِ لَهُ .

التَّفسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنِ النَّفَقَةِ ، وَهِيَ عَطاءٌ وَسَماحَةٌ وَطَهارَةٌ وَزَكاةٌ ، وَتَعاونٌ وَتَكافُلٌ ، وَهِيَ إِعْطاءٌ لِمالٍ بِلا مُقابِلٍ ، وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَمَّا يُقابِلُ النَّفَقَةَ ، إِنَّهُ الرِّبا الَّذي هُوَ شُحٌّ وَقَذارَةٌ وَدَنَسٌ وَأَنانِيَّةٌ ، وَهِيَ إِعْطاءٌ لِلمالِ ، وَمِنْ ثُمَّ اسْتِرْدادُهُ وَمَعَهُ زِيادَةٌ مُحَرَّمَةٌ مِنْ جِهَةِ الدِّينِ .



التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ وَضِّحْ مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ .

٢ـ جاءَتِ الآياتُ لِتُقَرِّرَ حَقيقَةً في هَذا الدِّينِ العَظيمِ ، ما تِلْكَ الحَقيقَةُ ؟ وَما دَليلُكَ ؟

٣ـ هَلْ يُشْتَرَطُ في الصَّدَقَةِ أَنْ تَكونَ عَلى المُسْلِمينَ فقط ؟

٤ـ حَثَّ القُرآنُ في الآيَةِ عَلى النَّفَقَةِ ، ما مَظاهِرُ هَذا الحَضِّ عَلَيْها ؟

٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ مَصْرِفاً مِنْ مَصارِفِ الصَّدَقَةِ ، ما هُوَ ؟

٦ـ ما صِفاتُ الفَقيرِ الّذي يَسْتَحِقُّ الصَّدَقَةَ مِنْ خِلالِ الآياتِ ؟

٧ـ هَلْ لِلصَّدَقَةِ وَقْتٌ مُعَيَّنٌ وَكَيْفِيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ الآيَةِ .

٨ـ ما الجَزاءُ الّذي أَعَدَّهُ اللهُ لِمَنْ أَنْفَقَ في سَبيلِهِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ مَنْ هُمْ أَهْلُ الصُّفَّةِ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما مَوْقِفُكَ مِنْ أُولَئِكَ الّذين يُوقِفونَ النّاسَ في طَريقِهِمْ ، وَيَطوفونَ بِبيوتِهِمْ يَطْلبونَ أَمْوالاً وَطعاماً ومَلابِسَ ، اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ وَرَدَتْ أَحادِيثُ تُحَرِّمُ السُّؤالَ لِغَيْرِ ضَرورَةٍ ، أَيْ : لِمَنْ هُوَ غَنِيٌّ ، هاتِ حَديثاً مِنْها .

❋ ❋ ❋

وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِالنَّاسِ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ حَثَّ عَلى الصَّدَقَةِ وَرَغَّبَ فِيها ، انْتَقَلَ لِيَتَحَدَّثَ عَنِ الرِّبا ، وَيُنَفِّرَ مِنْهُ وَيُرَهِّبَ مِنَ التَّعامُلِ بِهِ . إِنَّ النِّظامَ الاقْتِصاديَّ الإِسْلامِيَّ لا يُمْكِنُ أَنْ يَتَقابَلَ مَعَ النِّظامِ الاقْتِصاديِّ الَّذي يَقومُ عَلى الرِّبا ، لأَنَّ الرِّبا مُحَرَّمٌ ، وَأَضْرارُهُ خَطيرَةٌ تَعودُ عَلى الفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ .

لَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُنَفِّرَ مِنَ الرِّبا ، يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ﴾ إِنَّ الَّذينَ يَتَعامَلونَ بِالرِّبا أَخْذاً أَوْ إِعْطاءً ، وَلَيْسوا هُمُ الَّذينَ يَأْخُذونَ الفائِدَةَ الرِّبَوِيَّةِ فَقَطْ ، إِنَّما هُمْ أَهْلُ المُجْتَمَعِ الرِّبَوِيِّ كُلِّهِ ، هَؤُلاءِ لا يَقومونَ في الحَياةِ وَلا يَتَحَرَّكونَ إِلاَّ حَرَكَةَ المُضْطَرِبِ المُتَخَبِّطِ ، الَّذي لا يَعْرِفُ اسْتِقْراراً وَلا طُمَأْنينَةً ، وَلا راحَةً ، أُنْظُرْ إِلى أَغْنى بِقاعِ الأَرْضِ ، مِمَّنْ يَتَعامَلُ أَهْلُها بِالرِّبا وَيُرَوِّجونَهُ فِيما بَيْنَهُمْ ، تَجِدُ أَنَّ النَّاسَ لَيْسوا سُعَداءَ ، فَهُمْ قَلِقونَ دائِماً مَعَ غِناهُمْ ، وَالمَلَلُ يَكادُ يَقْتُلُهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ مُسْتَغْرِقونَ في الإِنْتاجِ ، وَهُمْ يُحاوِلونَ التَّخَلُّصَ مِنَ المَلَلِ بِتَقاليدَ غَريبَةٍ شاذَّةٍ ، وَبِالشُّذوذِ الجِنْسِيِّ ، وَيُحاوِلونَ الهَرَبَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِالانْتِحارِ مَثَلاً ، وَيُصابونَ بِحالاتٍ نَفْسِيَّةٍ عَظيمَةٍ ، كَالهِسْتيريا وَالجُنونِ ؛ إِنَّ هَذِهِ كُلَّها تُصيبُ المُجْتَمَعاتِ بِسَبَبِ الرِّبا الَّذي يَتَعامَلونَ بِهِ ، وَهَذا كُلُّهُ في الدُّنْيا ، وَقَدْ يَكونُ تَخَبُّطُهُمْ هَذا يَومَ القِيامَةِ كَذَلِكَ .

فَهُمْ يَومَ القِيامَةِ لا يَقومونَ إِلاَّ قِياماً كَقِيامِ المُتَخَبِّطِ المَصْروعِ المَجْنونِ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ ﴾ أَي : ذَلِكَ الآكِلُ لِلرِّبا ، أَوْ ذَلِكَ العِقابُ الَّذي نَزَلَ بِهِمْ والَّذي مِنْ مَظاهِرِهِ تَخَبُّطَهُمْ كَالمَجانينِ سَبَبُهُ قَوْلُهُمْ : ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أَي : أَنَّ البَيْعَ الَّذي أَحَلَّهُ اللهُ تَعالى يُشْبِهُ الرِّبا الَّذي نَتَعامَلُ بِهِ ، فَهَؤُلاءِ قَدْ بَلَغَ اعْتِقادُهُمْ في حِلِّ الرِّبا أَنَّهُمْ جَعَلوهُ أَصْلاً وقانوناً في الحِلِّ ، حَتَّى شَبَّهوا بِهِ البَيْعَ .

﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ ﴾ إِنَّ ما ذَكَرْتُموهُ أَيُّها الآكِلونَ لِلرِّبا ، قِياسٌ ضَعيفٌ لا أَصْلَ لَهُ ، فَهُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ، إِنَّ في البَيْعِ ما يَدُلُّ عَلى حِلِّهِ ، وفي الرِّبا مايَدُلُّ عَلى حُرْمَتِهِ .

﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ مَنْ بَلَغَهُ تَحْريمُ اللهِ تَعالى لِلرِّبا ، وَنَهْيُهُ عَنْهُ ، فَامْتَثَلَ لأَوامِرِ اللهِ تَعالى ، وَأَطاعَ وَابْتَعَدَ عَنِ الرِّبا ، وَتَرَكَهُ فَوْراً بِلا تَراخٍ أَوْ تَرَدُّدٍ ، وَأَنَّ ما قَدْ أَخَذَهُ مِنْ مالِ الرِّبا قَبْلَ التَّحْريمِ يَكونُ لَهُ ، لا يُؤاخِذُهُ اللهُ عَلَيْهِ ، أَمَّا ما لَمْ يَأْخُذْهُ بَعْدُ فَهُوَ حَرامٌ عَلَيْهِ ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَمْرُهُ مُفَوَّضٌ إِلى اللهِ حَيْثُ يَحْكُمُ اللهُ سُبْحانَهُ فيهِ بِعَدْلِهِ ، وَمِنَ العَدْلِ أَنْ لا يُؤاخِذَ اللهُ أَحَداً بِما أَكَلَ مِنَ الرِّبا قَبْلَ التَّحْريمِ .

﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ مَنْ عادَ إلى أَكْلِ الرِّبا بَعْدَ تَحْريمِهِ فَأُولَئِكَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ المُلازِمونَ لَها ، وَالماكِثونَ فيها ، بِسَبَبِ تَعَدِّيهِمْ عَلى حُدودِ اللهِ تَعالى ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ يُقْدِمُ عَلى ارْتِكابِ الكَبائِرِ وَالفَواحِشِ ، يَكونُ مُحِبّاً لِلمالِ وَلِلَذَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ العاجِلَةِ ، وَهَذا لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ في قَلْبِهِ ذَرَّةُ إيمانٍ ، إِذِ الإيمانُ الحَقُّ هُوَ الَّذي يَمْلأُ النُّفوسَ خَوْفاً وَرَهْبَةً مِنْ عِقابِ اللهِ تَعالى ، فَتَفْعَلُ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ ، وَتَنْهى عَمَّا نَهى اللهُ عَنْهُ ، وَمَنِ ارْتَكَبَ الفَواحِشَ ، واسْتَحَلَّها ، وَاعْتَقَدَ أَنَّها حَلالٌ فَهُوَ كافِرٌ مُخَلَّدٌ في نارِ جَهَنَّمَ .

وتُبَيِّنُ الآياتُ سُوءَ عاقِبَةِ المُرابينَ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ .

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُذْهِبُ بَرَكَةَ الرِّبا ، وَيُهْلِكُ المالَ الَّذي يَدْخُلُ فِيهِ ، فَالمُرابي في الغالِبِ وَإِنْ كَثُرَ مالُهُ فَإِنَّ عاقِبَتَهُ تَكونُ الفَقْرَ ، وَإِنْ لَمْ يَنْقُصْ مالُهُ ، فَهُوَ مَذْمومٌ في الدُّنْيا ، يَنْقُصُ قَدْرُهُ ، وَتَزولُ أَمانَتُهُ ، وَيَلْعَنُهُ الفُقَراءُ وَيَبْغَضونَهُ بِسَبَبِ أَخْذِهِ لِلْمالِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، هَذا في الدُّنْيا ، أَمَّا في الآخِرَةِ فَلا يُقْبَلُ مِنْهُ صَدَقَةٌ ولا جِهادٌ ولا صِلَةُ رَحِمٍ .

أَمَّا الصَّدَقَةُ فَإِنَّ اللهَ تَعالى يُضاعِفُ ثَوابَ المُتَصَدِّقِ ، وَيَزيدُ مالَهُ وَيُبارِكُ لَهُ فيهِ ، عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلا يَقْبَلُ اللهُ إِلاَّ طَيِّباً ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُها بِيَمينِهِ ، ثُمَّ يُرْبيها لِصاحِبِها ، كَما يُرْبي أَحَدُكُمْ فِلْوَهُ حَتَّى تَكونَ مِثْلَ الجَبَلِ »(١) .

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ الكافِرِ المُتَمادي في كُفْرِهِ ، فَهُوَ يَكْفُرُ بِما أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ المالِ ، وَلا يُنْفِقُ مِنهُ في سَبيلِ اللهِ ، وَلا يُواسي الفُقَراءَ وَالمُحْتاجينَ ، بَلْ تَراهُ يَتَمادى في ارْتِكابِ الآثامِ ، وَاسْتِغْلالِ حاجَةِ النَّاسِ وَفَقْرِهِمْ ، فَيَمْتَصُّ دِماءَهُمْ وَيَأْخُذُ قُوتَهُمْ ، فَهَلْ مِنْ إِثْمٍ أَشَدُّ مِنْ هَذا الإِثْمِ! فَمَنْ كانَ هَذا حالُهُ فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أَكْلُ الرِّبا يُؤَدِّي إلى تَخَبُّطِ آكِليهِ ، سواءٌ أَكانوا أَفْراداً أَمْ شُعوباً ، وَإِلى عَدَمِ شُعورِهِمْ بِالرَّاحَةِ وَالطُّمأْنينَةِ .

(١) أخرجه البخاري/ كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٣٤٤ .

٢ـ البَيْعُ هُوَ التَّعامُلُ الصَّحيحُ الَّذي يَعودُ بِالنَّفْعِ على البائِعِ وَالمُشْتَري ، وَلِذا أَحَلَّهُ اللهُ ، أَمّا الرِّبا فَقَدْ حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى لِمَضارِّهِ الكَثيرَةِ .

٣ـ الرِّبا يَمْحَقُ المالَ ، وَيَصِلُ بِصاحِبِهِ إِلى الهَمِّ والحُزْنِ والحُبِّ الشَّديدِ لِلمالِ وَمَقْتِ النّاسِ لَهُ .

٤ـ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أَنْ يُبارِكَ لِلْمُتَصَدِّقِ ، فَيَكونُ انْتِفاعُهُ بِمالِ الصَّدَقَةِ أَكْبَرُ مِنْ مالِهِ نَفْسِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئِلَةِ التّالِيَةِ :

١ـ تَحَدَّثَتْ آياتُ الدَّرْسِ عَنِ الرِّبا . اعْقِدْ مُقارَنَةً بَيْنَ النَّفَقَةِ والرِّبا .

٢ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ تَحْريمِ الرِّبا ؟

٣ـ وَضِّحِ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى ﴿لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ ، وَمَتى يَكونُ هَذا ؟

٤ـ لِمَ حَلَّ بِهِمْ هَذا العَذابُ ؟

٥ـ كَيْفَ رَدَّ اللهُ عَلى مَنْ يَقولُ ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ؟

٦ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ ؟

٧ـ لِمَ كانَتْ عاقِبَةُ آكِلِ الرِّبا الخُلودُ في نارِ جَهَنَّمَ ؟

٨ـ كَيْفَ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبي الصَّدَقاتِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفتَرِكَ ضَرَرَيْنِ مِنْ أَضْرارِ الرِّبا يَعودانِ عَلى المُجْتَمَعِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّانِي وَالأَرْبَعونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّامِنُ وَالثَّمانونَ

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ
ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ
رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ
وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ
تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ذَروا : اتْرُكوا .

تَظْلِمونَ : تُوقِعونَ الظُّلْمَ بِغُرَمائِكُمْ بِأَخْذِ زيادةٍ .

تُظْلَمونَ : بِنَقْصِ شَيءٍ مِنْ رأسِ المالِ فلا يُرَدُّ لَكُمْ كامِلاً .

نَظِرَةٌ : الانْتِظارُ والإمْهالُ .

مَيْسَرَةٍ : يسارٍ وسَعَةٍ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ اللهَ تعالى لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثيمٍ ، أُولَئِكَ الَّذينَ يَأْكُلونَ الرِّبا ، أَمَّا الفَريقُ الآخَرُ ، وَهُمُ المُؤْمِنونَ ، فَتَتَحَدَّثُ عَنْهُمُ الآيَةُ هُنا ، يَقولُ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ .

إنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ صَدَّقوا بما جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى فَأْتَمَروا بِأَمْرِهِ ، وَانْتَهوْا عَمَّا نَهى عَنْهُ ، وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ الَّتي تَصْلُحُ بِها نُفوسُهُمْ ، وَمِنْ ذَلِكَ مُواساةُ المُحْتاجينَ ، وَالرَّحْمَةُ بِالبائِسينَ ، وَالابْتِعادُ عَنِ الرِّبا وَالمُرابينَ ، وَأَدَّوْا صلاتَهُمْ كَما يَنْبَغي بِخُشوعٍ وَاطْمِئْنانٍ بِحَيْثُ تُؤْتي ثِمارَها ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، وَآتَوْا زَكاةَ أَمْوالِهِمُ الَّتي افْتَرَضَها اللهُ عَلَيْهِمْ ، بِأَنْ أَعْطوها لِمُسْتَحِقِّيها ، هَذِهِ الزَّكاةُ الَّتي تُطَهِّرُ نُفوسَهُمْ مِنْ رَذيلَةِ البُخْلِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ .

لَقَدْ خَصَّ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى هاتَيْنِ العِبادَتَيْنِ ؛ الصَّلاةَ والزَّكاةَ بِالذِّكْرِ ، مَعَ أَنَّهُما مِنْ جُمْلَةِ الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ ، لأَنَّهُما أَعْظَمُ رُكْنَيْنِ ، وَهُما إِذا صَلَحا صَلَحَ عَمَلُ الإِنْسانِ كُلُّهِ ، فَمَنْ أَدَّى صَلاتَهُ ، فَقَدِ اسْتَقامَ أَمْرُهُ ، وَمَنْ أَدَّى زَكاةَ مالِهِ ، فَقَدْ طَهَّرَ نَفْسَهُ .

إِنَّ العُنْصُرَ الأَساسِيَّ الَّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ الآيَةُ إِيتاءُ الزَّكاةِ الَّذي هُوَ مُرْتَبِطٌ بِإِقامَةِ الصَّلاةِ ، عُنْصُرُ الزَّكاةِ الَّذي هُوَ البَذْلُ بِلا عِوَضٍ وَبِدونِ مُقابِلٍ ، فَالسِّياقُ يَعْرِضُ صِفَةَ المُؤْمِنينَ ، وَما عَلَيْهِ المُجْتَمَعُ المُؤْمِنُ ، ثُمَّ يَعْرِضُ صُورَةَ الأَمْنِ وَالطُّمَأْنينَةِ ، وَالرِّضى الإِلهِيِّ المُسبغ عَلى هَذا المُجْتَمَعِ المُؤْمِنِ ، فَإِذا عَمِلَتِ الأُمَّةُ صالِحاً ، فَأَقامَتْ صَلاتَها ، وَانْتَهَتْ عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ ، وَأَدَّى كُلُّ فَرْدٍ زَكاةَ مالِهِ ، فَأُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَثوابُهُمْ الكامِلُ عِنْدَ خالِقِهِمْ سُبْحانَهُ ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلا هُمْ يَحْزَنونَ ، أَمَّا المُجْتَمَعُ الرِّبَوِيُّ فَقَدْ تَوَعَّدَهُ سُبْحانَهُ بِالمَحْقِ وَالضَّلالِ ، وَبِالقَلَقِ وَالخَوْفِ ، وَما نَعيشُهُ اليَوْمَ هُوَ أَكْبَرُ دَليلٍ عَلى ما جاءَ في الآيَةِ الكَريمَةِ وَصَدَقَ اللهُ .

هَكَذا يَنْبَغي أَنْ تَكونَ حَياةُ المُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ ، قائِمَةً عَلى الإِيمانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ وَالعِبادَةِ وَالزَّكاةِ . وَهُنا يَأْمُرُ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ أَمْراً قاطِعاً لا هَوادَةَ فيهِ بِتَرْكِ الرِّبا وَالتَّعامُلِ فيهِ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ .

إِنَّهُمْ لَيْسوا بِمُؤْمِنينَ إِلاَّ إِذا اتَّقَوا اللهَ تَعالى ، وَتَرَكوا التَّعامُلَ بِالرِّبا ، إِذ لا إِيمانَ بِلا طاعَةٍ لِلْخالِقِ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، وَإِنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بِهِمْ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِتَرْكِ ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا ، أَيْ ما بَقِيَ مِنْ ذِمَمِ الَّذينَ عامَلوهُمْ بِالرِّبا ، وَلا يَأْخُذوا مِنْهُمْ إِلا رُؤوسَ أَمْوالِهِمْ فَحَسْبُ ، أَمَّا ما سَلَفَ ، وَما كانوا يَأْخُذونَهُ مِنْ زِيادَةٍ مِنْ قَبْلُ ، فَلَمْ يُقَرِّرِ القُرْآنُ اسْتِرْدادَهُ مِنْهُم ، وَلَمْ يُقَرِّرْ مُصادَرَةَ أَموالِ المُسْلِمينَ أَوْ جُزْءٍ مِنْها ، إِنَّ الزِّيادَةَ الَّتي أَخَذْتُموها مِنْ قَبْلُ يُوكَلُ أَمْرُها إِلى اللهِ تَعالى ، وفي هَذا كُلِّهِ تَرْغيبٌ لَهُمْ بِالْتِزامِ ما أَمَرَ اللهُ تَعالى بِهِ .

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ .

إنَّ الإيذانَ بالحَرْبِ مِنَ اللهِ وَرَسولِهِ أَعَمُّ مِنَ القِتالِ بالأَدواتِ الحَرْبِيَّةِ ، وَلَكِنَّ الحَرْبَ المُعْلَنَةَ هِيَ حَرْبٌ عَلى الأَعْصابِ وَالقُلوبِ ، وَعَلى البَرَكَةِ في الأَمْوالِ وَالرَّخاءِ في العَيْشِ ، حَرْبٌ عَلى السَّعادَةِ وَالطُّمَأْنينَةِ ، حَرْبٌ يُسَلِّطُ اللهُ فيها العُصاةَ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ، حَرْبُ القَلَقِ وَالخَوْفِ ، وَهِيَ الحَرْبُ السّاحِقَةُ الماحِقَةُ الَّتي تَقومُ وتَنْشَأُ مِنْ جَرّاءِ تَعامُلِ المُجْتَمَعاتِ بِالطُّرُقِ الرِّبَوِيَّةِ ، وَقَدْ ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ ما صارَ يُعانيهِ النّاسُ مِنْ خَرابِ نُفوسِهِمْ ، وَانْهِيارِ أَخْلاقِهِمْ ، وانْطِلاقِهِمْ وَراءَ شَهَواتِهِمْ إِلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمورٍ .

وَتَدْعو الآيَةُ النّاسَ إِلى التَّوْبَةِ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ وَخَطيئَةٍ قَدْ وَقَعوا بِها .

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ إِنَّكُمْ إِنْ رَجَعْتُمْ عَنِ الرِّبا وَخَضَعْتُمْ لِأَمْرِ اللهِ تَعالى ، فَلَكُمْ رُؤوسُ أَمْوالِكُمْ ، أَيْ : ما أَقْرَضْتُموهُ لِلنّاسِ لا تَأْخُذونَ شَيْئاً زائِداً عَلَيْهِ ، ولا تُنْقِصونَ مِنْها شَيْئاً ، بَلْ تَأْخُذونَ أَمْوالَكُمْ كامِلَةً بِلا زِيادَةٍ أَوْ نُقْصانٍ .

وَتُكْمِلُ الآياتُ الأَحْكامَ المُتَعَلِّقَةَ بِالدّائِنِ والمَدينِ ، وَفيها عِلاجٌ لِآفَةِ الرِّبا ، وَالتَّيْسيرِ عَلى المُسْلِمينَ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ .

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ أَي : إِنْ وُجِدَ مَدينٌ مُعْسِرٌ مِمَّنْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ دَيْنٌ فَأَنْظِروهُ وَأَمْهِلوهُ إِلى حينِ اليَسارِ ، حَتّى يَتَمَكَّنَ مِنْ أَداءِ الدَّيْنِ الَّذي عَلَيْهِ ، وَلا تَكونوا مِثْلَ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ ، حَيْثُ كانَ أَحَدُهُمْ إِذا كانَ لَهُ دَيْنٌ عَلى شَخْصٍ وَحَلَّ مَوْعِدُ الدَّيْنِ طالَبَهُ بِشِدَّةٍ وَقالَ لَهُ : (إِمّا أَنْ تَقْضِيَ وَإِمّا أَنْ تربي) أَي : تَدْفَعَ زِيادَةً عَلى أَصْلِ الدَّيْنِ .

﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لَقَدْ حَبَّبَ اللهُ تَعالى إِلى عِبادِهِ الصَّدَقَةَ بِبَعْضِ المالِ أَوْ كُلِّهِ ، الَّذي لِلدّائِنِ عَلى المَدينِ المُعْسِرِ ، فَإِنْ تَتْرُكوا لِلْمُعْسِرِ كُلَّ مالِكُمْ أَوْ بَعْضَهُ وَتُبْرِئوهُ مِنْهُ ، فَهذا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْظارِكُمْ وإِمْهالِكُمْ لَهُ ، وَأَكْثَرُ ثواباً عِنْدَ اللهِ تَعالى .

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إِنْ تَعْلَموا أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ فاعْمَلوا بِهِ ، وَسامِحوا إِخْوانَكُمْ بِما لَكُمْ عَلَيْهِمْ . عَنْ أَبي قَتادَةَ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَريمِهِ أَوْ مَحا عَنْهُ كانَ في ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ القِيامَةِ »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٦) ، والدارمي (٢٥٩٢) .

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ .

لَقَدْ نَفَّرَتِ الآياتُ تَنْفيراً شَديداً مِنَ الرِّبا ، وَتَوَعَّدَتْ مَنْ يَتَعامَلُ بِهِ بِأَشَدِّ العُقوباتِ ، وَشَبَّهَتْهُمْ بِتَشْبيهاتٍ تَشْمَئِزُّ مِنْها القُلوبُ ، وَتُخْتَمُ الآياتُ المُتَحَدِّثَةُ عَنِ الرِّبا بِتِلْكَ المَوْعِظَةِ البالِغَةِ ، وَاتَّقوا يَوْماً تُرْجَعونَ فِيهِ إِلى اللهِ ، أَيْ : احْذَروا ذَلِكَ اليَوْمَ العَظيمَ الَّذي تُرْجَعونَ فِيهِ إِلى رَبِّكُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى وَحْدَهُ ، فَيُحاسِبُكُمْ عَلى أَعْمالِكُمْ وَيُجازيكُمْ عَلَيْها إِنْ خَيْراً فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَراً فَشَرٌّ ، وَهُمْ لا يُظْلَمونَ ، أَيْ : لا يُنْقَصونَ مِنْ ثَوابِهِمْ وَلا يَزْدادونَ عَلى عِقابِهِمْ .

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُماـ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَ بِها جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَعاشَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَها واحِداً وَعِشْرينَ يَوْماً .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنونَ الَّذينَ يَعْمَلونَ الصَّالِحاتِ ، وَيُقيمونَ الصَّلاةَ ، ويُؤْتونَ الزَّكاةَ ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونوا مِنْ آكِلي الرِّبا .

٢ـ اسْتِرْدادُ رَأْسِ المالِ مِنَ المَدينِ بِلا زِيادَةٍ وَلانُقْصانٍ ، عَدالَةٌ لا يُظْلَمُ فِيها دائِنٌ وَلا مَدينٌ .

٣ـ تَنْمِيَةُ المالِ لَها وَسائِلُها الكَثيرَةُ الطَّاهِرَةُ الحَلالُ غَيْرُ الرِّبا .

٤ـ وُجوبُ انْتِظارِ المُعْسِرِ إِلى حينِ اليَسارِ ، وَالأَفْضَلُ التَّصدُّقُ ، وَإِبْراءُ المَدينِ مِنَ الدَّيْنِ لِما فيهِ مِنْ التَّعاطُفِ وَالتَّراحُمِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآياتُ صِفاتٍ لِعِبادِ اللهِ تَعالى الَّذينَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً عَظيماً . ما تِلْكَ الصِّفاتُ ؟

٢ـ لِمَ خَصَّ اللهُ العِبادَتَيْنَ : الصَّلاةَ والزَّكاةَ بِالذِّكْرِ ؟

٣ـ مَتى يَتَّصِفُ الإِنْسانُ بِالتَّقْوى ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ ؟

٥ـ عَلى مَنْ تكونُ حَرْبُ اللهِ وَحَرْبُ رَسولِهِ ﷺ ؟ وَكَيْفَ تَكونُ هَذِهِ الحَرْبُ ؟
٦ـ عَمَّن تَتَحَدَّثُ الآياتُ ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾
٧ـ ما الَّذي حَثَّتْ عَلَيْهِ الآيَةُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دفترك خَمْسَةً مِنْ وَسائِلِ الكَسْبِ المَشْروع .
٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما يُقابِلُ التَّعامُلَ الواردَ في الآيَةِ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ في زَمانِنا هَذا .
٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أَوَّلَ آيَةٍ نَزَلَتْ ، والمُدَّةَ الَّتي بَيْنَها وَبَيْنَ آخِرِ آيَةٍ نُزولاً .
٤ـ لِلرِّبا أَقْسامٌ ، اذْكُرْ هَذِهِ الأَقْسامَ مُعَرِّفاً بِها مُسْتَعيناً بِأَحَدِ كُتُبِ الفِقْهِ .

* * *

الدَّرسُ الثَّالثُ والأربعونَ

سورةُ البقرةِ ـ القِسمُ التّاسِعُ والثّمانونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ
بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ
وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا
يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا
رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا
ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ
أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا
بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا
شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾

مَعاني المُفرَداتِ :

- **أَجَلٍ مُسَمّى** : مَوْعِدٍ مُحَدَّدٍ باليَوْمِ والشَّهْرِ والسَّنَةِ .
- **لا يَأْبَ** : لا يَمْتَنِعْ .
- **ولْيُمْلِلْ** : لِيُلْقِ على الكاتِبِ ما يَكْتُبُهُ .
- **يَبْخَسْ** : يُنْقِصْ .
- **سَفيهاً** : ضَعيفَ الرَّأْيِ لا يُحسِنُ التَّصرُّفَ في المالِ .
- **أنْ تَضِلَّ** : تُخْطِىءَ لِعَدَمِ ضَبْطِها .
- **تَسْأَموا** : تَمَلّوا وتَضْجَروا .

أَقْسَطُ : أَعْدَلُ .

جُناحٌ : إِثْمٌ وَذَنْبٌ .

يُضارَّ : يَفْعَلُ الضَّرَرَ بالمُتَعامِلينَ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ حَثَّتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَلى الصَّدَقاتِ وَالإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ ، وَحَذَّرَتْ مِنَ الرِّبا ، وَتَتَحَدَّثُ الآياتُ هُنا عَمَّا يَحْفَظُ الدَّيْنَ ، وَذلِكَ بِكِتابَتِهِ وَالإشْهادِ عَلَيْهِ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾ .

يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا إذا تَعامَلْتُمْ فيما بَيْنَكُمْ بِالدَّيْنِ ، وَدايَنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، إلى وَقْتٍ مَعْلوم ، مُحَدَّدٍ فاكْتُبوا هَذا الدَّيْنَ ، لأَنَّ في الكِتابَةِ حِفاظاً لَهُ ، وَضَبْطاً لِمِقْدارِهِ ، وَمَنْعاً لِلتَّنازُعِ الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فيما بَيْنَكُمْ . وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ ﴿ بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ لِيَعْلَمَ أَنَّ مِنْ حَقِّ هَذا الأَجَلِ أَنْ يَكونَ مَعْلوماً بِالسَّنَةِ وَالشَّهْرِ وَاليَوْمِ .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى بِكِتابَةِ الدَّيْنِ وَلَكِنْ هَلِ الأَمْرُ ﴿فَٱكۡتُبُوهُ﴾ لِلنَّدْبِ أَوِ الوُجوبِ ؟ يَذْكُرُ جُمْهورُ العُلَماءِ أَنَّ الأَمْرَ هُنا لِلنَّدْبِ وَلَيْسَ لِلوجوبِ ، لِقَوْلِهِ تَعالى فيما بَعْدُ :

﴿ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ فَلَمْ يُوجِبِ الكِتابَةَ ، وَلأَنَّ الرَّسولَ ﷺ لَمْ يُلْزِمِ الدَّائِنينَ بِكِتابَةِ دُيونِهِمْ .

وَأَمَرَ اللهُ أَنْ يَكونَ الكاتِبُ الَّذي يَكْتُبُ لَكُمُ الدُّيونَ شَخْصاً يَعْرِفُ الكِتابَةَ وَعِنْدَهُ فِقْهٌ وَعِلْمٌ ، فَيَعْرِفُ شُروطَ العُقودِ وَكَيْفِيَّةَ تَوْثيقِها . وَلا يَنْبَغي لِمَنْ كانَ قادِراً عَلى الكِتابَةِ الامْتِناعُ عَنْها ، بِالطَّريقَةِ الَّتي عَلَّمَهُ إِيّاها اللهُ سُبْحانَهُ ، فَلا بُدَّ وأَنْ يَكونَ الكاتِبُ عَلى عِلْمٍ بِالأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالفِقْهِ ، فَكَما عَلَّمَ اللهُ تَعالى هَذا الكاتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْفَعَ غَيْرَهُ بِها .

وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآيَةُ عَمَّنْ يَكْتُبُ وَعَمَّا يُشْتَرَطُ فيهِ ، تَحَدَّثَتْ عَمَّنْ يَتَوَلى الإمْلاءَ لِلْكِتابَةِ ﴿ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ ﴾ أَيْ : عَلى المَدينِ الَّذي اسْتَدانَ المالَ ، والَّذي الْتَزَمَ بِأَدائِهِ أَنْ يُمْلِيَ عَلى الكاتِبِ هَذا الدَّيْنَ ، ويُقِرَّ بِالحَقِّ الَّذي عَلَيْهِ ، وَالَّذي يَجِبُ عَلَيْهِ الوَفاءُ بِهِ ، مُراقِباً اللهَ تَعالى في ذلِكَ ، فَلا يَزيدُ وَلا يُنْقِصُ مِنَ الدَّيْنِ الَّذي عَلَيْهِ .

الكِتابَةُ ـ إِذَنْ ـ لا بُدَّ وأَنْ تَكونَ بِإمْلاءٍ مِنَ المَدينِ وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهِ :

١ ـ أَنْ يَضَعَ تَقْوى اللهِ نُصْبَ عَيْنَيْهِ فَلا يُجْحِفُ في حَقِّ الدَّائِنِ .

٢ـ عدَمُ الإنقاصِ مِنَ الدَّيْنِ الّذي عَلَيْهِ .

أَمّا إذا كانَ المَدينُ لا يَسْتَطيعُ الكِتابَةَ وَذَلِكَ لِكَوْنِهِ ﴿سَفِيهاً﴾ جاهِلاً بالإمْلاءِ أَوْ ناقِصَ العَقْلِ ، أَوْ لِكَوْنِهِ ﴿ضَعِيفاً﴾ صَبِيّاً صَغيراً أَوْ شَيْخاً تَقَدَّمَتْ بِهِ الشَّيْخوخَةُ ، أَوْ لِكَوْنِهِ ﴿لايَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ بِأَنْ يَكونَ أَخْرَسَ أَوْ لا خِبْرَةَ لَهُ بِإِمْلاءِ مِثْلِ هَذِهِ الأُمورِ ، فَلْيَفْعَلْ ذَلِكَ عَنْهُ وَلِيُّ أَمْرِهِ ، أَوْ مَنْ يَهُمُّهُ شَأْنُهُ ، وَلا يَرْضى لَهُ أَنْ يُضَيِّعَ حَقَّهُ ، عَلى أَنْ يَتَحرّى النَّزاهَةَ والعَدْلَ في إمْلائِهِ .

وانْتَقَلَتِ الآيَةُ لِلْحَديثِ عَنِ الإِشْهادِ عَلى هَذا الدَّيْنِ ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ أَيْ : اطْلُبوا أَنْ يَشْهَدَ عَلى المُدايَنَةِ رَجُلانِ مِنَ المُؤْمِنينَ عَدْلانِ ، لِيَشْهَدا عَلى ما يَجْري بَيْنَكُمْ مِنْ مُعامَلاتٍ مُؤَجَّلَةٍ ، فَإِنَّ الإِشْهادَ يَزيدُ مِنْ تَوْثيقِ المُعامَلاتِ .

أَمّا إذا لَمْ يُوجَدْ رَجُلانِ ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَشْهَدَ رَجُلٌ وامْرَأَتانِ ، مِمَّنْ تَرْضَوْنَ دينَهُمْ وَعدالَتَهُمْ مِنَ الشُّهَداءِ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ ﴿تَرْضَوْنَ﴾ أَيْ : لا بُدَّ مِنْ رِضى المُسْتَشْهِدينَ (الدّائِنُ والمَدينُ) ؛ وَقَدْ بَيَّنَ العِلَّةَ في كَوْنِ المَرْأَتَيْنِ تَقومانِ مَقامَ رَجُلٍ واحِدٍ ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أَيْ خَشْيَةَ أَنْ تَنْسى إِحْداهُما ، فَتُذَكِّرَ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُما الأُخْرى ، فَالمَرْأَةُ لِقُوَّةِ عَواطِفِها ، وَشِدَّةِ انْفِعالِها ، قَدْ تَتَوَهَّمُ ما لَمْ تَرَهُ ، وَهِيَ كَذَلِكَ لا تَشْتَغِلُ عادَةً بِالمُعامَلاتِ المالِيَّةِ ، فَتَكون ذاكِرَتُها ضَعيفَةً فيها .

﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ لا يَنْبَغي لِلشُّهودِ أَنْ يَمْتَنِعوا عَنِ الشَّهادَةِ ، حَتّى يُؤَدّوها فيما بَعْدُ عِنْدَ الحاجَةِ إِلَيْها .

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ لا تَمَلّوا وَلا تَتَقاعَسوا عَنْ كِتابَةِ الدَّيْنِ ، سَواءٌ أَكانَ قَليلاً أَمْ كَثيراً إِلى الوَقْتِ المُحَدَّدِ لَهُ ، فَإِنَّ كِتابَةَ الدَّيْنِ أَدْعى إِلى حِفْظِ الحُقوقِ ، وَعَدَمِ التَّنازُعِ ، والتَّهاوُنُ في الدَّيْنِ الصَّغيرِ قَدْ يُؤَدّي إِلى التَّهاوُنِ في الدَّيْنِ الكَبيرِ .

وَتُبَيِّنُ الآياتُ فَوائِدَ ثَلاثاً تَعودُ عَلى المُؤْمِنينَ إِذا امْتَثَلوا أَوامِرَ اللهِ تَعالى :

الأَوَّلُ : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ذَلِكُمْ الَّذي أَمَرَكُمْ اللهُ بِهِ مِنْ كِتابَةٍ وَإِشْهادٍ ، وَتَحَرّي العَدْلَ ، أَعْدَلُ في شَرْعِ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَهُوَ الأَعْلَمُ بِما يَصْلُحُ لَكُمْ .

الثّاني : ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾ أَي : أَبْلَغُ في الاسْتِقامَةِ ، وَأَعْوَنُ عَلى إِقامَةِ الشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها الصَّحيحِ .

الثّالِثَةُ : ﴿ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ أَقْرَبُ إِلى نَفْيِ الرّيبَةِ والشَّكِ في جِنْسِ الدَّيْنِ وَقَدْرِهِ وَأَجَلِهِ .

فَإِذا تَوافَرَتْ هَذِهِ الأُمورُ الثَّلاثَةُ سادَ الوِفاقُ بَيْنَكُمْ وَالتَّعاوُنُ ، وَزالَ النِّزاعُ ، والَّذي يُؤَدّي تَوَفُّرَها إِلى تَوْثيقِ الدَّيْنِ وَالكِتابَةِ وَالإِشْهادِ كَما ذَكَرَ اللهُ تَعالى .

وانتقلَتِ الآياتُ لِتتحدَّثَ عَنِ الكِتابَةِ بيْنَ التُّجارِ ، والتِّجارةُ الحاضِرَةُ الَّتي تدورُ بيْنَ التُّجارِ هِيَ الَّتي يَجْري فيها التَّفاوُضُ أوْ الَّتي يُؤَخَرُّ فيها الأداءُ زَمَناً يسيراً ، فَهَذِهِ التِّجارَةُ الحاضِرَةُ أَباحَ اللهُ تَعالى عَدَمَ كِتابَتِها ، لأَنَّ التُّجارَ يَتعامَلونَ فيما بيْنَهُمْ دائِماً بَيْعاً وَشِراءً ، فَلَوْ كَلَّفَهُمْ اللهُ سُبْحانَهُ بِالكِتابَةِ لَشَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، فَهَذِهِ لا إِثْمَ عَلَيْكُمْ وَلا حَرَجَ لِعَدَمِ كِتابَتِها .

﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ ﴾ أَشْهِدوا في التَّبايُعِ في التِّجارَةِ الحاضِرَةِ ، إِذْ قَدْ يَحْصُلُ تَنازُعٌ وَخِلافٌ بَيْنَكُمْ في بَعْضِ العُقودِ ، وَهَذا الأَمْرُ بالإِشْهادِ لِلإِرْشادِ وَالتَّعليمِ وَلَيْسَ لِلوُجوبِ .

﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ ﴾ وَلِتَشْجيعِ المُسْلِمينَ عَلى الكِتابَةِ وَالشَّهادَةِ أَمَرَ اللهُ تَعالى صاحِبَ الحَقِّ بِعَدَمِ إِلْحاقِ الضَّرَرِ بِالكاتِبِ وَالشَّاهِدِ ، وَنَهى الدَّائِنَ وَالمَدينَ عَنْ أَنْ يُنْزِلَ أَحَدُهُما ضَرَراً بِالكاتِبِ أَوْ الشَّاهِدِ فَيُجْبِرُهُما عَلى كِتابَةِ غَيْرِ الحَقِّ أَو قَوْلِ غَيْرِ الحَقِّ ،

﴿ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ ﴾ أَيْ : إِنْ فَعَلْتُمْ ما نُهيتُمْ عَنْهُ وَخالَفْتُمْ أَوامِرَ اللهِ تَعالى ، فَإِنَّكُمْ بِذَلِكَ قَدْ خَرَجْتُمْ عَنْ حُدودِ اللهِ تَعالى الَّتي حَدَّها لَكُمْ وَخَرَجْتُمْ مِنْ طاعَتِهِ سُبْحانَهُ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ اتَّقوا اللهَ في كُلِّ ما أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يُعَلِّمُكُمْ إِلاَّ ما فيهِ صَلاحُكُمْ ، في الدُّنيا وَالآخِرَةِ ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَحْفَظُ أَمْوالَكُمْ ، وَما يُقَوِّي الرَّابِطَةَ بَيْنَكُمْ ، وَلَوْلا هِدايَتُهُ سُبْحانَهُ فَإِنَّكُمْ لا تَعْلَمونَ شَيْئاً .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ العامِلُ الَّذي يُدْعى إِلى القِيامِ بِعَمَلٍ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُلبّيَ الدَّعْوَةَ ، وَلا يَمْتَنِعَ عَنْها .

٢ـ إِرْشادُ المُسْلِمِ إِلى ضَبْطِ مالِهِ وَإِحْصائِهِ ، لِما يَرِدُ عَلَيْهِ وَيَصْدُرُ عَنْهُ .

٣ـ تَقْوى اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى يَنْبَغي أَنْ تَحْكُمَ تَصَرُّفَ الدَّائِنِ وَالمَدينِ وَالكاتِبِ وَالشَّاهِدِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَراكيبِ التّاليَةِ :

تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ ، أَجَلٍ مُسَمّى ، سَفيهاً ، أَقْسَطُ ، تَسْأَموا .

٢ـ هَلْ الأَمْرُ في قَوْلِهِ ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ لِلنَّدْبِ أَوِ الوُجوبِ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ .

٣ـ ما الشُّروطُ الَّتي يَنْبَغي أَنْ تَتَوافَرَ في كاتِبِ الدَّيْنِ ؟

٤ـ مَنِ الَّذي يُمْلي عَلى كاتِبِ الدَّيْنِ ؟

٥ـ لِماذا كانَ المَدينُ هُوَ الَّذي يُمْلي وَلَيْسَ الدَّائِنُ ؟ وَما الَّذي يَجِبُ عَلَيْهِ ؟

٦ـ مَتَى يُمْلي وَلِيُّ المَدينَ عِوَضاً عَنِ المَدينِ ؟

٧ـ يُشْتَرَطُ في شُهودِ الدَّيْنِ أَنْ يَكونوا رَجُلَيْنِ عَدْلَيْنِ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ رَجُلانِ فَما المَطْلوبُ ؟

٨ـ ما مَعْنى ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَاءُ﴾ ؟

٩ـ ما الفوائِدُ الَّتي تَعودُ عَلى المُؤْمِنينَ إِذا امْتَثَلوا أَمْرَ اللهِ تَعالى في تَوْثيقِ الدَّيْنِ ؟

١٠ـ ما التِّجارَةُ الحاضِرَةُ ؟ وَلِمَ لَمْ يُشْتَرَطْ فيها كِتابَةُ الدَّيْنِ ؟

١١ـ نَهَتِ الآيَةُ عَنِ المُضارَّةِ ، مَنِ المَقْصودُ بِالنَّهْي ؟

نَشاطٌ :

ـ لِماذا أَمَرَ اللهُ تَعالى المَدينَ بِأَنْ يُمْلِيَ عَلى الكاتِبِ وَلَيْسَ الدَّائِنَ ؟ حاوِلِ اسْتِنْتاجَ السَّبَبِ مِنْ ذَلِكَ .

فائِدَةٌ :

ـ آيَةُ الدَّيْنِ أَطْوَلُ آيَةٍ في كِتابِ اللهِ تَعالى .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ التِّسْعونَ

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى
ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ
تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

رِهانٌ : الرِّهانُ : تَوْثيقُ الدَّيْنِ بِوَضْعِ شَيءٍ مِنْ مالِ المَدينِ عِنْدَ الدّائِنِ سَدادَ الدَّيْنِ .

أَمِنَ : وَثِقَ .

آثِمٌ قَلْبُهُ : مُتَحَمِّلٌ ذَنْباً شَديداً .

التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنِ الدَّيْنِ وَتَوْثيقِهِ بِكِتابَتِهِ وَالإِشْهادِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ قَدْ لا تَتَيَسَّرُ الكِتابَةُ أَوِ الإِشْهادُ وَبِخاصَّةٍ في السَّفَرِ ، فَيَقولُ اللهُ سُبْحانَهُ :

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ .

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا﴾ إِنْ كُنْتُمْ مُسافِرينَ وَتَدايَنْتُمْ دَيْناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَلَمْ

تَجدوا كاتِباً يَكْتُبُ لَكُمْ دُيونَكُمْ ، فَفي هَذِهِ الحالَةِ يُمكِنُ أَنْ تُعطوا الدَّائِنَ رَهْناً يَكونُ في يَدِهِ ، تَوْثيقاً لِدَيْنِهِ ، وَذَلِكَ كَأَنْ يَسْتَدينَ أَحْمَدُ مِنْ مُحَمَّدٍ مِائَةَ دينارٍ وَيَقولُ لَهُ خُذْ ساعَتي هَذِهِ وَاحْتَفِظْ بِها عِنْدَكَ تَوْثيقاً لِلدَّيْنِ ، فَإذا لَمْ أَسْتَطِعْ سَدادَ دَيْني ، يُمْكِنُكَ بَيْعُ السَّاعَةِ وَأَخْذُ مالِكَ .

وَلَيْسَ المَقْصودُ مِنَ الآيَةِ تَعْليقُ مَشْروعِيَّةِ الرَّهْنِ بِالسَّفَرِ ، وَعَدَمِ وجودِ كاتِبٍ يَكْتُبُ وَثيقَةَ الدَّيْنِ ، وَلَكِنَّ المُرادَ بَيانُ الرُّخْصَةِ في تَرْكِ الكِتابَةِ لِعُذْرٍ ، وَأَنَّ الرُّخْصَةَ تَقومُ مَقامَ الكِتابَةِ في الاسْتِيْثاقِ عِنْدَ عَدَمِ تَيَسُّرِها في حالِ السَّفَرِ ، فَالرَّهْنُ جائِزٌ في حالِ السَّفَرِ وَحالِ الحَضَرِ .

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ إِنِ اتُّفِقَ أَنَّ أَحَداً مِنْكُمُ ائتَمَنَ الآخَرَ عَلى شَيءٍ فَعَلى المُؤْتَمِنِ أَنْ يُؤَدّيَ الأمانَةَ إِلى مَنْ ائتَمَنَهُ ، وَلِيَكُنِ المَدينُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ الدَّائِنِ فَلا يَخونُ الأَمانَةَ ، ولا يُسوِّفُ وَيُماطِلُ في تَأْدِيَتِها ، وَلِيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ، وَذَلِكَ بِرِعايَةِ حُقوقِ غَيْرِهِ ، فَلا يَجْحَدُها وَلا يَتَأَخَّرُ في أَدائِها .

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ أَكَّدَ سُبْحانَهُ عَلى قَضِيَّةِ الشَّهادَةِ فَهُوَ هُنا يَنْهى عَنْ كِتْمانِها ، بَعْدَ أَنْ نَهى مِنْ قَبْلُ عَنْ رَفْضِ تَحَمُّلِها .

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ فَقَدْ أَمَرَ سُبْحانَهُ الكُتَّابَ وَالشُّهودَ بِأَنْ يُعينوا النَّاسَ عَلى حِفْظِ أَمْوالِهِمْ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُقَصِّروا في ذَلِكَ مِثْلَما حَرَّمَ عَلى أَصْحابِ المالِ أَنْ يُضارُّوهُمْ ، فَلا بُدَّ مِنْ تَحَقُّقِ مَصْلَحَةِ الجَميعِ . إِنَّ مَنْ كَتَمَ الشَّهادَةَ يَكونُ آثِماً قَلْبُهُ ، فَالقَلْبُ هُوَ مَوْضِعُ الإِثْمِ في هَذا الكِتْمانِ ، فَالقَلْبُ مَصْدَرُ كُلِّ إِثْمٍ ، قالَ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

فَآثامُ القَلْبِ سُوءُ القَصْدِ وَفَسادُ النِّيَّةِ ، وَهِيَ شَرُّ الذُّنوبِ وَالآثامِ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِ اللهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ عَليمٌ بِكُلِّ أَعْمالِكُمْ وَأَقْوالِكُمْ ، وَسائِرِ شُئونِكُمْ ، وَسَيُثيبُ المُحْسِنينَ وَيُعاقِبُ المُسيئينَ ، وَلِذا عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَجيبوا لأَوامِرِ اللهِ تَعالى ، وَأَنْ تَجْتَنِبوا ما نَهاكُمْ عَنْهُ .

وَبَعْدَ هَذا البَيانِ لِلطُّرُقِ الَّتي أَباحَها القُرْآنُ الكَريمُ لِلتَّعامُلِ ، وَلِلطُّرُقِ الَّتي حَرَّمَها عَلَيْهِمْ ، يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ .

يُعَقِّبُ سُبْحانَهُ عَلى تِلْكَ التَّشْريعاتِ ، بِهَذا التَّوْجيهِ ، لِيَرْبِطَ بَيْنَ تِلْكَ التَّشْريعاتِ وَبَيْنَ الخالِقِ ، بِهَذا الرَّابِطِ الَّذي يَجْمَعُ بَيْنَ الخَوْفِ والرَّجاءِ ، إِنَّهُ مالِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، المُتَصَرِّفُ فيهِما ، لا شَراكَةَ لِغَيْرِهِ في شَيءٍ مِنْها ، فَلا يُعْبَدُ سِواهُ ، وَلا يُعْصى فيما يَأْمُرُ وَيَنْهى ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يُلْزِمُ مَنْ شاءَ بِما شاءَ مِنَ التَّكاليفِ .

﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ إِنْ تُظْهِروا ما في قُلوبِكُمْ مِنَ السُّوءِ ،

وَتَعزموا عَلَيْهِ ، سَواءٌ أَكانَ بالقَوْلِ أَمْ بالفِعْلِ ، أَوْ تَكْتُموهُ ، فَإِنَّ اللهَ يُجازيكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ الأَشْياءَ الثَّابِتَةَ في أَنْفُسِكُمْ الَّتي تَصْدُرُ عَنْها أَعْمالُكُمْ كالحِقْدِ وَالحَسَدِ ، إِنَّ لِلإِنْسانِ عَمَلاً اخْتِيارِيّاً في نَفْسِهِ هُوَ الَّذي يُحاسَبُ عَلَيْهِ ، فَالهَواجِسُ وَالخَواطِرُ قَدْ تَكونُ بِغَيْرِ إِرادَةِ الإِنْسانِ ، وَلَكِنَّهُ إِذا اسْتَرْسَلَ مَعَ هَواجِسِهِ وَخَواطِرِهِ وَعَزَمَ عَلَيْها فَهُوَ يُحاسَبُ عَلَيْهِ ، وَمِثالُ ذَلِكَ المَظْلومُ الَّذي يَخْطُرُ في بالِهِ ظالِمُهُ ، وَيُشْغِلُ فِكْرَهُ في دَفْعِ ظُلْمِهِ ، وَالهَرَبِ مِنْ أَذاهِ ، وَقَدْ يَسْتَرْسِلُ في خَواطِرِهِ إِلى أَنْ تَجُرَّهُ إِلى تَدْبيرِ الحِيَلِ للإِيقاعِ بِمَنْ ظَلَمَهُ ، وَإِلى مُقابَلَةِ ظُلْمِهِ بما هُوَ شَرٌّ مِنْهُ ، فَيَكونُ مُؤاخَذاً عَلَيْها ، سَواءٌ أَبْداها أَمْ أَخْفاها .

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ ، اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلى أَصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَأَتَوْا رسولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ جَثَوْا عَلى الرُّكَبِ فَقالوا : يا رَسولَ اللهِ كُلِّفْنا مِنَ الأَعْمالِ ما نُطيقُ ؛ الصَّلاةُ وَالصِّيامُ وَالجِهادُ وَالصَّدَقَةُ ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ وَلا نُطيقُها ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « أَتُريدونَ أَنْ تَقولوا كَما قالَ أَهْلُ الكِتابِ مِنْ قَبْلِكُمْ : سَمِعْنا وَعَصَيْنا ؟ بَلْ قولوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ المَصيرُ »[1] .

إِنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنَّ العَبْدَ إِذا هَمَّ بِسَيِّئَتِهِ فَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، وَإِذا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةً ، وَلَكِنَّهُ إِذا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، وَإِنْ عَمِلَها كُتِبَتْ عَشْرَةً ، وَيُضاعَفُ لَهُ أَضْعافٌ كَثيرةٌ .

وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ نَتيجَةَ هَذِهِ المُحاسَبَةِ ؛ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ، وَيُعَذِّبُ بِعَذابِهِ مَنْ يَشاءُ أَنْ يُعَذِّبَهُ ، لا رادَّ لِمَشيئَتِهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مَشْروعِيَّةُ الرَّهْنِ لِتَوْثيقِ الدَّيْنِ حالَ السَّفَرِ وَالحَضَرِ .

٢ـ مِنْ صِفاتِ المُؤْمِنِ أَنَّهُ إِذا اؤْتُمِنَ أَدّى الأَمانَةَ وَلَمْ يَخُنْها .

٣ـ اللهُ مالِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، وَهُوَ المُشَرِّعُ لِهَذِهِ الحَياةِ ، فَلا طاعَةَ إِلاَّ لَهُ .

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح ، حديث رقم ١٣٩ .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنَّهُ لا يُحاسِبُ النَّاسَ عَلى ما يَدورُ في خَواطِرِهِمْ وَهَواجِسِهِمْ إِلاَّ ما عَزَموا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يُحاسِبُهُمْ عَلَيْهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَنِ الّذي يُقَدِّمُ الرَّهْنَ في عَقْدِ الدَّيْنِ ؟

٢ـ هَلِ الرَّهْنُ مَشْروعٌ في السَّفَرِ فقط ؟

٣ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ .

٤ـ لِمَ أَكَّدَ القُرْآنُ قَضيَّةَ الإِشْهادِ ؟

٥ـ ما صِلَةُ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بما قَبْلَها ؟

٦ـ ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ ما المَقْصودُ بـ ﴿مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ ؟ وَهَلْ يُحاسِبُ اللهُ عَلى الخَواطِرِ وَالهَواجِسِ ؟

٧ـ ما نَتيجَةُ هَذِهِ المُحاسَبَةِ مِنَ اللهِ تَعالى لِعِبادِهِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكتبْ آيَةَ الأَنْفالِ الَّتي تَنْهى عَنْ خِيانَةِ الأَمانَةِ .

* * *

الدَّرْسُ الخامِسُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الحادي والتِّسْعونَ

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا
نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا
يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ
أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا
مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

وُسْعَها : طاقَتَها .

تُؤاخِذْنا : تُعاقِبْنا .

إِصْراً : عِبْئاً ثَقيلاً .

ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ : ما يَصْعُبُ عَلَيْنا مِنَ التَّكاليفِ الشَّرْعِيَّةِ .

التَّفْسيرُ :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ .

هَذِهِ الآياتُ هِيَ خِتامٌ لِلسُّورَةِ الكَريمَةِ ، الَّتي هِيَ أَطْوَلُ السُّوَرِ القُرْآنِيَّةِ . لَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الخاتِمَةُ مُتلائِمَةٌ وَمُتَناسِقَةٌ مَعَ مُقَدِّمَةِ السُّورَةِ وَمَوْضوعاتِها ، فَكانَ في بِدايَةِ السُّورَةِ وَعْدٌ لأَهْلِ الإيمانِ بِالفَلاحِ ، وَجاءَتْ خاتِمَةُ السُّورَةِ :

١ـ بَلاغاً عَنِ نَجاحِ دَعْوَةِ الإِسْلامِ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ .

٢ـ وَفاءً بِوَعْدِها لِكُلِّ نَفْسٍ بَذَلَتْ وسْعَها في اتِّباعِها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ .

٣ـ فَتْحاً لِبابِ الأَمَلِ عَلى مِصْراعَيْهِ أَمامَ المُهْتَدينَ ، فَيَبْسُطوا أَكُفَّهُمْ مُبْتَهِلينَ لَهُ تَعالى .

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ أَي : صَدَّقَ الرَّسولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ في كِتابِ اللهِ كُلِّهِ مِنَ العَقائِدِ وَالأَحْكامِ وَالسُّنَّةِ والبَيِّناتِ تَصْديقَ إِذْعانٍ للهِ وَاطْمِئْنانٍ ، وَكَذٰلِكَ المُؤْمِنونَ مِنْ أَصْحابِهِ ـ رَضْوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ـ وَقَدْ شَهِدَ لَهُمْ بِهَذا الإِيمانِ ، ذٰلِكَ الأَثَرُ الَّذي تَرَكَهُ في نُفوسِهِمْ ، وَأَعْمالِهِمُ الصَّالِحَةِ ، لَقَدْ آمَنوا كُلُّهُمْ بِاللهِ الواحِدِ الأَحَدِ المُنَزَّهِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ، وَآمنوا بِوجودِ الملائِكَةِ الَّذينَ هُمْ سَفَراءُ اللهِ لِرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَآمَنوا بِالكُتُبِ الَّتي نَزَلَ بِها المَلائِكَةُ ، وَمَنْ ثُمَّ آمنوا بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَأَنَّهُمْ عِبادُ اللهِ اصْطَفاهُمْ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ وَخَصَّهُمْ بِالرِّسالَةِ .

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ إِنَّ مِنْ شَأْنِ المُؤْمِنينَ أَنْ يَقولوا ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ إِنَّهُمْ يَقولونَ : لا نُفَرِّقُ في الإِيمانِ بَيْنَ رُسُلِ اللهِ تَعالى ، وَإِنَّما نُؤْمِنُ بِهِمْ جَميعاً ، وَنُصَدِّقُ بِكُلِّ رَسولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى .

ثَمَّ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وَتَعالى ما يَطْلُبُهُ أُولَئِكَ المُؤْمِنونَ ، فَهُمْ يَسْأَلونَهُ المَغْفِرَةَ لَهُمْ ، مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَطْرَأَ عَلى نُفوسِهِمْ مِنْ ضَعْفٍ ، فَيَجْعَلُها تَرْتَكِبُ الذُّنوبَ ، وَمَغْفِرَةُ اللهِ ، أَيْ : سَتْرُهُ لِلذُّنوبِ ، لا تَكونُ إِلاّ بِالتَّوْبَةِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَبِذَلِكَ يُمْحى أَثَرُ الذُّنوبِ مِنَ النَّفْسِ ، وَيَرجو الإِنْسانُ أَنْ يَرْجِعَ إِلى اللهِ تَعالى ، وَقَدْ زَكَتْ نَفْسُهُ ، وَخَلُصَتْ مِنَ الذُّنوبِ .

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ .

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لا يُحاسِبُ أَحَداً إِلاّ بِما كَلَّفَهُ بِهِ ، وَمِنْ كَمالِ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ لِلبَشَرِ أَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْهُمْ إِلاَّ بِما تَسَعُهُ قُدْراتُهُمْ وَيَقْدِرونَ عَلى أَدائِهِ . وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُ سَيُجازي كُلَّ نَفْسٍ بِما عَمِلَتْ ، وَلَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ ، أَيْ لَها وَحْدَها ثوابُ مَا اكْتَسَبَتْهُ مِنْ حَسَناتٍ بِسَبَبِ أَعْمالِها الصَّالِحَةِ ، وَعَلَيْها وَحْدَها عِقابُ ما اكْتَسَبَتْ مِنَ السَّيِّئاتِ بِسَبَبِ أَعْمالِها السَّيِّئَةِ .

وَبَعْدَ بَيانِ سُنَّةِ اللهِ تَعالى في أَنَّهُ لا يُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها ، وَبِأَنَّهُ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ، خُتِمَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ بِتِلْكَ الدَّعَواتِ الجامِعَةِ لِكُلِ خَيْرٍ يَتَوَجَّهُ فيهِ المُسْلِمُ إِلى رَبِّهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فَأَنْتَ يا رَبُّ وَاسِعُ العَفْوِ والمَغْفِرةِ ، فَلا تُعاقِبْنا إِنْ نَسينا أَمْرَكَ

وَنَهْيَكَ أَوْ أَخْطَأْنا ، فَفَعَلْنا خِلافَ الصَّوابِ ، وَهَذا الدُّعاءُ يُصَوِّرُ حالَ الْمُؤْمِنينَ مَعَ رَبِّهِمْ وَإِدْراكِهِمْ لِضَعْفِهِمْ وَعَجْزِهِمْ ، وَحاجاتِهِمْ إِلى رَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ تَعالى ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ ﴾ إِنَّهُمْ يَسْأَلونَ رَبَّهُمْ أَنْ لا يُحَمِّلَهُمْ ثِقْلاً كَبيراً مِنَ التَّكاليفِ الشَّرْعِيَّةِ كَالأَثْقالِ الَّتي حَمَلَها مَنْ كانَ قَبْلَهُمْ ، حَيْثُ حَرَّمَ عَلى بَني إِسْرائيلَ بَعْضَ الطَّيِّباتِ ، وَكَتَبَ عَلَيْهِمْ قَتْلَ أَنْفُسِهِمْ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمُ السَّبْتَ أَنْ يَبْتَغوا فيهِ رِزْقاً ، أَمّا أُمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ وَضَعَ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتي كانَتْ عَلَيْهِمْ .

﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ ﴾ إِنَّهُمْ يَتَوَجَّهونَ إِلى اللهِ تَعالى بِأَنْ يَرْحَمَ ضَعْفَهُمْ فَلا يُكَلِّفُهُمْ مالا يُطيقونَ ، كَيْ لا يَعْجِزوا عَنْهُ وَيُقَصِّروا فيهِ ، فَهُوَ طَمَعُ العَبْدِ بِخالِقِهِ ، وَرَجاءُ الضَّعيفِ في سَماحَةِ المالِكِ القادِرِ عَلى كُلِّ شَيْءٍ .

﴿ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ ﴾ وَبِهَذا يَنالُ الإِنْسانُ رِضْوانَ اللهِ تَعالى ، إِذِ العَبْدُ مُقَصِّرٌ مَعَ اللهِ مَهْما حاوَلَ أَنْ يَفِيَ بِحَقِّهِ ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعالى أَنْ يُعامِلَهُ بِالْعَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَهَذا ما رَوَتْهُ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدُكُمْ بِعَمَلِهِ ، قالوا : وَلا أَنْتَ يا رَسولَ اللهِ ، قالَ : وَلا أَنا ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ »(١) .

وَيَخْتِمونَ دُعاءَهُمْ بِقَوْلِهِمْ : ﴿ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أَنْتَ مَوْلانا وَحافِظُنا وَمُعينُنا وَمَنْ تُمِدُّنا بِالخَيْرِ وَالهُدى ، نَسْأَلُكَ يا رَبَّنا أَنْ تَنْصُرَنا عَلى القَوْمِ الكافِرينَ الَّذينَ اتَّخَذوا مِنْ دُونِكَ أَوْلِياءَ ، وَجَهِلوا سُنَّتَكَ في أَنْفُسِهِمْ وَفي الكَوْنِ ، فَأَعْرَضوا عَنْكَ ، وَلَمْ يُؤْمِنوا بِأُلوهِيَّتِكَ وَوَحْدانِيَّتِكَ .

انْصُرْنا يا رَبَّنا عَلى الجاحِدينَ وَالمُرْتابينَ حَتَّى تَكونَ كَلِمَتُكَ هِيَ العُلْيا ، وَكَلِمَةُ الَّذينَ كَفَروا السُّفْلى .

وَبِهَذا نَكونُ قَدْ انْتَهَيْنا مِنْ تَفْسيرِ سُورَةِ البَقَرَةِ ، نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ يَنْفَعَنا بِها ، فَنَكونَ مِمَّنْ تُظِلُّهُمْ هَذِهِ السُّورَةُ يَوْمَ القِيامَةِ ، إِنَّهُ سَميعٌ قَريبٌ مُجيبُ الدُّعاءِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ أَرْكانِ الإيمانِ ؛ الإيمانُ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، وَعَدَمُ التَّفْريقِ بَيْنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بِالإِيمانِ ، فَتُؤْمِنُ بِهِمْ جَميعاً .

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٥٣٤٩ .

٢ـ الإِيمانُ يَعْني إِذْعانَ النَّفْسِ الكامِلِ للهِ تَعالى ، بِحَيْثُ يَحْمِلُها هَذا الإِيمانُ عَلى العَمَلِ بِأَمْرِ اللهِ تَعالى .

٣ـ وُجوبُ التَّوَجُّهِ إِلى اللهِ تَعالى بِالدُّعاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ لَمْ يُؤاخِذْها عَلى النِّسْيانِ وَالخَطَأ ، وَأَنَّهُ لَمْ يُحَمِّلْها ما حَمَّلَ الأُمَمَ غَيْرَها مِنَ الآصارِ والأَغْلالِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما صِلَةُ خاتِمَةِ السُّورَةِ الكَريمَةِ بِمُقَدِّمَتِها ؟

٢ـ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ. . . . .﴾ مَنِ الرَّسولُ الّذي آمنَ بِما أَنْزَلَ رَبُّهُ عَلَيْهِ ؟

٣ـ مَنِ القائِلُ : لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ؟

٤ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ؟

٥ـ ما الدَّعواتُ الَّتي تَوَجَّهَ بِها المُؤْمِنونَ إِلى رَبِّهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟

٦ـ هَلْ تُدْخِلُ أَعْمالُ الإِنْسانِ الصّالِحَةُ وَحْدَها صاحِبَها الجَنَّةَ ؟ بَيِّنْ ذلِكَ .

نَشاطٌ :

١ـ مَوْقِفُ المُؤْمِنينَ مِنَ الرُّسُلِ جَميعاً هو الإِيمانُ ، فَما مَوْقِفُ الكافِرينَ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارْجِعْ إِلى كُتُبِ التَّفْسيرِ ، وَاكْتُبْ مَوْضوعاً عَنْ فَضْلِ سورَةِ البَقَرَةِ ، وَفَضْلِ الآيَتَيْنِ الأَخيرَتَيْنِ مِنْها ، وَضَعْها عَلى مَجَلَّةِ المَدْرَسَةِ .

* * *

المراجع

١ـ الإتقانُ في علوم القرآن الكريم ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ .

٢ـ الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٩٤٦م .

٣ـ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي ، إدارة الطباعة المنيرية .

٤ـ تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٩٦٩م .

٥ـ تفسير القرآن الحكيم ، الشيخ محمد رشيد رضا ـ دار المنار ـ مصر ١٩٦٩م .

٦ـ في ظلال القرن ، سيد قطب ـ الطبعة الخامسة ١٩٧٠م .

٧ـ تفسير المراغي ، أحمد المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٩٦٢م .

٨ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، الدكتور محمد سيد طنطاوي ، مطبعة السعاد ١٩٧٧م .

٩ـ القصص القرآني ، أ . د . فضل حسن عباس ـ دار الفرقان .

* * *